موسوعة
خزائن العلوم الإسلامية
في ضوء القرآن والسنة

الفقير إلى مولاه
محمد بن إبراهيم بن عبد الله التويجري

الجزء الثالث

الطبعة الأولى
١٤٤٧هـ - ٢٠٢٦

دار اللؤلؤة
للنشر والتوزيع
المنصورة - مصر

موسوعة

خزائن العلوم الإسلامية

فِي ضَوْءِ القُرْآنِ وَالسُّنَّةِ

للفقير إلى عفو ربه

مُحَمَّد بن إبراهيم بن عبد الله التُّويجري

الطبعة الأولي

١٤٤٧هـ-٢٠٢٦م

الجـــزء الثـالث

دار اللؤلؤة

للنشر والتوزيع

المنصورة - مصر

كل الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولي

١٤٤٧هـ - ٢٠٢٦م

رقم الإيداع: ٣٠٨٥٢ / ٢٠٢١م

الترقيم الدولي: ٨-٢٧١-٩٩٧-٩٧٧-٩٧٨

جوال المؤلف

٠٥٠٨٠١٣٢٢٢

٠٥٠٤٩٥٣٣٣٢

بريد إلكتروني: mb_twj@hotmail.com

دار اللؤلؤة للنشر والتوزيع

@DarElollaa

Dar_Elollaa@hotmail.com

الأزهر : شارع محمد عبده خلف الجامع الأزهر .

01050144505 - 0225117747

المنصورة : عزبة عقل - بجوار جامعة الأزهر .

01007868983 - 0502357979

موسوعة

خزائن العلوم الإسلامية

في ضوء القرآن والسنة


بسم الله الرحمن الرحيم

موسوعة خزائن العلوم الإسلامية

الجزء الثالث

ويشتمل على المباحث التالية:

١٢- خزائن التفكر والتدبر

١٣- خزائن التقوى

١٤- خزائن النعم

١٥- خزائن الحمد والشكر

١٦- خزائن الابتلاء

١٧- خزائن الصبر

١٨- خزائن الفضائل

قال الله تعالى :

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا
مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا
مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾

[ق:٦-٨]

موسوعة خزائن العلوم الإسلامية

١٢ -خزائن التفكر والتدبر

القسم الأول

ويشتمل على ما يلي :

١ - الخزانة الأولى

٢ - الخزانة الثانية

٣- الخزانة الثالثة

٤ - الخزانة الرابعة

٥ - الخزانة الخامسة

٦ - الخزانة السادسة

٧- الخزانة السابعة

٨ - الخزانة الثامنة

٩ - الخزانة التاسعة

١٠ - الخزانة العاشرة

١٢-خزائن التفكر والتدبر

القسم الأول

١- الخزانة الأولى

● **فقه العقل :**

العقل : غريزة وضعها الله في قلوب المكلفين من عباده وهو شيء غيبي، كما قال سبحانه : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج:٤٦]

فالعين ترى المبصرات ، والأذن تسمع الأصوات ، والعقل يعقل المعلومات وضد العقل الجنون فالعاقل مكلف ، والمجنون غير مكلف والعقل غيبي كالروح، والعقل محله القلب ؛ كما أن السمع محله الأذن وللعقل ارتباط بالدماغ .

وبالعقل يميز الإنسان بين الخير والشر ، وبين الحق والباطل ، وبين ما ينفعه وما يضره ، إذا سلم من الهوى، فهذا حد العقل الذي خلقه الله .

وكذا حد العقل عالم الشهادة، ولا علاقة له بعالم الغيب ولا يعلم منه إلا ما يعلمه له الأنبياء ، فالعقل يستقبل الوحي، فمن لا عقل له لا تكليف عليه ، وقد رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثلاثة : « عن الصَّبِي حَتَّى يَبْلُغَ ، وَعَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ ، وَعَنِ المَجْنُونِ حَتَّى يُفِيق » أخرجه أحمد وأبو داود [1].

---

(١) صحيح/ أخرجه أحمد برقم: (٦/ ١٠٠)، وأبو داود برقم: (٤٣٩٨).

والوحي : إما خبر أو أمر والعقل مأمورٌ أن يصدق الأخبار، ويطبق الأحكام. مما جاء عن الله ورسوله .

والإيمان: أن نصدق الأخبار التي جاءت عن الله ورسوله، وننفذ الأحكام .

والصحابة كانوا يسمعون الخبر عن الله ورسوله فيصدقونه ، ويسمعون الأمر من الله ورسوله فينفذونه .

قال الله تعالى : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٨٦ ﴾ [البقرة:٢٨٥-٢٨٦] .

فمن غَير في الأخبار الشرعية عن الله ورسوله بعقله ظهرت بدع العقائد ، ومن غير في الأوامر الشرعية بعقله ظهرت بدع العبادات : ﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٢ ﴾ [آل عمران:٣٢] .

ومكان العقل في القلب ، والعقل نورٌ روحاني تُدرك به العلوم الضرورية كالواحد نصف الاثنين ، والعشرة أكثر من الخمسة ، والعلوم النظرية كالسماء فوق الأرض ، والتراب ضد الماء ، ومركز العقل في القلب الذي في الصدر، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩ ﴾ [الأعراف:١٧٩] .

وجميع ما يؤثر على الدماغ يؤثر على العقل ، فالعقل محله القلب، ولكن سلامته مشروطة دائماً بسلامة الدماغ، كسائر الأعضاء مربوطة بالدماغ، فالفقه في القلب كما أن النظر في العين، والسمع في الأذن، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾[الأعراف:١٧٩] .

والفقه النافع في القلب هو الذي يوصل لطاعة الله، والإيمان به، وخشيته جل جلاله : ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر:٩].

وقال الله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾[فاطر: ٢٨] .

وقد خلق الله بني آدم على خمس صفات :

فكل آدمي: ضعيف .. فقير .. عاجز .. محتاج .. جاهل .

وذلك ليستعين الضعيف بالقوي سبحانه، ويسأل الفقير الغني، ويستعين العاجز بالقادر، ويقف المحتاج بباب ربه الكريم، ويتعلم الجاهل من ربه العليم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾[فاطر: ١٥].

والإنسان إما أن يكون عابداً لله ، أو عابداً لعبد الله من صنم أو حجر أو إنسان أو غيرهم من المعبودات الباطلة، وكل من عبد مخلوقاً مثله، أو دونه، أو أكمل منه؛ فهو سخيف العقل ؛ لأن الكل عبيد الله، الكل مخلوق ضعيفٌ، فقير، عاجز، مملوك لرب العالمين : ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا

﴿هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣﴾[الأنعام:١٠٢-١٠٣] .

وقال الله تعالى : ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [الحج:٤٦]

والله سبحانه هو الخلاق العليم، خلق الإنسان وخلق أعضاءه ، وجعل لكل عضو وظيفة، فمحل السمع في الأذن ، ومحل البصر في العين ، ومحل الكلام في اللسان ، ومحل العقل في القلب ، والبصر في العين كالبصيرة في القلب هذا يبصر المرئيات ، وذاك يبصر المعقولات : ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾[الحج:٤٦]

فكل ما سوى الله عبادته باطله ؛ لأنه مخلوق مربوبٌ مملوك لله ﷻ.

قال الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٩٤ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ١٩٥ إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٧﴾[الأعراف:١٩٤- ١٩٧] .

وآفة أكثر الناس أنهم يعرفون الغاية الدنيا ، ولا يعرفون الغاية العليا فيجتهدون في غايات الدنيا التي تفوت مع الدنيا من فنون، وجمع مال، وتكميل شهوات ، ونحوها من الغايات القريبة الفانية .

أما العاقل فيجتهد في الوصول إلى الغاية العليا الباقية التي فيها السعادة في الدنيا والآخرة ، وهي عبادة الله وحده، وطلب رضوانه والجنة : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾[الذاريات:٥٦-٥٨] .

والغاية العليا : أن تعيش مع الحق ، وتعمل بالحق ، وتدعو إلى الحق .

والغاية الدنيا : أن تعيش مع الأسباب التي يمكن أن تثمر أو لا تثمر ، ومن تعلق بغير الله عذب به : ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ ﴾ [الشعراء:٢١٣] .

والغاية العليا حددها العلي الأعلى ، والغاية الدنيا يحددها هوى الإنسان : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾[القصص: ٥٠] .

والوصول إلى الغاية العليا يكون فقط بالسبيل الذي شرعه الله ﷻ : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾[الأنعام:١٥٣] .

مدارك العقل:

مدارك العقل الموصلة إلى الإيمان واليقين خمسة :

البديهيات .. والمحسوسات .. والمتواترات.. والتجريبيات .. والاعتراف.

فالبديهيات : الأثر يدل على المؤثر ، والبعرة تدل على البعير، وكذا الخلق يدل على الخالق سبحانه ، والرزق يدل على الرازق .

والمحسوسات: من سماءٍ وأرض ومخلوقات تدل على الخالق سبحانه الذي خلق كل شيء : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ ﴾[الزمر: ٦٢] .

والمتواترات هي : الخبر الصادق من الله ورسوله عن أسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، وآياته ، ومخلوقاته، ودينه، ووعده ووعيده.

قال الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾ ﴾[النساء: ٨٧].

والتجريبيات : لكل عمل ثمرة ولكل تجربة نتيجة .

والاعتراف سيد الأدلة، فالعقل الصحيح : يرى في هذا الكون خالقاً ومخلوقاً ، وسيدًا وعبيداً .

والعقل الصريح : لا يعارض النقل الصحيح، بل يشهد له ويؤيده، لأن المصدر واحد ، فالعقل خلقة الله، والوحي أنزله الله ، فالذي خلق العقل هو الذي أنزل إليه النقل من القرآن أو سنة ، ومن المحال أن يرسل إليه ما يفسده ، بل أرسل إليه ما يصلحه ويسعده في الدنيا والآخرة .

قال الله تعالى : ﴿ لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الأنبياء:١٠] .

ومن المحال أن يصنع أحد صنعه ، ثم يرسل معها تعليمات تفسدها ، بل يرسل معها وإليها ما يصلحها، والله ﷻ خلق الإنسان، وأنزل عليه القرآن منهج حياه يسعده في الدنيا والآخرة .

قال الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿١٠٢﴾ ﴾[الأنعام:١٠٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ ﴾[البقرة:٢ – ٣] .

والنقل الصحيح هو القرآن الكريم، وما صح عن النبي ﷺ من السنة ، فكل ما ورد في القرآن والسنة موافق للعقل الصحيح ، وليس في المنقول ما يخالف المعقول ؛ لأن المصدر واحد ، وكل ما جاء به الأنبياء لا يخالف بعضه بعضًا، ولا يخالف العقل، لأن المصدر واحد، بل كل ما جاء به نبي أكمله مَن بعده حتى ظهر الإسلام كاملاً ببعثة محمد ﷺ الذي هو خاتم الرسل، بعثه الله رحمة للعالمين إلى يوم القيامة بالدين الكامل، كما قال سُبْحَانَهُ : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾[المائدة:٣] .

والإنسان عبدُ مخلوق من مخلوقات الله ، وعمل العبد بين يدي سيده، تصديق أخبار، امتثال أمره، واجتناب نهيه ، وفعل ما يحب، واجتناب ما يكره ، وأنت عبد الله شئت أم أبيت : ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾[مريم:٩٣] .

ولكن الملك سبحانه أعطى هذا العبد الخيار بين فعل ما أمره به ، وبين فعل ما تهواه نفسه، امتحاناً وابتلاءً في هذه الدنيا .

قال الله تعالى : ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾[الإنسان:٢-٣] .

ومن حق العبودية أن تلتزم بتصديق الأخبار، وامتثال الأوامر ، ولو شاء الله لألزمك بذلك ، كما ألزم الشمس والقمر بالإنارة ، وألزم الأرض بالإنبات ، لكن الله خلق الدنيا للامتحان والابتلاء ، والابتلاء يترتب عليه الجزاء في الدنيا والآخرة :﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾[فصلت:٤٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل:٩٧] .

وقريش لما قدموا العقل على النقل خسروا الدنيا والآخرة :﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [البقرة:١٧٠] .

ولهذا كذبوا رسول الله ﷺ، لأنهم نظروا إلى المصلحة الخاصة ، مصلحة الدنيا ليبقى الرؤساء لهم السيادة، ويبقى العبيد أذلاء للسادة ، ولو أمنوا بالله ورسوله لكسبوا الدنيا والآخرة :﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [النساء:٦٦-٧٠] .

٢- الخزانة الثانية

- **حكم تقديم النقل على العقل:**

العقل :هو الغريزة التي خلقها الله في الإنسان يميز بها بين الأشياء والبدائل .

والنقل : هو الوحي من قرآن أو سنة .

وإذا حصل تعارض بين النقل والعقل فذلك لأحد سببين :

الأول : أن النقل لم يثبت .

والثاني : أن العقل لم يفهم النقل .

السلف من حيث الزمان هم : كل من عاشوا في القرون الثلاثة المفضلة الذين .

قال النبي ﷺ فيهم: « خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ » متفق عليه [1] .

وذلك إلى عام ٢٢١ هجرية تقريبًا، التي بعدها جاء بعض الخلف الذين قدموا العقل على النقل عند التعارض ، ومن حيث المنهج السلف هم من قدموا النقل على العقل .

والخلف هم من عاش بعد القرون المفضلة، حيث بدأ قرن الخلف الذين بدأ عهدهم بفتنة القول بخلق القرآن في عهد المأمون الذي حمل الناس على القول بخلق القرآن ، ومن حيث المنهج الخلف كل من قدم العقل على النقل .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم(٣٦٥١)، ومسلم برقم(٢٥٣٣) واللفظ له.

فالسلف من توفر فيهم أمران :

الأول : أن يدرك عصر خير القرون .

والثاني : أن يقدم النقل على العقل عند التعارض .

والخلف : من لم يدرك عصر خير القرون .

والثاني : من قدم العقل على النقل عند التعارض .

ومن جاء بعدهم وقدم النقل على العقل عند التعارض ، فهذا على منهج علماء السلف ، فابن تيمية وابن القيم من السلف منهجاً، ومن الخلف زمناً ، والإمام مالك والشافعي من السلف زمناً ومنهجاً ، والجهم ابن صفوان من الخلف منهجاً، لكنه عاش في عصر السلف .

فالسلف يقدمون النقل على العقل عند التعارض ، والخلف يقدمون العقل على النقل عند التعارض، وحجتهم أن العقل أصلٌ في ثبوت النقل ، فلولا العقل ما ثبت النقل، فالقواطع العقلية مقدمة على الثوابت النقلية عند التعارض .

والصحيح أن العقل أصل في العلم بالنقل ؛ لأن النقل ثابت قبل وجود العقل ، فالنقل ثابت في اللوح المحفوظ قبل وجود العقل المخلوق: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾﴾[الواقعة:٧٧-٧٨] .

فالعقل يستفيد من معرفة النقل ؛ لأن النقل ثابت قبل وجود العقل ، والعقل مطية للنقل ؛ لأن النقل هو القائد ، ومن يحكم على الأشياء بالحسن أو القبح العقل أم النقل ؟ ، ومتى نقدم العقل على النقل ؟ فالشرع يأمر بكل حسن، وينهى عن كل قبيح ، والقوانين الوضعية يضعها من له مصلحة في وضعها ، أما الشرع فمصلحته لمن اتبعه، فالحسن والقبح مرجعه إلى النقل لا إلى العقل في كل أمر ، والعقل يؤيد الشرع .

فالأحكام التكليفية خمسة :

الواجب .. والمستحب .. والمحرم .. والمكروه .

الحكم فيها للنقل، والعقل يؤيد النقل فيما أمر به، أو نهي عنه .

أما المباح فيستوي فيه الفعل والترك ، ولا ثواب على فعله ، ولا عقاب على تركه ، فالقيادة فيه للعقل، والنقل تابع ومؤيد .

فالأربعة الأولى :

الواجب .. والمستحب .. والمحرم .. والمكروه .

القيادة فيها للنقل، والعقل تابع ومؤيد .

أما المباحات كالصناعات والزراعة والتجارة ونحوها ، فهنا يقدم العقل، والنقل يؤيده في تحقيق المصالح، ودرأ المفاسد، في ضوء القرآن والسنة .

- **طريق معرفة الله جل جلاله:**

معرفة الله تحصل للعبد بالعقل والنقل، فآيات الله ومخلوقاته تُعرف بالعقل، وأسماء الله وصفاته وأفعاله تُعرف بالنقل، كما قال سبحانه: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحشر:٢٢-٢٤] .

ومن قدم العقل على النقل في باب الأخبار وقع في بدع العقائد ، ومن قدم العقل على النقل في باب الأحكام وقع في بدع العبادات، وهذا كله مردود .

قال النبي ﷺ : « مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ »متفق عليه[1] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٢٦٩٧) واللفظ له، ومسلم برقم: (١٧١٨) .

ومن قدم النقل على العقل في باب الأخبار والأحكام فقد أصاب الحق وسلم من البدعة، فالإيمان تصديق وتطبيق ، تصديق الأخبار، وتطبيق الأحكام ، تصديق الأخبار، وتنفيذ الأوامر: ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣ ﴾[العصر:١-٣].

والدين أمانه لابد من العمل به ، وإبلاغه عقيدة وأحكاماً إلى الناس كما قال سبحانه : ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٥٢ ﴾[إبراهيم:٥٢] .

والوحي الإلهي إما أخبار أو أوامر ، والمؤمن حقاً من صدق الأخبار التي جاءت عن الله ورسوله، ونفذ أوامر الله ورسوله ﷺ: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ۝٤ ﴾[الأنفال: ٢ – ٤] .

والخبر هو: ما يحتمل الصدق أو الكذب ، ويتطلب منا التصديق؛ لأنه جاء من جهة صدق، جاء عن الله ورسوله: ﴿ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝١١٥ ﴾[الأنعام: ١١٥] .

وقال الله عز وجل: ﴿ وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ۝٣٣ ﴾[الزمر:٣٣].

والأمر : مالا يحتمل الصدق ولا الكذب ويتطلب التطبيق ، والصحابة إذا سمعوا خبراً عن الله ورسوله صدقوا به، وإذا سمعوا أمراً نفذوه، وإن سمعوا نهياً اجتنبوه: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ۝٧١ ﴾[الأحزاب: ٧١].

والتصديق : هو اليقين الكامل، المنافي للشك .

- **فقه اليقين:**

واليقين هو: امتلاء القلب بالإيمان ، وهذا هو علم اليقين ، وكل ما سمعناه عن الله ورسوله من أخبار فهي من علم اليقين .

والوهم والشك والظن ضد اليقين ، والمؤمن يضعف يقينه، لكن لا يزول إيمانه ؛ لأن الإيمان يزيد وينقص ، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية .

فالوهم أن يكذب الخبر ، والشك أن يترد د بين الصدق والكذب ، والظن أن تصدق تصديقاً غير جازم ، واليقين أن تصدق الخبر تصديقاً جازماً، وبالصبر واليقين تنال الامامة في الدين: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [السجدة:٢٤] .

فاليقين من أعظم شروط لا إله إلا الله .

ومراتب اليقين ثلاث على الترتيب :

علم اليقين .. عين اليقين .. حق اليقين .

والأنبياء والصحابة وصلوا في يقينهم إلى حق اليقين، وهو أعلى درجات اليقين، ولهذا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ورضوا عنه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾ ﴾ [البينة: ٧ – ٨]

ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم بعد إيمانهم على أحوال .

فقد كانوا شر القرون بالجاهلية فصاروا بالإيمان والإسلام خير القرون، وكانوا شر أمة، فكانوا بالإيمان خير أمة، وانتقلوا من الشرك إلى التوحيد، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن الجهل إلى العلم، ومن الفرقة إلى الوحدة، ومن الظلم والعدوان والطغيان إلى العدل الإحسان، فرَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ،

ورضوا عنه: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾[التوبة:١٠٠] .

أركان الإيمان بالله عز وجل:

الإيمان ركنان :

تصديق الأخبار .. وتطبيق الأحكام .

وأركان الإيمان ستة:

أَن تؤمن بِاللَّهِ ، وَمَلَائِكَته ، وَكتبه وَرُسُله ، وَالْيَوْم الآخر ، وَالْقدر خَيره وشره .

وهذا هو الركن الأول ، تصديق الأخبار التي جاءت عن الله ورسوله ، فتؤمن بالله العظيم، الذي أنزل ملائكته الكرام، بكتبه العظيمة، إلى رسله ؛ ليأمروا الناس بعبادة الله وحده، واجتناه عبادة ما سواه ، وليحذروا الناس مما سيحدث في اليوم الآخر .

فإذا انتهى الناس إلى منازلهم في الجنة والنار، فقد ظهر قدر الله وحكمته بعباده ، وظهر عدل الله في الثواب والعقاب، وتم قدر الله الذي كتبه في اللوح المحفوظ ، وظهر عدل الله فيمن عذبه من الكفار ، وظهر فضله على من آمن به من المؤمنين ، وهذا سر ترتيب أركان الإيمان الستة .

فهذا هو الركن الأول : تصديق الأخبار من الله ورسوله .

أما الركن الثاني : وهو تطبيق الأحكام والأوامر .

فالأوامر لا تحتمل الصدق والكذب ، وإنما هي طلب فعل أو ترك ممن آمنت به ، فالخبر يتطلب التصديق ، والأمر يتطلب التطبيق والتنفيذ ، فمن

صدق الخبر، ولم ينفذ الأمر، فليس بمؤمن:﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾[النور:٦٣] .

باب الخبر له ستة أركان، لابد من الإيمان بها، وتصديقها، وهي أركان الإيمان الستة .

وباب الأمر له ثلاثة أركان :

اعتقاد القلب .. وقول اللسان .. وعمل الجوارح .

فهذا هو توحيد العبادة ، وتوحيد الألوهية ، وتوحيد الإرادة .

فتوحيد العبادة: طاعة الخالق فيما أمر به، مع كمال الحب والتعظيم والذل له.

وتوحيد الربوبية : تصديق الأخبار التي جاءت عن الله ورسوله ، فيما يتعلق بأسمائه وصفاته وأفعاله .

فأركان الإيمان بالأخبار ستة ، وأركان الإيمان بالأوامر ثلاثة :

- الاعتقاد بالقلب .
- القول باللسان.
- العمل بالجوارح .

وهذا هو توحيد العبودية التي هي أركان الإسلام الخمسة :

شهادة أن لا إلا الله وأن محمداً رسول الله .. واقام الصلاة .. وإيتاء الزكاة .. وصوم رمضان .. وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً .

- **فقه التوحيد:**

علم التوحيد هو أول علم، وأعظم علم، يجب على العبد تعمله ، كما قال سبحانه : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾[محمد: ١٩] .

والتوحيد : أن توحد الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، وتوحده بالعبادة، فتعبده وحده لا شريك له ، ويسمى التوحيد علم العقيدة .

والعقيدة هي : عقد القلب على تصديق خبر الرب ، وتنفيذ أمره، والإيمان به إيماناً لا يقبل الشك، مع الثبات عليه إلى الممات .

والتوحيد قسمان :

توحيد الربوبية .. وتوحيد الألوهية .

وتوحيد الألوهية : يسمى توحيد العبادة ، وتوحيد الغاية ، وتوحيد القصد والطلب ، وتوحيد الشرع والقدر ، وتوحيد الإرادة : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾[الذاريات:٥٦] .

وسمي توحيد الإرادة لأنه توافقت إرادة العبد مع إرادة الرب الكونية ومع إرادة الله الشرعية ، ويسمى توحيد القدر والشرع، لأن العبد لا يُسلم إلا بالإيمان بالقدر والعمل بالشرع .

أما توحيد الربوبية : فيسمى توحيد الوسيلة ، وتوحيد المعرفة والإثبات، وتوحيد الربوبية والأسماء والصفات ، فتوحيد الربوبية وسيلة لتوحيد العبادة : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾[الأنعام:١٠٢] .

٣- الخزانة الثالثة

- **صفات أولي الألباب والعقول :**

أولوا الألباب:

هم الذين عرفوا الله بأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وعرفوا عظمة ملكه وسلطانه، وعرفوا دينه وشرعه، وعبدوه جل جلاله بما جاء عن رسوله ﷺ :

﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الرعد:١٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾ [الزمر:١٧-١٨].

أولو الالباب هم أهل التفكر والتدبر.

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران:١٩٠ -١٩١] .

وقال الله تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ [الزمر:٩].

فأصحاب العقول السليمة هم الذين آمنوا بالله ورسوله ، والله ﷻ خصهم بمزيد من المعرفة وآتاهم الحكمة .

قال الله تعالى : ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾[البقرة:٢٦٩] .

وهم أهل التقوى والخشية : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾[فاطر: ٢٨] .

أولوا الألباب والعقول : هم الذين يعلمون أسرار وأحكام الله ﷻ .

فحكم الله نوعان :

الأول : حكم شرعي:

وهو وحيه الذي أرسله إلى عباده يحكم بينهم، كما قال سبحانه : ﴿ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾[الممتحنة:١٠] .

الثاني : حكم قدري:

وهو ما قضى به على عباده قدراً، من شدة ورخاء، وصحة ومرض، وفرح وحزن، وغنى وفقر ونحو ذلك، كما قال سبحانه : ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾[يوسف:٨٠].

والفرق بين الحكم الشرعي والقدري :

أن الشرعي : لا يلزم وقوعه ممن حُكم عليهم به ، ولهذا انقسم بنو أدم إلى مطيع وعاص لأمر الله الشرعي، كما قال سبحانه : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ﴾[الكهف:٢٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾[النحل:٣٦] .

وأما حكم الله القدري :

فهو نافذ في عباده على كل حال، فلا معارض له ، ولا يخرج عنه أحد .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾[يس:٨٢-٨٣] .

أولوا الألباب والعقول :

هم أهل الفقه الأكبر الذين يعلمون خطاب الله ﷻ، ويمتثلون أمره؛ ويفهمون مراده، فالسجود لغير الله إذا كان بأمر الله فهو عباده ؛ لأن لله أن يحكم بما يشاء في ملكه، فالملك ملكه والخلق خلقه ، ولهذا لما أمر الله بالسجود لآدم فسجد الملائكة ، وامتنع إبليس عن السجود كان من الكافرين ؛ لأنه خالف أمر الملك الذي يجب طاعته .

فالملائكة نظروا إلى أمر الملك، وإبليس نظر إلى المسجود له وهو آدم ، وقال أنا خيراً منه فأبي واستكبر : ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾[البقرة:٣٤] .

والمحرم إذا أمر الله به كان عباده ، فقتل الابن من كبائر الذنوب، ولكن لما أمر الله إبراهيم ﷺ بذبح ابنه إسماعيل، كان الامتثال للمحرم عباده ، وتركه معصية ولكن رحم الله إبراهيم وابنه إسماعيل بدفع القتل عنهما، لكمال طاعتهما، واستسلامهما لأمر الله، كما قال سبحانه : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾[آل عمران: ١٠٧]

وقال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا

كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١١﴾ ﴾[الصافات/ ١٠٢- ١١١] .

- **أسباب الكفر:**

الكفر يدور على شيئين :

إما كفر استكبار .

وإما كفر جحود .

فكفر إبليس كفر استكبار، لأنه مقر بالله ؛ لكنه استكبر على أمر الله بعدم السجود لمن يرى أنه أقل منه : ﴿ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ﴿٦١﴾ ﴾ [الإسراء:٦١]

وكفر فرعون وقومه كفر جحود، كما قال سبحانه : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[النمل:١٤] .

وبسبب كفرهم أهلكهم الله: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾[الزخرف:٥٥] .

هذا في الدنيا، وفي الآخرة : ﴿ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾[غافر: ٤٦] .

٤ - الخزانة الرابعة

أقسام العقول :

العقل ينقسم إلى قسمين :

الأول : عقل تكليف، وضده الجنون ، فالعاقل مكلف باستقبال الوحي والعمل به ، أما المجنون فلا تكليف عليه لأنه مرفوع عنه القلم .

الثاني : عقل رشد، وضده السفه، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾[البقرة:١٣٠] .

والعقل سمي عقلاً؛ لأنه يعقل صاحبه عن سوء التصرف ومساوئ الأخلاق ، وسمي العقل حجراً ؛ لأنه يمنع صاحبه من فعل ما لا يليق شرعاً أو عرفًا، كما قال سبحانه : ﴿ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ۝٥ ﴾[الفجر:٥] .

والعقل غير الذكاء ، وإذا مَن الله على الإنسان بالذكاء والعقل تمت عليه نعمة الله : ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢٦٩ ﴾[البقرة:٢٦٩] .

وقد يكون الإنسان ذكياً، وليس بعاقل ، أو عاقلاً وليس بذكي ، والإنسان بلا عقل قشر بلا لب ، وأولوا الألباب هم أصحاب العقول ؛ لأنهم عرفوا الخالق وعبدوه بموجب هذه المعرفة .

وجميع الكفار وإن كانوا أذكياء فليسوا بعقلاء : ﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝٢٢ ﴾[الأنفال:٢٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۝٤٤ ﴾ [الفرقان:٤٤] .

أما أولياء الله ﷻ :

فهم الذين عرفوا الله، وآمنوا به، واتقوه، وعبدوه، وأطاعوه ، فأولياء الله هم أهل العقول الذين حققوا الإيمان في قلوبهم بكل ما يجب الإيمان به ، وحققوا العمل الصالح في جوارحهم فاتقوا جميع المحارم بعدم ترك الواجبات أو فعل المحرمات ، فهم جمعوا بين صلاح الباطن بالإيمان ، وصلاح الظاهر بالتقوى:﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾[يونس:٦٢-٦٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران:١٩٠ -١٩١] .

- **أمراض القلوب والعقول:**

عقول البشر كالأبدان تُصاب بمرضين ، ومرض القلوب نوعان :

أحدهما : مرض شبهة .

وهو مرض القلب بالكفر والشرك والنفاق كما قال الله عن المنافقين: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾[البقرة: ١٠] .

الثاني : مرض شهوة.

وهو ميل القلب من الإيمان والتقوى، إلى الفجور والمعاصي وما لا ينبغي كمن يهوى الفجور والزنا، كما قال سبحانه : ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ

مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾ [الأحزاب:٣٢] .

والعقول خلقها الله ﷻ لمعرفته بآياته ومخلوقاته .

- **والعقول تعرف الخالق من جهتين :**

الأولى: معرفة الخالق، ثم التوسل بمعرفته إلى معرفة مخلوقاته، وهذا هو الطريق الأشرف الأعلى، كما قال سبحانه : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص:١-٤] .

وقال الله تعالى : ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾ [الحشر:٢٢] .

والثانية: عكس ذلك ، فمن الناس من عرف المخلوقات، ثم توسل بمعرفتها إلى معرفة خالقها، وهذا هو الطريق الأكثر ، فبهذا العقل يتوصل الإنسان من معرفة المخلوق إلى معرفة الخالق ، ومن معرفة الصور إلى معرفة المصور ، ومن معرفة الأرزاق إلى معرفة الرازق ، كما قال سبحانه : ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ [ق:٦-٨] .

وقال الله تعالى : ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس:١٠١] .

وأكمل أنواع التزكية هو تطهير القلب من ظلمة الكفر والشر إلى التحلي بالتوحيد والإيمان والتقوى: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ ﴾ [الأعلى:١٤-١٥] .

ومراتب أعمال المكلف ثلاث:

الأولى : إزالة العقائد الفاسدة عن القلب .

الثانية : ثم تزكيته بمعرفة الله وأسمائه وصفاته وافعاله .

ثالثًا : ثم الاشتغال بعبادته وحده لا شريك له ، فمن استنار قلبه بمعرفة جلال الله ظهر الخشوع والتواضع والانكسار على جوارحه.

قال الله تعالى : ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ ﴾ [الأعلى:١٤-١٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الأنعام:١٠٢] .

ودلائل التوحيد والإيمان في الكون بعدد الذرات، وجميع المخلوقات .

فوا عجباً كل العجب من الشاك في الله وهو يرى خلقه العظيم ، وعجباً ممن عرف النشأة الأولى، ثم هو ينكر النشأة الآخرة ، وعجباً ممن ينكر البعث والنشور، وهو يرى في كل يوم من يموت ويحيا، باليقظة والمنام، في عالم النبات، وعالم الحيوان، وفي عالم الإنسان: ﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج:٤٦]

وعجباً ممن يؤمن بالجنة، وما فيها من النعيم، ثم يسعى لدار الغرور، وينشغل بها عن الدار الآخرة .

وعجباً أشد العجب من المتكبر الفخور، وهو يعلم أن أوله نطفة قذرة ، وآخره جيفة نتنة، وهو عورة، خرج من عورة، ودخل في عورة، ثم خرج من عورة ، وهو في الدنيا عورة إلا إذا لبس لباس الإيمان والتقوى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦ ﴾ [الأعراف: ٢٦] .

وعجباً ممن عرف الهدى، كيف يتبع الهوى ، وعجباً ممن عرف الرحمن كيف يطيع الشيطان: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦ ﴾ [الحج:٤٦]

- **فقه التفكر والتدبر :**

خلق الله جل جلاله هذا الإنسان بيده ، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شيء، وجعله مستعداً للإيمان والكفر، وللطاعات والمعاصي، وللخير والشر :﴿ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ٢ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ٣ ﴾ [الإنسان:٢-٣] .

- **والله عز وجل خلق في كل إنسان ثلاث أواني :**

الأولى: آنية الطعام والشراب وهي المعدة، ويشترك فيها مع البهائم .

والثانية : آنية المعلومات وهي الدماغ، ويشترك فيها الكفار .

والثالثة : آنية الإيمان وهي القلب، ويشترك فيها مع الملائكة .

وأمر سبحانه ألا يوضع في الأولى إلا ما ينفعها ويصلحها من الطيبات التي أحلها الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢ ﴾ [البقرة:١٧٢] .

وخلق سبحانه العقل والدماغ والمخ وأمرنا باستعمالها حسب أمره ، للتفكر في عظمة الله، وجلاله وجماله، وإحسانه، وآياته ومخلوقاته واستقبال الوحي ، والعمل بموجبه، وتعليمه، والدعوة إليه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢ ﴾[البقرة:٢١- ٢٢]

وخلق سبحانه القلوب وجعلها محل الإيمان والكفر، ومحل التقوى والفجور وأمرنا بالتفكر في الآيات الكونية، والتفكر والتدبر للآيات القرآنية ، ليزيد الإيمان في القلب، فتأتي الطاقة الإيمانية التي تحرك الجوارح بأنواع الطاعات وتأتي المحبة والرغبة للقيام بأعمال الدين، وامتثال أوامر الله في جميع الأحوال: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤ ﴾[الأنفال:٢- ٤].

فإذا تزين العبد بالإيمان والطاعات أسعده الله في الدنيا والآخرة ، وإن كفر وأعرض عن دين الله شقي في الدنيا والآخرة ، فلله عز وجل على كل عبد في كل عضو من أعضائه أمر، وله عليه فيه نهي، وله فيه نعمة، وله به منفعة ولذة : ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١ ﴾[الذاريات:٢١] .

فإذا قام العبد لله في ذلك العضو كاليد أو الرجل أو السمع أو البصر، إذا قام العبد لله بذلك العضو بأمره، واجتنب فيه نهيه، فقد أدى شكر نعمته عليه فيه

وسعى في تكميل انتفاعه ولذته به: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل: ٤٠] .

وإذا عطل أمر الله في ذلك العضو ، عطله الله من الانتفاع بذلك العضو، وجعله من أكبر أسباب ألمه ومضرته: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١٢٣-١٢٦].

ولله ﷻ على كل عبد، في كل وقت من أوقاته، عبودية تقدمه إليه ، وتقربه منه ، وتحببه إليه :﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام:١٦١-١٦٣] .

فإذا شغل العبد وقته بعبودية ذلك الوقت تقدم إلى ربه، ونال رضاه، وإن شغله بهوى وراحة وبطالة تأخر فخاب وخسر:﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾[العصر:١-٣].

وجعل سبحانه كل عضو من أعضاء الإنسان آلة لشيء، إذا اُستعمل فيه فهو كماله فالعين آلة للنظر ، والأذن آلة للسمع ، والأنف آلة للشم ، واللسان آله للنطق ، والرجل آله للمشي ، واليد آلة للبطش ، والفرج آلة للنسل ، والعقل آلة للتفكر والتدبير ، والقلب للتوحيد والإيمان والمعرفة .

فالعقل للتفكر والتدبير والتذكر، وإيثار ما ينفع على ما يضر، وتقديم المصالح، ودرأ المفاسد والتمييز بين البدائل و اختيار الأفضل: ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨ ﴾[النحل: ٧٨] .

والعبد كالشجرة آلة للعمل والإنتاج، فمتحرك بطاعة، ومتحرك بمعصية، وداعٍ إلى الخير، وداعٍ إلى الشر وحامل مسك، وحامل روث: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ٤ ﴾[الليل:٤] .

ولا يزال العبد في تقدم أو تأخر ، فإما متقدم إلى الله والجنة بالإيمان والتقوى، أو متأخر إلى العذاب والنار بالكفر والفجور، ولا وقوف في الطريق البتة فقد أنزل الله كتبه، وأرسل رسله: ﴿ نَذِيرٗا لِّلۡبَشَرِ ٣٦ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ٣٧ ﴾[المدثر:٣٦- ٣٧] .

٥- الخزانة الخامسة

- **أعظم الأوامر في القرآن:**

الله ﷻ أمر في القرآن العظيم بأمرين عظيمين :

الأول : العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله كما قال سبحانه : ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴿١٩﴾ ﴾ [محمد: ١٩] .

الثاني: الأمر بعبادة الله وحده، واجتناب عبادة ما سواه بموجب تلك المعرفة ، كما قال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ

- **أعظم أنواع التفكير:**

أعلى الفكر والتدبر والنظر، وأجله ، وأعظمه، وأنفعه ، وأكبره وأشرفه، ما كان لله والدار الآخرة .

فما كان لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أنواع :

أحدها: التفكر في أسماء الله وصفاته وأفعاله ، ومعرفة عظمة الله، وجلاله، وجماله، وكماله من خلال ذلك، والتعبد لله ﷻ بموجب ذلك، كما قال سبحانه عن نفسه : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [البقرة:٢٥٥] .

وقال ﷻ عن نفسه : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾[الحشر:٢٢-٢٤] .

وقال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾ ﴾[الطلاق:١٢] .

الثاني : التفكر في آيات الله الكونية، والاعتبار بها ، والاستدلال بها على أسماء الله وصفاته وأفعاله، وحكمته وإحسانه، وبره وجوده، وعبادة الله ﷻ بموجب ذلك : ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾[يونس:١٠١] .

وقال الله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾ [ق:٦ -٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾[يونس:٣١-٣٢].

الثالث: التفكر في آيات الله المُنزلة، وتدبرها، وفهم المراد منها ، فالله عظيم ، وكتابه عظيم ، وكلامه عظيم : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾[النساء:٨٢].

وقال الله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد:٢٤] .

والقرآن أخبار وأوامر، وواجب المؤمن تصديق الأخبار ، وامتثال الأوامر واجتناب النواهي: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [فصلت:٤١ – ٤٢] .

الرابع : التفكر في آلاء الله وإحسانه، وإنعامه على خلقة بأصناف النعم ومعرفة سعة رحمته، ومغفرة، وحلمة، وعبادة الله ﷻ بموجب ذلك: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم: ٣٢ – ٣٤] .

ونعم الله على خلقه ليس لها حد: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [النحل: ١٧ – ١٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النحل: ٥٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الحجر:٤٩-٥٠] .

ودوام الفكر والذكر فيما سبق يزيد الإيمان، ويملأ القلب بالتوحيد والإيمان ، ويصبغ القلب والجوارح بما يحبه الله ويرضاه ، ويملأ القلب بمعرفة الله، ومعرفة عظمته، وجماله، وجلاله، وكماله ، فيصبغه صبغة تامة،

وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء :﴿ صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾[البقرة:١٣٨].

الخامس : الفكر في عيوب النفس وآفاتها، وعيوب الأعمال وآفاتها .

فالله خلق الإنسان ضعيفاً فقيراً عاجزاً ليتصل بربه الغني القوي القادر الذي بيده ملكوت كل شيء:﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴾[الكهف: ١١٠] .

السادس : الفكر في واجب الوقت ووظيفته، وجمع الهم كله عليه ، فجميع مصالح الدنيا والآخرة إنما تنشأ من حفظ الوقت، ومن أضاعه أضاع مصالحه الدنيوية والأخروية .

ووقت الإنسان هو عمره في الحقيقة، فما كان من وقته لله وبالله فهو حياته وعمره وورود الخاطر لا يضر ، وإنما يضر استدعاءه ومحادثته والانشغال بذلك عن الله وعن أوامره : ﴿ قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾[الأنعام:١٦١-١٦٣] .

فحفظ الوقت هو رأس مال المسلم، فمن حفظه بالإيمان والتقوى والأعمال الصالحة ربح، ومن ضيعه باللهو واللعب خسر، كما قال سبحانه : ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴿٣﴾ ﴾[العصر:١-٣].

واستدعاء خواطر اللهو واللعب أخف شيئاً على النفس الفارغة ، وأثقل شيء على النفس الشريفة المطمئنة التي عرفت الله ووجدت كمال اللذة في طاعة الله وعبادته بما شرع : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف: ١١٠] .

التفكر في خلق الإنسان:

الله ﷻ خلق الإنسان في أحسن تقويم ، كما قال سبحانه : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾ ﴾[التين:٤-٨] .

وقد خلق الله هذا الإنسان، وخلق فيه طاقات كثيرة ينتفع بها أهمها :

الطاقة البدنية .. والطاقة العقلية .. والطاقة الروحية .. والطاقة التناسلية .

فالأولى : للحركة .

والثانية : للعلم .

والثالثة: للإيمان .

والرابعة : للإنجاب .

ومكان الأولى: في الأعضاء والجوارح .

ومكان الثانية: في المخ والدماغ .

ومكان الثالثة : في القلب .

ومكان الرابعة : في الجهاز التناسلي .

قال الله تعالى : ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[الذاريات:٢١] .

ولابد للمسلم من الاستفادة من هذه الطاقات للدين .

وجميع هذه الطاقات تبدأ ثم تقوى ثم تضعف ثم تنتهي بالموت ، إلا الطاقة الروحية فإنها تبدأ في الحياة، وتبقى بعد الموت مُنعمة أو مُعذبة ؛ ولكنها في الدنيا معارضة بالنفس امتحانًا وابتلاءً، فالنفس تريد تكميل الشهوات، والروح بما فيها من الإيمان تريد تكميل أوامر الله ﷻ .

والنفس تريد تكميل محبوباتها من المأكل والمشرب والمنكح والمركب والمسكن، والروح تريد تكميل محبوبات الرب من الإيمان والتقوى وسائر أنواع الطاعات .

فالروح تريد تكميل أوامر الله ومحبوباته، والتشبه بالملائكة في الطاعة والعبادة؛ لأنها أطمئنت بذكر الله فأقبلت على طاعته وعبادته، ومحبته وتكبيره : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ٢٩ ﴾[الرعد: ٢٨ – ٢٩] .

وحال الإنسان وحركته مقيدة إما بنفسه وشهواته، وإما بإيمانه وأعماله الصالحة : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا ٥٩ ﴾[مريم:٥٩] .

والمسلم أعقل خلق الله على الإطلاق ؛ لأنه عرف ربه، وآمن به واتقاه، وعمل بما يحبه ويرضاه ؛ لأنه عرف الرب الذي يجب أن يُطاع فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر، وأن يعبد وحده لا شريك له .

فالمؤمن أعقل خلق الله على الإطلاق:﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ﴾

ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[الأنفال:٢- ٤].

وقال الله تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ [الزمر:٩].

وقال الله تعالى : ﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الرعد:١٩] .

والكافر والمشرك أسفه خلق الله على الإطلاق ؛ لأنه لم يستعمل الطاقة التي أعطاها الله ﷻ إياها في معرفة ربه، وأسمائه، وصفاته، وافعاله، وملكه وسلطانه، ودينه وشرعه ، واشتغل بشهواته عن أوامر ربه : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان:٤٤] .

ومن عطل تلك الطاقات فمصيره إلى جهنم: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾[الأعراف:١٧٩] .

٦ - الخزانة السادسة

فقه البصيرة:

المسلم لابد أن يعبد الله على بصيرة، والبصيرة نور يقذفه الله في القلب يرى به العبد حقيقة ما أخبرت به الرسل كأنه يشاهده رأي عين، فيعبد الله كأنه يراه، بكمال الحب والتعظيم والذل لله عز وجل: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنعام: ١٠٤] .

والبصيرة ثلاثة أقسام من استكملها فقد استكمل العبودية:

الأولى : بصيرة العبد في أسماء الله وصفاته وأفعاله .

قال الله تعالى : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾ [محمد: ١٩] .

والثانية : بصيرة في أمر الله ونهيه ، فهو يصدق أخبار الله ﷻ، ويطبق أحكامه بامتثال الأوامر، واجتناب النواهي .

قال الله تعالى : ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ [الحشر: ٧] .

الثالثة : بصيرة في وعد الله ووعيده ، فيعرف ما للمؤمن من الجنة والرضوان ، وما للكافر من سخط الله وعذاب النار .

قال الله تعالى : ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [البقرة:٣٨-٣٩] .

والبصيرة في الأسماء والصفات :

أن يشهد قلبك الرب تعالى مستوياً على عرشه ، متكلماً بأمره ونهيه، بصيراً بحركات العالم علوية وسفلية، أشخاصه وذواته ، ناطقه وصامته ، ساكنه ومتحركة، سميعاً لأصوات الخلائق، رقيباً على ضمائرهم، مطلعاً على أسرارهم، ويشهد أمر الممالك والخلائق تحت تدبيره، نازلاً من عنده، صاعداً إليه: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [يونس:٣١-٣٢].

ويشهد ملائكته بين يديه تنفذ أوامره في أقطار السموات والأرض، موصوفاً بصفات الكمال والجلال والجمال ، منزهاً عن العيوب والنقائص والمثال ليس كمثله شيء وهو السميع البصير حيٌّ قيوم ، حي لا يموت قيوم لا ينام له الخلق والأمر يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد: ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [غافر:٦٥].

والبصيرة في الأمر والنهي :

ألا يقوم بقلب العبد شبهة تعارض العلم بأمر الله ونهيه ، ولا شهوه تمنع من تنفيذ وامتثال أوامره ، ولا تقليدٍ يريحه من بذل الجهد في تلقي الأحكام من النصوص .

والبصيرة في الوعد والوعيد : أن تشهد قيام الله على كل نفس بما كسبت من الخير والشر في دار العمل، وفي دار الجزاء ، وذلك موجب إلهيته وربوبيته

وعدله وحكمته، فالمعاد معلومٌ بالعقل ، وإنما اهتدي الناس إلى تفاصيله بالوحي .

وتشهد أهل الجنة يتنعمون فيها، وأهل النار يعذبون فيها ، ولا يزال نور البصيرة في زيادة، حتى يُرى على الوجه والجوارح ، وعلى الكلام والأعمال ، وعلى الأخلاق والصفات : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾[القيامة:٢٢ -٢٣] .

صاحبه متصلاً بالله، مستضيئاً بنور الوحي، مستنيراً بنور الإيمان، متزيناً بالسنن والآداب والأخلاق ، يميز به بين الحق والباطل، وبين الصدق والكذب، وبين الطيب والخبيث ، ويميز به بين ما يحبه الله ويرضاه، وبين ما يبغضه ويسخطه، من الأقوال والأعمال والأخلاق والأعيان: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾[الأنعام: ١٢٢] .

في كل إنسان ثلاث قوى :

قوة البدن .. قوة العقل .. قوة القلب .

قوة البدن : يشترك فيها الإنسان مع الحيوان .

قوة العقل : يشترك فيها المسلم والكافر .

وقوة القلب خاصة بالمسلم، وهي مكان دعوة الرسل، ومكان الإيمان والتوحيد، فالرسل اجتهدوا على قلوب البشر حتى امتلأت بتوحيد الله وعظمته ومحبته، والخوف منه، والتلذذ بعبادته وطاعته، والإيمان به، وكانوا خير الناس .

فعلى المسلم أن يتقيد بأوامر الله، ويستفيد من هذه الطاقات التي أعطاها الله له، وسخرها له، ويسخرها للدين لتصلح حاله وأحوال العالم من حوله : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحديد: ١٦ – ١٧] .

أعظم العلوم التي أمر الله بها هي العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله ، وخزائنه ووعده ووعيده : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾ [محمد: ١٩] .

فالكون مملوء بشواهد التوحيد: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الطلاق:١٢] .

وأعظم العبادات التي أمر الله بها هي التفكر في الآيات الكونية التي خلقها الله ، والتدبر للآيات القرآنية التي أنزلها الله، والقرآن كله أوامر بالنظر والتدبر والتفكر في الآيات القرآنية، والآيات الكونية، لأن ذلك يثمر قوة الإيمان: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾ [ق: ٦ – ٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يونس:١٠١] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ ﴾ [الطارق:٥-٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠ ﴾ [الغاشية:١٧-٢٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧ ﴾ [يس:٧٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٢٠ ﴾ [لقمان: ٢٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ۝٧١ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝٧٢ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۝٧٣ ﴾ [يس: ٧١ – ٧٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥ ﴾ [الفيل: ١ – ٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۝٤٥ ﴾ [الفرقان:٤٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝١٨٤ ﴾ [الأعراف:١٨٤]

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران:١٩٠ -١٩١] .

أفلا تتذكرون ، أفلا تعقلون ، أفلا تسمعون ، أفلا تبصرون ، أفلا يؤمنون ، فلا تكاد تخلو سورة ، بل لا تكاد تخلو آية من الدلالة على معرفة الله، والأمر بالتفكر والتدبر في المُلك والملكوت، والمخلوقات والآيات .

إن في هذا الوجود العظيم آيات وعبر، وحكم وأحكام فكل ما في الوجود مما سوى الله فهو فعل الله وخلقه :﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فكل ذرة من الذرات، وكل قطرة من القطرات، وكل حركة من الحركات، وكل مخلوق من المخلوقات، كل ذلك فيه آيات وعجائب تظهر بها حكمة الحكيم، وقدرة القدير، وعلم العليم ، وحلم الحليم، وكرم الكريم وإحصاء ذلك غير ممكن: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [يونس: ٣] .

وجميع هذه المخلوقات خلقها الله ﷻ شاهدة بوحدانيته ومسبحة بحمده ومستجيبة لمشيئته ، ومسرعة إلى إرادته وخاضعة لأمره : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ

﴿١٠٢﴾ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنعام:١٠٢-١٠٣] .

وكلما اتسع خلقه اتسع مُلكه، وكثر من يشهد له بالوحدانية ومن يسبح بحمده : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿١﴾ ﴾ [الجمعة: ١]

فكل ذرة في ملكه تسبح بحمده: ﴿ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء: ٤٣ – ٤٤] .

- **أقسام المخلوقات:**

المخلوقات التي خلقها الله ﷻ قسمان :

القسم الأول : ما لا يعرف أصلها، فلا يمكننا التفكر فيها ، فكم من الموجودات التي لا نراها ولا نعلمها ، بل نسبة ما نعلمه من عالم الشهادة إلى ما لا نعلمه من عالم الغيب كالقطرة بالنسبة للبحر ، ونسبة عالم الشهادة إلى عالم الغيب ، كالقطرة بالنسبة للبحر، وكالذرة بالنسبة للجبل: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٥٩] .

والله وحده عالم الغيب والشهادة، خلق ما نبصر وما لا نبصر ، وما نرى وما لا نرى : ﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ﴿٧﴾ ﴾ [السجدة:٦-٧] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٥﴾ ﴾ [الإسراء:٨٥] .

فخلق الله منه ما نعلمه وما لا نعلمه: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل: ٨] .

القسم الثاني : ما يُعرف أصله من هذه المخلوقات وجملته، ولا يعرف تفاصيله فيمكننا أن نتفكر في تفاصيله، ونهتدي إلى شيء من أسراره ، وهى منقسمة إلى ما ندركه بحس البصر، وإلى ما ندركه بالخبر .

أما الذي لا ندركه بالبصر، ولكن ندركه بالخبر :

فكالملائكة ، والأرواح ، والجن ، والشياطين ، والعرش ، والكرسي، والجنة ، والنار، وما فيهما من النعيم والعذاب، والحوض والصراط والموازين وغيرها، وأحوال الأمم الماضية، وغير ذلك من عالم الغيب ، فالغيب اختص به الله ﷻ وحده وأطلع منه من شاء من عبادة :﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩] .

وأما ما ندركه بحس البصر : فالسماء والأرض وما بينهما وما عليهما من مخلوقات ، وقد أمر الله ﷻ بالنظر والتدبر، والتأمل والتفكر في ذلك فقال ﷻ : ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس:١٠١] .

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤] .

٧- الخزانة السابعة

- **فقه التفكر في الآيات الكونية :**

النَظر والتدبر والتفكر في الآيات الكونية عبادة من أعظم العبادات، لأنه يورث ويثمر تعظيم الله وتكبيره ، ومحبته وتوحيده ، والإكثار من ذكره وشكره، وخشيته وحسن عبادته: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾[فاطر: ٢٨] .

وقد أمرنا الله ﷻ بالتفكر والتدبر في الآيات القرآنية، والآيات الكونية .

فقال ﷻ في الآيات الكونية : ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾[يونس:١٠١] .

فخلق السماء آية ، وجمالها آية أخرى ، وعلوها آية أخرى ، وعظمتها آية أخرى ، وإمساكها أن تقع آية أخرى ، وفي السماء آيات وعبر ، فالشمس آية وإنارتها آية أخرى ، وجريانها آية، وحرارتها آية:﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾[فصلت:٣٧] .

والقمر آية، وإنارته آية ، وتغير أحواله آية، وسيره آية ، وفي طلوع الشمس والقمر آية، وفي غروبهما آية : ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾[يس:٤٠] .

وخلق النجوم آية، وفي إنارتها آية ، وفي توزيعها في السماء آية، وفي سيرها آية : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾[الملك:٥] .

وفي الليل والنهار آيات بينات، وعبر وعظات : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ ﴾[نوح: ١٥ - ١٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ ﴾[آل عمران:١٩٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [يس:٣٧] .

وفي الأرض آيات وعبر وعظات ، نباتات متنوعة ، وحيوانات مختلفة ، وأنهار وبحار، وسهول وجبال ، وجواهر ومعادن ، وأزهار وثمار ، وحجارة ورمال، فمن ينظر ومن يتفكر ومن يتدبر ؟ .

قال الله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾ [ق:٦ -٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾[نوح:١٥ -٢٠] .

وما بين السماء والأرض آيات وعجائب، فضاءٌ عظيم، وسحب وغيوم، ورعد وبرق ، وأمطار وثلوج، وصواعق وشهب ، ورياح وعواصف وطيور وذرات ، وحرارة وبرودة، وليل ونهار، ونور وظلمات ، فهذه الأجناس في

السموات والأرض وما بينهما أصناف وأنواع لا يحصيها إلا الله :﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ ﴾[الأعلى: ٢ -٣] .

وجميع هذه المخلوقات مجال الفكر والتفكر، والنظر والتدبر، والاعتبار والاستبصار : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ [الشعراء:٨-٩] .

وجميع مخلوقات الله في العالم العلوي والعالم السفلي تُسبح بحمده، وتشهد بوحدانيته ، وتقف صاغرة بين يديه وتخضع لمشيئته، وتسرع إلى إرادته ، والجميع في قبضته، وتحت تصرفه وتدبيره: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾[فاطر:١٣-١٤] .

فلا تتحرك ذرة أو مخلوق في السماء والأرض من مَلك وإنسان، وحيوان ونبات، وماء وجماد، ولا فلك ولا كوكب، إلا والله تعالى هو محُركها ومجريها .

وفي حركتها حِكم وأسرار ، وكل ذلك شاهد لله بالوحدانية ، ودال على عظمته وجلاله، وحكمته وقدرته، وآلائه وإحسانه، وعظمة ملكه وسلطانه : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾[الملك:١-٤] .

والرب الذي هذه أسمائه وصفاته وأفعاله هو وحده الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [البقرة: ٢١ – ٢٢] .

- **عجائب خلق الله في العالم العلوي، والعالم السفلي :**

الله ﷻ هو ملك الملوك له مُلك العالم العلوي والعالم السفلي ، وله مُلك عالم الغيب وعالم الشهادة، وله مُلك الدنيا والآخرة ، وله مُلك السموات والأرض ، وله مُلك ما في السموات وما في الأرض، وله ملك السموات والأرض، وله جنود السموات والأرض ، وله غيب السموات والأرض، وله خزائن السموات والأرض ، وله مقاليد السموات والأرض ، وله ميراث السموات والأرض :﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ [آل عمران:٢٦-٢٧] .

ففي خلق السموات والأرض عجائب وآيات تدل على عظمة الخالق :﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [آل عمران:١٩٠] .

وفي خلق الإنسان من نطفة عجائب تدل على عظمة الخالق : ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الذاريات:٢٠ -٢٢] .

وفي خلق الحيوان وأصنافه وأنواعه وألوانه آيات وعجائب تدل على عظمة الخالق البارئ المصور، وكمال قدرة القادر جل جلاله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ ﴾[الحجر:٨٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾[الأنعام:١٠٢] .

فلا إله إلا الله، ما أوسع ملكه، وما أعظم خلقه في العالم العلوي والسفلي .

ففي طيور الجو، وحيوانات البحر ، ودواب الأرض، وأسماك البحر، من العجائب والآيات ما تنقضي الأعمار في الوقوف على بعضه ، وكلها تدل على عظمة خلقها، وعظمة خالقها، وقدرة مقدرها، وحكمة مصورها .

قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾[الحشر: ٢٤] .

فسبح الله مع المسبحين وكبره مع المكبرين : ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾[الواقعة:٧٤] .

وفي خلق النمل والنحل وغيرها من صغار الحشرات ما يبهر العقول ، سواء كان في تكاثرها ، أو بناء بيوتها ، أو جمع غذائها أو كيفية طباعها وحركتها وجُهدها .

وما من حيوان صغير ولا كبير إلا وفيه من العجائب ما لا يحصى ، وعجائب البحر كعجائب الأرض وما فيها، بل ما في البحر من النباتات والحيوانات والجواهر أضعاف عجائب ما نشاهده على وجه الأرض كما أن سعته أضعاف سعة الأرض.

قال الله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[النحل: ١٤] .

فسبحان الرب الذي خلق فسوى، وقدر فهدى.

وقال الله تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ ﴾[الفرقان:٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾[النحل: ١٧ – ١٨] .

فما دام هو الخالق الذي خلق الخلائق وحده، فيجب أن يكون هو المعبود وحده؛ لأنه الذي خلقنا، وأمدنا بالأرزاق والنعم المادية والروحية .

وأعجب من ذلك كله ما هو أظهر من كل ظاهر، وهو قطرة الماء، هذا الجسم الرقيق السيال متصل الأجزاء ، كأنه شيء واحد، لطيف التركيب، سريع الاتصال والانفصال في البحار والأنهار، به حياة كل من على وجه الأرض من نبات وحيوان، كما قال سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[الأنبياء:٣٠] .

فالمؤمن حقاً يرى ببصيرته المخلوقات، ويتجاوزها إلى الخالق ، ويرى الصور، ويتجاوزها إلى المصور ، ويرى الأرزاق، ويتجاوزها إلى الرزاق ، ويرى الدنيا، ويتجاوزها إلى الآخرة ، ويرى الأموال والأشياء، ويتجاوزها إلى الإيمان والأعمال الصالحة : ﴿ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ ﴾[الذاريات: ٥٠-٥١] .

آثار التفكر في عجائب خلق الله في الكون:

التفكر في عجائب خلق الله يثمر تعظيم الله، وتكبيره، ومحبته، وحمده، وشكره ، والتصاغر لكبريائه، والذل بين يديه، ومعرفة عزة الربوبية، والوقوف بباب العبودية .

فهذا السقف المرفوع، وهذا البحر المسجور ، وهذه الأرض المبسوطة ، وهذه الشمس المضيئة ، وهذا القمر المنير، وهذا الإنسان المكرم، وهذا النبات المتكاثر ، وهذه الثمار المتراكبة، وهذه الجبال الراسية ، وهذه السهول الممتدة، وهذه الرياح العاصفة ، وهذا الهواء اللطيف، كل ذلك خلق الله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ ﴾[الحجر:٨٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾[البقرة: ١٦٤] .

فهذه المخلوقات العظيمة، والآيات الكبرى، كلها خلق الله، تدل على وحدانيته، وكمال عظمته، وجمال أسمائه وصفاته وأفعاله: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾[يونس: ٣] .

فسبحان الخلاق العليم الذي : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ [الفرقان:٢] .

فلا إله إلا الله ما أعظم مخلوقاته وآياته التي تشير إلى وحدانيته وجلاله وجماله وكماله: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ

لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٞ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ٦ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٧ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١١ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ١٣ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٤ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥ وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ١٩ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠

﴿[النحل:٣-٢٠].

والرب العظيم الذي هذه أفعاله ومخلوقاته هو الرب الذي يستحق أن يعبد وحده لا شريك له: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣﴾ [الأنعام:١٠٢-١٠٣].

ومن آيات الله العظيمة الدالة على عظمته ، هذا الهواء اللطيف المحبوس بين السماء والأرض ندرك حسه، ولا نرى شخصه ، وجملته مثل البحر الواحد، والطيور مختلفة فيه في جو السماء، سابحة بأجنحتها في الهواء كما يسبح حيوان البحر في الماء ، وتضطرب جوانبه وأمواجه كما تضطرب أمواج البحر وعواصفه ، فهذا بحر من الهواء يعيش فيه النبات والحيوان والإنسان وهذا بحر من الماء تعيش فيه حيوانات البحر: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ ﴾[الحجر:٨٦] .

والرب العظيم الذي هذه أفعاله، وهذه مخلوقاته، هو وحده الذي يستحق ان يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر:﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾[النحل: ١٧- ١٨] .

ومن آياته سبحانه ملكوت السماوات السبع، وما فيها من الملائكة والجنات، والنجوم والكواكب والأفلاك والمجرات .

ومن عرف عجائب الأرض، وفاتته عجائب السماوات، فقد فاته الكل ، فالأرض وما فيها من النبات والحيوان، والبحار والجبال، والإنس والجن ، وكل جسم سوى السماوات، بالإضافة إلى السماوات، كقطرة في بحر أو أصغر كما قال سبحانه : ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾[غافر:٥٧] .

وقال الله تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ ﴾ [النازعات: ٢٧ – ٢٩] .

فسبحان الخلاق العليم الذي خلق كل شيء ، وبيده أمر كل شيء ، فله الخلق كله، وله الأمر كله ، وله المُلك كله، وإليه يرجع الأمر كله: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٥٤] .

والرب الذي هذه أسماؤه وصفاته، وأفعاله هو الرب الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [هود: ١٢٣] .

٨- الخزانة الثامنة

- **فقه التفكر في أسماء الله وصفاته وأفعاله:**

كما يعظم الناس عالمًا بسبب معرفتهم بعلمه ، ومؤلفاته، فيزدادون بمعرفته توقيرًا له ، وتعظيمًا له واحترامًا له .

وكما يعظم الناس صانعًا ومخترعًا بسبب معرفتهم بمصنوعاته ومخترعاته ، فيزدادون بمعرفته توقيرًا له، واحترامًا له، وهكذا ، فقيمة الإنسان بصفاته لا بذاته : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ﴾[الحجرات: ١٣] .

فكذلك كلما استكثر الإنسان من معرفة الله بأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، ومعرفة نعمه وإحسانه ، ومعرفة عظمة ملكه وسلطانه، ومعرفة عجيب صنع الله في مخلوقاته ، كانت معرفته بجلاله وعظمته أتم ، وتوقيره أعظم، وعبادته أكمل: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩ ﴾[محمد: ١٩] .

وهكذا التأمل والنظر في المخلوقات ، فكل ما في الوجود من خلق الله وصنعه ، والنظر والفكر فيه لا يتناهى، وإنما لكل عبد منه بقدر ما رزق من الفهم والعلم: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١ ﴾[يونس: ١٠١]

وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء: ﴿ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٧٣ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٧٤ ﴾[آل عمران:٧٣ -٧٤] .

وقال الله عز وجل: ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾ [البقرة:٢٦٩] .

ومن عود نفسه التفكر في عظمة جلال الله، وعظمة أسمائه وصفاته وأفعاله، وعظمة قدرته ، والنظر في خلقه وملكه، صار ذلك عنده ألذ من كل نعيم ؛ لأن ذلك غذاء قلبه وروحه ، لا مانع منه ولا مزاحم فيه ، وتلك جنة المعرفة الموصلة إلى جنة الآخرة، وهذه الجنة أعظم من جنة الآخرة ؛ لأنها متعلقة بمعرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، ومعرفة دينه وشرعه، والتعبد له بموجب ذلك .

وجنة الآخرة ثمرة جنة المعرفة: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الرحمن:٤٦].

والعاقل حقًا من يطلب نعيمًا ، لا زحمة فيه، ولذة لا كدر فيها، ولا يوجد ذلك في الدنيا إلا في معرفة الله تعالى ، وعجائب مخلوقاته، والإيمان به، ولذة مناجاته، وحمده وشكره، واستغفاره ، والتوبة إليه : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾ [محمد: ١٩] .

وإنما يحصل الشوق بعد الذوق ، فمن لم يذق طعم الإيمان وحلاوته وحقيقته لم يعرف، ومن لم يعرف لم يشتق ، ومن لم يشتق لم يطلب ، ومن لم يطلب لم يدرك ، ومن لم يدرك فهو من المحرومين : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ ﴾ [الزمر:١٥] .

فأصل كل حرمان سببه الجهل بالله وأسمائه وصفاته وافعاله، ودينه وشرعه : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الكهف:١٠٣- ١٠٦] .

وأصل كل طاعة ونجاة وفلاح إنما هو الفكر في أسماء الله وصفاته وأفعاله وخزائنه ووعده ووعيده ، وفيما خُلق له الإنسان، وفيما أمر به ، وفيما أُعد له من النعيم المقيم أو العذاب الأليم ، فتولد تلك المعرفة بالله إقبالًا ونشاطًا بحسب قوتها وضعفها، فيزداد القلب فرحًا وأنسًا بربه، وإيمانًا به ، وتتلذذ الجوارح بالطاعة والعبادة : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الرعد: ٢٨ – ٢٩] .

وقال الله عز وجل عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنبياء:٩٠] .

فمن ذاق عرف، ومن عرف استقام: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة: ١٥ – ١٧] .

وكذلك أصل كل معصية ما يحصل من جانب الفكر ، فإن الشيطان يصادف أرض القلب خاليةً فارغة، فيبذر فيها حب الأفكار الرديئة، فيتولد منه الإرادات الفاسدة ، فيتولد منها العمل الذي يغضب الله، ويحبط عمله الصالح، ويكون سببًا لهلاكه : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾[الزمر:٦٤-٦٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ ﴾ [الشعراء:٢١٣] .

ومن أعرض عن ذكر الله نال عقوبة الله: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾[الأنعام: ٤٤ – ٤٥] .

وإذا تدبرنا القرآن وجدنا أن الله يريد منا في الدنيا أن نكمل الإيمان ، والأعمال الصالحة، والأخلاق الحسنة ، ونحذر الكفر والمعاصي والأقوال السيئة والأفعال والأخلاق المشينة، لندخل الجنة .

والشيطان يريد منا تكميل شهواتنا الآن، وتعطيل الأوامر الشرعية ، لنعيش على هوانا ولو دخلنا النار يوم القيامة :﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾[النساء:٢٧-٢٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾[فاطر:٦].

التفكر في أحسن حياة :

أحسن حياة وأجمل حياة، وأفضل حياة ، حياة الأنبياء والرسل الذين أُمر النبي ﷺ بالاقتداء بهم : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾ [الأنعام:٩٠] .

وأمرنا نحن بالاقتداء بهم بأقوالهم، وأخلاقهم، وإيمانهم، وتوحيدهم، والاقتداء بسيدهم وأفضلهم محمد ﷺ، الذي هو أكمل الناس إيمانًا، وأحسنهم عبادة، وأجملهم أخلاقًا كما قال عنه ربه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤ ﴾[القلم:٤] .

فنقتدي به ﷺ في توحيده وإيمانه ، وفي نيته وفكره، وفي أقواله الحسنة، وفي أعماله الصالحة، وفي أخلاقه الكريمة : ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١ ﴾[الأحزاب:٢١] .

والله سبحانه يريد منا أن نكمل محبوباته في الدنيا من الإيمان والإحسان ، والصدق والصبر ، والتوبة والجهاد، والصلاة والزكاة، والصيام والحج، وغيرها من الأعمال الصالحة، وهو سبحانه يكمل محبوباتنا في الآخرة برؤيته، وسكنى دار كرامته، وسماع كلامه، ورضوانه، والتلذذ بألوان النعيم في جنته : ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ٥٤ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۢ ٥٥ ﴾[القمر:٥٤-٥٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٧٢ ﴾[التوبة:٧٢] .

والدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر ، فالدنيا دار الإيمان والعمل، والمسلم فيها مقيد بأوامر الله، كما أن السجين مقيد بأوامر السجن، فلا يستطيع السجين أن يأكل ما شاء، أو يتكلم مع من شاء، أو يزور من شاء، بل هو مقيد بأوامر السجن إلى أن يخرج ، لكن يعطى من هذه الأشياء بقدر الحاجة .

فكذلك المسلم في هذه الدنيا مقيد بأوامر الله التي تصلحه وتنفعه في الدنيا والآخرة ، فهو يقوم بالعمل، والله يطعمه ويسقيه ويرزقه حسب الحاجة، وبقدر ما يصلحه، إلى أن يخرج من السجن إلى قصور الجنة حيث النعيم المطلق والخلود الدائم هناك: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[السجدة: ١٧] .

والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىَ له مُلك السماوات والأرض وما فيهن ، فالكون كله مُلكه، والإنسان مُلكه، خلقه الله وشرفه على ما سواه، وكرمه على غيره بكرامات، كما قال سبحانه : ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء:٧٠] .

فمن أطاع الله سخر له كل شيء ، ومن خضع لأوامر الله أخضع الله الكائنات كلها له من البحار ، والمياه والرياح وغيرها: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾[الأعراف:٩٦] .

ولكن الإنسان إذا لم يطع الله ولم يكن له فلا يكون الله له ، ولا يكون معه فإن الله مع المؤمنين والمتقين والمحسنين ومن كان الله معه فكل شيء معه ،

ومن لم يكن الله معه فليس معه شيء: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾[النحل: ١٢٨] .

فأسعد الناس، وأعقل الناس، وأحسن الناس حياة وفلاحًا وفوزًا هم المؤمنون: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ﴿٣٢﴾ ﴾[فصلت:٣٠-٣٢] .

ومن فكر في الدنيا والآخرة علم أنه لا ينال واحدةً منهما إلا بمشقة ، فليتحمل المشقة لخيرهما وأبقاهما وأحسنهما، ولكن الناس لضعفهم، وتزيين الشيطان لهم، يؤثرون ما يفنى على ما يبقى لقلة المذكر، وضعف الإيمان: ﴿ بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿١٦﴾ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ﴾[الأعلى:١٦-١٧] .

والمحب الذي قد ملك المحبوب أفكار قلبه لا يخرج فكره عن تعلقه بمحبوبه وهو ربه سبحانه، أو بنفسه .

وفكره في محبوبه لا يخرج عن حالين :

إحداهما : فكره في جمال الرب وجلاله وعظمة أسمائه وصفاته .

الثانية : فكره في أفعال ربه وإحسانه، وإنعامه وبره ولطفه .

أما فكره بنفسه فكذلك لا يخرج عن حالين .

إما أن يفكر في أوصافه المسخوطة، التي يبغضها محبوبه جل جلاله، ويمقته عليها، من الفواحش والمنكرات فيتجنبها .

وإما أن يفكر في الصفات والأفعال والأخلاق التي تقربه من ربه، وتحببه إليه، لكي يتصف بها مثل: ﴿ ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾[التوبة:١١٢] .

فالأوليان : توجب له زيادة محبته لربه، وتعظيمه، والخضوع له .

والأخريان : توجب له محبة محبوبه له ، وإقباله عليه، وقربه منه، وعطفه عليه وإيثاره على غيره ، وإسعاده في الدنيا والآخرة، لأنه أمن به وأطاعه .

فالمحبة التامة مستلزمه لهذه الأفكار الأربعة ، ومجال الفكر في صفات نفسه وأفعالها كثيرة، ويمكن حصرها في ستة أجناس .

فيفكر الإنسان في الطاعات الظاهرة والباطنة يتفكر في معرفتها، وأدائها، وتحسينها، ودوامها، والإكثار منها، وترغيب الناس فيها .

والمعاصي الظاهرة والباطنة يتفكر كيف يعرفها، ويحذر الناس منها ، ويقلع عنها، ويتوب منها، ويحذر منها:﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾[التوبة:٧١].

والصفات والأخلاق الحميدة يتفكر كيف يعرفها، ويتخلق بها ، ويدعو الناس إليها، ليتجملوا بها .

والصفات والأخلاق السيئة يتفكر كيف يعرفها، ويحذرها ويحذر الناس منها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ

ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل:٩٠] .

وأما الفكر في أسماء الرب وصفاته، وفي أفعاله وأحكامه، فتوجب له التمييز بين الإيمان والكفر ، والتوحيد والشرك ، ووصفه بما هو أهله من العزة والجبروت، والكبرياء والعظمة ، والجلال والإكرام ، وتنزيهه عن ما لا يليق به : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾[محمد: ١٩] .

وجماع ذلك الفقه في معاني أسماء الله وصفاته، وجلالها وكمالها ، وتفرده بذلك، وتعلقها بالخلق والأمر ، فيكون ذلك العبد فقيهًا في أسماء الله وصفاته، فقيهًا في أوامر الله ونواهيه ، فقيهًا في قضاء الله وقدره فقيهًا في الأوامر الكونية القدرية ، فقيهًا في الأحكام الدينية الشرعية ، فقيهًا في دنياه وأخراه ، فقيهاً في الاستفادة من أوقاته، ومن طلب ذلك ساقه الله إليه ويسره عليه : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٩] .

ومن وفقه الله لذلك عرف ربه ، وعرف ما يوصل إليه ، وعرف ماله من الثواب والإكرام بعد القدوم عليه : ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾[الحديد:٢١] .

ثمرات التفكر والتدبر في الآيات القرآنية:

لا شيء أنفع للقلب من تدبر كلام الله ﷻ، والتفكر فيه ، فهو الذي يولد في القلب التعظيم للمعبود، والتكبير له ، ويورث المحبة لله ﷻ، ويورث الخوف والرجاء، والصبر والشكر، وسائر الأحوال التي بها حياة القلب

وكماله واستنارته: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد:٢٤] .

ومن تدبر القرآن علم أنه يشتمل على أمرين:

فالقرآن إما خبر .. وإما إنشاء .

والخبر قسمان :

أحدهما: خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله.

قال الله تعالى : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحشر: ٢٢ – ٢٤] .

الثاني: خبر عن مخلوقاته جل جلاله، من خلق السماوات والأرض، والجبال والبحار، والجماد والنبات، والحيوان والإنسان، وخلق الجنة والنار وغير ذلك من المخلوقات.

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٦٤] .

وأما الإنشاء : فهو طلب الفعل أو الترك، فالنفس إذ عرفت ربها بأسمائه وصفاته وأفعاله وعرفت دينه وشرعه ، أقبلت على طاعة الله وعبادته، وامتثال أوامره .

وأوامر الله ﷻ على عباده قسمان :

الأول : أوامر يجب فعلها ، وهي كل ما أمر الله ورسوله ﷺ به .

الثاني : أوامر يجب اجتنابها، وهي كل ما نهى الله ورسوله عنها .

والمسلم يصدق الأخبار، ويطبق الأحكام .

وكذلك تدبر القرآن يزجر العبد عن جميع الصفات المذمومة، والأفعال السيئة، التي يحصل بها فساد القلب وهلاكه ، فعلى الإنسان أن يتفكر في آيات ربه المسموعة وهي القرآن :﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾[ص:٢٩] .

ويتفكر كذلك في آياته المشهودة وهي المخلوقات، كما قال سبحانه : ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يونس:١٠١] .

وبالتفكر والتدبر في الآيات المشهودة يرى الإنسان المخلوقات ويذكر الخالق، ويرى الصور ويذكر المصور، ويرى الأرزاق ويذكر الرازق، ويمتثل أوامر الله، ويجتنب نواهيه .

إن النظر والتدبر والتفكر من أعظم أنواع العبادة، فهذا الكون العظيم معرض كبير هائل واسع لعظمة قدرة الله ﷻ، وعظمة خلقه، وتذكير بالخالق المبدع الذي خلق كل شيء : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾[الأنعام:١٠٢-١٠٣] .

وذلك يبهر الإنسان، ويشعره بالعجز المطلق عن الإتيان بشيء منه أصلًا .

إن الله ﷻ كما ينزل من السماء ماءً فينبت به زرعاً مختلف ألوانه ، كذلك أنزل من السماء ذكراً تتلقاه القلوب الحية ، فتنفتح له، وتنشرح به، وتتحرك حركة الحياة بكل حسن وجميل من الأقوال والأعمال والأخلاق والآداب: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾[الأنبياء:١٠] .

وتتلقاه القلوب القاسية كما تتلقى الماء الصخرة القاسية التي لا حياة فيها ولا نداوة : ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾[الزمر: ٢٢] .

وهذه القلوب قاسية كالحجارة أو أشد قسوة .

والله حكيم عليم له ملك السماوات والأرض وله الخلق والأمر ، وهو الكريم الذي يجود بكل نعمة على عباده:﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾﴾[غافر:٦١] .

- **وحقوق الله تبارك وتعالى على العباد نوعان :**

أحدهما: أمره ونهيه الذي هو محض حقه على العباد ، ويتم بعباده الله وحده لا شريك له، وطاعته في كل حال : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾[الذاريات:٥٦-٥٨] .

الثاني : شكر نعمه التي أنعم بها عليهم ، فهو سبحانه يطالبهم بشكر نعمه والقيام بأمره : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾[البقرة:١٧٢] .

فمشهد الواجب على العبد لا يزال يشهد فيه تقصير وتفريط ، وأنه محتاج إلى عفو الله ومغفرته ، فإن لم يتداركه بذلك هلك ، وكلما كان الإنسان أفقه لدين الله كان شهوده للواجب عليه أتم ، وشهوده لتقصيره أعظم :﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[غافر:٦١] .

فينشأ من ذلك التشمير للعمل الصالح، ودوام الاستقامة على أوامر الله، وكثرة التوبة والاستغفار ، كما قال النبي ﷺ : « منْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ » متفق عليه [1] .

فما أعظم نعم الله على عباده، وما أحسن ما دعاهم إليه من النظر إلى الآيات الكونية، والنظر الى الآيات القرآنية ، وفي النظر فيهما يكمن الإيمان ويزيد، ويقوى التوحيد ويثبت، وتكمن الأعمال الصالحة ، وتحسن الأخلاق ، ويكمن اليقين على ذات الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، وعلى دينه وشرعه، وعلى وعده ووعيده: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴿١٩﴾ ﴾[محمد: ١٩] .

وأفضل الناس توفيقاً، وأكملهم توحيداً، وأحسنهم تقوى، من قرأ وعلم، وسمع وأبصر ، وتفكر وتدبر ، وتذكر وعقل، ونظر وتأمل، في آيات ربه المشهودة والمسموعة ، واستقام على دينه : ﴿ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾[يونس:٥٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾[المائدة:٣] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم(٧١)، ومسلم برقم (١٠٣٧) .

٩- الخزانة التاسعة

- **فقه التفكر في القيام بين يدي الله:**

كيف تقف بين يدي ربك العظيم في الصلاة؟

المؤمن يقف بين يدي ربه العظيم في صلاته ناظراً إلى أمرين

عزة الربوبية، وذلة العبودية

فإذا وقفت أمام ربك في الصلاة فاستحضر عظمته وكبرياءه، واستحضر جملة مخلوقاته في العالم العلوي والعالم السفلي، وما فيهما من المخلوقات العظيمة العجيبة التي تشهد بوحدانية الله، وتسبح بحمده:﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾[النور: ٤١].

فإذا استحضرت هذه المخلوقات العظيمة فقل الله أكبر الذي خلق هذا الكون العظيم، والملك الكبير، لتجد طعم التكبير في قلبك .

الله أكبر الذي له الأسماء الحسنى، والصفات العلى، والأفعال الكبرى، والمثل الأعلى، المنزه عن مشابهة لمخلوقاته الذي تعجز العقول عن إدراك كنه عظمته وجلاله وكبريائه:﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾[طه: ٨].

وصل لربك كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ ﴾[الملك: ١٢].

وقل الله أكبر مما عرفت، ومما لم أعرف .

وقل الله أكبر من أن تصل إليه عقول الخلق وأوهامهم وأفهامهم

والله أكبر من أن يقدر الخلق على أداء حق عبوديته، فطاعاتهم وعباداتهم قاصرةٌ عن واجب عبادته، وثناؤهم قاصرٌ عن مجده وكبريائه، وعلومهم

قاصرةٌ عن معرفة كنه صماديته:﴿ هُوَ ٱلۡحَیُّ لَاۤ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِینَ لَهُ ٱلدِّینَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَـٰلَمِینَ ﴿٦٥﴾ ﴾[غافر: ٦٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِی لَمۡ یَتَّخِذۡ وَلَدا وَلَمۡ یَكُن لَّهُۥ شَرِیكٌ فِی ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ یَكُن لَّهُۥ وَلِیّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِیرا ﴿١١١﴾ ﴾[الإسراء: ١١١] .

وإذا قلت الله أكبر فاجعل عين عقلك في آفاق جلال الله وجماله، ثم قل سبحانك اللهم بحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك .

ثم انتقل منها إلى عالم الأمر والتكليف واقرأ سورة الفاتحة واجعلها مرآةً تبصر فيها جمال ربك وجلاله، وترى فيها عجائب عالم الدنيا والآخرة، وأنوار اسماء الله الحسنى، وصفاته العلى وقل: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَـٰلَمِینَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِیمِ ﴿٣﴾ مَـٰلِكِ یَوۡمِ ٱلدِّینِ ﴿٤﴾ إِیَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِیَّاكَ نَسۡتَعِینُ ﴿٥﴾ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَ ٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِیمَ ﴿٦﴾ صِرَ ٰطَ ٱلَّذِینَ أَنۡعَمۡتَ عَلَیۡهِمۡ غَیۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَیۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّاۤلِّینَ ﴿٧﴾ ﴾[الفاتحة: ٢ – ٧]. آمين

فإذا قلت: ﴿ ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِیمِ ﴿٣﴾ ﴾[الفاتحة: ٣] .

فأبصر به عالم الجمال وهو الفضل والإحسان، والرحمة الشاملة في ملك الله العظيم .

وإذا قلت: ﴿ مَـٰلِكِ یَوۡمِ ٱلدِّینِ ﴿٤﴾ ﴾[الفاتحة: ٤] .

فأبصر به عالم الجلال وما يحصل به وفيه من الأهوال العظيمة .

فإذا قلت: ﴿ إِیَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِیَّاكَ نَسۡتَعِینُ ﴿٥﴾ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَ ٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِیمَ ﴿٦﴾ صِرَ ٰطَ ٱلَّذِینَ أَنۡعَمۡتَ عَلَیۡهِمۡ غَیۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَیۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّاۤلِّینَ ﴿٧﴾ ﴾[الفاتحة: ٥ – ٧].

فأبصر به من تعبد، ودرجات أرباب السعادات من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ومراتب الفساق المغضوب عليهم الذين عرفوا الحق وتركوه، ودركات الكفار الضالين ذاكراً ربك جل جلاله .

وإذا انكشفت لك هذه الأحوال العظيمة فاعلم أنك ما عرفت إلا القليل فعد إلى الإقرار لربك الكبير بالكبرياء وقل الله أكبر، وأقر لنفسك بالذلة والمسكنة، ثم انزل من صفة الكبرياء إلى صفة العظمة بالركوع للعظيم، وقل سبحان ربي العظيم الذي له ملك السماوات والأرض، وله ما في السماوات والارض، وله خزائن السماوات والأرض، وله جنود السماوات والأرض، وله غيب السماوات والأرض وله ميراث السماوات والأرض

ثم عد إلى القيام ثانياً قائلاً الله أكبر، وادعوا لمن وقف موقفك وحمد حمدك وقل سمع الله لمن حمده فإذا سألتها لغيرك وجدتها لنفسك

ثم عد إلى التكبير، وانحدر به إلى الأرض متواضعاً بصفة العلو، وقل سبحان ربي الأعلى، لأن السجود أكثر تواضعاً من الركوع، والسجدة الأولى سجدة الشكر لما أعطانا الله عز وجل من نعمه ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله والثانية سجدة العجز والخوف مما لم يصل إليه العبد من أداء حقوق جلال الله وكبريائه، وتذكر بالسجدة الأولى أنك خلقت من تراب، وتذكر بالسجدة الثانية أن ستعود إلى التراب .

فلا إله إلا الله، ما أعظم الوقوف بين يدي الله بهذه المعاني:﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ ﴾[الصافات:١٨٠-١٨١].

- **فقه التفكر والتدبر في الشريعة :**

الكفر ببعض الشريعة كفرٌ بجميعها ، والكفر ببعض الرسل كفرٌ بجميعهم ، والإيمان ببعض الرسل دون بعض كفر بالجميع :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾[النساء:١٣٦] .

وقال الله تعالى : ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة:٨٥] .

وقال سبحانه : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ [النساء:١٥٠-١٥١] .

والفطرة من حيث هي فطرة تقبل الحق : ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم:٣٠] .

لكن إذا وُجد موانع لم تتمكن من الهدى، وكل أمر لا يحصل إلا بوجود سببه، وانتفاء موانعه: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [البقرة:٨٨] .

ومن آمن بالله ﷻ أخذ مفتاح الإيمان الذي يُدخله الجنة، وبمفتاح الإيمان يحصل العبد على مفتاح التقرب إلى الله، فيكون هو البادئ ، إذا ذكر العبد ربه ذكره ، وإذا أوفى بعهده وفى الله بعهده ، وإذا نصر ربه نصره الله .

فإذا آمن الإنسان سلم الله إليه مفتاح التقرب إلى ربه، والتودد إليه بأنواع العبادات والطاعات :﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة:١٥٢] .

وقال الله تعالى : ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ [البقرة:٤٠] .

ويقول الله ﷻ في الحديث القدسي : « إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي ، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُ »متفق عليه[1] .

والتكليف من الله ﷻ إسعاد للإنسان الذي آمن به .

فالإسلام فيه سلم مع الرب ، وسلم مع النفس، وسلم مع الناس ، وسلم مع الكون ومن فيه، ليكتنف السلام الإنسان من كل جهة في الدنيا والآخرة .

فالمسلم في سلام مع خالق الكون، يؤمن به، ويصدق أخباره، ويمتثل أوامره، فيسعد في الدنيا والآخرة .

والمسلم في سلام مع النفس، يحملها على ما يسعدها في الدنيا والآخرة: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾[الشمس: ٧ – ١٠] .

والمسلم في سلام مع الكون المسخر له، من سماء وأرض وغيرها من المخلوقات ، وكل ذرة في الكون تُسر بطاعة الله، وتلعن من عصى الله، وكل عضو في الإنسان خاضع لإرادة الإنسان ، فإن أطاع الله به سره ذلك و حمد العبد الذي أطاع ربه ، وإن عصيت الله به أطاعك ذلك العضو ولعنك ؛ لأن هذا العضو خاضع لأمرك في الدنيا، فأطع الله به ولا تعصه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٢٠٨ ﴾[البقرة:٢٠٨] .

وجوارح الإنسان لا إرادة لها مع الإنسان، فهي خاضعة لإرادة الإنسان في جميع الطاعات والمعاصي، فإن أطاع الله بها فرحت وسُرت وحمدته، وإن عصي الله بها أطاعته ولعنته، فإذا كان يوم القيامة شهدت عند الملك الحق

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٧٤٠٥) واللفظ له، ومسلم برقم: (٢٦٧٥).

بما عملت أيها الإنسان من خير أو شر، ثم يسعد الله النفس التي أطاعت ويعذب النفس التي عصت، بخلق أجساد وأعضاء تناسب النعيم أو العذاب يوم القيامة: ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١ ﴾[القارعة: ٦ – ١١] .

والسلم والإسلام تساند القوى في النفس والكون بحيث لا تتعاند ، والحرب إنما تنشأ من تعاند القوى في النفس والكون ، تعاند قوى النفس هو حرب مع النفس ، وتعاند قوى البشر حرب البشر مع البشر ، وتعاند النفس مع أوامر الرب، والحرب لا تنشأ إلا إذا اختلفت الأهواء: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٠ ﴾[القصص: ٥٠] .

وأهواء البشر مختلفة لا يمكن أن تتحد إلا إذا اجتمعت على الحق والهدى ، إلا إذا كانت محروسة بقيم ممن لا هوى له وهو الله الحق جل جلاله وإلا فسدت الكون : ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ۝٧١ ﴾ [المؤمنون:٧١] .

فكل تابع يؤمن بأن المتبوع فوقه في الصفات ، وليس في الكون إلا واحدٌ فقط له كمال الأسماء، والصفات، والأفعال، من العظمة والكبرياء ، والقوة والقدرة ، والغنى والرحمة، وهو الله الذي يحب طاعته وعبادته: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ۝١٠٢ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٠٣ ﴾[الأنعام: ١٠٢ – ١٠٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [البقرة:١٦٣] .

وكل ما سوى الله خاضعٌ له، مطيعٌ لأمره الكوني، مؤمن بأنه فوقه ، وهذا الإله الحق غني عمن سواه، وكل ما سواه محتاج إليه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ [فاطر: ١٥].

وهذا الإله العظيم غني لا مصلحة له فيما شرع لعباده .

أما المشرعون من البشر فلهم مصلحة فيما يشرعون ، ولهذا يظلمون غيرهم، ليستفيدوا منهم ويقدموا حظهم على حقوق غيرهم : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾[الزمر:٦٤-٦٦] .

فمن فر إلى الله أفلح، ومن تعلق بغير الله هلك: ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٠-٥١] .

فقه التدبر والتفكر في أمور الدين والدنيا :

في الوجود اثنان :

رب ومربوب .. وملك وعبيد .. وخالق ومخاليق .

فالله جل جلاله هو الرب العظيم الذي له الأسماء الحسنى، والصفات العلى، والأفعال الحميدة، والمثل الأعلى:﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ [طه: ٨].

ولا معروف أعظم منه جل جلاله، ولا معروف أكبر منه، فهو العظيم، وهو الكبير الذي :﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾[الشورى:١١] .

ولا معروف أشرف من تعظيمه، وإظهار عبوديته، وإظهار الخشوع والخضوع على باب عزته :﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾[الأنعام:١٠٢] .

وكل ما سوى رب العالمين فهم عبيده ومخاليقه، وقد أمرنا الله ﷻ بإيصال الخير إليهم ورحمتهم ، فمن كان منهم حيًا عاقلًا وهو الإنسان ، فإيصال الخير إليه بدعوته إلى الإيمان بالله، وعبادة ربه جل جلاله :﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾[البقرة:٢٥٥] .

وإن كان حياً لا عاقلاً فيجب الإحسان إليه، وعدم إيذائه : ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾[آل عمران:١٣٣-١٣٤].

وقال الله تعالى : ﴿ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [البقرة:١٩٥] .

وإن لم يكن حياً ولا عاقلاً، وهم جملة المخلوقات العظيمة في العالم العلوي، والعالم السفلى ، فيجب النظر إليهم بعين التعظيم من حيث أنهم خلق الله الدال على عظمته وجلاله وجماله وكماله ، والنظر إليهم وهم يشهدون لله بالوحدانية، ويسبحون بحمده ، وكل ذرة من هذه المخلوقات العظيمة دال على عظمة الله وجلاله: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾[يونس:١٠١] .

وقال الله تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء: ٤٤] .

والحضارة المادية التي فتح الله ﷻ على الإنسان أبوابها وفنونها، لها منافع ومضار .

فالنافع منها : أنها خدمت الإنسان خدمات هائلة من حيث أنه جسد حيواني، فوفرت له الفراش الذي يجلس عليه، والسيارة التي يركبها والأواني التي يستعملها وغير ذلك من المنافع. ﴿ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [النحل: ٨] .

والضار منها : أنها أهملت بالكلية الناحية الروحية التي هي الدين الذي هو أصل كل خير في الدنيا والآخرة:﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴿٣﴾ ﴾[العصر:١-٣].

والحضارة المادية غنية بأنواع المنافع من الناحية الأولى من الأشياء الصناعية والتجارية والزراعية وغيرها، مفلسة إفلاسًا كليًا من الناحية الثانية، وقد ذم الله الكفار الذين:: ﴿ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾[الروم:٧] .

فنأخذ من الدنيا بقدر الحاجة، ونعطى للدين بقدر الطاقة: : ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾[القصص:٧٧] .

وطغيان المادة على الروح يهدد العالم أجمع بالدمار الشامل ، الذي يهدد العالم الآن كما هو مُشاهد الآن ، وموقف المسلم من الحضارة المادية أنها

مشتملة على خير وشر ، ونافع وضار ، وحسن وسيء ، وطيب وخبيث ، وحلو ومر، والعاقل يختار ما ينفعه، ويترك ما يضره .

وموقفنا من هذه الحضارة واحد من أربعة أقسام :

الأول : أخذ تلك الحضارة كلها نافعها وضارها ، حلوها ومرها .

الثاني : ترك نافعها وضارها .

الثالث : أخذ ضارها، وترك نافعها .

الرابع : أخذ منافعها، وترك ضارها ، وهذا هو الصواب ، وهذا هو الواجب : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾[البقرة:٢٩] .

فالثلاثة الأولى كلها باطلة ؛ لأنها تفسد الأمة وتضعفها، فتعين الأخذ بالقسم الرابع بأخذ النافع، وترك الضار الذي يهدم الأخلاق والدين .

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأعراف:٣٢-٣٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾[البقرة:١٧٢] .

١٠- الخزانة العاشرة

- **أقسام الموجودات :**

الموجود ثلاثة أقسام :

الأول : موجود لا بداية له ولا نهاية، ولا أول ولا أخر، وهو الله وحده لا شريك له، كما قال سبحانه : ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾[الحديد:٣] .

وهو حي قيومُ لا ينام ولا يموت : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ ﴾[البقرة:٢٥٥] .

والرب الذي هذه أسمائه وصفاته يحب إخلاص العبادة له: ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [غافر:٦٥] .

الثاني : موجودٌ له مبدأ ومنتهى، وهم ما سوى الإنس والجن من المخلوقات كالنبات والحيوان، وغيرهم من المخلوقات التي يعلمها الله عز وجل .

الثالث : موجود له مبدأ، وليس له منتهى ، وهم الجن والإنس .

فهؤلاء يعيشون في الدنيا، ثم يموتون، ثم يبعثون يوم القيامة، ثم يُخلدون في الجنة أو النار كلُ حسب عمله أبد الآباد ، فكن عالماً وعاملاً بكل ما يريده الله منك من الأقوال والأعمال والأخلاق:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[الأنفال:٢٤] .

وما يريده الله منك أربعة أمور :

الأمر الأول : عبادة الله وحده لا شريك له: ﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ ﴾[النساء:٣٦] .

الثاني : تعليم شرع الله ﷻ : ﴿كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ٧٩﴾[آل عمران:٧٩] .

فنتعلم العلم، ونعمل به، ونعلمه غيرنا .

الثالث : الدعوة إلى الله : ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥﴾[النحل:١٢٥] .

الرابع : التخلق بالأخلاق العالية : ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾[الأعراف:١٩٩] .

التفكر في أقسام الأحياء:

الأحياء التي خلقها الله ثلاثة أقسام :

الأول : حي ناطق لا يموت ، وهم الملائكة .

الثاني : حي ناطق يموت ، وهم البشر .

الثالث : حي غير ناطق يموت ، وهم البهائم .

وأشرف هذه الثلاثة الحي الناطق الذي لا يموت وهم الملائكة ، وأوسطها الإنسان ، وأدناها الحيوان .

فالقسم الأول وهو الحي الناطق الذي لا يموت : وهم الملائكة ، نحبهم ونقتدي بهم في طاعة الله ، والبشر نجتهد عليهم ليكونوا مؤمنين ، لينطقوا بكلمة التوحيد، ويستقيموا على أوامر الله .

فالملائكة الذين : ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم:٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾[الأنبياء:٢٠].

هؤلاء الملائكة هم قدوة البشر ، وأما البهائم فنحمد الله على ما سخرها لنا، ونحسن إليها، فإن الله كتب الإحسان في كل شيء .

قال النبي ﷺ : « إِنَّ اللهَّ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ؛ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ، » أخرجه مسلم(١).

والإنسان الذي آمن بالله، وأمتثل أوامره، أشرف من الملائكة ؛ لأنه جاء إلى الله اختياراً ، أما الملائكة فهم مسخرون ومجبولون على الطاعة والتسبيح والتقديس كما جبلت الشمس على الإنارة، والأرض على الإنبات .

والإنسان الذي كفر بالله وعصاه أخس رتبة من البهائم ؛ لأن البهائم تأكل وتشرب، وتُغذي غيرها حليباً ولحماً وسمناً : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان:٤٤] .

- **التفكر في خلق الإنسان:**

جمال الروح بالتوحيد والإيمان والتقوى :

فنظر الملائكة يقع على الأرواح ، ونظر البشر يقع على الأشباح ، والملائكة أرواح نورانية مشغولة بطاعة الله، وامتثال أمره، وتسبيحه وتقديسه .

هؤلاء الملائكة إذا رأوا في روحك الصورة الحسنة، وهي معرفة الله وتوحيده وطاعته قبلوك وأحبوك واستغفروا لك ، ولهذا الملائكة لما رأوا

(١) أخرجه مسلم برقم: (٥٧/ ١٩٥٥).

روح أبيك آدم ﷺ محلاً للشهوة والغضب وغيرها من الصفات الذميمة ما قبلوه بل اعترضوا على كونه خليفة في الأرض ، كما قال سبحانه : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة:٣٠]

وأبواك لما رأوا قبح صورتك حين كنت منياً ، كذلك ما قبلوك، بل أظهروا النفرة واستقذروا ذلك المني، وغسلوا ثيابهم منه : ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المرسلات:٢٠-٢٣] .

ثم إن الله لما أعطاك الصورة الحسنة، وخرجت من بطن الأم، قبلوك وأحبوك ، وكذلك الملائكة لما رأوا صورتك الروحية الحسنة المزينة بالتوحيد والإيمان والتقوى أحبوك واستغفروا لك : ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾﴾ [غافر:٧-٨] .

وأحسن الناس صورة، وأجمل الخلق روحاً، وأفضل الناس أخلاقاً، وأحسن الناس تعبداً ، محمد ﷺ سيد الخلق أجمعين ، الذي كان أحسن الناس خَلقاً وخُلقاً ، وكان خُلقه القرآن : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم:٤] .

وسنة الله ﷻ جارية في المؤمنين والكافرين ثابتة لا تتبدل ، فمن آمن بالله وأطاعه نصره ربه : ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم:٤٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات:١٧١-١٧٣] .

ومن كفر بالله وعصاه أهلكه الله : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الفجر:٦-١٤] .

وكل من خالف رسل الله إنما خالفهم حرصاً على الدنيا وطلب لذاتها :﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾[مريم:٥٩] .

ثم انقرضوا فلم يبق من دنياهم آثر ، وإنما بقي لهم اللعن في الدنيا، والعقاب في الآخرة ، فإن الدنيا ما بقيت لا مع المؤمن ولا مع الكافر ، ولكن المؤمن يبقى له بعد موته الثناء الجميل في الدنيا ، والثواب الجزيل في الآخرة : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾[فصلت:٣٠-٣٢] .

والكافر بقي عليه بعد موته اللعنة في الدنيا، والعقوبة في الآخرة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ ﴾[الأحزاب:٦٤-٦٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨] .

والتأمل في حياة هؤلاء وهؤلاء يدفع العاقل إلى الإيمان بالله، والإعراض عن زينة الحياة الدنيا، وهجر الكفر والكافرين: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾[آل عمران:١٣٧] .

هذه عاقبتهم: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾[العنكبوت:٤٠] .

- **التفكر في أقسام خلق الله ﷻ :**

الله ﷻ له المُلك والملكوت، خلق كل شيء فقدره تقديرًا ، هو الذي يعلم ما كان وما يكون وما سيكون ، خلق الله قوماً وجبلهم على الخير والطهارة والطاعة ، وخلق قوماً وجبلهم على الخبث والخساسة، ثم يسر كلاً لما خُلق له، بعد إرسال الرسل، وإنزال الكتب، وإكرامهم بالأسماع والأبصار والعقول ، فصرف الطيبين بقدرته وإرادته إلى ما شاء من الخير، فأتوه طائعين، فأدخلهم جنته ، وصرف الخبيثين بقدرته وإرادته إلى ما شاء من شرٍ، فأتوه طائعين، فأدخلهم النار: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [النحل:٣٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾[يونس:٩٦-٩٧] .

الله سبحانه بعلمه السابق يُصَرف أقدار الخلق وإراداتهم، حتى يأتوا بما سبق به العلم الأزلي ، فلا يقع في ملكه شيء إلا بإرادته ومشيئته، وإذنه

وعلمه :﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾[التكوير:٢٧-٢٩] .

وليس كل ما أراده الله يحبه، وكل فعله حقٌ سبحانه، وهو الحكيم العليم ، فالله ﷻ يحب الإيمان ويريده، ويكره الكفر ويريده ، وخلق خلقه منهم كافر ومنهم مؤمن، كما قال سبحانه : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ ﴾[التغابن:٢] .

وخلق عباده هكذا، ليُظهر فيهم عظمة أسمائه وصفاته، وبعض أسرار عظمته جل جلاله ، فكما خلق من خلقه أشقياء ظهر فيهم ما عنده جل جلاله من العدل والحكمة البالغة، وظهر فيهم بعض أسرار أسمائه كالجبار والقوي والقهار ، وظهر فيهم عظمته وقدرته وشدة عقابه، ليحصل منهم الخوف منه: ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾[الحجر:٤٩-٥٠] .

وخلق قوماً آخرين وفقهم للخير، ليُظهر فيهم بعض أسرار أسمائه وصفاته من الرحمة والرأفة والكرم والحلم، ليجمع العبد بين المحبة والخوف .

فاقتضت حكمة الله الحكيم جل جلاله أن يقسم خلقه إلى صنفين، ليظهر فيهم بعض أسرار أسمائه وصفاته وأفعاله ، وأقام الحجة على الكل ببعثة الرسل، وإنزال الكتب، وزودهم بالعقول والأسماع والأبصار، وقال : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾ ﴾[الإنسان:٢٩-٣١] .

موسوعة خزائن العلوم الاسلامية

١٢ - خزائن التفكر والتدبر

القسم الثاني

وتشتمل على ما يلي:

١ - الخزانة الأولى

٢ - الخزانة الثانية

٣ - الخزانة الثالثة

٤ - الخزانة الرابعة

٥ - الخزانة الخامسة

٦ - الخزانة السادسة

٧ - الخزانة السابعة

٨ - الخزانة الثامنة

٩ - الخزانة التاسعة

١٠ - الخزانة العاشرة

١٢-خزائن التفكر والتدبر

القسم الثاني

١- الخزانة الأولى

التفكر في عظمة خلق الماء :

الماء الذي خلقه الله هو الذي ينزل من السماء غيثًا فيسكن في الأرض بأمر الله، وتخرج منه العيون، وتجتمع منه البحار والأنهار والسيول: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ ﴾[ق: ٩-١٠] .

فالرياح هي هذا الهواء الذي نحس بأثره، ولا نرى جسمه .

والرياح خلق من خلق الله يرسلها الله تبشر بإتيان المطر بعدها، فهي بشير المطر والغيث، كما قال سبحانه : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[الروم:٤٦] .

والغيث رحمة من الله يرحم بها عباده في الدنيا، فتنبت الزروع ، وتثمر الأشجار وتسقي البهائم:﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾[الروم:٤٨-٥٠] .

فلا إله إلا الله، ما أعظم خلقه وتدبيره: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾[الحج:٥-٧]

وكما أن الله ﷻ يرسل الرياح مبشرًة بالمطر منتشرة أمامه، كذلك يحمل عليها المطر ، فالسحاب غير المطر، وإنما السحاب هو الوعاء الذي فيه المطر والمطر نفس الماء وهو نفس الودق ، فالماء في وعاء السحاب وذلك الوعاء لكثرة الماء فيه ثقيل جدًا .

والله بقدرته يحمله على متن الرياح ، ثم تذهب به الرياح حيث شاء الله، فيسيل مطرًا من خلال الثقوب التي بالسحاب، كما قال سبحانه : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأعراف:٥٧-٥٨] .

وجميع المياه التي خلقها الله تنزل من السماء، كما قال سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾[النور:٤٣] .

والماء الذي يصبه الله في السحاب وهي المزن ، ينزله الله من نهر تحت العرش، كما قال سبحانه : ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ

ٱلۡحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ۝١٠ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ۝١١ ﴾[ق:٩-١١] .

والماء الذي ينزل في السحاب، ثم ينزل إلي الأرض مطراً وغيثاً، ينزل بأمر الله وعلمه وقدرته ، فلا تنزل قطرة منه إلا بعلم الله ومشيئته ، فالله خالق كل شيء وهو علي كل شيء وكيل، يصرف هذا الماء كيف يشاء، وينزله علي من يشاء من خلقه وهو العليم القدير:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ۝٣٤ ﴾[لقمان:٣٤] .

فهذا الماء العظيم يصرفه الله حيث شاء، فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء، ليختبر عباده هل يشكرون ربهم إذا نزل عليهم هذا الغيث النافع ، وهل يصبرون إذا صرفه عنهم ويتوبوا إلي ربهم، كما قال سبحانه : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ۝٤٨ لِّنُحۡيِيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ۝٤٩ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ۝٥٠ ﴾[الفرقان:٤٨-٥٠] .

وكم في هذا الماء العظيم الذي ينزل من السماء فيكون بحار وأنهارًا وعيوناً، كم فيه من المنافع العظيمة : ﴿ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۖ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ۝٣٠ ﴾ [الأنبياء:٣٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ۝٥٣ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا

فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾ [الفرقان:٥٣-٥٥] .

وهذا الماء بقاؤه بيد الله وحده: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الملك:٣٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [المؤمنون:١٨-٢٠] .

فسبحان الكريم الرحمن الرحيم الذي مَن على عباده بهذا الماء العظيم ، فأنزل من السماء ماء تحيا به الأرض ويسقي الأنعام وبني آدم ، وأنزل وحيا من السماء تحيا به القلوب وتسعد في الدنيا والآخرة .

والله ﷻ هو الخلاق العليم الذي خلق كل شيء من السائلات والجامدات والعلويات والسفليات ، فالله خلق الماء، وجعل خزائنه في السماء وأنزل من السماء ماءً ، فأسكنه في الأرض في العيون والآبار، والأنهار والبحار ، لينتفع به الإنسان والحيوان والنبات، كما قال سبحانه : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [المؤمنون:١٨-٢٠] .

وأنزل الله الماء من السماء بقدر معين يحصل به نفع الخلق، ويندفع عنهم به الضرر ، ولم يحبسه عنهم لئلا يحصل لهم العطش والهلاك، وموت الإنسان والحيوان والنبات ، ولم يكثره فيكون طوفاناً يغرق الخلق، كما قال

سبحانه : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحجر:٢١] .

والله قادر على إذهابه بعد نزوله فإن الذي أنزله هو الذي يقدر على إذهابه ؛ لكنه رحيم بعباده يسقيهم مع كفرهم ومعاصيهم، لعلهم يذكرون فيتوبون إلى الله الذي خلقهم وأمدهم بنعمه في كل لحظة ، ومنها هذا الماء العظيم: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾[الملك:٣٠] .

ومن رحمته سبحانه أن جعل الماء عذباً فراتاً، ولم يجعله ملحاً أجاجا، كما قال سبحانه : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾[الواقعة:٦٨-٧٠] .

ومن رحمة الله بخلقه أن أنزل لهم الماء من خزائنه في السماء، وأسكنه في خزائنه في الأرض ، لينتفع به الخلق على الدوام ، كما قال ﷻ : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾[المؤمنون:١٨] .

فسبحان الخلاق العليم الذي خلق الماء بأنواعه المختلفة، حلو ومر، وعذب ومالح، وحار وبارد، جمعه في السحاب بقدرته، ثم فرقه قطرات على الأرض بقدرته، ثم جمعه مرة أخرى في البحار والأنهار والعيون بقدرته، وجعله سبباً لحياة كل حي من نبات وحيوان وإنسان: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[الأنبياء:٣٠] .

والرب الذي هذه أفعاله هو الرب الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[البقرة:٢١-٢٢] .

والله جل جلاله خلق الماء، وأنزله من السماء، حيث حمل المطر في السحاب، وهي المزن التي تحمل الماء فتمتلئ السحابة بالماء، حتى تكون ثقيلة لكثرة ما فيها من الماء ، ثم تحملها الرياح العظيمة، لتفرغه في أرض الله الواسعة فينزل الودق وهو المطر من خلال السحاب في لحظة بمقدار معين، في زمان معين ، وفي مكان معين على وجه الأرض التي خلقها الله ﷻ، كما قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ ﴾[النور:٤٣] .

ونزول الماء من السماء فتحيا به الأرض بعد موتها، يدل على عظمة منزله، وكمال قدرته، وأنه يجب الإيمان به واستحقاقه للعبادة وحده لا شريك له، كما قال ﷻ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ ﴾[الفرقان:٤٨-٥٠] .

وما يُقال أو يعتقد أن المطر بخار الماء فالله قادر على ذلك ، ولكن شأنه ليس ذلك وليس المطر بخار من الأرض، وإنما هو نازل من السماء ، ومن قال غير ذلك فليتب إلى الله ؛ لأنه لم يصدق القرآن الذي صرح بنزوله من السماء بقوله : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾[المؤمنون:١٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ ﴾[الحج:٦٣] .

٢- الخزانة الثانية

• **التفكر في خلق الرياح :**

الله ﷻ هو خالق كل شيء، وله الخلق والأمر كله.

قال الله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤] .

خلق الله العالم العلوي، وخلق العالم السفلى، وخلق ما بينهما من الشمس والقمر والنجوم والكواكب، والسحاب والرياح ، فخلق الله ﷻ الرياح العظيمة، وحكمها بقدرته، وصرفها بمشيئته:﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة:١٦٤] .

والرياح نوعان :

رياح الرحمة .. ورياح العذاب .

فرياح الرحمة هي :

المبشرات، والناشرات، والذاريات ، والمرسلات ، والرخاء ، واللواقح .

ورياح العذاب هي:

العاصف، والقاصف، وهما في البحر ، والعقيم والصرصر، وهما في البر .

والرياح مختلفة المهاب وهى نوعان :

رياح البر .. ورياح البحر .

أما رياح البر فأربع:

- الشمال تهب من جهة الشمال
- والجنوب تهب من جهة الجنوب
- والصبا تهب من جهة المشرق
- والدبور تهب من جهة المغرب .

وما بين كل واحدة من هذه المهاب فهي نكباء .

أما رياح البحر فأربع :

العاصف .. والقاصف .. والريح .. الطيبة .

وقد أخبر الله ﷻ عن رياح الرحمة بصيغة الجمع، لاختلاف منافعها من إثارة السحاب ، وتلقيح النبات ، ونقل البذور، وتغذية النبات: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾[الأعراف:٥٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾[الروم:٤٨-٥٠] .

وأما ريح العذاب فإنها واحدة تُرسل من جهة واحدة لإهلاك ما أمرت بإهلاكه كالجيش العظيم الذي لا يقاومه شيء ، ولها صفات في القوة بحسب جُرم من أرسلت عليه كالصرصر والنحس، والعاتية والعقيم:﴿ وَأَمَّا

عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ ﴾[الحاقة:٤-١٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[فصلت: ١٦] .

وقد سخر الله للسحاب عدة رياح:

رياح تثيره، ورياح تحفظه .

ثم رياح تحمله في الجو كالجمل الذي يحمل الراوية .

ثم رياح يؤلف بين قطعه حتى يجتمع .

ثم رياح تلقحه بالماء .

ثم رياح تُسيره وتسوقه إلى حيث شاء الله .

ثم رياح تفرقه إذا نزل لئلا ينزل مجتمعاً فيهلك الدور والنبات والناس والزرع : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ ﴾[الحج:٦٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾[الأنعام:١٠٢] .

فسبحان الرب العظيم الذي خلق ما نراه كالسماء والأرض، وما لا نراه كالروح والريح، وجعل الكل تحت قبضته وقهره: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾[الأنعام:١٠٢-١٠٣].

التفكر في خلق الشمس والقمر والكواكب :

عظمة المخلوق تدل على عظمة الخالق جل جلاله ، والشمس آية من آيات الله العظيمة ومخلوقاته العجيبة التي نراها في كل يوم ، فبطلوع الشمس وغروبها يصلح أمر العالم ، فإذا طلعت تحرك الناس في معايشهم،

ونضجت ثمارهم التي تخرج من أشجارهم ، وإذا غربت هدأ الكون، واستراح الناس من التعب، ولو لم تغرب لكان الحرص الشديد على المعاش يحمل الناس على المداومة على العمل : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ ﴾[النبأ:١٠-١١] .

ولولا الغروب لحميت الأرض بدوام شروق الشمس، واحترق كل ما عليها من إنسان أو حيوان أو نبات ، فمن رحمه الله ﷻ أن جعلها تطلع في وقت، وتغيب في وقت، ليحصل العمل والهدوء .

وارتفاع الشمس وانخفاضها جعله الله سببًا لإقامة الفصول الأربعة التي تتم بها مصالح النبات والحيوان والإنسان، وهى الشتاء والربيع، والصيف والخريف .

أما حركة الشمس فبها ينشر الله النور والحرارة في العالم .

والله ﷻ أنار الكون كله بكوكبٍ واحد فكيف بنوره جل جلاله : ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾[النور:٣٥] .

فبحركة الشمس ينشر الله النور والحرارة في العالم ، ولو كانت واقفة في مكان واحد لأشتد الحر في ذلك الموضع، واشتد البرد في سائر المواضع الأخرى، فاحترق من في الموضع الأول ، وتجمد من في الموضع الثاني ؛ ولكن الحكيم العليم الرحيم جعلها تجرى من جهة إلى جهة، فلا يبقى موضع مكشوف إلا أخذ حظه من الإنارة والحرارة : ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾[يس:٣٨-٤٠] .

فهم يسبحون في هذا الفضاء، ويعبدون الله بكمال طاعته سبحانه .
وأما منافع ميلها في حركتها عند خط الاستواء فلأجل أن تحصل منافعها للمخلوقات في كل بقعة .
فسبحان الخلاق العليم الحكيم في خلقه وتدبيره : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ ﴾[الحجر:٨٦] .
والمشرق والمغرب للشمس والقمر فيه آيات عظيمة .
فالمشرق والمغرب في القرآن على ثلاثة أوجه :
الأول : مفرد يدل على جهة الشروق والغروب ، كما قال سبحانه : ﴿ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ ﴾[المزمل:٩] .
الثاني : مثنى يدل على مشرق الشتاء، ومشرق الصيف ، فمشرق الشتاء تكون الشمس في أقصى الجنوب ، ومشرق الصيف تكون الشمس في أقصى الشمال، وبينهما مسافات عظيمة لا يعلمها إلا هو : ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ ﴾[الرحمن:١٧] .
الثالث : جمع إما باعتبار الشارق والغارب ؛ لأن الشارق والغارب كثير، الشمس والقمر والنجوم، كل أولئك لهم مشرق ومغرب ، أو باعتبار مشرق كل يوم ومغربه، لأن كل يوم للشمس والقمر مشرق ومغرب.
قال الله تعالى : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾[المعارج: ٤٠ - ٤١] .
وخلق الله ﷻ الشمس كتلة عظيمة من اللهب ، فسبحان من خلقها، وسبحان من ملأها بالنور وسبحان من ملأها بالحرارة وملا الكون بنورها ، وهى أكبر من الأرض بأضعاف كثيرة لا يعلمها إلا الله ، والمسافة بين الشمس

والأرض مسافة عظيمة لا يعلمها إلا الله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ [العنكبوت:٦٢] .

وحرارة الشمس عند سطحها تقارب ستة ألاف درجة ، وحرارتها في جوفها تقارب عشرين مليون درجة مئوية، ويمتد لهبها فوقها نص مليون كيلو متر .

والشمس تمد الكون بالنور والحرارة، وهى تجرى في الكون لا تقف أبدًا، ولا يصل للأرض من حرارة الشمس إلا النزر اليسير من حرارة الشمس وأما البقية فتصب في الفضاء العظيم الواسع الذي خلقه الله ﷻ، وملأه بالنور، والحرارة، والبرودة، والهواء، ومع هذا القدر اليسير فكم فيه من البركة والخير لأهل الأرض .

والشمس حرارتها ونورها وجريانها وارتفاعها بمقدار، فلو ارتفعت قليلًا لتجمد كل شيء ولو نزلت قليلًا لتبخر كل شيء في الأرض : ﴿ فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾[يس: ٨٣] .

٣- الخزانة الثالثة

أقسام المخلوقات :

الله ﷻ هو خالق كل شيء ، وجميع مخلوقاته في العالم العلوي والعالم السفلي شاهدة بوحدانية الله، ومسبحة بحمده، وخاضعة لأمره ، ومستجيبة لمشيئته ومسرعة إلى إرادته:﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾[النحل:٤٩-٥٠] .

والمخلوقات التي خلقها الله ﷻ على قسمين :

أحدهما: مخلوقات غير مكلفة :

وهم عالم الجماد ، وعالم النبات ، وعالم الحيوان .

الثاني: مخلوقات مكلفة وهم ثلاثة أصناف :

الملائكة .. والجن .. والإنس .

فالملائكة : خلقهم الله من نور، وكلهم مؤمنون ؛ لكنهم مسخرون، فهم يسبحون بالليل والنهار لا يفترون.

قال الله تعالى : ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم:٦] .

والجن : خلقهم الله من نار، ومنهم المؤمن والكافر، فهم مخيرون ، وأعظم كفار الجن إبليس وذريته، وأبوهم الجان، كما قال سبحانه : ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾[الحجر:٢٧] .

والإنس : خلقهم الله من تراب، وهم مخيرون، ومنهم المؤمن والكافر .
قال الله تعالى : ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾[الإنسان:٢-٣] .
وأعظم كفار الإنس فرعون الذي قال : ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النازعات:٢٤] .
وقال: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص: ٣٨]
وأبوهم جميعاً آدم ﷺ ، ولا شك أن المخلوق المكلف أفضل من غير المكلف ، والملائكة أفضل من الجن ، والبشر المؤمنون أفضل من الملائكة، كما قال سبحانه : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[آل عمران:٣٣-٣٤] .
فالله ﷻ خالق كل شيء ، هو خالق هذا الكون العظيم، العلوي منه والسفلي، سماواته وأرضه ، وشمسه وقمره ، وليله ونهاره ، وما في السموات والأرض من خلق، ومن أمم، ومن سنن، ومن جماد ونبات، ومن إنسان وحيوان : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾[الأنعام:١٠٢] .
والله وحده هو الذي خلق هذا الليل الطامي ، السادل ، الشامل ، الساكن ، البارد .
وهو سبحانه الذي خلق هذا الفجر الأبيض المتفتح في سدف الليل ، وهو سبحانه خالق هذا الصبح الذي إذا تنفس دب النشاط في الحياة والأحياء ،

وتحركت الكائنات في طلب الرزق والمعاش : ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨ ﴾ [التكوير:١٧-١٨] .

وهو سبحانه خالق هذه الظلال السارية الجارية يحسبها الرائي ساكنة، وهي تدب سائرة في هدوءٍ ولطف .

وهو سبحانه خالق هذا النبات النامي المتطلع أبداً إلى النمو والحياة والعلو .

وهو سبحانه خالق هذا الطير الرائح الغادي القافز الراتب ، والواثب الذي لا يستقر على حال : ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءم بَصِيرٌ ١٩ ﴾ [الملك:١٩] .

فمن هداه إلى داره، ومن ساقه إلى طعامه، ومن أمسكه في الجو؟ .

وهو سبحانه خالق هذه الخلائق الذاهبة الآيبة، الغادية الرائحة، مما لا يحصيه إلا الله من الحيوانات، والبهائم، والأنعام ، وهي تتجول في البر والجو والبحر، في تدافعٍ وانطلاق وانتظام وانسجام .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ٣٨ ﴾ [الأنعام:٣٨] .

فسبحان الخلاق العليم الذي هذا خلقه، وهذا مُلكه، وهذا تدبيره، وهذا رزقه : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢ ﴾ [الأنعام:١٠٢] .

التفكر في خلق السماوات والأرض وما بينهما :

الله ﷻ خالق كل شيء : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣ ﴾ [يونس:٣] .

فربنا ﷻ هو الخلاق العليم الحكيم في خلقه وتدبيره: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف:٥٤] .

خلق سبحانه القمر وجعله للتوقيت الشهري ، وخلق الشمس وجعلها للتوقيت اليومي، وبها يتبين الليل من النهار ، والقمر آية الليل، والشمس آية النهار ، وجعل سبحانه في طلوع القمر مصالح، وفي غروبه مصالح ، ففي طلوعه نفعٌ لمن ضل الطريق، وفي غروبه نفعٌ لمن هرب من عدو.

قال الله تعالى : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس:٣٧-٤٠].

فسبحان من خلق القمر وصوره ونوره، وعلي البروج دوره ، وإذا شاء نوره، وإذا شاء كوره ، وخلق سبحانه الشمس، وملأها بالنور والحرارة، ففي طلوعها مصالح للإنسان والحيوان والنبات ، وفي غروبها مصالح من سكون الخلائق، وهدوئها واستعدادها لعمل جديد في يوم جديد: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [فصلت: ٣٧] .

أما النجوم فقد خلقها الله ﷻ لثلاث :

- علامات يهتدي بها
- ورجومًا للشياطين
- وزينة للسماء .

وهي أقسام :

غاربة لا تطلع كالكواكب الجنوبية، وطالعة لا تغرب كالكواكب الشمالية، ومنها ما يغرب تارة، ويطلع أخرى ، ومنها ثوابت ، ومنها سيارات ، ومنها بيضاء، ومنها حمراء ، ومنها كبير، ومنها صغير .

فسبحان الخلاق العليم الذي خلقها لحكمه ونفع عباده : ﴿ وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦ ﴾[النحل:١٦] .

وقال الله تعالى : ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ١٢ ﴾[فصلت:١٢] .

والله ﷻ خلق السموات، وملأها بمن خلقهم من نور، وهم الملائكة، فهي مكان الطاعات التي كلها نور ، فليس في السماء موضع قدم فيه معصية، بل كل العالم العلوي طاعات، وكله نور .

وخلق سبحانه الأرض وملأها بكل ما يحتاجه الإنسان والحيوان، وأسكن فيها آدم ﷺ وذريته الذين خلقهم الله منها، وجعلهم خلفاء فيها .

فهي أمهم التي فيها جميع حوائجهم : ﴿ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ٢٤ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ٢٥ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ٢٦ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ٣١ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٢ ﴾ [عبس:٢٤-٣٢] .

فالأرض مائدة مفتوحة لآدم وذريته، فيها أنواع الأشجار والثمار والحبوب ، والمعادن واللباس والمياه وغيرها من النعم التي لا تُعد ولا تحصى .

فهذه النعم العظيمة جعلها الله للإنسان في الأرض، مع أن الدنيا سجن المؤمن فكيف الحال في الجنة التي فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر :﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ

ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم:٣٢-٣٤] .

والأرض هي أم الإنسان الكبرى، ومواليدها تزيد على أربعين مليون من المواليد ، من أنواع الأشجار والنباتات التي لا يحصيها إلا الله .

فالأرض أم الإنسان الكبرى، وهي أشفق من الأم الآدمية ؛ لأن الأرض تطعمك بأمر الله من ألوان الطعام، وتسقيك من أنواع الشراب ، والأم إنما تسقيك لوناً واحداً هو الحليب: ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٧﴾ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴿٨﴾﴾ [ق:٧-٨] .

وإكراماً لهذا الإنسان سيعيده الله إليها إذا مات، فهي أمه التي خُلق منها ، ثم يخرجها منها إلى دار القرار في الجنة إن كان مؤمناً، وإلى النار إن كان كافرًا : ﴿ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه:٥٥] .

والله سبحانه لما خلق السماء والأرض جعل بينهما ما يشبه عقد النكاح، بإنزال الماء من السماء على الأرض، ليخرج به من بطن الأرض أنواع المواليد من الحبوب والثمار والأشجار والنبات التي جعلها الله رزقًا لبني آدم:﴿ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ [الحج:٥-٧]

فهذه حكمة إنزال الماء، وإظهار الثمرات، أن نعرف هذه الأمور الخمسة التي ذكرها الله ، والله قادرًا على خلق هذه الثمار بدون وسائط ولا تعب ؛

ولكن الله يريد بذلك تنبيه الناس إلى أنهم إذا تحملوا المشاق في الحرث والغرس والبناء من أجل تحصيل المصالح الدنيوية ، فلأن يتحملوا أقل المشاق لطلب المنافع الأخروية التي هي أعظم وأولى، كما قال سبحانه : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾[آل عمران:١٤-١٦] .

والله قادراً على خلق الشفاء من دون الدواء ، بل قادرٌ على أن يسلم الإنسان فلا يمرض أبداً، لكنه أجرى العادة بتوقيفه عليه رحمة بالإنسان وتنبيهاً له؛ بأن يتحمل مرارة الدواء دفعاً للضرر والمرض الذي يصيب البدن ، فلأن يتحمل مشاق التكليف دفعاً لضرر العقاب أولى : ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ ﴾[الضحى:٤] .

فللدنيا حرث، وللأخرة حرث، والعاقل يختار ما يبقى على ما يفنى، والكل من عطاء الله وحده:﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ ﴾[الإسراء: ١٨ – ٢١] .

٤ - الخزانة الرابعة

- **التفكر في عظمة خلق الخالق جل جلاله:**

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ ﴾[الحجر:٨٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾[الزمر: ٦٢ – ٦٣] .

فسبحان الخلاق العليم الذي خلق هذه البشرية كلها من نفسٍ واحدة، وخلق هذه الأرحام التي تدفع ، وهذه المواليد التي تتابع، والقبور التي تبلع .

قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾[النساء:١]

وهو سبحانه خالق هذه الشمس الجارية، وهذا القمر الساري، والكواكب المبثوثة، والنباتات المختلفة، والزروع المتنوعة ، والبحار المسجرة، والأنهار الجارية، والجبال الراسية ، فمن هذا خلقة ومن هذه قدرته، ومن هذه عظمته ومن هذا ملكه، أيحتاج إلى البشر، أو إلى عبادة البشر: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾[فاطر: ١٥].

أنتم الفقراء إلى الله في خلقكم ، وفي إمدادكم بالأرزاق ، وفي إنزال المنهج الذي تسيرون عليه ، أنتم الفقراء إلى الله في الهواء الذي تتنفسون منه ، والماء الذي تشربون ، والطعام الذي تأكلون.

فهذا الرب العظيم الخلاق العليم ، القادر على كل شيء ، الغني عن كل أحد ، الذي يحتاج إليه كل أحد ، أيليق بالعاقل أن يشرك به ويعبد معه غيره :﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ ﴾[الأعراف:١٩١-١٩٢] .

وقال الله عز وجل﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾[الزمر:٦٤-٦٦] .

إن هذه المخلوقات العظيمة، والآيات العجيبة، في هذا الكون العظيم، هي التي تلمس الحس، وتوقظ القلب، لو تفتح وتدبرها تدبر الواعي المدرك: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾[يونس:١٠١] .

وقال الله تعالى : ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾[الغاشية:١٧-٢٠] .

إن الله ﷻ هو الذي خلق هذه المخلوقات ودبرها ، فهو الذي يليق أن يكون رباً يدين له البشر بالعبودية ولا يشركون به شيئًا من خلقه : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾[الأنعام:١٠٢] .

إن القرآن الكريم يَعمد مباشرة إلى إيقاظ القلوب والعقول لتدبر ما في هذا الكون من العجائب والآيات، والبصائر والعبر:﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾[النحل: ١٧ – ١٨] .

وقال الله عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف:٥٤] .

إن هذه المخلوقات العظيمة الواسعة في العالم العلوي والعالم السفلي من الصور والأشكال ، والحركات والأحوال والمجيء والرواح ، والبقاء والفناء والحياة والموت ، والذبول والنماء، والشروق والغروب، والحركة الدائبة في هذا الكون الواسع العظيم التي لا تسكن ولا تتوقف لحظه من ليل أو نهار، إن هذا كله ليستجيش كل خالجة في قلب الإنسان للتدبر والتأمل والتفكر: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [المؤمنون:٨٤-٩٢] .

فمتى يستيقظ القلب، ويتفتح لمشاهدة الآيات العظام المبثوثة في ظواهر الكون العظيم، وحناياه الواسعة : ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا

﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ ﴾[النبأ:١-١٧] .

وقال الله عز وجل: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ ﴾[لقمان: ١١] .

وقال الله عز وجل:﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾[يونس:١٠١] .

- **التفكر والتدبر في خلق المخلوقات :**

إن الإنسان الذي خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء ، هذا الإنسان الذي كرمه الله بأنواع الكرامات، كما قال سبحانه : ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾[الإسراء:٧٠] .

هذا الإنسان لو وقف لحظه واحدة يرقب ما خلق الله في السموات والأرض من العوالم وأنواع المخلوقات ، ويستعرض هذه المخلوقات العظيمة التي لا تُحصى من الأنواع، والأجناس، والهيئات، والأحوال، والأوضاع، والأشكال ، لو وقف لحظة واحدة لامتلأ قلبه بالإيمان بالله، وفاض بما يغنيه في حياته كلها، ويشغله بالتدبر والتفكر والتأثر ما عاش : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾[ق:٦-١١] .

ولا يدرك هذه المعاني إلا أهل الإيمان والتقوى ، التقوى التي تجعل القلوب سريعة التأثر ، سريعة الاستجابة لخالق هذه المخلوقات : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾[آل عمران:١٩٠ -١٩١] .

إن الله العليم بما خلق، يخاطب الفطرة البشرية بآيات الله الكونية المبثوثة حول الإنسان في هذا الكون العظيم ، والتي يعلم سبحانه أن بينها وبين فطرة الكائن البشري لغة مفهومه، وإيحاءات مسموعة، تؤدي إلى الإيمان بالله وعبادته ، وهذه من أقوى الأدلة المقنعة للقلب والعقل جميعًا : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[الروم:٣٠] .

أما الجدل فإنه لا يصل إلى القلب، ولا يتجاوز منطقة الذهن الباردة التي لا تدفع إلى حركة نافعة، ولا تؤدي إلى بناء حياة طيبة ، ولا تزال دلالة وجود الكون ذاته، ثم حركته المنتظمة، وكثرة أنواعه وأجناسه، تحاصر الهاربين من الله هنا وهناك وتردهم إليه : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ ﴾[الذاريات:٤٧-٥١] .

والفطرة البشرية بجملتها قلباً وعقلاً، وحساً ووجداناً، تواجه هذه الدلالة، وتستجيب لها، وتتأثر بها، وتدرك أن خالق هذا الكون هو الحق ، وأن ما شرعه هو الحق، وأن وعده هو الحق : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۖ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ

ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحشر:٢٢-٢٤] .

والفطرة البشرية بينها وبين هذا الكون الذي نعيش فيه لغة خفية غنية، تسمع لهذا الكون، وتعقل عنه .

إن النظر إلى ما في السماوات والأرض يمد القلب والعقل بزاد من المشاعر والتأملات الإيمانية ، وزاد من الاستجابات والتأثرات، وزاد من سعة الشعور بالوجود، وزاد من التعاطف مع هذا الوجود ، وذلك كله يملأ القلب بالإيمان، ويوحي إليه بوجود الله، وبجلال الله، وتدبير الله، وبحكمة الله وبعلم الله وبرحمته : ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء:٤٣-٤٤] .

إن غذاء القلوب يكون بسبعة أشياء، وكلها مذكورة في القرآن الكريم:

معرفة الله، ومعرفة أسمائه الحسنى، ومعرفه صفاته العلى، ومعرفه أفعاله الحميدة، ومعرفه خزائنه العظمى، ومعرفه وعده بالثواب لمن آمن به، ومعرفه وعيده بالعقاب لمن كفر به .

فمن تغذى قلبه بهذه الأغذية العظيمة آمن بالله، وعبده وحده لا شريك له: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٠٢ – ١٠٣] .

ويتم ذلك بالنظر في الآيات الكونية، والتدبر للآيات القرآنية .

فإذا كان الإنسان مهتدياً بنور الله إلى جوار هذه المعارف العلمية والنظرية عن هذا الكون ، زادته هذه المعارف من الزاد الذي يحصل من التأمل في هذا الكون العظيم، والأنس به، والاشتراك معه في تسبيحه بحمد الله ، ولا يفقه تسبيح كل شيء بحمد الله إلا الموصول قلبه بالله : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ ﴾ [الجمعة: ١]

وأما إن كانت هذه المعارف العلمية غير موصولة بالله، وغير مصحوبة ببشاشة الإيمان ونوره ، فإنها تقود الأشقياء إلى مزيد من الشقوة والبعد عن الله : ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [البقرة:٣٨-٣٩] .

فهذه العلوم والمعارف المقطوعة عن الله، تقود الإنسان إلى الشقاء ، إلى مزيد من النكد والحياة الضنك ، والبعد عن الله، والحرمان من بشاشة الإيمان، وفقد الأنس بالله : ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يونس:١٠١] .

وماذا تُجدي الآيات والنذر إذ استغلقت القلوب، وتجمدت العقول ، وتعطلت أجهزه الاستقبال والتلقي في الفطرة، واحتجب الإنسان بحُجب تمنعه من رؤية عظمة العظيم ، وكبرياء الكبير، وخلق الخلاق العليم ، فلم يسمع، ولم يبصر، ولم يتدبر : ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يونس:١٠١] .

إن كتاب الله المفتوح لكل أحد مملوءٌ بالتعريف بعظمه الرب سبحانه ، فقد جعل الله هذا الكون العظيم معرضاً جميلاً واسعاً، تتجلى فيه عظمة الخالق ، وعظمة أسمائه وصفاته، وعظمة أفعاله ، وعظمة ملكه وسلطانه

وعظمة نعمه وإحسانه، وعظمة مخلوقاته، في معرض كوني كبيراً مفتوح طول الحياة لعموم البشرية يتجولون فيه، فيزيد إيمانهم، وتقوى عبادتهم : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[الأنفال:٢- ٤].

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[السجدة: ١٥ – ١٧] .

فلا يُحرم من النظر إلى ذلك وتأمله من إلا محروم : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[الأنبياء:٣٠] .

إن الفطرة البشرية بها حاجة ذاتية إلى التدين، وإلى الاعتقاد بإله ، وحين تصح وتستقيم وتؤمن تجد في أعماقها اتجاهًا إلى الله الواحد الأحد، وإحساساً قوياً بوجود هذا الإله الواحد العظيم ، وذلك مركوزاً في الفطر، يوقظه ويحيه ويزيده النظر في الآيات الكونية، والآيات القرآنية ، ووظيفة العقيدة الصحيحة ليست إنشاء الشعور بالحاجة إلى إله والتوجه إليه ، فإن هذا مركوزاً في الفطر، كما قال سبحانه : ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[إبراهيم:١٠]

بل وظيفة الإيمان هي تصحيح تصور الإنسان لإله عظيم واحدٍ أحد ، غني عن كل أحد، يحتاج إليه كل أحد .

وتعريف هذا الإنسان بالإله الحق الذي لا إله غيره، ولا رب سواه ، وتعريفه بأسمائه وصفاته وأفعاله، لا تعريفه بوجوده وإثباته ، فلا شك في وجوده بل وجوده أظهر من أن يُستدل عليه بدليل ، فهو أبين من كل بين ، فهو الحق المبين الذي لا أبين منه .

ثم تعريف العبد بمقتضيات الألوهية في حياته من شعائر تصله بمعبوده، ومن شرائع تنظم منهج حياته مع الخلق، ومن أخلاقٍ تزين وتجمل حياته، ومن لم ينسجم إذا أطاع مع الكون في الطاعة والعبادة فقد ضل سواء السبيل : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحج: ١٨] .

والشك في حقيقة وجود الله أو إنكاره هو بذاته دليلُ قاطع على اختلال بين في عقل الإنسان ، وعلى تعطل أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية فيه ، ولذلك إنكار الرب قليلُ في العباد: ﴿ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم:١٠]

أيوجد خلقٍ بدون خالق ، أيوجد كون بدون مكون ، أتوجد صور بدون مصور ، أتوجد أرزاقٌ بدون رازق : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾[الأنعام:١٠٢-١٠٣] .

وإذا تعطلت أجهزه الاستقبال والتفكر، والتأمل والاستجابة، في الإنسان ، فلا سبيل إلى قلبه وعقله، لإقناعه بالجدل والمناظرة ، إنما يكون السبيل إلى علاجه، هو محاولة تنبيه أجهزه الاستقبال والاستجابة فيه، واستجاشة كوامل الفطرة في كيانه، لعلها تتحرك وتسلك الصراط المستقيم، وتهتدي إلى ربها الخلاق العليم .

إن لفت الحس والقلب والعقل إلى ما في السماوات والأرض من آيات ومخلوقات، وسيلة من أكبر وأعظم الوسائل لاستحياء القلب الإنساني الميت، لعله ينبض ويتحرك، ويتلقى ويستجيب.

قال الله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾ [ق:٦ -٨] .

٥- الخزانة الخامسة

• **التفكر في عظمة قدرة الله جل جلاله:**

إن الله ﷻ خلق الإنسان ، واختار له الدين الذي يَسعد به في الدنيا والآخرة :﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[المائدة:٣] .

وأعداء هذا الدين شغلوا البشرية عامة ، والمسلمين خاصة بالعلم الإنساني عن العلم الإلهي ، وشغلوهم بالاشتغال بالشهوات والمصنوعات عن عبادة رب الأرض والسموات ، وصرفوهم عن النظر في الآيات الكونية والآيات الشرعية إلى النظر في المصنوعات البشرية ، وشغلوهم عن صُحف القرآن بالصُحف الهزيلة، وشغلوا أوقاتهم بكل مخزٍ وتافه، وقبيح وضار :﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الصف : ٨- ٩]

فأعداء الإسلام صرفوا اهتمام المسلمين من الآخرة إلى الدنيا بجمع الأموال والإسراف في الشهوات، والعبث بالأوقات حسداً وبغياً : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾ [النساء:٥٤ -٥٥] .

وحَشر الأعداء البشرية كلها في هذه الميادين المسمومة، فأنى يجدوا العافية؟ إن آيات الله العظيمة في الكون، وعجائبه في المخلوقات في العالم العلوي والعالم السفلي ، وآلاءه ونعمه على الناس، تخاطب كل حاسة في الإنسان ، وكل جارحة في الكيان البشري، وتتجه إلى العقل الواعي كما

تتجه إلى الوجدان الحساس ، إنها تخاطب العين لترى ما في ملكوت السماوات والأرض ، وتخاطب الأذن لتسمع آيات الله المنزلة، وتخاطب الحواس لتستشعر ما في عظمة المخلوقات وسعه رحمة الله ﷻ : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾ [ق: ٦ – ٨] .

وتخاطب القلب ليتأثر، والعقل ليتدبر جلال الله، وعظمته، وعلمه، وحكمته، وقوته، وقدرته، وفضله، وعدله، ولطفه ورحمته ، ومن ثَم يعرف العبد من يعبد، ومن يطيع: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾ [محمد: ١٩] .

إن آيات الله الكونية العظيمة منتشرة في الكون كله في العالم العلوي والعالم السفلي ، وما في الآخرة أعظم وأكبر ، وما في عالم الغيب أعظم وأكبر، فهذه الآيات الكونية المنتشرة في الكون كله سماواته وأرضه، وشمسه وقمره وليله ونهاره، وجباله ، وبحاره، وفجاجه وأنهاره، وظلاله وأكنانه، ونبته وثماره، وحيوانه وأطياره، وانسه وجنه، فهل من متدبر، وهل من متفكر ؟.

قال الله تعالى : ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يونس: ١٠١] .

وقال الله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الغاشية:١٧- ٢٠] .

وآيات الله الشرعية تكشف للإنسان دنياه وآخرته ، وأسرار هذا الكون وغيوبه ، وما ينفع الإنسان وما يضره ، وما يصلحه وما يُفسده ، وما يحب ربه وما يُبغضه ، وما يرضيه وما يُسخطه ، ويبين أسماء الرب وصفاته وأفعاله، ومخلوقاته، ووعده ووعيده ، فهل من متفكر وهل من متدبر ؟ .

قال الله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾[النساء:٨٢].

إن الآيات الكونية، والآيات الشرعية مُنبه عظيم، ومذكر كبير ، يوقظ الحواس والجوارح، وينبه العقول والقلوب للإيمان بالله : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾[الجاثية:٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾[الصافات:١٥٥] .

إن آيات الخلق والإيجاد ، وآيات النعم والإحسان ، وآيات التدبير والتصريف، وآيات العزة والتمكين ، وآيات البطش والانتقام، من أعظم الأدلة على الخالق العظيم سبحانه :﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾[الأنعام:١٠٢] .

فهل من خالقٍ غير الله يعبده الناس : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ ﴾[فاطر:٣] .

وهل يستوي من يخلق ومن لا يخلق : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾[النحل:١٧-٢٠] .

أفيجوز أن يسوي الإنسان في حسه وتقديره بين من يخلق ذلك الخلق، كله ، ومن لا يخلق لا كبيرًا ولا صغيرًا بل هو مخلوق مربوب مملوك : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ ﴾ [الجاثية:٧-٨] .

والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىَ جعل في الماء حياة كل حي ، ليحي به الأرض بعد موتها ومن عليها من الإنسان والحيوان والنبات : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنبياء:٣٠] .

وخير ما أنزل الله على عباده الوحي الذي به حياة الروح ، ويليه الماء الذي به حياة الأجسام ، ومن الناس من يقبل الوحي الإلهي ، ومنهم من لا يقبله ، كذلك الأرض منها ما يقبل الماء، ومنها ما لا يقبله : ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأعراف: ٥٨] .

وهذا اللبن الذي تدره ضروع الأنعام بأمر الله: ﴿ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [النحل:٦٦] .

أليس له خالق قدير : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [النحل:٦٦] .

وهذه الأسراب من النحل ذلل الله لها سبل الحياة بما أودع في فطرتها ، وسخرها لجمع الرحيق من الأزهار والثمار، ليخرج من بطونها شرابٌ فيه شفاءُ للناس ، كما أن في الوحي شفاءُ لأرواح الناس : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [الإسراء:٨٢] .

فسبحان من سخر هذه الأمة العظيمة من النحل، لنفع البشرية بهذا الشراب اللذيذ وهو العسل : ﴿ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ

بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [النحل:٦٩] .

والله ﷻ مجد جُهد النحل، ولم يمجد النحل ؛ لأن جُهد النحل يشبه جُهد الداعي إلى الله الذي يتلقى الوحي، ثم يبلغه للناس كما أمره ربه : ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [إبراهيم:٥٢] .

فسبحان من أنزل الماء الذي به حياة النبات والإنسان والحيوان ، وسبحان من أنزل الوحي الذي به شفاء القلوب وهداها .

فمن هذا خلقه، ومن هذه قدرته، وهذه عظمته هو الرب الذي يستحق أن يُعبد، ويُشكر فلا يكفر ، ويطاع فلا يعصى ، ويُذكر فلا يُنسى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنعام:١٠٢-١٠٣].

والله سبحانه وحده هو الذي خلق البشر، وجعل لهم الأزواج والبنين، ورزقهم من الطيبات، فكيف يشركون به ، وكيف يخالفون أمره وهذه النعم كلها منه ومن عطاءه : ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [النحل:٧٢] .

فكيف لا يعبد الناس ربهم الذي خلقهم ورزقهم : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾[النحل:٧٣] .

وإنه لعجيبٌ حقاً، وعظيمٌ حقاً، أن ينحرف الناس إلى هذا الحد ، ليتجهون بالعبادة والطاعة إلى ما لا يملك لهم رزقاً، وما هو بقادر في يوم من الأيام،

ولا في حال من الأحوال ، ويَدعون الله الخالق الرازق وآلاؤه ونعمه بين أيديهم في كل مكان لا يملكون إنكارها : ﴿ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾[النحل:٨٣] .

فما أخطر الجهل، وما أعظم الجحود، وما أقبح الكذب : ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴿٣٤﴾ ﴾[إبراهيم: ٣٤] .

إن من أعظم المشاهد المتكررة في كل يوم، والتي خلقها الله ﷻ لتدل على عظمه أسمائه وجميل صفاته ، هذه المشاهد العظيمة من هذا السقف العظيم المرفوع، وهذا البحر المسجور ، وهذه الأرض المبسوطة، وهذه الشمس المضيئة ، وهذا القمر المنير، وهذا الإنسان المُكَرم ، وهذا النبات المتكاثر، وهذه الكواكب المنتشرة، وهذه الثمار المتراكبة ، وهذه الجبال الراسية، وهذه السهول الممتدة ، وهذه الرياح العاصفة، هذا كله خلقُ الله الذي: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿١١﴾ ﴾[لقمان:١٠ – ١١] .

هذه المشاهد العظيمة المنظورة المتكررة، قد ذهبت الألفة بما فيها من عجب ودليل على وجود الله العظيم الذي خلقها وأبقاها جل جلاله:﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾[الأنعام:١٠٢ – ١٠٣] .

فمشهد الطير في جو السماء مشهداً مكرور، قد ذهبت الإلفة بما فيه من عجب ، وتحليقه في جو السماء آية عجيبة:﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [النحل:٧٩] .

فسبحان من جعل الطير قادراً على الطيران، ومن جعل الجو من حوله مناسباً لهذا الطيران ، ومن أمسك به طائرة في جو السماء ، وهذا القمر المنير، وهذه الشمس المضيئة خلقها الله ﷻ في هذا الفضاء العظيم : ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس:٤٠] .

فالتفكر في عظمه خلق السماوات والأرض، وما فيهما من العجائب والآيات ، ينشأ منه توجيه القلب إلى الله، وإيقاظه لرؤية آلاء الله، وشهود رحمته وفضله، وتأمل بدائع صنعه في خلقه ، وامتلاء الحس بهذه البدائع والعجائب، وفيضه بالتسبيح والحمد والتكبير لله العلي الكبير : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾ [الأنعام:١] .

والله ﷻ بديع السماوات والأرض، ومُنشئ هذه الخلائق الهائلة، السماوات والأرض ، وإنها لمخلوقات عظيمة ؛ لكن الإلفة قد أفقدتنا الجمال والجلال والروعة التي يحسها القلب، وهو ينظر إلى هذه البدائع للمرة الأولى :﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الأنعام:١٠١] .

ولا يحتاج القلب الواعي الموصول بالله إلى علم دقيق بمواقع النجوم في السماء، وأحجامها، وطرق سيرها، ليستشعر الروعة والرهبة أمام هذا الخلق الهائل العجيب من الخلاق العليم سبحانه ، فحسبه إيقاع هذه المخلوقات على قلبه ، حسبه مشهد النجوم المتناثرة في الليلة الظلماء ، حسبه مشهد النور الفائض في الليلة القمراء ، حسبه الفجر المنفجر كل يوم بالنور الموحى بالتنفس والانطلاق .

حسبه الغروب الزاحف بالظلام الموحى بالوداع والانتهاء ، حسبه الأرض وما فيها من النباتات المختلفة من النبات النامي، والنهر الجاري، والحَب المتراكب ، وما فيها من مشاهد وحركات لا تنتهي ولا يستقصيها أهل الأرض ولو قضوا أعمارهم في السياحة والتفكر والتأمل: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الذاريات:٢٠ -٢٢] .

فلا إله إلا الله، ما أعظم مخلوقاته التي تدل خلقه عليه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٩٩] .

٦- الخزانة السادسة

- **التفكر في عظمة قدرة الله جل جلاله:**

إن آيات الله في الكون كفيلة بتوجيه الناس إلى الإيمان بالله ﷻ، لو تدبروها، وتفكروا في خلقها، وجمالها وجلالها، وعظمتها ونموها وبقائها وحركتها ومنافعها : ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١ ﴾[يونس:١٠١] .

فمن تأمل هذه الآيات العظيمة استيقظ قلبه ، وتفتحت مغاليقه، وتوجه قلبه إلى تعظيم مُبدع هذا الكون العظيم: ﴿ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٣ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٤ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٥ ﴾ [الجاثية:٣-٥] .

والآيات المبثوثة في السماوات والأرض لا تقتصر على شيءٍ دون شيء ، ولا على حال دون حال:

فسبحان من بيده الخلق والأمر، والتدبير والتصريف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٥٤ ﴾[الأعراف: ٥٤] .

إن الإنسان حيثما مد بصره وجد آيات الله تطالعه في هذا الكون العجيب، ليعرف الخالق من المخلوق، والصور من المصور، والأرزاق من الرزاق، فهذه السماوات العظيمة بأجرامها آية، وإمساكها آية، وأفلاكها الهائلة العظيمة آية ، ونثر هذه الكواكب والنجوم في هذا الفضاء العظيم الهائل آية، ودورة هذه الأجرام في أفلاكها في دقة وانسجام وانتظام آية ، وآيات الله لا يحصيها إلا الله جل جلاله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ ﴾[الحجر:٨٦] .

وذلك كله لا تشبع العين من النظر إليه ، ولا يشبع القلب من تمليه ، ولا يشبع العقل من التفكر فيه ، ولا يشبع اللسان من الكلام فيه ، ولا تمل الأذن من سماعه : ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ ﴾[لقمان: ١١] .

وهذه الأرض الواسعة العريضة آية، والبشر بالنسبة إليها كالذرة ، وهي كالذرة بالنسبة للفضاء الذي يحيط بها ، والله يمسكها أن تضطرب أو تزول ، وكل شيء في الأرض آية ، وكل حي آية، وفي كل جزء من كل شيء في السماء والأرض آية : ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ ﴾[الذاريات: ٥٠-٥١] .

وقال الله عز وجل: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾ [ق:٦ -٨] .

والصغير الدقيق كالضخم الكبير آية، هذه الورقة الصغيرة، وهذه الثمرة اللذيذة في هذه الشجرة الضخمة أو النبتة الهزيلة آية ، آية عظيمة في شكلها وحجمها، وآية في لونها وملمسها، وآية في وظيفتها وتركيبها، وآية في طعمها وحلاوتها ، فهل ننظر ونتفكر في خلق هذا النبات المختلف الأنواع وما فيه من الآيات والعجائب، كما قال سبحانه : ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٩٩﴾[الأنعام:٩٩] .

وهذه الشعرة في جسم الحيوان آية، وفي جسم الإنسان آية ، وهذه الريشة في جناح الطائر آية ، وحيثما مد الإنسان ببصره في الأرض أو في السماء تزاحمت الآيات أمامه، وأعلنت عن نفسها لقلبه وسمعه وبصره ، تخبره أن الذي خلقها هو الخلاق العليم، الذي له مُلك السماوات والأرض، وله ما في السماوات والأرض .

وهي تسبح بحمد ربها، وتشهد بوحدانيته، وتخضع لأمره: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤٤﴾[الإسراء: ٤٤].

ولكن لمن تُعلن هذه الآيات عن نفسها ، ومن الذي يراها ويستشعرها ؟ إنهم المؤمنون الذين اتصلت قلوبهم بالله، فعرفوه بآياته ومخلوقاته ، فالإيمان هو الذي يفتح القلوب لتلقي الأصداء والأضواء، ورؤية النعم والآلاء، والمخلوقات العظيمة .

والإيمان هو الذي تُخالط بشاشته القلوب فتحيا وتستيقظ، وتلتقط ما يظهر به الكون من إيحاءات خفية وظاهرة تشير كلها إلى قدرة الخالق المبدع

الذي خلق كل شيء، وأحسن خَلقه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: ١٠٢ – ١٠٣] .

ولكن بلادة الإلفة تذهب بروعة النظر والتأمل، والتدبر والتفكر، في هذا الكون العظيم، الكبير العجيب، الواسع الجميل، أين أهل العقول والألباب؟

قال الله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ﴾[محمد:٢٤] .

وقال الله تعالى : ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [يس:٦٨] .

وقال الله تعالى : ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾[السجدة:٢٦] .

وقال الله تعالى : ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الأنعام:٨٠] .

وقال الله تعالى : ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[الأنبياء:٣٠] .

فهذا الكون العظيم معرض عظيم متكرر، ثابت ومتغيرٌ، يدعو الإنسان إلى الإيمان بالله وعبادته وحده لا شريك له، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١ – ٢٢] .

فهذا الكون العظيم لا تشبع العين من تملي جماله وروعته ، ولا يشبع القلب من تملي إيحاءاته وإيماءاته ، ولا يشبع العقل من تدبر نظامه ودقته ، والذي يتأمل هذا الكون بهذه العين، وبهذا العقل، يرى معرضاً إلهياً باهراً رائعاً ، لا

تخلق بدائعه وعجائبه، لأنها أبداً متجددة للعين والقلب والعقل : ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ ﴾[النور:٤٤] .

والإنسان الذي يعرف شيئاً عن طبيعة هذا الكون ونظامه تدركه الدهشة والذهول ، ويرى قدرة الجبار في الخلق والتصوير، والتحريك والتسكين، والتغيير والتبديل ومن نعمة الله على البشر أن أودعهم القدرة على التجاوب مع هذا الكون بمجرد النظر والتأمل : ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾[يونس:١٠١] .

إن القرآن يكل الناس إلى النظر في هذا الكون المفتوح، وإلى تملي مشاهده وعجائبه ، ذلك أن القرآن يخاطب الناس جميعاً على مختلف مستوياتهم العلمية والفكرية والعقلية ، يخاطب ساكن المدينة كما يخاطب ساكن الغابة ، ويخاطب العالم كما يخاطب الأمي الذي لم يقرأ ولم يكتب .

وكل واحد من هؤلاء يجد في القرآن ما يصله بهذا الكون العظيم وما يثير في قلبه التأمل والاستجابة، وما يعرفه بربه العظيم، ويذكره بآياته ومخلوقاته : ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾[الأعراف:١٨٥] .

في القرآن الكريم من الأدلة والبراهين والآيات الدالة على كمال الباري تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ووصفه بالأسماء الحسنى، والصفات العلا، الموجبة لامتلاء القلوب من معرفته ومحبته وتعظيمه وإجلاله وصرف جميع أنواع العبودية الظاهرة والباطنة له تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾[النحل: ٨٩] .

وإن من أكبر الظلم والفُحش اتخاذ أندادٍ لله من دونه، ليس بأيديهم نفع ولا ضر، بل هم مخلوقون مفتقرون إلى الله في جميع أحوالهم : ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [الشورى:٩] .

وقال الله تعالى : ﴿قِطۡمِيرٍ ١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرِۭ ١٤﴾[فاطر: ١٣ – ١٤] .

فهؤلاء قد غلطوا أقبح الغلط في عبادة أولئك الأولياء ، الله سبحانه هو الولي الذي يتولاه عبده بعبادته وطاعته، وتوحيده والإيمان به، والتقرب إليه بما أمكن من أنواع القربات ، وهو سبحانه الولي والمولى الذي يتولى عباده وجميع الخلائق بتدبيره ونفوذ القدر فيهم ، ويتولى عباده المؤمنين خصوصاً بإخراجهم من الظلمات إلى النور وتربيتهم بلطفه وعونه : ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾[الحج:٧٨] .

٧- الخزانة السابعة

• **التفكر في خلق السماوات والأرض وما بينهما:**

الله ﷻ هو الذي خلق السموات والأرض، والشمس والقمر، وخلق الليل والنهار : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾[الأنعام:١] .

والله ﷻ خلق النهار، وجعل من أعظم آياته الشمس، وخلق الليل، وجعل من أعظم آياته القمر : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[فصلت:٣٧] .

والفرق بين خلق الله، وخلق الناس :

أن الخلق المنسوب إلى الله إيجادٌ بعد عدم وتحويل وتغيير .

وخلق الله يتميز بالنمو والتكاثر، والحياة والحركة ، والخلق المنسوب إلى الناس مجرد تغيير وتبديل، فالله خلق الخشب والحديد من عدم، ولا يمكن للبشر خلقهما .

لكن الإنسان يستطيع أن يحول الخشب إلى باب ، والحديد إلى سيارة ، يحوله من صفة إلى صفة ؛ لكن إيجاده من عدم مختصٌ بالله وحده لا شريك له : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾[الأنعام:١٠٢] .

وخلق الإنسان يسمى خلقًا مجازًا ؛ لأن الله خلق الإنسان وما يعمل كما قال سبحانه : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾[الصافات:٩٦] .

وقال الله ﷻ: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ ۝٨ ﴾ [الفجر:٦-٨] .

فيجوز أن يُقال على مصنوع الآدمي خلقه فلان .

والله سبحانه خلق الشمس والقمر، وجعل الشمس دليلًا على النهار، والقمر دليلًا على الليل ، فالشمس توقيت يومي يتبين فيها الليل من النهار ، والقمر توقيت شهري يتبين فيه أول الشهر ووسطه وآخره: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ۝٣٧ ﴾ [يس: ٣٧] .

والله سبحانه خلق الشمس وجعل لها مستقرين :

الأول : المستقر المكاني، وهو تحت العرش مما يلي الأرض من ذلك الجانب، فالشمس إذا كانت في قبة الفلك وقت الظهر تكون أقرب ما تكون إلى العرش ، ولهذا نسجد لله في هذا الوقت في صلاة الضحى وفي صلاة الظهر، تعظيمًا للرب الذي خلقها فأطلعها، ثم استوت في كبد السماء، ثم مالت إلى الغروب ، فإذا استدارت إلى ما يقابله وهو وقت نصف الليل صارت أبعد ما تكون من العرش فحينئذ تسجد، وتستأذن في الطلوع في يوم آخر ونحن نصلي في ذلك الوقت صلاة التهجد ، وذلك حين وقت النزول الإلهي إلى السماء الدنيا فنزدلف إلى الله بتلك الصلاة .

الثاني : المستقر الزماني، وهو منتهى سير الشمس، وهو يوم القيامة ، فهي تسير إلى أجل ووقت لا تعدوه، فكما أن الإنسان يعيش في الدنيا إلى أجل ثم يموت ؛ كذلك الشمس تجري لمستقر زماني لها وهو يوم القيامة، فإذا وصلته سكنت حركتها، ووقف سيرها وهو مستقرها الزماني، كما قال سبحانه : ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٣٨

وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾[يس:٣٨-٤٠] .

وفي اختلاف الليل والنهار آيات .

واختلاف الليل والنهار يكون من وجوه متعددة :

الأول : من جهة النور، فالليل مظلم، والنهار مضيء: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ ﴾[الإسراء:١٢] .

ثانيًا : من جهة الطول والقصر، أحيانًا يطول الليل، وأحيانًا يطول النهار، وأحيانًا يتساويان، كما قال سبحانه : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ﴾[الحج: ٦١] .

الثالث : من جهة الجو، فتارة يكون الليل باردًا، وتارة يكون الليل حارًا، وتارة يكون معتدلًا ، وكذلك النهار تارة يكون حارًا، وتارة يكون باردًا، وتارة يكون معتدلًا.

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾[آل عمران: ١٩٠] .

الرابع : من جهة المنافع كالخصب والجدب، فتارة تكون الدنيا خصبًا وربيعًا ورخاءً ، وتارة تكون جدبًا وقحطًا وسنين:﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ ﴾[النور: ٤٤] .

الخامس : من جهة السلم والحرب، فتارة تكون الدنيا سلمًا ، وتارة تكون حربًا : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾[آل عمران:١٤٠] .

التفكر في خلق المخلوقات المُكَلفة كالجن والإنس والملائكة :

الله ﷻ خلق الملائكة من نور، ولذلك كانوا كلهم نورًا وخيرًا : ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾[التحريم:٦] .

وقال سبحانه: ﴿ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾[الأنبياء:١٩-٢٠] .

ويسبحون بحمد ربهم في كل حين .

وخلق سبحانه الجن من مارج من نار، والجن الأبالسة ذرية الشيطان إبليس الذي أبى واستكبر وكان من الكافرين والذي حذرنا الله ﷻ منه بقوله : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾[الكهف:٥٠] .

فالجن كلهم مخلوقون من النار ، ولهذا كثر فيهم العبث والطيش والعدوان على الناس، ومن استعاذ بالله حفظه الله منهم: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾[النحل: ٩٨ – ١٠٠] .

والجن مخيرون ومكلفون .

وخلق الله آدم من تراب، وآدم هو أبو البشر والشيطان أبو الجن، والجان أبو الجن المؤمنون والكافرون : ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحجر:٢٧] .

والله سبحانه هو القوي وكل ما سواه ضعيف ، فالمخلوقات كلها أصغر من الذرة بين يدي الله ﷻ، وكلها في قبضة الله ﷻ : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ

وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾[الزمر:٦٧].

وخلق الله جميع المخلوقات في العالم العلوي والعالم السفلي، لتدل على عظمته، وعظمة أسمائه وصفاته وأفعاله وجعلها جميعًا مفتقرة إلى ربها في إيجادها وفي بقائها وحفظها : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾ ﴾[فاطر:٤١] .

وخلق الله الإنسان ضعيفًا عاجزًا فقيرًا محتاجًا ، ليعلم الإنسان أن له ربًا قويًا قادرًا غنيًا عن كل ما سواه، له الأسماء الحسنى، والصفات العلى، والأفعال الجميلة، والمثل الأعلى:﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴾[طه: ٨].

فإذا عرف الإنسان ربه توجه إلى القوي ليقويه ، وإلى الغني ليغنيه، وإلى الرزاق ليرزقه ، وإلى الشافي ليشفيه: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥١﴾ ﴾[الذاريات: ٥٠-٥١] .

ومن اتصل بالعزيز فهو عزيز ، ومن اتصل بالقوي فهو قوي ، ومن اتصل بالعزيز زاده عزة ، ومن اتصل بالقوي زاده قوة، فخلق الله الإنسان مضطرًا إلى غيره ، فإن توجه إلى العزيز أعزه، وإن توجه إلى المخلوق الذليل أذله ، فالإنسان إما أن يسأل حاجاته من الله فيكون عبدًا لله : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الأنعام:١٠٢] .

وإما أن يسألها من غيره، فيكون عبدًا لعبد الله يتوهم ما سوى الله غنياً فيخضع له ويتوهمه قادرًا فيسأله كل شيء، أو يتوهمه إلهًا فيسأله كشف

الضُر، وجلب النفع وهذا هو الشرك بالله ﷻ : ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ ﴾[الشعراء:٢١٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾[الزمر:٦٤-٦٦] .

التفكر في عظمة خلق الجبال :

الله ﷻ خلق الخلائق العظيمة في العالم العلوي والعالم السفلي ، ففي العالم العلوي خلق العرش والكرسي، والسماوات وخلق الشمس والقمر والنجوم، وفي العالم السفلي خلق السهول، والجبال، والبحار والأنهار وغير ذلك مما يخلقه جل جلاله في مُلكه العظيم، وكله دال على وحدانيته، مُسبح بحمده، خاضع لمشيئته : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ ﴾[الزمر: ٦٢] .

والله ﷻ خلق الجبال العظيمة وجعل فيها منافع عظيمه لا يحصيها إلا من خلقها ، فهي مخزنٌ عظيم للمعادن، كما قال سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر:٢٧-٢٨] .

وهذه الجبال العظيمة الموجودة على هذه الأرض العظيمة منافعها لا تُحصى، وأعظم جبال الدنيا وأرفعها جبال هملايا في الهند، يبلغ ارتفاعها أكثر من اثنين وثلاثين ألف قدم، ثلث هذا الارتفاع تقريبًا فوق سطح الأرض.

فسبحان من خلق الجبال الشاهقات، والجبال الراسيات ، وسبحان من جعلها أوتادا وأكنانًا ورواسي، ومن جعلها مصدات للرياح ، ومن جعلها مستودعات للمياه، ومن جعلها خزائن للمعادن، فهذه الجبال العظيمة ملأها الله بالمعادن التي لا يُحصيها ولا يعلمها ولا يحيط بها إلا الذي خلقها .

ومن منافع هذه الجبال أن الله جعلها سكناً للآدميين كما قال الله ﷻ عن ثمود قوم صالح : ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأعراف:٧٤] .

وجعلها سبحانه سكنًا للنحل التي أمرها بإعداد العسل، وإخراجه لبني آدم : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [النحل:٦٨] .

والأرض مهاد، والجبال أوتاد : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ ﴾ [النبأ: ٦-٧] .

وكل ذره من هذه الجبال تعبد الله ﷻ، وتخضع لأمره : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحج:١٨] .

والجبال تكاد تنهد من مقالة بعض بني آدم الذين دعوا لله ولدًا كما قال سبحانه : ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي

ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴿٩٥﴾ ﴾[مريم:٨٨-٩٥] .

والجبال من أعظم مخلوقات الله ﷻ بعد العرش والكرسي والسماوات والأرض والبحار ، ولهذا عُرضت عليها الأمانة فأبت كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ﴿٧٢﴾ ﴾[الأحزاب:٧٢] .

والجبال نوعان :

الأول : جبال في الأرض، وهي خزينة للمعادن التي عرف الإنسان منها ما يزيد على مئة معدن من الذهب والفضة، والحديد والنحاس، والرصاص والزنك، والمنجنيز والكبريت، وغيرها .

والجبال مُرسية للأرض، كما قال سبحانه: ﴿ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ ﴾ [النازعات:٣٢] .

وصادة للعواصف، وخزائن للمياه .

الثاني: جبال السماء، وهي خزينة المياه والثلوج كما قال سبحانه : ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٣﴾ ﴾[النور:٤٣] .

فسبحان الخلاق العليم الذي خلق هذه السماء العظيمة، وهذه الأرض المبسوطة ، وهذه الجبال العظيمة .

ويوم القيامة تكون الجبال العظيمة كالعهن: ﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ ﴾[القارعة: ٥]

وتسير وتُدك مع الأرض ﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ ﴾ [الحاقة:١٤] .

فيوم القيامة تسير الجبال سيرًا، وتفتت فتاً : ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ ﴾ [الواقعة:٥] .

وكانت الجبال كثيبًا مهيلًا : ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ ﴾[النبأ:٢٠] .

وقال سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ ﴾[الكهف:٤٧] .

فسبحان ربنا العظيم الذي خلق هذه المخلوقات العظيمة، لتدل على عظمته وجلاله: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾[يونس: ٣] .

٨- الخزانة الثامنة

- **التفكر في خلق البحار :**

الله ﷻ هو الخلاق العليم الذي خلق العالم العلوي بما فيه ، وخلق العالم السفلي بما فيه: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٦٣ ﴾ [الزمر: ٦٢ – ٦٣] .

وهو سبحانه الذي خلق البحار العظيمة، وأودع فيها المنافع الكبيرة، من مخلوقات لا يعلمها ولا يحصيها إلا هو : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٥٩ ﴾ [الأنعام: ٥٩] .

فسبحان من خلق هذه البحار العظيمة ، وخلق فيها من المخلوقات ما لا يعلمه إلا هو : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٤ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥ وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨ ﴾[النحل:١٤-١٨] .

والله سبحانه خلق العباد وسيرهم في مصالحهم في البر والبحر : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ ﴾[يونس:٢٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾[الإسراء:٧٠] .

وقد أقسم الله ﷻ على عظمة كلامه بالبحر فقال : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الكهف:١٠٩] .

وكلام الله ﷻ صفة من صفاته ، فهذا الكون العظيم خلقه الله ﷻ بكلمة كن فكان : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾[يس:٨٢-٨٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾[لقمان:٢٧-٢٨] .

والبحر هذا الماء السائل أكبر من اليابسة، وهو يُقارب ثلاثة أرباع الأرض ، والبحار نوعان، وفي كل نوعٍ مخلوقات عظيمة لا تعيش في البحر الأخر : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾[فاطر:١٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ ﴾[الفرقان:٥٣] .

فسبحان القادر العظيم الذي خلق هذه البحار العظيمة، حُلوها ومُرها ، وجعل بينهما برزخًا، فلا يتداخلان ولا يختلفان : ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ ﴾[الرحمن:١٩-٢٠] .

ويوم القيامة تُفَجر البحار : ﴿ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣ ﴾[الانفطار:٣]
وتُسجر البحار نارًا : ﴿ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ۝٦ ﴾[التكوير:٦] .
فهذا البحر العظيم الذي يحيط بالأرض من كل جهة، خلق الله فيه مخلوقات عظيمة، وملأه بالمخلوقات من أسماك وحيوانات لا يحصيها إلا الله ، ولولا أن هذه الأسماك يأكل كبارها صغارها، لصار البحر قطعة من اللحم .
فسبحان الخالق الذي خلق ، الذي يربي خلائقه في البر والبحر والجو، وفي السموات وفي الأرض :﴿ فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٣٦ ﴾[الجاثية: ٣٦] .
ويعيش في هذا البحر مخلوقات عظيمة، ومن أعظم المخلوقات التي تعيش في هذا البحر الحوت ، فقد خلق الله في هذا البحر أكثر من مليون نوع من الأسماك المختلفة الأحجام، والألوان، والأوزان، والأشكال، والطعوم .
والحوت من أعظم الأسماك التي عرفها البشر، وهي تلد ولادة ، وما سواها يبيض بيضًا ، هذا الحوت يبلغ طوله في المتوسط ثلاثون مترًا تقريبًا، ويزن مائة وخمسين طنًا تقريبًا، ويعيش في المحيط المتجمد الجنوبي ، ويُستخرج من الحوت خمسون طنًا من اللحم وخمسون طنًا من الدهون وتسعون برميلًا من زيت الحوت، ويزن لسانه خمسمائة كيلو، ويأكل كل يوم أربعة أطنان ، وإذا أرضع الحوت وليده فالرضعة الواحدة تبلغ ثلاثمائة كيلو جرام تقريبًا، ووجبة الحوت اليومية أربعة أطنان أعدها له ربه الرزاق الذي تكفل بأرزاق الخلائق في كل مكان :﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٦ ﴾[هود: ٦] .

فسبحان العظيم الذي خلق هذا الخلق العظيم، وهداه لما يصلحه، وأمده برزقه، وهيأ له سكنه ، فلا إله إلا الله كم نوعًا من الأسماك خَلق ، وكم نوعًا من الحيوان خَلق، وكم نوعًا من الأطيار خلق ، وكم نوعًا من النبات خَلق وكم نوعًا من الأزهار ، وكم نوعًا من الأحجار ، وكم نوعًا من النجوم :﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾[الأنعام:١٠٢] .

التفكر في خلق الزمان والمكان :

قال الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ ﴾[الزمر: ٦٢] .

فخلق سبحانه السموات والأرض، وخلق الليل والنهار: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾[الأنعام:١] .

فالمكان ظرف للأشياء، والزمان ظرف للأعمال ، وما في داخل الظرف أعظم من الظرف، وهو الإنسان الذي خلقه الله بيده، وأكرمه بالدين الحق .

والله ﷻ جعل الزمان مقدرًا من أربعة أوجه :

السنة .. والشهر .. واليوم .. والساعة .

فالسنة : عبارة عن الزمان الحاصل من حركة الشمس من نقطة معينة من الفلك إلى أن تعود إليه .

والشهر : عبارة عن حركة القمر من فلكه من نقطة معينة إلى أن يعود إليها فيبدو هلالًا، ثم يكمل، ثم ينقص كما بدأ :﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ

﴿ ٣٩ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ٤٠ ﴾[يس:٣٨-٤٠] .

واليوم : عبارة عن مدة كون الشمس فوق الأرض ، والليلة عبارة عن كون الشمس تحت الأرض، وتبدأ الأيام بلياليها فالليلة تسبق اليوم .

وأما الساعة : فهي جزء من أربعة وعشرين جزءًا، وهي مجموع الليلة ونهارها .

وقد جعل سبحانه المكان ظرفًا للأشياء كالجبال والبحار والنبات والإنسان وغيرها ، وكالملائكة في السماء، والزمان ظرفًا للأعمال الدينية والبدنية والدنيوية : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ١ ﴾[الأنعام:١] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١ ﴾ [آل عمران:١٩٠ -١٩١] .

والله سبحانه خلق الشمس والقمر والكواكب، وصب فيهن من نوره؛ لأنه خالق النور في الشمس والقمر والنجوم: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ [النور:٣٥] .

وقال الله عز وجل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٥ ﴾[يونس: ٥] .

وخص الله القمر بالاختلاف دون الشمس، لحكم عظيمة، وأسرارٍ حكيمة، وعقول البشر عاجزة عن إدراك آيات الله في ملكه وملكوته، ومن تلك الحكم والأسرار :﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ ﴾[الإسراء:١٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة:١٨٩] .

فالشمس خلقها الله تنير هذا الكون، وتمده بالحرارة والضياء، وجعلها للتوقيت اليومي ، والقمر جعله الله ﷻ نورًا، وفيه منافع ومصالح ، وخلقه جل جلاله للتوقيت الشهري، والسنة للتوقيت العمري .

فسبحان من خلق الشمس، وأبقاها على حالها، وسيرها في الكون ، وخلق القمر، وجعله مختلف الحجم والإنارة، ليصير الكل شاهدًا على افتقاره إلى قادرٍ حكيم عليم :﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾[الزمر:٦٢-٦٦] .

والأشهر مواقيت مشهورة، وعددها اثنا عشر شهرًا، منها أربعة حرم، كما قال الله : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ

أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾[التوبة:٣٦] .

فسبحان الخلاق العليم الذي خلق هذه العوالم العظيمة كالسموات والأرض، والليل والنهار ، والشمس والقمر ، هذه المخلوقات خلقها الله ﷻ دالة على وحدانيته، وكمال قدرته، ومسبحة بحمده، وخاضعة لمشيئته، ومسرعة إلى إرادته : ﴿ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾[غافر:٦٥] .

- **التفكر في عظمة قدرة الله :**

الله ﷻ له الأسماء الحسنى، والصفات العلى، والأفعال الحميدة، والمثل الأعلى ، هو القادر القدير على كل شيء، لا يعجزه شيء ، ولا يخفى عليه شيء، ومن علامات قدرته الباهرة جل جلاله أنه خلق السموات السبع، وخلق الأراضين السبع ، وخلق الشمس والقمر، وخلق الليل والنهار: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ ﴾[لقمان: ٢٩ – ٣٠].

وهو سبحانه الملك الحق، الذي لا يخفى عليه ما يجري في مُلكه العظيم على أيدي عباده من الخير والشر، والعدل والظلم، فهو السميع لما يقولون والعليم بما يفعلون ؛ لأنه العلي الكبير :﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ ﴾[الحج:٦١- ٦٢] .

وهو سبحانه الذي خلق السموات والأرض، وخلق ما بينهما من الشمس والقمر، والنجوم والكواكب، والليل والنهار :﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورِ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾ [الأنعام:١] .

هو سبحانه القادر على كل شيء، يولج الليل في النهار بإدخال جزءٍ من الليل في النهار فيطول النهار في الصيف ؛ لأنه أولج فيه شيئًا من الليل، ويولج النهار في الليل بإدخال جزء من النهار في الليل فيطول الليل في الشتاء، لأن الله أولج فيه شيئًا من النهار .

وكذا يولج الليل في النهار بتحصيل ظلمة الليل في مكان ضياء النهار بغيبوبة الشمس ، وضياء النهار في مكان ظلمة الليل كما يضيء البيت المظلم بالسراج، ويظلم بفقده ، وهذا وهذا من أدلة قدرته الكاملة، وقوته القاهرة : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ [آل عمران:٢٦-٢٧] .

فالله قوي عزيز يُمسك السماء أن تقع على الأرض، ويُمسك السموات والأرض أن تزولا، فلو شاء لأذن للسماء فسقطت على الأرض، وزالت فأهلكت من عليها :﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۚ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الحج:٦٥] .

فلا إله إلا الله ما أعظم قدرته وقوته: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾ ۞ ﴾ [فاطر:٤١] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [المؤمنون:١٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفَۢا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنبياء:٣٢] .

والله سبحانه قوي عزيز، قدير على كل شيء، قاهرٌ لكل شيء، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد ، يعز بأسباب الذلة كما عز أنبياءه وأولياءه مع قلة أعدادهم وعُدتهم ، ويذل بأسباب العزة كما أهلك قوم نوح مع كثرتهم، وقوم عاد مع قوتهم، ودمر فرعون مع مُلكه، وخسف بقارون مع كثرة ماله: ﴿ فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت:٤٠] .

وهو سبحانه القوي القادر، القاهر الجبار، الذي يُنجي بأسباب الهلاك كما أنجى إبراهيم من النار مع اشتعالها :﴿ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنبياء:٦٩] .

وأنجى موسى وقومه من الغرق ، ويُهلك بأسباب النجاة كما دمر فرعون وقومه مع ملكه ، ويربي سبحانه أولياءه في بيوت أعداءه كما ربى موسى ﷺ في بيت فرعون: ﴿ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٤﴾ ﴾ [الزمر: ٤] .

٩- الخزانة التاسعة

- **التفكر في قدرة الله جل جلاله :**

الله ﷻ هو الملك القادر علي كل شيء، الذي خلق سبع سماوات، وخلق سبع أراضين ، الذي تتنزل أوامره الملكية الكونية، وأوامره الإلهية الشرعية، وأوامره الملكية الجزائية، بين السماوات والأرض بين السماء العليا إلى الأرض السفلى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ﴿١٢﴾ ﴾ [الطلاق:١٢] .

ففي كل سماءٍ من سماواته، وفي كل أرضٍ من أرضه، خلق من خلقه ، وأمرٌ من أمره ، وقضاءٌ من قضائه:﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِى ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٥٤] .

له الأوامر الكونية، والأوامر الشرعية، والأوامر الجزائية ، أحاط علمًا بالكليات والجزئيات، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء قادر على كل شيء، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء : ﴿ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۡۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾ ﴾[هود:٥٦] .

ومن هذا خلقه، وهذه قدرته، وهذا علمه، فهو الرب حقًا، الملك حقًا، الإله حقًا ، الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿١٠٢﴾ لَّا

﴿تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣﴾[الأنعام:١٠٢-١٠٣] .

فسبحان من خلق هذا الكون العظيم بما فيه، وجعل فيه سننًا تعمل .

والله سبحانه لو أظهر قدرته للناس في كل وقت، لفُتن الناس ، وإنما تظهر قدرة الله ﷻ بلا أسباب يوم القيامة .

والله ﷻ له الكمال المطلق في أسمائه الحسنى، وصفاته العلى، وأفعاله الحميدة ، والله يظهر قدرته لخلقه بالأسباب، وبدون الأسباب، وبضد الأسباب، وبقلة الأسباب، وبكثرة الأسباب: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١﴾[الملك: ١] .

فيظهر قدرته بالأسباب يُنزل الغيث من السماء إلى الأرض، فتنبت من كل زوج بهيج، ويظهر قدرته بدون الأسباب: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾[يس:٨٢] .

ويُظهر قدرته بضد الأسباب كما جعل الله ﷻ النار بردًا وسلامًا على إبراهيم :﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩﴾ [الأنبياء:٦٩] .

فجعلها تشتعل، وأبقى نبيه حيًا يسبح بحمده في تلك النار، وأظهر قدرته مع قلة الأسباب كما نصر المؤمنين في بدر مع قلة العدد والعدة، وأظهر قدرته مع كثرة الأسباب كما دمر فرعون وجنوده .

والله سبحانه في الدنيا أظهر سنته، وأخفي قدرته رحمةً بالعباد ، وعيسى ﷺ لما أظهر الله على يديه المعجزات المادية بدل أن يقول الناس عبد الله قالوا : هو الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة كما قال سبحانه : ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ

مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [المائدة:١٧] .

وقال ﷻ عن عيسى: ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [آل عمران: ٤٩ – ٥١] .

فبدل أن يقول الناس هو عبد الله، ورسول الله، قالوا : هو الله ، وذلك بما أجرى الله ﷻ على يديه من المعجزات العظيمة ، فالله ﷻ خلقنا في الدنيا وجعلها دار الأسباب، والنفوس تُفتن إذا رأت خلاف العادة والسنة الكونية ، وأبو بكر ﷺ رأى مع الصحابة قدرة الله في سفره مع النبي ﷺ ، رأى نبع الماء من بين أصابع الرسول ﷺ ، ورأى تكثير الطعام بدعائه، ولكنه ﷺ لم يمشي على ترتيب الكرامات، بل مشى على ترتيب فعل الأسباب، لأننا في دار الأسباب ، ولكن لما أمرنا الله في الدنيا بفعل الأسباب، **أمرنا بذلك للابتلاء بثلاثة أمور** :

الأول : هل نختار السبب الحلال أم الحرام، كما قال سبحانه : ﴿ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ ﴾ [الأنعام:١٦٥] .

الثاني : لكي إذا زاد الخير لا نفرح، وإذا نقص لا نحزن : ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحديد:٢٣] .

الثالث : كما فعلت السبب لأمره سبحانه بذلك، هل أتركه امتثالًا لأمره ؟ .
كما أمرت بفتح الدكان واكتساب الرزق، هل أتركه إذا أذن المؤذن، وأذهب للصلاة ؟
هذا هو الابتلاء : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات:١٥] .

ومن قرأ القرآن وتدبر ما فيه وجد أن الله ﷻ، أكرم هذه الأمة وتوجها بأربعة تيجان :

الأول: تاج ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران:١١٠] .
الثاني : تاج ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ﴾[الحج:٧٨] .
الثالث: تاج ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً﴾[البقرة:١٤٣] .
الرابع : تاج ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى﴾[البقرة:١٤٣] .
فهذه الأمة الله ﷻ أنعم عليها بنعم كثيرة وأعطاها وظيفة الأنبياء والرسل الدعوة والعبادة .
فقال ﷻ في العبادة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾[الحج:٧٧] .
وقال ﷻ في الدعوة: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾[النحل:١٢٥] .
وقال الله تعالى : ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾[يوسف:١٠٨] .

فهذه الأمة خير أمة، ذنوبها مغفورة، وأعمالها مُضاعفة، وأعمارها قليلة، وعيوبها مستورة ، فالله ﷻ كشف لنا جميع أحوال الأمم السابقة وما أصابهم من العذاب والأخذ فقال: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت:٤٠] .

فهذه الأمة أكرمها الله ﷻ بهذه الكرامات العظيمة، وأنعم عليها بأصول النعم، وجعلها خير أمة أخرجت للناس .

وأصول النعم ثلاث :

نعمة الخلق والإيجاد .. ونعمة القوت والإمداد .. ونعمة الهداية والإسعاد .

وقال الله تعالى : ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم: ٣٤] .

وقال الله عز وجل: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النحل:٥٣] .

لهذا يجب على هذه الأمة ما لا يجب على غيرها ؛ لأنها أخذت أفضل وأحسن وظيفة، وهي وظيفة الأنبياء والرسل، فهذه الأمة نائبة عن نبيها ﷺ في القيام بالدعوة إلى الله ﷻ ، كما قال سبحانه: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٤] .

وحتى يقوم المسلم بأعمال الهداية من عبادة الله، والدعوة إليه، وتعليم شرعه والإحسان إلى خلقه، لابد من العلم بسبعة أمور :

الأمر الأول : العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله وخزائنه ووعده ووعيده ، حتى يقوى الإيمان، ثم تتحرك الجوارح بأنواع العبادات والطاعات : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾[محمد: ١٩] .

الأمر الثاني : العلم بالكتاب الذي نتبع ، فنعرف من كتاب ربنا ماذا يرضيه ، وماذا يُسخطه، ونعرف الحلال من الحرام، ونعرف الواجب والسنة : ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾[الأنبياء:١٠] .

وقال عز وجل: ﴿ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ ﴾[النساء: ١٧٤ – ١٧٥] .

الأمر الثالث : معرفة الرسول الذي نتبع، لنتبعه في توحيده وإيمانه، وفي أقواله الحسنة، وفي أعماله الصالحة، وفي أخلاقه الكريمة : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب:٢١] .

الأمر الرابع : معرفة عدو الإنسان، وهو الشيطان، والنفس الأمارة بالسوء : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾[فاطر:٦].

فلكي تكون من جنود الرحمن، لابد أن تعرف عدوك وهو الشيطان، لتتقيه وتحذره : ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [يوسف: ٥٣] .

الأمر الخامس : معرفة النفس البشرية ماذا يريد الله منها، وماذا تريد هي من الله :﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾[الشمس: ٧ – ١٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ ﴾[الأعلى:١٤-١٥] .

الأمر السادس : معرفة الدنيا التي نعيش فيها ، ماذا يجب علينا أن نعمل فيها؟

والدنيا الذي خلقها الله قد أخبر عنها بقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٥﴾ ﴾[فاطر:٥].

والعمل المطلوب فيها: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾[الحج: ٧٧] .

الأمر السابع : معرفة الآخرة التي سوف نصير إليها ، فالدنيا دار الإيمان والعمل والآخرة دار الثواب والعقاب : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾[التوبة: ٧٢]

التفكر في عظمة رحمة الرب جل جلاله :

أنزل الله الرحمن الرحيم برحمته إلى أهل الأرض الماء والوحي ، فأنزل الله الماء من السماء، ليحيي به الأرض بعد موتها، وينبت فيها النباتات والزروع والأشجار، ويسقي به الإنسان والحيوان : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾[ق:٩-١١] .

وأنزل الله الوحي وهو القرآن على قلوب البشر، لتحيا به قلوب البشر، وتثمر أحسن الثمرات من الإيمان بالله، والتقوى، والخشية، وطاعة الله ورسوله : ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[الأنعام:١٢٢] .

فإذا أصاب ماء السماء أرضًا طيبة أثر فيها، فأنبتت الزروع والحبوب والأشجار والثمار، وصارت ترفل في حُلل زينتها ، وإذا نزل ذلك الماء على أرض سبخة خبيثة لا تقبل النبات كلما ازداد نزول المطر عليها ازدادت خُبثًا ، فلا تمُسك ماءً عذبًا يُشرب منه ، ولا تنبت مرعى يرتع فيه، ولا ثمارًا ولا زروعاً تؤكل ، فقلب المؤمن بالقرآن يثمر كل خير كالأرض الطيبة، تثمر بالماء من كل زوج بهيج : ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾[الحج:٥]

وقلب الكافر كالأرض السبخة ، القرآن لا يزيده إلا كفرًا وطغيانًا ، كالأرض السبخة لا يزيدها الماء إلا بللًا وملوحة : ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾[الأعراف: ٥٨] .

فقلوب البشر بالنسبة إلى علوم القرآن ثلاثة أنواع :

الأول : قلبٌ كالأرض الطيبة، يثمر فيه القرآن ومواعظه كل خيرٍ، فيجمع بين العلم به، والعمل، وتعليم غيره، هذا أفضل الناس وخيرهم وأسعدهم : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ

﴿ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤ ﴾[الأنفال:٢- ٤].

الثاني : قلبٌ حافظ كالأرض التي تمسك الماء عذبًا، فهي أجادب ليس فيها مرعى ، ولكن فيها منافع تمسك الماء، فيأتي الناس إليها، فمنهم من يشرب، ومنهم من يسقي مواشيه ، ومنهم من يسقي زرعه وبستانه : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٥٧ ﴾[الأعراف:٥٧] .

وهذه الطائفة التي حفظت عن رسول الله ﷺ العلم الذي جاء به من القرآن والسنة الصحيحة في أبواب الفقه المختلفة ، فيرويه عنهم العلماء والفقهاء الذين يفهمون معانيه وأسراره، ويستنبطون منه الأحكام: قال النبي ﷺ: « مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ »متفق عليه(١) .

الثالث : قلبٌ كالأرض السبخة، لا تمسك ماءً، ولا تنبت كلأ، وهى قلوب الكفار والمنافقين كلما سمعوا القرآن زادهم طغيانًا وكفرًا .

قال الله تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ۝٨٢ ﴾[الإسراء:٨٢] .

وقال النبي ﷺ : « مثل مَا بَعَثَنِي الله بِهِ من الْهدى وَالْعلم كَمثل غيث أَصَاب أَرضًا فَكَانَ مِنْهَا طَائِفَة طيبَة قبلت المَاء فأنبتت الْكلأ والعشب الْكثير وَكَانَ مِنْهَا أجادب امسكت المَاء فنفع الله تَعَالَى بهَا النَّاس فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسقوا وزرعوا وَأَصَاب طَائِفَة مِنْهَا أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قيعان لَا تمسك مَاء وَلَا تنْبت

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم(٧١)، ومسلم برقم (١٠٣٧).

كلأ فَذَلِك مثل من فقه فِي دين الله تَعَالَىَ، ونفعه مَا بَعَثَنِي الله تَعَالَىَ بِهِ فَعلم وَعلم وَمثل من لم يرفع بذلك رأسًا وَلم يقبل هدى الله الَّذِي أرْسلت بِهِ » متفق عليه[1] .

والله ﷻ هو الغني وحده عن جميع خلقه ، وجميع خلقه مفتقرُون إليه، فهو خالقهم ورازقهم ومالكهم : ﴿ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [لقمان:٢٦] .

يأمر جل جلاله خلقه وينهاهم، لا لينتفع بطاعاتهم، ولا ليدفع الضر بمعصيتهم ، بل النفع في ذلك كله لهم، وهو سبحانه الغني لذاته، الغني الغنى المطلق، وكل ما سواه فقير إليه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ [فاطر: ١٥].

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النحل:٥٣] .

والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىَ هو الرب الرحمن الرحيم المالك لجميع أنواع الرحمة الذي يملك خزائن الرحمة في الدنيا والآخرة ، الذي رحم عباده بإنزال الغيث، وإنبات النبات، وسوق الأرزاق، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وما يفتحه الله للناس من أنواع الرحمة لا يقدر أحد أن يمسكه عنهم ، وما يمسكه عنهم من أنواع الرحمة فلا يقدر أحدٌ أن يرسله إليهم:﴿ مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾ [فاطر:٢] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٧٩)واللفظ له، ومسلم برقم: (١٥/ ٢٢٨٢) .

وهو الكريم الذي يجود برحمته على من أطاعه وعصاه ؛ لأنه الكريم الذي يملك خزائن كل شيء، القوي العزيز الذي لا يبالي بمن أعرض عنه وعصاه : ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾[الجاثية:٣٦-٣٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنعام:١٧-١٨] .

والله ﷻ هو الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء ، ورحمة الله تتجلى على الخلائق عامة، وعلى الإنسان خاصة .

تتجلى ابتداءً في وجود البشر أنفسهم وفي نشأتهم من حيث لا يعلمون، وفي تكريم الإنسان على كثيرٍ من العالمين .

وتتجلى في تسخير ما في هذا الكون العظيم من النعم، والطاقات، والقوى ، والأرزاق ، والمياه، والهواء ، وغير ذلك مما يتقلب فيه الإنسان كل لحظة : ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾[الإسراء:٧٠] .

وتتجلى رحمة الله الواسعة في تعليم الإنسان ما لم يعلم مما يحتاجه في حياته : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾[النحل:٧٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾[العلق:٣-٥] .

وتتجلى رحمة الله كذلك في رعاية الله لهذا الخلق بعد استخلافه في الأرض بموالاة إرسال الرسل إليه بالهدى كلما نسي وضل ، وأخذه بالحلم كلما لج في الضلالة والجهالة : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾[البقرة:١٤٣] .

وتتجلى رحمته كذلك في مجازاته العبد على السيئة بمثلها، وبمجازاته على الحسنه بعشرة أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعافٍ كثيرة، ومحو السيئة بالحسنة : ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾[الأنعام:١٦٠] .

وتتجلى في تجاوز الله عن سيئات العباد إذا عملوها بجهالة ثم تابوا، وبكتابة الرحمة على نفسه، كما قال سبحانه : ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾[الأنعام:٥٤] .

وكتب سبحانه كتاباً عنده فوق العرش أن رحمتي سبقت غضبي .

والله جل جلاله هو الرحمن الرحيم، وقد وسعت رحمته كل شيء ، واستوي على أكبر المخلوقات، وأعظمها، وأوسعها، وهو العرش العظيم بأوسع الصفات وهي صفة الرحمة، فقال سبحانه : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾[طه:٥] .

وقد أنزل الله في القرآن سوره كاملة باسمه الرحمن ومطلعها : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾[الرحمن:١-٤] .

والبيان ثلاثة أنواع :

١-البيان النطقي باللسان .

٢-البيان الإشاري بحركة الرأس أو اليد أو العين .

٣-البيان الكتابي بالقلم .

وفي هذه السورة معرضٌ لآلاء الرحمن، ومخلوقاته العظيمة ، ومظاهر رحمته التي تبلغ كل عقل، وكل سمع، وكل بصر ، وتملأ فضاء السماوات والأرض .

ويبدأ معرض الآلاء بتعلم القرآن بوصفه المنة الكبرى على الإنسان تسبق في الذكر خلق الإنسان ذاته وتعليمه، البيان .

فهذا القرآن العظيم نعمة كبرى ، بل هو النعمة الكبرى على البشرية كلها تتجلى فيه رحمة الرحمن بالإنسان ، وآلاء الله ومخلوقاته، وهو منهج الله للبشرية الذي يصلهم بربهم، وينظم أحوالهم ومعيشتهم وفق أمر ربهم، ويفتح عقولهم ، وحواسهم ، ومشاعرهم، على هذا الكون العظيم الجميل، ومبدعه الذي شمل خلقه برحمته الواسعة : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾[المائدة:٣] .

١٠- الخزانة العاشرة

• **التفكر في عظمة رحمة الرب جل جلاله :**

من رحمة الله ﷻ أن خلق السموات والأرض دالة على عظمته، وشاهدة بوحدانيته، ومسبحة بحمده، وخاضعة لأمره : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾ ﴾[الطلاق:١٢] .

ومن رحمته أنه ملأ ما بين السموات والأرض بالشمس والقمر، والنجوم والكواكب ، وملأ هذا الكون العظيم بالنور الذي يتمثل في طلوع الشمس نهاراً، وفى طلوع القمر والنجوم ليلاً .

ومن رحمته جل جلاله أن ملأ الكون بأنواع رحمته، كما قال سبحانه : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[إبراهيم:٣٢-٣٤] .

ومن كمال رحمته سبحانه بعباده أنه ملأ سماواته من ملائكته الذين يسبحون بحمد ربهم، ويستغفرون لأهل الأرض ، واستعمل حملة العرش منهم في التسبيح بحمده سبحانه ، وفى الدعاء لعباده المؤمنين، والاستغفار لهم، ووقايتهم عذاب الجحيم، والشفاعة لهم عند ربهم أن يدخلهم الجنة، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ

وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾[غافر:٧-٩] .

فما أعظم هذه العناية العظيمة من الرب العظيم جل جلاله بعباده المؤمنين، وما أحسن هذا الإحسان من المولى الكريم وما أعظم هذه الرحمة من الرحمن الرحيم ، وما أجمل هذا التحنن والعطف والتحبب إلى العباد وحسن التلطف بهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ ﴾[الحج:٦٥] .

ألا ما أعظم رحمة الله بعبادة، ومع خلقهم، وتأمين أقواتهم، وقسمة أرزاقهم ، خلق سبحانه ملائكة يدعون لهم، ويستغفرون لهم، ويشفعون لهم عند ربهم ، ومع هذا كله أرسل إليهم رسله ، وأنزل عليهم كتبه، وتعرف إليهم بأسمائه وصفاته، وإنعامه وإحسانه، ليدعوه بها ويسألوه بموجبها .

ومع هذا كُله ينزل سبحانه كل ليلة إلى سماء الدنيا، إكرامًا للمؤمنين، واحتفاءً بهم ويستعرض حوائجهم بنفسه، ويدعوهم إلى سؤاله .

قال النبي ﷺ قال الله تعالى : « ينزل الله تبَارك وَتَعَالَى كل لَيْلَة حِين يبقي ثلث اللَّيْل الآخر إِلَى السَّمَاء الدُّنْيَا من يدعوني فأستجب لَهُ من يستغفرني فَأَغْفِر لَهُ من يسألني فَأعْطِيه »متفق عليه[1] .

والله ﷻ إنما يرسل رسله رحمة بالعباد ، فهو الغنى عنهم، وعن إيمانهم وعن طاعتهم، وعبادتهم له، وإذا أحسنوا وامنوا إنما يحسنون لأنفسهم في

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم : (١١٤٥) واللفظ له ، ومسلم برقم: (١٦٨/ ٧٥٨).

الدنيا والآخرة ، والناس باقون برحمة الله ومشيئته وأمرهم كلهم جميعًا بيده سبحانه:﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾[الملك: ١] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ ﴾[العنكبوت:٦] .

وقال الله تعالى : ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ ﴾[الإسراء:٧] .

إن معرفة العبد لرحمة الله الشاملة لعباده يسكب في القلب الطمأنينة إلى ربه، لا في حال السراء والنعماء فحسب، بل وهو يمر بفترات الابتلاء والضراء والبأساء التي تزوغ فيها القلوب والأبصار، فهو يستيقن أن رحمه الله وراء كل لمحه، وكل حالة، وكل وضع، وكل تصرف : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝٢٨ ﴾[الرعد: ٢٨].

والله ﷻ هو الرحمن الرحيم وحده لا شريك له : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦٣ ﴾[البقرة:١٦٣] .

وكل رحمة منه، وكل نعمة منه، ورحمته أكمل من رحمة غيره ، ورحمة غيره إنما جاءت منه:﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ۝٥٣ ﴾[النحل: ٥٣] .

فكل أحد غير الله إنما يعطي غيره خيره ليأخذ عوضاً ، فيعطي المال لطلب الخدمة، أو طلب الثناء، أو طلب الثواب، أو طلب الجاه .

والجود والعطاء والإحسان المطلق إفادة ما ينبغي لا لعوض ، وليس ذلك إلا لله الحق، الغني عن كل ما سواه، المُنعم والرحمن الرحيم وحده لا شريك له : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٢ ﴾[الحشر:٢٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾[فاطر: ١٥].

فإذا حصلت الرحمة من غير الله فهي من الله إلا أن رحمة الله أكمل وأعظم ؛ لأن في إنعام الخلق على الخلق منة ، فإنعام الخلق على الخلق يوجب علو حال المنعم على المنعم عليه، والتواضع لله أكمل، وعبودية الله أولى من عبودية غير الله :﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ ﴾[الذاريات: ٥٠-٥١] .

وإذا أنعم الله على الإنسان بنعمة في الدنيا طلب منه عملاً صالحاً يوصله إلى نعيم الآخرة، ليسعد في الدنيا والآخرة ، وغير الله إذا أنعم على الإنسان بنعمة أمره بالاشتغال بخدمته، والإنعام يوجب المنة، وقبول المنة من الحق أفضل من قبولها من الخلق: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ ۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾[الحجرات: ١٧] .

ورحمة الله ومغفرته خير من نعيم الدنيا لوجوه :

ذلك أن نعيم الدنيا إنما يحصل بالمال ، وحصول المال لابد له من تعب وجُهد، وإذا حصل من دون تعب ، فلعله يموت العبد قبل الغد، وهب أنه بقي الإنسان إلى الغد فلعل المال لا يبقى إلى الغد، وهب أن المال بقي إلى الغد، والإنسان بقي إلى الغد ، لكن لعله يحدث حادث يمنع من الانتفاع بالمال من مرضٍ أو ألمٍ أو ابتلاء أو غيرها .

وهب أنه لم يحصل له حادث ولا ابتلاء، فإن لذات الدنيا مشوبة بالآلام والأحزان والأكدار ، وهب أن تلك المنافع حصلت خالصة عن الشوائب فإنها لا تدوم، بل تنقطع وتفنى ، وكلما كانت اللذة أقوي وأكمل كان

التأسف والتحسر عند فواتها وفقدها أشد وأعظم:﴿ فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ٥٥ ﴾[التوبة:٥٥] .

وهب أنها بقيت تلك المنافع مع الإنسان حتى مات، فإن لذات الدنيا حسية يشاركه فيها الإنسان والحيوان والكفار ، أما اللذات الأخرى، لذات الآخرة فهي حسية وروحيه تتمثل بدخول الجنة، ورؤية الرب، ورضوانه، والابتهاج بكل ذلك : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٧٢ ﴾[التوبة:٧٢] .

فالدين و الجنة ورحمة الله ومغفرته خير من الدنيا بلا دين:﴿ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨ ﴾[يونس:٥٨] .

وشهوات الدنيا مُعَجلة تعقبها الحسرة، والطاعات تعقبها الطمأنينة والسرور ، ويظهر ذلك جلياً بعد الموت :﴿ وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ١٥٧ وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ ١٥٨ ﴾[آل عمران:١٥٧-١٥٨] .

والذي خلق هذه الدنيا وما فيها من اللذات والشهوات، هو الذي أخبر عنها، وأمرنا باجتنابها، وأمرنا بالاشتغال بعبادة الله، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه فقال: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠ ﴾[الحديد:٢٠].

فهذه الدنيا جسد وروحها الدين ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحديد:٢١].

التفكر في سعة رحمة الله :

رحمة الله ﷻ وسعت كل شيء فهو الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء: ﴿ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾ ﴾ [غافر: ٧] .

ورحمة الله نوعان:

الأولى: رحمة عامة لجميع الخلائق .

الثانية: رحمة خاصة بالمؤمنين .

قال الله تعالى: ﴿ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٦] .

وهو أرحم بخلقة من الأم بولدها، ورحمته سبحانه سبقت غضبه ، وحب الله لخلقه أعظم من حب الأم لأولادها ، وعدل الله وغضبه له نهاية ؛ لأنه ينتهي بحساب الخلائق والقصاص منهم يوم القيامة .

والغضب مغلوب برحمة الله ، كما قال عز وجل في الحديث القدسي : « إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي » متفق عليه[1] .

أما فضله جل جلاله وإحسانه وعفوه ورحمته فلا نهاية له؛ لأن ذلك من لوازم ذاته ، فله الأسماء الحسنى، والصفات العلى، والأفعال الحميدة ،

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم(٧٤٢٢)، ومسلم برقم (٦٧٥).

فبعد حساب الخلائق يوم القيامة والقِصاص، تدرك الناس رحمة الله ﷻ ؛ لأنها زالت ذنوبهم بالعقوبة، وعادوا إلى الفطرة التي خلقهم الله عليها .

وأعظم صفات الرب :

الرحمة التي استولى على عرشه الكريم بها ، لأنه يريد أن يرحم عباده مهما كانت ذنوبهم إذا انكسروا بين يديه ، وتابوا إليه، وتضرعوا إليه، وهو الرحمن الرحيم الذي حمد نفسه، لأنه الرحمن الرحيم فقال ﷻ : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾[الفاتحة: ٢-٤] .

والله يرحم عباده في الدنيا وهم على معاصيهم برحمة واحدة، فكيف في الآخرة إذا رحمهم الله بمائة رحمة، كم تكون سعة رحمة الله ﷻ ، فإن الله ﷻ خلق مائة رحمة، وأنزل منها واحدة في الدنيا ، ويوم القيامة تضاف هذه الرحمة إلى تلك الرحمات فيرحم الله ﷻ بها عباده .

وأسعد الناس بهذه الرحمة الأنبياء والرسل والمؤمنون، وأسبقهم وأفضلهم في الاتصاف بها محمداً ﷺ الذي أرسله الله رحمة للعالمين كما قال سبحانه : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾[الأنبياء:١٠٧] .

وأوذي فِي اللهَّ ما لم يؤذي أحد ، فكم أذله كفار مكة، وكم شتموه، وكم سبوه، فما انتقم منهم يوم قدر عليهم عام الفتح بل عفا عنهم : ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١١٧﴾[التوبة:١١٧] .

وقال الله تعالى : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ۝١٥٩﴾[آل عمران:١٥٩] .

ورحمة الله ﷻ لا بداية لها ولا نهاية، ولا أول لها ولا آخر: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾[البقرة: ١٦٣] .

فكل رحمة في هذا الكون، في الدنيا والآخرة، فهي من الله الرحمن الرحيم ، الذي كل ما سواه فمن جوده وكرمه، وإحسانه ورحمته : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾[النحل:٥٣] .

ورحمة الله بعبادة أنواع كثيرة :

فأولها : ما يحصل في قلب الإنسان من التوحيد والإيمان، ومعرفة الله التي فطر الناس عليها : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[الروم:٣٠] .

وثانيها : ما يحصل في جوارح الإنسان وأعضائه من نور العبودية والطاعة والاستقامة : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[الأنفال:٢- ٤].

وثالثها : ما يحصل للعبد في الدنيا من سهولة أسباب المعيشة من الأمن والصحة والكفاية والطمأنينة : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[الأنعام:٨٢].

وقال ﷻ : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾[النحل:٩٧] .

ورابعها : ما يحصل عند الموت من سهولة سكرات الموت ، وما يحصل في القبر من سهولة السؤال ، كما قال سبحانه : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾[فصلت:٣٠] .

وخامسها : ما يحصل في القيامة من سهولة الحساب، وغفران السيئات، وترجيح الحسنات ، فالمؤمن يحُاسب حساباً يسيرًا ، والكافر يحاسب حساباً عسيراً: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾[الانشقاق: ٦-١٢] .

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾[آل عمران:٨] .

موسوعة خزائن العلوم الإسلامية

١٣-خزائن التقـــــوى

وتشتمل على ما يلي :

١- الخزانة الأولى

٢- الخزانة الثانية

٣- الخزانة الثالثة

٤- الخزانة الرابعة

٥- الخزانة الخامسة

١٣ - خزائن التقوى

١ - الخزانة الأولى

التقوى : ألا يفقدك الله حيث أمرك ، ولا يجدك حيث نهاك مبتغيًا بذلك وجه الله : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف: ١١٠] .

التقوى : أن تعمل بطاعة الله ، على نور من الله ، ترجو ثواب الله ، وتجتنب معصية الله ، على نور من الله ، تخاف عقاب الله .

التقوى : أن تجعل بينك وبين صفات جلال الله وقاية ، فإن لم تفعل في مقام افعل ، وفعلت في مقام لا تفعل بمعنى تركت الأوامر الشرعية ، وفعلت المناهي الشرعية ، فستأخذ صفة الجلال لله منك حقها بعزة الربوبية ، والمُلك ، والقدرة ، والقهر ، والجبروت : ﴿ **مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾** ﴾ [النساء:١٢٣] .

قال الله عز وجل ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [هود:١٠٢] .

قال الله عز وجل ﴿ **فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾** ﴾ [العنكبوت:٤٠] .

فهذه صفات الجلال تأخذ ممن خالف أمر الله حق الله منه ، وإن فعلت في مقام افعل ، وتركت في مقام لا تفعل ، فستعطيك صفة الجمال ثواب ذلك

العمل من الكريم المحسن ، الرحمن الرحيم ، كما قال سبحانه : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾[النحل:٩٧] .

قال الله عز وجل:﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[الأنفال: ٢ - ٤].

والله سبحانه له الأسماء الحسنى والصفات العلى ، فلابد للعبد أن يعرف أسماء الله الحسنى ؛ ليعرف صفات الجلال ، وصفات الجمال ، وصفات الجلال تجعل العبد يخاف من عقوبة الله ﷻ ، فيتقيه بفعل أمره ، واجتناب نهيه ، وصفات الجمال ترغب الإنسان في طاعة الله ، ومن أطاع الله أكرمه : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾[الأحزاب: ٧١] .

وقد ورد لفظ التقوى في القرآن في مواطن ، فقد أمرنا الله ﷻ بتقواه بقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾[آل عمران:١٠٢] .

وأمرنا سبحانه باتقاء يوم القيامة ، يوم الحساب والجزاء : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾ [البقرة:٢٨١] .

وأمرنا باتقاء النار بقوله : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾ آل [آل عمران:١٣١] .

واتقاء هذه الأمور الثلاثة من تقوى الله ﷻ ، وأمرنا كذلك باتقاء الفتن بقوله : ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنفال:٢٥] .

واتقاء هذه الأمور الثلاثة الأخيرة من تقوى الله ﷻ .

- **والله سبحانه أنعم على عباده بلباسين :**

الأول : لباس حسي يستر العورة ، ويقي أذى الحر والبرد ، ويتجمل به الإنسان .

الثاني : لباس التقوى ، وهو الإيمان وفعل الطاعات واجتناب المعاصي ، وهذا اللباس أعظم اللباسين ؛ لأنه يقي الإنسان من فضوح الدنيا والآخرة ، وفضوح الآخرة شرًا من فضوح الدنيا ، والأول يقي الإنسان ويستر عورته الحسية في الدنيا ، وهو مطلوب شرعًا : ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأعراف:٢٦] .

وقال الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران:١٠٢] .

وخير زادِ في الدنيا والآخرة هو التقوى ، ومن أراد الحج فعليه أن يتزود من التقوى بما يعفه عن السؤال والاستشراف ، والنهب والغصب والسرقة : ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾ [البقرة:١٩٧] .

وهذا لأجل أن تخلص الذلة ، والافتقار لله وحده : ﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ [البقرة:١٩٦] .

وقال الله عز وجل: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ۝٣ ﴾ [الطلاق: ٢-٣] .

التقوى : أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية .

- **وهذه الوقاية مركبة من شيئين هما :**

امتثال أوامر الله ورسوله .. واجتناب ما نهى الله عنه ورسوله .

قال الله عز وجل: ﴿ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝١٣ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝١٤ ﴾ [النساء:١٣-١٤] .

فمن أحب أن يكون أكرم الناس ؛ فليتقي الله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ۝١٣ ﴾ [الحجرات:١٣] .

ومن أحب أن يكون أقوى الناس ؛ فليتوكل على الله : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ۝٣ ﴾ [الطلاق:٣] .

ومن أحب أن يكون أغنى الناس ؛ فليكن بما في يد الله أوثق مما في يده : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٢٣ ﴾ [المائدة:٢٣] .

ومقام التقوى مقامٌ شريفًا عظيم، قد أمرنا الله ﷻ به؛ لنشرف في الدنيا والآخرة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ۝١٠٢ ﴾ [آل عمران:١٠٢] .

والله ﷻ مع المتقين ينصرهم ، ويؤيدهم ويحفظهم : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾[النحل:١٢٨] .

والله ﷻ يحب المتقين : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾[آل عمران:٧٦] .

وقال الله عز وجل﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾[الطلاق:٢-٣] .

فالتقوى أن لا يفقدك الله حيث أمرك ، ولا يجدك حيث نهاك ، ولا تختار على الله سوى الله ، والتقوى ترك الإصرار على المعصية ، وترك الاغترار بالطاعة ، وتزيين سرك للحق ، كما زينت ظاهرك للخلق: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ ﴾[الملك:١٢] .

وقال الله عز وجل:﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾[فاطر: ٢٨] .

وقال الله عز وجل:﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾[البقرة: ٢] .

والتقوى هي الاستقامة على التوحيد والإيمان، والاستقامة على الأعمال الصالحة : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾[فصلت:٣٠-٣٢] .

وقال الله عز وجل:﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ ﴾[هود:١١٢] .

وعمر الإنسان هو وقته ، والوقت مُركب من ثلاثة أمور :

- الماضي
- والحاضر
- والمستقبل .

فما مضى من العمر في الذنوب والمعاصي إصلاحه بالتوبة والاستغفار : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [النساء:١١٠] .

وقال الله عز وجل: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر:٥٣] .

وما يستقبل من العمر إصلاحه بالامتناع عن الذنوب والمعاصي : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾ [الحشر: ٧] .

وإصلاح هذا وهذا من عمل القلب ، وليس فيه للجوارح نصب ولا تعب : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الحج:٣٢] .

وقال الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران:١٠٢] .

ولكن الشأن كل الشأن في الوقت الحاضر ، الذي حفظه أشق من إصلاح ما قبله وما بعده ، فإن حفظته بالإيمان والتقوى مع حفظ ما قبله وما بعده ظفرت بسعادة الأبد: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة:١٥-١٧] .

وإن ضيعته مع إضاعة ما قبله وما بعده فتلك خسارة الأبد .

قال الله تعالى : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾[العصر:١-٣].

وقال الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٧١ ﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١] .

وقال الله عز وجل ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ۝١٠٥ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ۝١٠٦ ﴾[الكهف:١٠٣- ١٠٦] .

التقوى ضد الفجور ، فالتقوى فعل أوامر الله واجتناب نواهيه ، فعل الواجبات وترك المحرمات ، والفجور عكس ذلك ، فعل المحرمات وترك الواجبات ، والانحراف ضد الاستقامة ، والاستقامة أن تستقيم على أوامر الله أمرًا أو نهيًا ، كما قال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٠٢ ﴾[آل عمران:١٠٢] .

والانحراف نوعان :

أحدهما : انحرافًا إلى جانب الإفراط ، والغلو .

الثاني : انحرافًا إلى جانب التفريط ، والتقصير .

- **وكلا هذين محرم في الشريعة ، والناس في دين الله طرفان ووسط :**

١-طرف غالٍ متنطع متعنت .

٢-وطرف مفرط جافٍ مقصر مهمل .

٣- والثالث وسط بين الغالي ، والجافي وسط بين الإفراط والتفريط .

والنجاة في الوسط ، والهلاك في الغلو والجفاء ، كما قال سبحانه : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾ [المائدة:٧٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ ۚ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ ﴾ [النساء:١٧١] .

وقال النبي ﷺ : « هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ ثَلَاثًا »أخرجه مسلم[1] .

- **وتقوى الله عز وجل تنقسم إلى قسمين :**

تقوى القلب .. وتقوى الجوارح .

وتقوى القلب إصلاح الباطن بالتوحيد والإيمان والتعبد لله ﷻ بالأمور القلبية بالحب والتعظيم والذل له .

وتقوى الجوارح إصلاح الظاهر ، فتقوى الجوارح بدون تقوى القلب هذا هو النفاق ، والمطلوب تقوى القلب ، وتقوى الجوارح : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الحج:٣٢] .

فتقوى القلب لابد أن تتبعها تقوى الجوارح، فإذا اتقى القلب ربه، اتقت الجوارح معه.

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٢٦٧٠).

كما قال النبي ﷺ :« أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ» أخرجه البخاري[1] .

والتقوى أن يتخذ الإنسان ما يقيه من عذاب الله ، وذلك بفعل أوامره واجتناب نواهيه ، والتقوى تارة تذكر في القرآن وحدها ، كما قال سبحانه : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠﴾[الأحزاب:٧٠].

وتارة تُقرن بالبر ، كما قال سبحانه : ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢﴾[المائدة: ٢] .

فإذا قرنت بالبر ، صار البر فعل الأوامر ، والتقوى ترك النواهي ، كما قال سبحانه : ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾[المائدة: ٢] .

وإذا أُفردت شملت فعل الأوامر ، واجتناب النواهي ، كما قال سبحانه : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾[آل عمران:١٠٢] .

والتقوى كغيرها من الأعمال الصالحة منوطة بالاستطاعة ، فمن لم يستطع شيئًا من أوامر الله ، فإنه يعدل إلى ما يستطيعه ، كما قال سبحانه : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾[الحج:٧٨] .

وقال الله تعالى : ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾[التغابن:١٦] .

ومن اضطر إلى شيء من المحرمات حل له ما ينتفع به لدفع الضرورة ، كما قال سبحانه : ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣﴾[المائدة:٣] .

---

(١) أخرجه البخاري برقم: (٥٢).

٢- الخزانة الثانية

كل إنسان محتاجًا إلى كسوة تستر عورته حسًا ، ومحتاج إلى إيمانٍ وعمل صالح يستر عورته معنًا؛ لأن التقوى لباس القلب ، والقماش لباس الجسد ، ولكلًا من الجسد والقلب عورة ، وستر ذلك من فضل الله وكل ذلك نعمة من الله وحده : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾[النحل:٥٣] .

فالطعام كسوة البدن باطنًا من عري الجوع ، والكسوة سترة البدن ظاهرًا ، والهداية ستر القلوب ، والنفوس من عيوب الذنوب والمعاصي : ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾[الأعراف:٢٦] .

وقال الله ﷻ في الحديث القدسي : « يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ »أخرجه مسلم(١) .

فعلى الإنسان أن يستقيم على أوامر الله إلى أن يلقى ربه ، والاستقامة هي لزوم طاعة الله تَعَالَىَ ، بأن يكون الإنسان ثابتًا على الحق لا يزيد عليه ولا ينقص منه ، ولا يبدل ولا يغير ولا يشك ، فيستقيم على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، ويستقيم على الدين بفعل الأوامر واجتناب النواهي ، والتصديق بكل ما جاء عن الله ورسوله والعمل بشريعة الله ، والاستقامة حسب الاستطاعة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ

(١) أخرجه مسلم برقم: (٢٥٧٧) .

تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [فصلت:٣٠-٣٢] .

وعن سفيان بن عبد الله الثقفي أنه قال للنبي ﷺ : « قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهَّ ، قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بعدك ، وفي رواية : غَيْرَكَ بَعْدَكَ ، قَالَ : قُلْ : آمَنْتُ بِاللَّهَّ ثُمَّ اسْتَقِمْ »أخرجه مسلم[1] .

والاستقامة على أوامر الله ، وتقوى الله ﷻ كله من فضل الله ﷻ ، ولا ينجي أحد عمله ، بل ذلك من فضل الله ورحمته عليه ، ولكن العمل سبب لدخول الجنة .

وعن أبي هريرة قال : قال الرسول ﷺ : « لن يدْخل أحد مِنْكُم عَمَلِهِ الْجَنَّة ، قَالُوا : وَلَا أَنْت يَا رَسُول الله ؟ قَالَ : وَلَا أَنا ؛ إِلَّا أَن يتغمدني الله مِنْهُ بفضل ورحمة »متفق عليه[2] .

فتقوى الله ﷻ تعظيم الرب، بفعل أوامره واجتناب نواهيه وتعظيم حرماته، وحرمات الله هي ما جعله محترمًا من الأماكن أو الأزمان أو الأشخاص، فالذي يعظم حرمات الله هذا دليل على تقواه ربه .

فالأماكن : كالحرمين والمساجد .

والزمان : كالأشهر الحرم .

والأشخاص: كإخوانه الآدميين، وإخوانه المسلمين في الإسلام، فيحترمهم، ولا يحقر أحدًا منهم .

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٣٨).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٦٤٦٣)، واللفظ له، ومسلم برقم: (٢٨١٦) .

وكذلك تعظيم ما حرمه الله من المعاهدات فلا يحل لأحد نقضها سواء كانت بين المسلمين ، أو كانت بين المسلمين ، والكفار ، وكذلك العقود : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾[الحج:٣٠] .

وقال الله عز وجل:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾[المائدة:١] .

وقال الله عز وجل: ﴿ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ ﴾ [الإسراء:٣٤] .

وتعظيم الشعائر وهي العبادات الظاهرة :

كالطواف بالبيت ، والسعي بين الصفا والمروة، والآذان والإقامة ، والصلاة والصيام ، وغيرها من شعائر الإسلام ، فهذه إذا عظمها المسلم كان هذا دليل على تقواه؛ لأن التقوى هي التي تحمل العبد على تعظيم الشعائر، وامتثال الأوامر واجتناب النواهي : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾[الحج:٣٢] .

وحرمة الآدمي ، وحرمة المسلم عظيمة ، فلا يجوز قتل النفس بغير حق : ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [المائدة:٣٢] .

لأن حرمة المسلمين واحدة ، ومن انتهك حرمة شخصًا من المسلمين ، فكأنما انتهك حرمة جميع المسلمين ؛ لأن حرمة المسلمين واحدة ، وكما أن من كذب رسولًا واحدًا ، فكأنما كذب جميع الرسل .

وكل نفسٍ تُقتل بغير حق ، على أبن آدم الأول الذي قتل أخاه كفل منها ، وعليه من إثمه نصيب ؛ لأنه أول من سن القتل العدوان : ﴿ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِۚ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧ ﴾[المائدة:٢٧] .

ثم بعد ذلك ، قال ﷻ : ﴿ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٣٠ ﴾[المائدة:٣٠] .

وقال الله عز وجل: ﴿ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ٣٢ ﴾[المائدة:٣٢] .

الاستقامة سلوك الصراط المستقيم وإتباع منهج الله في كل حال ، وسلوك الصراط المستقيم من أعظم نعم الله على عباده ، ولهذا أمر الله ﷻ بسؤاله سلوك هذا الصراط بقوله سُبْحَانَهُ : ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧ ﴾[الفاتحة : ٦-٧] .

ولم يقطف الإنسان شيئًا من ثمار الدين إلا بالاستقامة ، والاستقامة ثمرة التوحيد ، والتوحيد ثمرة العلم : ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩ ﴾[محمد: ١٩] .

وكما أن الربح ثمرة التجارة ، والفواكه والحبوب ثمرة الزراعة ، فكذلك ثمرة الدين الاستقامة ، والاستقامة فعل الطاعات الظاهرة والباطنة ، واجتناب المعاصي الظاهرة والباطنة ابتغاء مرضاة الله : ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٢ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ

ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [هود:١١٢-١١٣] .

- **والاستقامة يتعلق بها أربعة أمور هي :**

النيات .. والأقوال .. والأفعال .. والأحوال .

والاستقامة في جميع الأمور يجب أن تقع لله إخلاصًا : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف: ١١٠] .

وتقع بالله استعانةً : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [التغابن:١٣] .

وتقع على أمر الله ورسوله تطبيقًا : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الحج: ٧٧] .

وقال الله عز وجل ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾ [الحشر: ٧] .

والمؤمن يسعى لتحصيل الاستقامة لا لطلب الكرامة ، لكن الله كريم فما من مؤمن ولا مؤمنة يستقيموا على أوامر الله ، إلا وله عند الله أعظم الكرامات والعطائات .

وأعلى الكرامات أن يرزقه الله العلم بالله وأسمائه وصفاته ، ودينه وشرعه ، وثوابه وعقابه : ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾ [النساء:١١٣] .

وقال الله عز وجل: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحجرات:١٧] .

الصراط المستقيم هو كتاب الله فهو حبل الله المتين والنور المبين ، فيه الأخبار الصادقة والأحكام العادلة : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾[الأنعام:١٥٣] .

وقال الله عز وجل:﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾[المائدة:١٥-١٦] .

والاستقامة فعلًا تكليفي يصدر من العبد ، إن شاء استقام وإن شاء انحرف ، إن شاء آمن وإن شاء كفر ، وإن شاء صدق وإن شاء كذب : ﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾[النور:٤٦] .

وقال الله عز وجل:﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾[البقرة:٢١٣] .

فكل استقامة من الله ﷻ ، وكل انحرافًا من العبد ، الله لم يأمر العبد بالكفر ولا بالفجور ولا بالمعاصي ، وإنما أذن فيه ففعله العبد : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ

ٱلضَّلَٰلَةُ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[الأعراف: ٢٨-٣٠] .

وقال الله عز وجل: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴿٧٩﴾ ﴾[النساء:٧٩] .

فكل حسنة من الله ، وكل نعمة من الله ، وكل خيرًا من الله ؛ لأن الله يأمر بالعدل والإحسان ، ويحب العدل والإحسان : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾[النحل:٩٠].

والعبادة لله وحده هي الصراط المستقيم ، كما قال سبحانه : ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٣٦﴾ ﴾[مريم:٣٦] .

والدعوة إلى الله صراطًا مستقيم : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٣﴾ ﴾[المؤمنون:٧٣] .

والقرآن صراطًا مستقيم : ﴿ فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٣﴾ ﴾[الزخرف:٤٣] .

وقال الله عز وجل: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾[الشورى: ٥٢ - ٥٣]

العبادة هي امتثال أوامر الله ورسوله في كل حال ، والعبادة تشمل جميع الشعائر والشرائع التي أمر الله ورسوله بها ، فيجب علينا أن نتبع أوامر الله ورسوله في كل حال من أحوالنا ، فتتبع منهج الله في طهارتك ، وصلواتك ، وزكاتك ، وحجك ، وصيامك .

وتتبع منهج الله ﷻ تعبدًا في كسبك وتجارتك ، وزواجك وعلاقتك ، وأقوالك وأفعالك ، فالعبادة اسم جامعٌ لكل ما يحبه الله ويرضاه ، من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾[الذاريات:٥٦-٥٨] .

فالعبادة التي أمرنا الله ﷻ ، إتباع منهج الله التفصيلي في كل حال ، وفي كل زمان ، وفي كل مكان : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾[الفاتحة:٥].

وقال الله عز وجل:﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾[الأنعام:١٦١-١٦٣] .

وقال الله عز وجل:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[البقرة: ٢١]

والاستقامة على هذه العبادة العظيمة الواسعة ، وهي امتثال أمر الله في كل حال من فضل الله العظيم على عباده : ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ ﴾[هود:١١٢] .

فالعبادة هي إتباع صراط الله المستقيم ، التفصيلي في كل شيء : ﴿ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾[يس:٦١].

وقال الله عز وجل:﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾[الملك:٢٢] .

والإنسان يستقيم على أمرًا قوي من البشر خوفًا منه ، والله يريد من خلقه الاستقامة إليه ، والاستقامة على أوامره في كل حال : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ

مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ﴾[فصلت:٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾[الكهف: ١١٠]

فمن آمن بالله ولم يستقم إليه ، فلا قيمة لهذا الإيمان إطلاقًا ، لأنه إيمانًا إبليسي لم يحمله على طاعة الله ، كإيمان إبليس ، كما قال سبحانه : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾[البقرة:٣٤].

وكان إبليس من عُباد الجن ، ولكن لما في قلبه من الكبر، لم يسجد لما أمره الله ﷻ به، وللاستقامة على الإيمان والتوحيد، والاستقامة على البر والتقوى، والاستقامة على الأعمال الصالحة ثمرات كثيرة في الدنيا والآخرة .

فثمرات الاستقامة هي السعادة في الدنيا والآخرة : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾[فصلت:٣٠-٣٢] .

وقال الله عز وجل:﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[الأنعام:٨٢].

وقال الله عز وجل:﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن

قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [البقرة:٢٥] .

فنعم الله ﷻ على من استقام على أوامره متصلة ، ففي الدنيا :﴿ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ ﴾[فصلت:٣٠] .

وفي الآخرة : ﴿ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[فصلت:٣٠] .

وقال الله عز وجل:﴿ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ﴿١٤﴾ ﴾ [الانفطار:١٣-١٤] .

وقال الله عز وجل:﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾[النحل:٩٧] .

وقال الله عز وجل:﴿ وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ﴿١٦﴾ ﴾ [الجن:١٦] .

وقال الله عز وجل:﴿ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾[طه:١٣١] .

فالصراط المستقيم واحد ، وهو الحق الذي أنزل الله بيه كتبه ، وأرسل بيه رسله ، وكما أنك لا تستطيع أن توصل بين نقطتين إلا بخط واحد مستقيم ، فكذلك ليس في الأرض إلا صراطًا واحد وحقُ واحد وإله واحد ، فالحق واحد والباطل متعدد .

والعمر قصير لا يستوعب إلا الحق ، أما الباطل فأنواعه كثيرة لا يستوعبها العمر ، والحق عدلٌ وإحسان ، والباطل ظلمًا وطغيان ؛ لهذا من رحمة الرحمن الرحيم أن هدانا للحق ورزقنا الاستقامة عليه : ﴿ فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾[الجاثية:٣٦-٣٧]

بهذا الحرب بين حقين لا تكون لأن الحق واحد ، والحرب بين حق وباطل لا تطول ؛ لأن الحق يدمغ الباطل : ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الإسراء:٨١] .

وقال الله عز وجل:﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنبياء:١٨] .

والحرب بين باطل ، وباطل لا تنتهي : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام:١٥٣] .

وقال الله عز وجل:﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحج:٤٠-٤١] .

والإنسان إذا استقام فهو أسعد الناس ، وإذا انحرف فهو أشقى الناس ، يؤذه ويزجه الشيطان من معصية إلى أخرى ، ومن صغيرة إلى كبيرة : ﴿ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعراف:١٧] .

والطريق إلى الله فيه حفاظة الإنسان : ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [طه:١٢٣-١٢٤] .

وقال الله عز وجل:﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ ﴾ [الشعراء:٢١٣] .

ومن عرف الله آمن به واستقام على دينه، ومن عرف عظمة ملكه وسلطانه وعظمة دينه وشرعه ، وعظمة وعده ووعيده استقام على فعل أوامره واجتناب نواهيه ، ومن جهل ذلك سلك السبل المعوجة : ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾ [الأنعام : ١٦١] .

وقال الله عز وجل:﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [المؤمنون:٧٤] .

ولا يستقيم إيمان عبدٍ حتى يستقيم قلبه، ومن استقام قلبه استقامت جوارحه ، ومن زاغ قلبه، زاغت جوارحه : ﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ ﴾[النور:٤٦] .

كما قال النبي ﷺ : « أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ »متفق عليه(١) .

الله سبحانه بعلمه المحيط ، وحكمته المطلقة ، المقرونة بالخير المطلق : ﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ ﴾ [النور:٤٦] .

الاستقامة هي الإسلام كله ، فمن أسلم ولم يستقم ، يبقى الدين في حياته معلومات ، وثقافات لا قيمة لها .

وسُئل النبي ﷺ : « قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ ، وفي رواية غَيْرَكَ ، قَالَ : قُلْ : آمَنْتُ بِاللهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ » أخرجه مسلم(٢) .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٥٢)، ومسلم برقم: (١٠٧/ ١٥٩٩)، واللفظ له.
(٢) أخرجه مسلم برقم: (٦٢/ ٣٨).

٣- الخزانة الثالثة

- **صفات الأولياء :**

الله سبحانه كريم ، خلق الإنسان في أحسن تقويم ، واشترى المؤمنين من البشر ، واشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم حتى لا تشغلهم عنه ، وأمرهم ببذلها في سبيل مرضاته ، وعوضهم عن ذلك رضوانه والجنة : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾[التوبة:١١١] .

والله سبحانه عليٌ كريم ، وغنيٌ كريم ، لا يشترى إلا السلع التي لها صفات عالية ، فوصف هذه السلعة التي اشتراها سبحانه، بقوله : ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾[التوبة:١١٢] .

ووصف سبحانه أولياءه المتقين بهذه الصفات العظيمة وهي عشر صفات :

١- التائبون الراجعون من غير الله إلى الله ، ومما تحبه النفس إلى ما يحبه الرب .

٢- العابدون الخاضعون لعظمة جلال الرب ، تعظيمًا له ، وحبًا له ، وذلًا له .

٣- الحامدون بإظهار الكمالات العلمية ، والعملية حمدًا لربهم على نعمه التي لا تعد ، ولا تحصى .

٤- السائحون الذين هاجروا بقلوبهم ، وجوارحهم إلى ربهم .
٥- الصائمون عن المألوفات حين عاينوا خلال جلال الله ، وجماله جَلَّ جَلَالُهُ .
قال الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ [الملك:١٢] .
٦- الراكعون الخاضعون لربهم تعظيمًا له ، وحبًا له ، وطاعة له .
٧- الساجدون الذين سجدوا بقلوبهم ، وجوارحهم لربهم العلي الأعلى ؛ لجلاله وجماله ، وكمال عظمته ، وعظيم نعمه ، وإحسانه .
٨- الآمرون بالمعروف الذين يعرفون الخلق بالحق ، ويأمرونهم بعبادة الله ، وطاعته والإيمان به .
٩- والناهون عن المنكر الذين ينهون الناس عما يغضب ربهم ، وما يفسد حياتهم من الكفر ، والشرك ، والبدع ، والمعاصي .
١٠- والحافظون لحدود الله الذين حفظوا حدود الله بإقامة أوامره ، ونواهيه في أنفسهم ، وعلى غيرهم ، وفي قلوبهم ، وجوارحهم .
وبشر المؤمنين الذين آمنوا بالله ، واستقاموا على شرعه : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت:٣٠-٣٢] .
وأولياء الله ﷻ هم المتقون : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ

ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾ [يونس:٦٢-٦٤] .

ومن صفات السلع العالية الغالية الثمينة التي يحبها الله والتي أشتراها : ﴿ إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّآئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأحزاب:٣٥] .

فهنيئاً لمن اشتراهم الله ﷻ فأكرمهم في الدنيا بهذا الدين الحق وزينهم بأخلاقه ، وأكرمهم في الجنة من النعيم المقيم ، ورضوان رب العالمين : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾ [التوبة:٧٢] .

- **التقوى ثلاث درجات :**

الأولى : فعل الواجبات من فرائض ، وحقوق وفى هذا حياة القلب .

قال الله تعالى : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [الأنعام:١٢٢] .

وقال الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الحج: ٧٧] .

وقال الله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ

وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾[الأنفال: ٢ - ٤].

الثانية : ترك المحرمات والمكروهات ، وفى هذا دواء القلب : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾ [الزمر:١٧-١٨].

وقال الله عز وجل:﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾[النساء:٣١] .

الثالثة : ترك الفضول من الطعام والشراب ، والنوم والكلام والنظر ، وفى هذا أُنس القلب وسروره : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾[الكهف: ٢٨]

وقال الله عز وجل:﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾ الرعد:٢٨ -٢٩] .

وقال الله عز وجل:﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾[يونس:٥٨] .

فهذه درجات التقوى ، وإذا اتقى قلب الإنسان ربه ، اتقى العبد ربه بلسانه وجوارحه في أقواله وأفعاله : « أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ »متفق عليه[1] .

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٥٢)، ومسلم برقم: (١٠٧/ ١٥٩٩)، واللفظ له.

فإذا امتلأ القلب بالإيمان والتقوى تحركت الجوارح بطاعة الله ﷻ ، وامتثال أوامره فيتحرك اللسان بالكلام ذكرًا وتكبيرًا وتعظيمًا لله ﷻ ، وحمدًا وشكرًا له ، وتنطلق الجوارح عبادةً ، ودعوةً وتعليمًا ، وإحسانًا إلى الخلق .

وبعض الناس تقول له ناصحاً له : اتق الله لا تأكل الربا ، لا تشرب الخمر ، لا تسمع الغناء ، فيقول التقوى ها هنا يشير إلى القلب ، وهذا من الجدال في الباطل ، وكلمة حق أريد بها باطل ، وبهذا يجر الشيطان الناس إلى معصية الله ، وإخراجهم من التقوى إلى الفجور والكذب : ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾[يس:٦٠:٦١].

وقال الله عز وجل:﴿ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ ﴾[النساء:٣٨] .

فهذا الإنسان الذي يقول التقوى ها هنا يُقال له : أين التقوى ؟ فلو كان عندك تقوى في قلبك ؛ لاتقيت الله في أقوالك ، وأفعالك ، وجوارحك : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران:١٠٢] .

والنبي ﷺ كما في مسلم يقول : « التَّقْوَى هَاهُنَا » أخرجه مسلم[1] .

فإذا وجدت التقوى في القلب أثمرت محبه الله ، وتعظيمه وطاعته ، واجتناب معصيته : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾[الممتحنة:١١] .

وقال الله عز وجل:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [المجادلة:٩] .

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٢٥٦٤).

وقال الله عز وجل: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾ [البقرة:٢٢٣] .

وقال الله عز وجل: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾ [الطلاق:٢-٣] .

- **حياة القلب بالإيمان والتقوى :**

قال الله تعالى : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [الأنعام:١٢٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل:٩٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾ [يونس:٦٢-٦٤] .

وعلامات حياة القلب أن يأنس بذكر ربه ، ولا يفتر عن ذكره ، ولا يسأم من طاعته : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران:١٩٠ -١٩١] .

وقال الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ﴿٤٣﴾ ﴾[الأحزاب:٤١-٤٣] .

ومن علامات حياة القلب أن يشتاق إلى طاعة الله أعظم من اشتياق الجائع للطعام ، واشتياق الظمآن للشراب ، وأن يتألم لفوات الطاعة أعظم من تألم صاحب المال لفوات ماله ، وأن يجد في الصلاة قرة عينه وسروره : ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ ﴾[المؤمنون:١-٢] .

وقال الله عز وجل: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ﴿٦٤﴾ ﴾ [الفرقان:٦٣-٦٤] .

وأن يشهد في كل أعماله منة الله عليه فيه ، وتقصيره في حق الله ﷻ ، وأن يمتلأ قلبه بتعظيم الله وحمده وتمجيده ، وتعظيم أوامره ونواهيه ، ومعرفه قدره سبحانه : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾[الحجرات:١٧] .

وقال الله عز وجل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢﴾ ﴾ [الجمعة: ٢]

وقال الله عز وجل: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [المؤمنون:٦٠-٦١] .

وقال الله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٤﴾ ﴾[الأنفال: ٢ - ٤].

ومن علامات حياة القلب أن يحضر العبد بقلبه وجوارحه عند مناجاة الله ، وأن يقطع الخواطر عن الشهوات والشبهات حتى لا يتعلق قلبه بها : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾[الملك:١٢] .

ومن علامات حياة القلب أن يحذر الذنوب صغيرها وكبيرها الظاهرة والباطنة ؛ لعلمه أن الذنوب سموم قاتله ، وهي سبب الغفلة ، والعُهر والفساد والعقوبات : ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾[مريم:٥٩] .

وقال الله عز وجل:﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾[الماعون:٤-٥] .

وقال الله عز وجل:﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾[الطلاق:٢-٣] .

وقال الله عز وجل:﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾[الزمر:١٧-١٨].

ومن علامات حياة القلب وتقواه أن يطهره صاحبه من مساوئ الأخلاق ، وينفر منها من الحسد والكبر ، والرياء والأثرة ، والانتقام والبغي والظلم ، وغيرها مما يشوش القلب ويصرفه عن عبادة الله : ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾[آل عمران:١٣٣-١٣٤].

وقال الله عز وجل: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾[فصلت:٣٣- ٣٥].

وقال الله عز وجل: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [الأعراف:١٩٩] .

وقال الله عز وجل: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾[القلم:٤] .

ومن علامات حياة القلب وتقواه عدم التوسع في المباحات التي تشغله عن ذكر ربه ، وتسبب قسوة القلب ، وحراسة الوقت من إضاعته فيما لا يقرب إلى الله : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾[الكهف: ٢٨]

فأشد أنواع الإضاعة إضاعتان :

إضاعة الوقت .. وإضاعة القلب .

فإضاعة القلب بإتباع الهوى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾[القصص:٥٠] .

وقال الله عز وجل: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾[آل عمران: ٧٣] .

وقال الله عز وجل: ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾[الأنعام:٧١] .

وقال الله عز وجل: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام:١٥٣] .

فإضاعة القلب بإتباع الهوى ، وإضاعة الوقت تكون بطول الأمل ، والخير في إتباع الهدى وقصر الأمل : ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾[الأنعام:٧١] .

وقال الله عز وجل: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾[الأنعام:١٦٢-١٦٣] .

ومما يحيى القلب أكل الحلال ، واجتناب الحرام والمشتبه ، فأكل الحرام والمشتبه يفسد القلب ، ويحرم العبد من التوفيق ، وذوق حلاوة الإيمان : ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[المطففين : ١٤] .

وقال الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾[البقرة:١٧٢] .

وبالإكثار من ذكر الله أعظم حياةً للقلب ، وطمأنينته فذكر الله جنة الدنيا المؤجلة ، فمن ذكر الله ذكره ، ومن تقرب إلى الله شبرًا تقرب الله إليه ذراعًا ، ومن ذكر الله رضي عنه ، وإذا رضي الله عنك أفلحت : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ ﴾[الأحزاب:٤١-٤٣] .

وقال الله عز وجل: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾الرعد:٢٨] .

وقال الله عز وجل: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ﴾[الأعلى:١٤-١٧] .

٤- الخزانة الرابعة

تقوى الله ﷻ أكرم ما أسررنا : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾[الحجرات:١٣] .

وتقوى الله أزين ما أظهرنا ، وأفضل ما ادخرنا ، وأحسن ما لبسنا : ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾[الأعراف:٢٦] .

والخاسر من أبدي للناس صالح عمله ، وبارز بالقبيح من يستوي عنده السر والعلانية : ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾[الملك:١٣-١٤] .

وتقوى الله ﷻ أن تفعل ما أمرك الله به رجاء ثوابه ، وأن تترك ما نهاك الله عنه خوفًا من عقابه ، وحق تقاته أن لا يترك المسلم شيئا مما أمره الله به إلا فعله ، وأن يجتنب كل ما نهى الله عنه : ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾[الحشر: ٧] .

فيطيع العبد ربه ولا يعصيه ، ويذكره ولا ينساه ، ويشكره ولا يكفره ، ويؤمن به ويتوكل عليه : ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾[التغابن:١٣] .

وقال الله عز وجل:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾[البقرة: ٢١]

وقد أمر الله عباده المؤمنين بالتقوى ؛ لأنهم هم الذين يعرفون ما يستحقه سبحانه من التعظيم ، والإجلال والتوقير ، وكمال المحبة والطاعة ، والذل

للرب سبحانه فقال : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾[آل عمران:١٠٢] .

ولكن أحدًا لا يستطيع أن يقوم بكمال التقوى ، فمن رحمة الله أنه لا يكلف نفسًا إلا وسعها : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾[الحج:٧٨] .

فإذا فعل الإنسان ما يستطيع مما أمره الله ورسوله به، وترك ما نهى الله ورسوله عنه، فقد اتقى الله حق تقاته، كما قال سبحانه : ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٦﴾﴾ [التغابن:١٦] .

والتقوى تقوم على أصول عظيمة ، ولها دلائل وشواهد من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر والقدر خيره وشره، والأعمال الصالحة التي هي آثار الإيمان وبرهانه ونوره، والأخلاق الحسنة التي هي جمال الإنسان، فمن اتسم بهذه الصفات فهو من الأبرار الصادقين المتقين :﴿۞ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة:١٧٧] .

والتقوى هي التحلية بعد التخلية ، والتزين بعد التطهر ، بفعل الطاعات بعد التخلي عن السيئات .

والتحلية فعل الحسنات إما بالقلب ، أو القالب ، أو المال فرأس الأعمال القلبية الإيمان والتوحيد ، والجامعة للأعمال البدنية هي الصلاة، التي هي عماد الدين، وقطب الأعمال المالية هي الزكاة والصدقات، كما قال سُبْحَانَهُ : ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ ﴾[البقرة:١ -٣] .

والتقوى وصية الله للأولين والآخرين ، كما أخبر الله بذلك بقوله : ﴿ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدٗا ۝١٣١ ﴾[النساء:١٣١] .

وتقوى الله ﷻ ألا يفقدك الله حيث أمرك في باب الواجبات والمستحبات ، ولا يجدك حيث نهاك في باب المحرمات والمكروهات، وأن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله .

- **تقوى الله ﷻ تنقسم إلى قسمين :**

تقوى القلوب .. وتقوى الجوارح .

والأصل تقوى القلوب : « أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ » متفق عليه[1] .

وتقوى الجوارح من لوازم تقوى القلوب ، وهي ثمرة تقوى القلوب ، فالتقوى في الحقيقة في القلب، كما قال سبحانه : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ۝٣٢ ﴾[الحج:٣٢] .

وتقوى الجوارح لا قيمة لها ، ولا وزن بدون تقوى القلوب .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٥٢)، ومسلم برقم: (١٠٧/ ١٥٩٩)، واللفظ له.

والله سبحانه أمر عباده أن يقوموا بشرائع الإسلام على ظواهرهم ، وحقائق الإيمان على بواطنهم ، ولا يقبل واحدًا منهما إلا بصاحبه وقرينه ، والإسلام علانية ، والإيمان في القلب : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلًا ١٠٨ ﴾[الكهف:١٠٧-١٠٨] .

وقال الله عز وجل:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨ ﴾ [النحل:١٢٨] . وكل إسلامٍ ظاهر لا يقوم على حقيقة الإيمان الباطنة ، فليس بنافع حتى يكون معه إيمانًا باطن : ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٧ ﴾[النحل:٩٧] .

وكل حقيقة باطنة لا يقوم صاحبها بشرائع الإسلام الظاهرة لا تنفع ، ولو كانت ما كانت ، فلو تمزق القلب بالمحبة لله والخوف منه والتعظيم له ، ولم يتعبد بالأمر وظاهر الشرع ، لم ينجه ذلك من النار ، كما أنه لو قام بظواهر الإسلام ، وليس بباطنه حقيقة الإيمان ، لم ينجه ذلك من النار .

قال الله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠ ﴾ [الكهف: ١١٠] .

وقال الله عز وجل:﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۘ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ١ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢ ﴾[المنافقون:١-٢] .

وأكمل الهدي في الإسلام والإيمان والإحسان ، وفي كل شيء هدي محمدٍ ﷺ، وكان موفيًا كل واحد حقه .

فكان مع كمال تقواه ﷺ ، وإرادته يقوم الليل حتى تتورم قدماه ، ويصوم حتى يقال لا يفطر ، ويجاهد في سبيل الله ، ويحج ويعتمر ، ويأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ، ويدعو إلى الله ، ويكرم الضيوف ، ويواسي المحتاجين ، ويخالط أصحابه ، ويؤدي الفرائض ، ولا يترك شيئًا من النوافل والأذكار والأوراد : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾[آل عمران :١٥٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾[القلم:٤] .

- **وإذا عرف العبد هذا الصادقون السائرون إلى الله والدار الآخرة قسمان :**

الأول : من صدف ما فضل من أوقاتهم بعد الفرائض إلى النوافل البدنية ، وجعلوها دأبهم من غير حرص منهم على تحقيق أعمال القلوب ومنازلها وأحكامها ، وإن لم يكونوا خاليين من أصلها ، ولكن همهم وهممهم مصروفة إلى الاستكثار من الأعمال الصالحة .

الثاني : من صرف ما فضل من الفرائض والسنن إلى الاهتمام بصلاح قلوبهم، وعكوفه على الله وحده ، والجمعية عليه ، وحفظ الخواطر ، والإرادات معه: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[الأنفال: ٢ - ٤].

وقال الله عز وجل:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ ﴾[الملك:١٢] .

فهؤلاء جعلوا قوة تعبدهم بأعمال القلوب من تصحيح المحبة للرب ، والخوف والرجاء ، والتوكل والإنابة ، والتعظيم والحمد ، ورأوا أن أيسر الواردات على قلوبهم من الله ، أحب إليهم من كثيرًا من التطوعات البدنية ، التي يغفل معها القلب .

فإذا حصل لأحدهم وارد أنس أو حب أو انكسار أو ذل لم يستبدل به شيئًا مما سواه البتة ، إلا أن يجئ الأمر الواجب عليه من الفرائض ، فيبادر إليه بذلك الوارد إن أمكنه ، وإلا بادر إلى الأمر ، ولو ذهب الوارد .

فإذا جاءت النوافل، فإن أمكن القيام إليها فذاك، وإلا نظر في الأرجح والأحب إلى الله، هل هو القيام إلى تلك النافلة، ولو ذهب وارده وتوجه، وحضور قلبه مع ربه، هل هو القيام إلى تلك النافلة، ولو ذهب وارده، كإغاثة الملهوف، وإرشاد الضال، وجبر المكسور، واستفادة إيمانه، وما نحو ذلك .

فها هنا ينبغي تقديم النافلة الراجحة ، وما تقدمها لله تقربًا إليه ، فإنه يرد عليه ما فات من وارده أقوى مما كان ، وإذا كان الوارد أرجح من النافلة ، فالحزم له الاستمرار في وارده حتى يتوارى عنه ، فإنه يفوت ، والنافلة لا تفوت .

وهذا موضع يحتاج إلى فضل فقه في الطريق ، ومراتب الأعمال ، وتقديم الأهم فالمهم ، والأحسن على الحسن : قال النبي ﷺ « مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ »متفق عليه[1] .

وقال الله تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ [الزمر:٩].

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٧١)، واللفظ له ، ومسلم برقم: (١٠٣٧).

وقد جمع النبي ﷺ مصالح الدنيا ، والآخرة في قوله : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللهَّ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ »أخرجه ابن ماجة بسند صحيح [1] .

- **نعيم الآخرة ولذاتها تنال بتقوى الله ﷻ .**

قال الله تعالى : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس:٦٢-٦٤] .

وراحة القلب والبدن ، والسلامة من التعب ، والكد في طلب الدنيا ، إنما ينال ذلك بالإجمال في الطلب ، فمن اتقى الله فاز بلذة الآخرة ، ومن أجمل في الطلب استراح من نكد الدنيا ، وهمومها ، كما قال النبي ﷺ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللهَّ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ »أخرجه ابن ماجة بسند صحيح[2] .

فتقوى الله ﷻ تصلح ما بين العبد وبين ربه، وحسن الخلق يصلح ما بينه وبين خلقه، ولهذا أمر بهم النبي ﷺ في قوله :« اتَّقِ اللهَّ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ »أخرجه أحمد والترمذي بسند حسن [3] .

- **والدين ركنان :**

عبادة الحق .. والإحسان إلى الخلق .

قال الله عز وجل:﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾[النساء:٣٦] .

فتقوى الله ﷻ توجب للعبد محبة الله له ، وحسن الخلق يدعو الناس إلى محبته ، والتقصير في فعل الطاعات ، أو في فعل السيئات يمحوه إتباع ذلك

---

(١) صحيح/ أخرجه ابن ماجة برقم: (٢١٤٤).

(٢) صحيح/ أخرجه ابن ماجة برقم: (٢١٤٤).

(٣) حسن/ أخرجه أحمد برقم: (١٥٨) ، والترمذي برقم: (١٩٨٧).

بفعل الحسنات : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾[هود:١١٤] .

والعبد إنما يقطع منازل السير إلى الله بقلبه وهمته لا ببدنه ، وأقرب الوسائل إلى الله ملازمة السنة والوقوف معها في الظاهر ، والباطن ، ودوام الافتقار إلى الله والتضرع إليه ، وإرادة وجه وحده بالنيات والأقوال ، والأعمال الصالحة : ﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف: ١١٠] .

وقال الله عز وجل: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾[الأعراف:١٥٨] .

ومن أعظم الظلم والجهل أن تطلب التعظيم والتوقير لك من الناس وقلبك خالٍ من تعظيم الله وتوقيره ، وإجلاله وتقواه ، ومن السفاهة والجهل أن توقر المخلوق وتجله أن يراك في حال لا توقر الله أن يراك عليها ، وهذا أعظم الجهل ، فمن لم يعرف الله لم يوقره ، كما قال سبحانه : ﴿ مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ﴿١٣﴾ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ﴿١٩﴾ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ﴿٢٠﴾ ﴾[نوح:١٣ -٢٠] .

وقال الله عز وجل: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزمر:٦٧].

- **لهذا لابد لكل إنسان من أمرين :**

أحدهما : طاعة الله ورسوله بفعل المأمور وترك المحظور .

قال الله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [آل عمران:١٣٢] .

الثاني : الصبر على ما يصيبه من القضاء المقدور .

فالأول : هو التقوى .

والثاني : هو الصبر وقد جمعهم الله في قوله : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [يوسف:٩٠] .

وقد خلق الله ﷻ في كل إنسان ثلاث قوى :

قوة البذل والإعطاء .. قوة الكف والامتناع .. قوة الإدراك والفهم :﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل:٧٨] .

فمن وفقه الله ﷻ للإيمان وهداه استعمل هذه القوى الثلاث فيما يحب الله، ويسره لكل يسرى في الدنيا والآخرة، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ [الليل:٤-٧] .

ومن خذله الله ، ولم يرد له الهداية استعملها فيما يبغض الله ، فنال بسبب ذلك العقوبة ، كما قال سبحانه : ﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ [الليل:٨-١٠] .

وأبواب البركات تفتح مع كمال الإيمان ، وكمال التقوى ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأعراف:٩٦] .

والبركات الإلهية لا يحصيها إلا الله ، ومنها البركة في العمر ، والبركة في الرزق ، والبركة في الوقت ، والبركة في الأهل ، والبركة في الأولاد ، والبركة في الأموال، والبركة في الأعمال ، ومنها قضاء الحاجات بدون أسباب ، فباب التقوى من أعظم الأبواب التي تأتي منها البركات : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ۝٣ ﴾ [الطلاق:٢-٣] .

ومنها حصول الأموال بدون جهد ، وحصول الأشياء بدون تعب ، وحصول الأرزاق مباشرة من الرب ، كما قال الله عن مريم : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ۝٣٧ ﴾ [آل عمران:٣٧] .

والآن أُغلقت أبواب البركات ، وحرم منها أكثر المسلمين بسبب ضعف الإيمان ونقص التقوى ، فالمسلمون إذا نسوا الله نزعت من حياتهم البركات ، والذي لم يُنزع تذهب بركته ، فينزل المطر ولا تنبت الأرض ، ويكثر الرزق وتقل منافعه ، فإذا نسينا الله نُزع منا كل شيء نافع .

والذي لم يُنزع تذهب بركته ، نُزع منا حب كلام الله ، وحب كلام رسوله ، وحب عبادة الله ، وحب طاعته وحب أوليائه ، وحب أوامره وحب دينه ، فارتفعت الخيرات والبركات ، وكثرت المعاصي والمخالفات والسيئات : ﴿ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝٩٦ ﴾ [الأعراف:٩٦] .

٥- الخزانة الخامسة

قيمة الإنسان بإيمانه وصفاته لا بذاته وأمواله ، ففي المخلوقات من هو أكبر منه كالسماء والأرض والجبال، وفيها من هو أقوى منه: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر:٥٧] .

وقيمة كل شيء ترتفع بقدر ما فيه من الصفات، وقيمة المؤمن ترتفع بقدر صفاته : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾[التوبة:١١١] .

وقال الله عز وجل :﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ ﴾[الكهف:١٠٧-١٠٨] .

فقيمة كل شيء ترتفع بقدر ما فيه من الصفات الحسنة ، وتنقص بقدر ما فيه من السيئات السيئة : ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾[آل عمران: ١٦٢-١٦٣] .

وقال الله عز وجل :﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾[السجدة:١٨-٢٠] .

وكذا الإنسان تسقط وتنقص قيمته بقدر صفاته : ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾[النساء: ١٤].

وقال الله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [النساء:٥٦] .

وقال الله عز وجل :﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ ﴾[محمد:١٢] .

وقال الله عز وجل:﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ ﴾[آل عمران:١٩٦-١٩٨] .

فقيمة الإنسان عند الله ترتفع عند الله بقدر ما فيه من الإيمان والتقوى، والصفات الإيمانية، وبقدر ما يقوم به من الأعمال الصالحة، وما يتحلى به من الأخلاق العالية : ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾[التوبة:١١٢] .

وقال الله عز وجل:﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[الأنفال: ٢ - ٤].

وبنو آدم كثيرون لا يحصيهم إلا الله، ولكن الله اشترى منهم أحسنهم وأكملهم، وأجملهم وأفضلهم وهم المؤمنون، فهؤلاء خير الناس وأفضل الناس وأكرم الناس وأعقل الناس وأغلى الناس، والسلعة إذا خفي عليك قدرها، فانظر المشتري لها من هو، وانظر إلى الثمن المبذول فيها، وانظر إلى من جرى على يده عقد التبايع .

فالسلعة النفس المؤمنة، والمشتري لها هو الله سبحانه، وثمنها جنات النعيم ورضوان رب العالمين، والسفير في هذا العقد خير خلقه من الملائكة، وأكرمهم وهو جبريل ﷺ، وخير خلقه من البشر، وأكرمهم عليه وهو محمدٌ ﷺ.

وقد أعلن الله هذا العقد للبشرية كافة في كتابه الكريم، فقال : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾[التوبة:١١١] .

من هؤلاء ؟ ما هي صفاتهم ؟ .

قال الله تعالى: ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾[التوبة:١١٢] .

- **وقد أوجب الله على كل عبد واجبين :**

واجب بينه وبين الله .. وواجب بينه وبين الخلق .

أما الواجب بينه وبين الله، فهو الإيمان به وعبادته وحده لا شريك له، وإيثار طاعته، وتجنب معصيته، وكمال تقواه : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى**

﴿خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾[البقرة: ٢١ - ٢٢]

وأما الواجب بينه ، وبين الخلق فهو أن تكون مخالطته لهم تعاونًا على البر والتقوى ، علمًا وعملًا ، لا تعاونًا على الإثم والعدوان ، كما قال سبحانه : ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾[المائدة:٢] .

وقال الله عز وجل :﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾[آل عمران: ١٠٤] .

كل عملٍ لا يكون طاعة لله ، وقربه ، حتى يكون مصدره عن الإيمان بالله عز وجل ، فيكون الباعث عليه هو الإيمان المحض ، لا العادة ولا الهوى ، ولا طلب المحمدة والجاه والثناء ، بل لابد أن يكون مبدأه محض الإيمان ، وغايته ثواب الله تَعَالَى ، وابتغاء مرضاته وهو الاحتساب ، وأن يكون على ما جاء به رسول ﷺ : ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠] .

قال النبي ﷺ : « مَنْ عَمِلَ عَمَلاً ليسَ عليه أمرُنا فهو رَدٌّ »أخرجه مسلم[1] .

والإثم والعدوان في جانب النهي نظير البر والتقوى في جانب الأمر :﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾[المائدة: ٢] .

(١) أخرجه مسلم برقم: (١٧١٨).

فالبر: كلمة جامعة لجميع أنواع الخير التي تسعد الإنسان في الدنيا والآخرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾[الحج: ٧٧] .

والإثم : كلمة جامعة لجميع أنواع الشر ، التي تهلك الإنسان ، وتضره في الدنيا والآخرة .

- **والفرق بين الإثم والعدوان** :

١-أن الإثم ما كان محُرم الجنس كالزنا والسرقة، والكذب والرياء، ونحو ذلك .

٢- والعدوان ما كان محرم القدر والزيادة بأن يتعدى ما أبيح له منه إلى القدر المحرم، كما إذا أتلف عليه أحد شيئًا فيعتدي، ويتلف علي غيره أضعافًا ، أو كأن يتزوج خامسة على أربعٍ مما أحل الله له، أو يطأ امرأته في حيضها، أو نفاسها، أو دبرها، أو اعتدى في الدعاء، أو زاد ركعة في الصلاة، أو أخذ أكثر من حقه، ونحو ذلك : ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ﴿١﴾﴾ [الطلاق:١] .

والتقوى باعتبار ما يتقيه الإنسان ثلاثة أقسام :

١- فتارة تُضاف إلى الله ؛ لأنه أعظم من يُتقى ويخُاف ويُرجى ، كما قال سبحانه : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾[آل عمران:١٠٢] .

٢- وتارة تضاف إلى مكان عقوبة الله كالنار ، كما قال سبحانه : ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾[آل عمران:١٣١] .

٣- وتارة تضاف إلى زمان عقاب الله كيوم القيامة، كما قال سبحانه : ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾[البقرة:٢٨١] .

- **ومعية الله ونصرته تكون معنا في الأحوال الآتية :**

الحالة الأولى : حين تأتي فينا الصفات التي يحبها الله من الإيمان والتقوى والإحسان ونحوها ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾[النحل:١٢٨] .

وقال الله تعالى:﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾[آل عمران:١٤٦] .

وكما قال سبحانه : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾[آل عمران:٧٦] .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾[البقرة:٢٢٢] .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [البقرة:١٩٥] .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾[المائدة:٤٢] .

وقال سبحانه : ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾[آل عمران:١٣٣-١٣٤] .

الثانية : حين نمتثل أوامر الله ونطيعه ، كما قال سبحانه : ﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ ﴾[المائدة:١٢] .

الثالثة : حين نقوم بالدعوة إلى الله ونضحي بما نملك ؛ من أجل إعلاء كلمة الله ونشر دينه ، كما قال الله لموسى وهارون حين ذهبا لدعوة فرعون إلى الله : ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾[طه:٤٦] .

والله سبحانه أنزل للبشر لباسين :

١-لباس ظاهر يواري العورة ، ويسترها .

٢- ولباسًا باطنًا من التقوى يجمل العبد ، ويستره .

فإذا زال عنه هذا اللباس انكشفت عورته الباطنة ، كما تنكشف عورته الظاهرة بنزع ما يسترها من اللباس ، واللباس وستر العورة زينة الإنسان ، وستر لعورته الجسدية ، كما أن تقوى الله لباس ، وستر لعوراته النفسية : ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾[الأعراف:٢٦] .

والفطرة السليمة تنفر من انكشاف سوأتها الجسدية والنفسية، وتحرص على سترها وموارتها، والذين يحاولون تعرية الجسم من اللباس ، وتعرية النفس من التقوى ، ومن الحياء من الله ، ومن الناس، والذين يطلقون ألسنتهم ، وأقلامهم ؛ لتأصيل هذه المحاولة ، هم الذين يريدون سلب الإنسان خصائص فطرته ، ونزع زينته الداخلية ، والخارجية ، والتي صار بها إنسانًا ، وهم الذين يريدون إسلام الإنسان لعدوه الشيطان ؛ ليتولى كشف سوأته : ﴿ ۞ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦١﴾ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾[يس:٦٠-٦٢] .

إن العُري فطرة حيوانية ولا يميل الإنسان إليه، إلا وهو يرتكز إلى مرتبة أدنى من رتبة الإنسان، وإن رؤية العُري جمالًا، هو كرؤية الكفر فلاحًا، وذلك

انتكاس في الذوق، وانتكاس في العقل، والعُري النفسي من الحياء والتقوى، وهو ما تجتهد فيه أقلامٌ من أهل الباطل والنكسة والردة إلى الجاهلية: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المائدة:٥٠] .

وقال الله عز وجل :﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾[آل عمران:٨٥] .

والتزود في السفر شأن العقلاء ، فإن فيه الاستغناء عن المخلوقين ، والكف عن سؤالهم أموالهم ، وفي الإكثار منه نفع وإعانة للمسافرين وزيادة قرب لرب العالمين هذا بسفر الدنيا ، وأما الزاد الحقيقي فهو زاد التقوى الذي هو زاد إلى الدار الآخرة إلى دار القرار ، وهو الموصل لأكمل لذة وأكمل نعيم دائمًا أبدًا : ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾[البقرة:١٩٧] .

أهل الإيمان والتقوى هما الفائزون بالسعادة في الدنيا والآخرة، كما قال سبحانه : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾[يونس:٦٢-٦٤] .

وماذا أعد الله للمتقين في الآخرة ؟ وماذا ينتظرهم من النعيم المقيم ؟

فلنسأل القرآن؛ لنعلم ماذا أعد الله لعباده المتقين : ﴿ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الرعد:٣٥] .

وقال الله ﷻ : ﴿ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ﴾[آل عمران:١٥] .

وقال سبحانه : ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ ﴾[الزمر:٢٠] .

وقال الله ﷻ : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الزمر: ٧٣]

وقال الله ﷻ : ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ ﴾[محمد:١٥] .

وقال الله ﷻ : ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾[آل عمران:١٣٣-١٣٦] .

وقال الله ﷻ : ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ

قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ ﴾[ص:٤٩-٥٤] .

وقال الله ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ﴿٥٤﴾ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ﴿٥٥﴾ ﴾[القمر:٥٤-٥٥] .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾[الذاريات:١٥-١٩] .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابٗا ﴿٣٣﴾ وَكَأۡسٗا دِهَاقٗا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا ﴿٣٥﴾ ﴾[النبأ:٣١-٣٥] .

فسبحان الله ماذا أعد الله من النعيم للمتقين ؟ وماذا هيأ لهم من الكرامات والبشائر ، والحبور والسرور وألوان الطعام ، والشراب ، وفخر الدور والغرف والقصور : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾[التوبة:٧٢] .

وأما الكرامات في الدنيا :

قال سبحانه : ﴿ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[الأحقاف:١٣] .

وقال سبحانه : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴿٢﴾ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ﴿٣﴾ ﴾[الطلاق:٢-٣] .

وقال سبحانه : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴿٥﴾ ﴾[الطلاق:٤-٥] .

وماذا عن المسلم إذا علم ما أعد الله لأهل التقوى من جزيل الأجر والثواب ؟ .

قال الله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾[آل عمران:١٠٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾[الأحزاب:٦٩-٧١] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣٥﴾﴾[المائدة:٣٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾[التوبة:١١٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾[الحشر:١٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٨﴾﴾[الحديد:٢٨] .

فالله حكيمًا عليم ، خلق كل شيء بحكمة ، وخلق كل شيء بمقصد وحكمة ، فخلق سبحانه الشمس للإنارة ، وخلق الماء للشرب ، وخلق النبات والحيوان لخدمة الإنسان ، وخلق الإنسان والجن للعبادة : ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴿٢٠﴾﴾[لقمان:٢٠] .

وقال الله عز وجل :﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات:٥٦] .

والإنسان صنع السيارة للنقل ، والقلم للكتابة ، والأواني للطعام ، وهكذا كل شيء يؤدى وظيفته ، والمقصد منه فهو محترمُ مكرمُ محبوب ، غالٍ عند الله غالٍ عند أهله فإذا ترك المقصد ، أو تعطل عن العمل ذهبت قيمته ، وزهد فيه أهله ، وهكذا الإنسان خلقه الله ؛ لعبادته فإذا ترك المقصد منه وهو العبادة لله وحده لا شريك له ، صار لا قيمه له في الدنيا والآخرة .

وهو محُاسب على ترك المقصد الانفرادي ، وهو العبادة ، وترك المقصد الاجتماعي ، وهو الدعوة إلى الله ، وإلى دينه : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾[العصر:١-٣].

وعمل هذه الأمة عمل الأنبياء ، ووظيفتها وظيفة الأنبياء إيمانًا وتقوى ، وعبادة ودعوة ، وتعلُم وتعليم ، وجهاد وصبر : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾[فصلت:٣٣].

وقال سبحانه : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾[آل عمران: ١٠٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾[آل عمران:٧٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾[العنكبوت: ٦٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ ﴾[الحج: ٧٧] .

موسوعة خزائن العلوم الإسلامية

١٤-خزائن النعـــم

القسم الأول

وتشتمل على ما يلي :

١- الخزانة الأولى

٢- الخزانة الثانية

٣- الخزانة الثالثة

٤- الخزانة الرابعة

٥- الخزانة الخامسة

٦- الخزانة السادسة

٧- الخزانة السابعة

٨- الخزانة الثامنة

٩- الخزانة التاسعة

١٠ الخزانة العاشرة

١٤- خزائن النعم

القسم الأول

١- الخزانة الأولى

الله ﷻ هو الملك الحق الغني الكريم الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلى والأفعال الحميدة والمثل الأعلى، هو الغني الكريم الذي له مُلك العالم العلوي ومُلك العالم السفلي، وله مُلك عالم الغيب وعالم الشهادة، وله مُلك الدنيا والآخرة، وله مُلك ما في السماوات والأرض ، وله جنود السماوات والأرض، وله خزائن السماوات والأرض .

وله غيب السماوات والأرض، وله ميراث السماوات والأرض لا إله إلا هو رب العرش العظيم :﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾[فاطر: ١٥] .

هو المحمود على جلاله ، وهو المحمود على جماله ، وهو المحمود على نعمه وإحسانه :﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾[طه:٨] .

وقال الله تعالى:﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[إبراهيم:٣٢-٣٤] .

وقال الله تعالى:﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٤ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۚ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ٦ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٧ ﴾[النحل:٣-٧].

وقال الله تعالى:﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١١ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ١٣ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٤ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥ وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ١٩ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٢١ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ٢٢ ﴾[النحل:١٠-٢٢] .

فالله ﷻ هو العظيم الذي أنعم على خلقه بأنواع النعم ، وأصولها ثلاث :

نعمة الخلق والإيجاد .. ونعمة القوت والإمداد .. ونعمة الهداية والإسعاد.

قال الله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾[الجاثية:٣٦-٣٧] .

وأول ما أنعم الله به على عباده أن خلقهم أحياء ، فأصل النعم هو الحياة، كما قال سبحانه : ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾[البقرة:٢٨] .

وقد أنعم الله على المكلفين بنعمة الدنيا ، ونعمة الدين بنعمه المادية ونعمه الروحية وسوى بين الجميع في النعم الدينية والدنيوية .

قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾[الأنعام:١٠٢] .

فالدين نعمة عظيمة لجميع الخلق وهي أعظم ما أنعم الله به على عباده ؛ ولكن منهم من قبلها ومنهم من ردها .

قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾﴾[التغابن:٢] .

وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: ٣٦] .

وقال الله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾[الكهف: ٢٩] .

وأما النعم الدنيوية فلا تُعد ولا تُحصى ، وهي مبذولة للمؤمن والكافر والبر والفاجر من الحياة والعقل والسمع والبصر ، وأنواع الأرزاق المختلفة وغيرها : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ

تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[البقرة: ٢١ - ٢٢]

وقال الله تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾[الإسراء:٧٠] .

وأعظم هذه النعم نعمة الهداية ونعمة الإيمان : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾[المائدة:٣] .

- **أقسام النعم :**

النعمة هي المنفعة الحسنة المفعولة على جهة الإحسان إلى الغير والنعم كلها من المُنعِم جَلَّ جَلَالُهُ .

- **وهي ثلاثة أنواع :**

الأولى : نعمة تفرد بها الله نحو أن خلق ورزق .

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [فاطر:٣] .

الثانية : نعمة وصلت إلينا من جهة غيره وهي في الحقيقة من الله ؛ لكنه أجراها برحمته وكرمه على يد أحد عبيده لأنه سبحانه الذي خلقها وخلق المُنعِم بها ومكنه من الإنعام ؛ لكنه لما أجراها على يد عبده كان ذلك العبد مشكورًا .

قال الله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦١ ﴾ [البقرة:٢٦١] .

وقال الله تعالى: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ ﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٤].

وقال الله تعالى:: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ٥٣ ﴾ [النحل:٥٣] .

الثالثة : نعمة وصلت إلينا بواسطة طاعاتنا وهي من الله ﷻ ؛ لأنه هو الذي بين لنا الطاعات وهدانا إليها وأعاننا عليها ، وأزاح الأعذار المانعة منها وأثابنا عليها.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ٥٣ ﴾ [النحل:٥٣] .

فظهر بهذا أن جميع النعم المادية والروحية من الله وحده : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ٥٣ ﴾ [النحل:٥٣] .

والله ﷻ أمر بني إسرائيل أن يذكروا نعمة الله عليهم بقوله : ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٤٠ ﴾ [البقرة:٤٠] .

وأما أمة محمد ﷺ فأمرهم بذكر المُنعِم، فدل على فضلهم وشكرهم لربهم.

قال الله تعالى: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢ ﴾ [البقرة:١٥٢] .

وعبيد النعم كثيرون وعبيد المُنعِم قليلون : ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣ ﴾[يوسف:١٠٣] .

وعبيد المُنعِم إذا رأوا النعمة ذكروا المُنعِم بها ، وعبيد النعم هم الذين أشغلتهم النعم عن المُنعِم .

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢ ﴾[البقرة:١٧٢] .

وقال الله تعالى:﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨ ﴾[النحل:٧٨] .

والله ﷻ هو الكريم الغني الرؤوف الرحيم بعباده ، أنعم علينا بنعم لا تُعد ولا تُحصى وكل ما خلق الله في الدنيا والآخرة فهو نعمة ، فنعم الله على عباده نعمٌ كثيرة ، وقد طلب منا على ذلك واجبات كثيرة ميسرة لتزيد أجورنا وترتفع درجاتنا ونشكر الله ﷻ على ما أنعم به علينا من تلك النعم .

- **فأمهات النعم هي :**

الدين الكامل، كما قال سبحانه : ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣ ﴾[المائدة:٣] .

وأعطانا أحسن كتاب، كما قال سبحانه : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٢٣ ﴾[الزمر:٢٣] .

وقال الله تعالى:﴿ لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠ ﴾ [الأنبياء:١٠] .

وأرسل إلينا أفضل الرسل، كما قال سبحانه : ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾[آل عمران:١٦٤] .

و أكرمنا بأعظم شيء وهو الهداية إلى الإسلام، كما قال سبحانه : ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ ۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾[الحجرات:١٧] .

ووعدنا جَلَّ جَلَالُهُ على هذه النعم بالسعادة في الدنيا والآخرة إذا شكرنا ربنا وعبدناه وحده لا شريك له .

قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾[النحل:٩٧] .

أما أمهات الواجبات فهي :

أن الله طلب منا أحسن شيء وهو الإيمان والعمل الصالح، كما قال سبحانه : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾[النساء:١٣٦] .

وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾[الحج:٧٧] .

وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾[البقرة: ٢١ - ٢٢]

و أمرنا بإحسان العمل، كما قال سبحانه : ﴿ وَأَحۡسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [البقرة:١٩٥] .

ووعدنا على حُسن العمل بأحسن شيء، كما قال سبحانه : ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [يونس:٢٦] .

وقال الله تعالى: ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الرحمن:٦٠] .

وأمرنا سبحانه أن نتكلم بأحسن شيء وهو الدعوة إلى الله، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [فصلت:٣٣].

وأمرنا أن نقول للناس أحسن شيء، كما قال سبحانه : ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا ﴾ [البقرة:٨٣] .

وأحسن ما نقول أن نبلغ دين الله وسنة رسوله ﷺ إلى البشرية كافة .

قال الله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [إبراهيم:٥٢] .

أنعم الله على آدم وذريته بنعم لا تُعد ولا تُحصى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النحل:٥٣] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم:٣٤]

- **فنعم الله على الناس لا تُعد ولا تُحصى ومنها :**

الأولى : نعمة الخلق والإيجاد .

قال الله تعالى: ﴿ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴿٦﴾ ﴾ [التين:٤-٦] .

وقال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الروم:٤٠] .

الثانية : نعمة القوت والأرزاق .

قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [البقرة:٢٩] .

وقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [البقرة: ٢١ - ٢٢]

الثالثة : نعمة الدين .

قال الله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ [المائدة:٣] .

الرابعة : نعمة البيان .

قال الله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ﴾ [الرحمن:١-٤] .

- **والبيان ثلاثة أقسام :**

١-البيان النطقي بالكلام باللسان .

٢- والبيان الرسمي بالكتابة باليد .

٣- والبيان الإشاري بالإشارة بالرأس أو باليد أو بالعين ونحو ذلك .

الخامسة : نعمة السمع والبصر والفؤاد والعقل .

قال الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨ ﴾[النحل:٧٨] .

فالله ﷻ أكرم هذا الإنسان بكرامات كثيرة ، فقد خلقه بيده ، ثم نفخ فيه من روحه ، ثم علمه أسماء كل شيء ثم أسجد له ملائكته وهو يريد جَلَّ جَلَالُهُ أن يكون هذا الإنسان في الدنيا خليفة ، ويوم القيامة إن كان مؤمنًا جليسه .

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ٥٤ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۢ ٥٥ ﴾[القمر:٥٤-٥٥] .

لهذا أمرنا الله ﷻ أن نتدبر في عظيم النعم التي أكرم الله بها هذا الإنسان ، فقد أمر الله كل إنسان أن ينظر في أطوار خلقه ليعلم كمال قدرة الله بنقله من طورًا إلى طور، كما قال الله سبحانه : ﴿ مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ١٣ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ١٤ ﴾[نوح:١٣ -١٤] .

وقال الله تعالى:﴿ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ٧ ﴾[الطارق:٥-٧] .

وقد خلق الله آدم من تراب ثم جعل نسله من ماء مهين، كما قال سبحانه : ﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٦ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٩ ﴾[السجدة:٦-٩] .

ومن عجائب خلق الإنسان أن الله ﷻ نقله من نطفة إلى علقة إلى مضغة مخلقة وغير مخلقة، ثم خلق المضغة عظامًا ، ثم كسا العظام لحمًا، ثم أنشأه خلقًا آخر، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ١٢ ثُمَّ

جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[المؤمنون:١٢ -١٦] .

وخلق الله ﷻ الإنسان وجعله بأطوار في بطن أمه في ظلمات ثلاث :

ظلمة بطن الأم .. وظلمة الرحم .. وظلمة المشيمة المحيطة بالجنين .

قال الله تعالى: ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ﴾[الزمر:٦] .

وقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾[الحج:٥] .

وقد خلق الله هذا الإنسان في أحسن تقويم ، وجعله يمر بهذه الأطوار طورًا بعد طور ثم أنشأه خلقًا أخر فجعله حيًا وكان ميتًا ، وحيوانًا بعد أن كان جمادًا ، وناطقًا وكان أبكم ، وسميعًا وكان أصم ، وبصيرًا وكان أكمه : ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[المؤمنون: ١٤] .

ونقله من طورًا إلى طور نطفة ثم علقة ثم مضغة مخلقة وغير مخلقة ، ثم جنينًا ثم وليدًا ثم طفلًا ، ثم محتلمًا ثم شابًا ، ثم كهلًا ثم شيخًا ثم هرمًا ليدل على كمال قدرته سبحانه وعظيم صنعه وانفراده بالربوبية وانفراده بالإلهية ووجوب الإيمان به واستحقاقه العبادة وحده لا شريك له : ﴿ أَفَمَن

﴿ يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨ ﴾ [النحل:١٧-١٨] .

وخلق الله جميع بني آدم ذكورًا وإناثًا من نسله، كما قال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١ ﴾ [النساء:١] .

وجميع الناس يبعثون يوم القيامة للجزاء والحساب، كما قال سبحانه : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ١٥ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ ١٦ ﴾ [المؤمنون: ١٥-١٦] .

والله ﷻ هو الكريم الوهاب الذي يهب الذكور والإناث لمن شاء من عباده ، ويختار لهم من فضله وجوده، كما قال سبحانه : ﴿ لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ٤٩ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ٥٠ ﴾ [الشورى:٤٩-٥٠] .

٢- الخزانة الثانية

الله ﷻ أنعم علينا بنعم كثيرة لا تُعد ولا تُحصى ، ومن أعظم النعم :

نعمة الإيجاد .. ونعمة الإمداد .. ونعمة الدين .

وكل هذه النعم يعود خيرها على الإنسان ، ونحن نحب الله ونشكره على جميع هذه النعم : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾[المائدة:٣] .

فلله الحمد والشكر : ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾[الجاثية:٣٦-٣٧] .

ولكن متى يحبنا الله ؟

يحبنا الله إذا قرنا هذه النعم التي أنعم الله بها علينا بطاعة الله وبعبادة الله وبشكر الله لتصلح الحياة ولا تفسد ونسعد في الدنيا والآخرة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾[البقرة:١٧٢] .

وقال الله عز وجل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾[المؤمنون:٥١] .

ومن حب الله لنعمة الإيجاد والإمداد ، فيجب أن يحب الله لنعمة التكليف بالدين الذي هو أمنٌ وسعادة وهداية في الدنيا وفوزًا برضوان الله وجنته يوم القيامة : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾[الأنعام:١٠٢] .

وقال الله عز وجل : ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾[التوبة:٧٢] .

فالله يحبنا إذا أطعنا أمره واتبعنا رسوله : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾[آل عمران:٣١] .

والله سبحانه عطاؤه لا ينفذ :﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾[ص:٥٤] .

والعطاء هو : إفادة ما ينبغي من الخير لا لعوض ، وليس ذلك إلا لله ﷻ وحده : « لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ » أخرجه مسلم (١) .

فكل أحدٍ من الخلق إنما يعطي لعوض كأن يعطي المال لطلب العمل ، أو يعطي المال لطلب الإعانة ، أو يعطي لطلب الثناء الجميل ، أو يعطي لطلب الثواب الجزيل ، أو يعطي ليزيل حب المال عن القلب فكل من أعطى من الناس إنما يعطي ليفوز بواسطة ذلك العطاء بنوع من الكمال فهو عطاء معاوضة لا هبة ولا عطية .

أما الله ﷻ فهو الغني لذاته ، وهو الغني عن غيره وغير محتاجًا إليه والله العطاء أحب إليه من المنع : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾[فاطر: ١٥] .

وكل عطاء من المخلوق فأصله من الخالق ، فالله أعطاه ثم أمره فأعطى ثم ساق إليه من يأخذ عطيته فسبحان الله ما أعظم حكمته ورحمته بخلقه : ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾[النحل:٥٣] .

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٢٠٥ / ٤٧٧).

وإذا أعطاك الله خيرًا ومالًا ونعمة فأعطه لغيرك لله فإن الله ﷻ يرده عليك ثوابًا جزيلًا : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ [البقرة:٢٦١] .

وقال سبحانه: ﴿ إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [التغابن:١٧-١٨] .

ومن أعطى لله قبله الله وأعطاه ما لم يخطر بباله، فامرأة عمران نذرت لله ما في بطنها فقبله الله؛ ولكن المرأة تريد ذكرًا فوهبها الله أنثى، ثم وهب الأنثى ذكرًا بلا زوج، ثم بعثه نبيًا ثم رفعه إلى السماء، ثم ينزله قبل يوم القيامة فإذا قبل الله أحدًا وقبل عمله أعطاه عطاءً مستمرًا: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٣٧﴾ ﴾ [آل عمران:٣٣-٣٧] .

وقال الله عز وجل : ﴿ وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا

وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡۖ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۗ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٥١﴾﴾ [آل عمران:٤٢-٥١] .

يجب على الإنسان أن يعرف نفسه ليعرف عظمة النعم التي خصه الله ﷻ بها : ﴿ ۞ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء:٧٠] .

فالله ﷻ خلق الإنسان من نطفة حتى صار رجلًا سويًا يعرف الخالق من المخلوق ، ويعرف الصور من المصور ، ويعرف ما ينفعه وما يضره .

قال الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل:٧٨] .

خلق الإنسان من نطفة ليعلم حجمه ومقداره ويقف منكسرًا بين يدي ربه خاضعًا له شاكرًا له:﴿ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ﴿٧٧﴾﴾ [يس:٧٧] .

والنطفة جسم يتولد من فضلة الهضم الرابع .

- **فالغذاء يمر في جسم الإنسان بأربع مراحل فتحصل له :**

١-في المعدة هضم أول .

٢-ثم يحصل له في الكبد هضم ثاني .

٣-ثم يحصل له في العروق هضمٌ ثالث .

٤-ثم يحصل له في جواهر الأعضاء هضمٌ رابع .

وفي هذا الوقت وصل بعض أجزاء الغذاء إلى العظم ، ثم عند هيجان الشهوة يحصل له ذوبان من جملة الأعضاء وذلك هو النطفة : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ ﴾[يس:٧٧] .

والله سبحانه أودع في هذا الإنسان مَلكات كثيرة :

ففي دماغ الإنسان مَلكات كثيرة ، مَلكة العقل ، و مَلكة التصور ، و مَلكة التخيل ، و مَلكة الحفظ ، و مَلكة التفكر ، و مَلكة التذكر ، و مَلكة الذكاء .

- **وفي قلب الإنسان مُلكات كثيرة :**

مَلكة الحب والبغض، مَلكة الرحمة والقسوة، مَلكة العفو والانتقام ، مَلكة الغضب والرضا ، مَلكة اللين والشدة ، مَلكة الولاء والبراء ، مَلكة الأمن والخوف والإيمان والكفر : ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[الذاريات:٢١] .

وفي بدن الإنسان طاقات كبيرة :

الطاقة البدنية، الطاقة السمعية، الطاقة البصرية، الطاقة الحسية، الطاقة العقلية ، الطاقة الذوقية، الطاقة الجنسية : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾ ﴾[التين:٤-٨] .

فسبحان الله ما أعظم نعمه على هذا الإنسان وما أقل شكره لها : ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣ ﴾[يوسف:١٠٣] .

والنعمة كل ما خلقه الله ، وكل ما خلقه الله يسخر للإنسان ليتفرغ الإنسان لعبادة ربه جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٢٠ ﴾[لقمان:٢٠] .

والنعمة أن تتنعم بنعمة لا تفارقها ولا تفارقك ، وأعظم النعم هي نعمة الدين الذي أنزل الله به كتبه ، وأرسل به رسله ، والدنيا نعمة وهي معبرٌ إلى هو أعظم منها وهي الجنة:﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾[المائدة:٣] .

ونعم الله على الأنبياء أكثر فكانت ذنوبهم أعظم فكانت عقوبتهم أشد ، ويجب أن يكون شكرهم أكثر :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١ ﴾[المؤمنون:٥١] .

وقال سبحانه:﴿ وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ٧٤ إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا ٧٥ ﴾ [الإسراء:٧٤-٧٥] .

فنعم الله على الأنبياء أعظم وأكبر ببعثهم إلى خلقه بالوحي :﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ١١٣ ﴾[النساء:١١٣] .

فكان يجب لهذا الفضل والتكريم للأنبياء والرسل أن تكون عبادتهم أكثر وأحسن وشكرهم أكثر وأدوم : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩ ﴾[الإسراء:٧٩] .

وكان الرسول ﷺ: « يقومُ من اللَّيل حتى تَتفطَّر قدماه ، فيقال له : قد غفر اللهُ لك ما تقدَّمَ مِن ذنبِك وما تأخَّر ؟ ! قال : أفلا أكونَ عبدًا شكُورًا » متفق عليه[1] .

الكوثر هو الخير الكثير الذي أعطاه الله لنبيه ﷺ : ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ٣ ﴾[الكوثر:١-٣] .

الكوثر هو الخير الكثير الذي أعطاه الله لسيد الأنبياء والرسل نبينا محمد ﷺ من كثرة الأولاد ، وأعطاه الله النبوة والرسالة ، وأتاه الإسلام والقرآن ورفعة الذكر والعلم ، وأتاه الحكمة ، وكثرة علماء أمته وكثرة أتباعه وكثرة فضائله : ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ١١٣ ﴾[النساء:١١٣] .

وقال سبحانه: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ١ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ٣ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ٤ ﴾[الشرح:١-٤] .

وقال سبحانه: ﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨ ﴾[التوبة:١٢٨] .

هذا في الدنيا ، أما في الآخرة فأعطاه الله ﷻ نهر الكوثر في الجنة الذي من عظمته وسعته أن أنيته عدد نجوم السماء : ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ٣ ﴾[الكوثر:١-٣] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٤٨٣٧)، ومسلم برقم: (٧٩/ ٢٨١٩)واللفظ له.

فما أعظم نعم الله على عباده في كل حين ، فإذا مرت بك ساعة قد سلم لك فيها دينك وسلم جسمك وسلم عقلك وسلم مالك ، فأكثر من شكر ربك الرحمن الرحيم ، فكم من مسلوبًا دينه منزوعٌ مُلكه مصاب في بدنه مهتوك ستره مقصومًا ظهره في ذلك اليوم وأنت في عافية :﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾[إبراهيم:٧] .

وقال سبحانه: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾[الأحقاف:١٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [النمل:١٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الجاثية:٣٦] .

على نعمه التي لا تُعد ولا تُحصى : ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ ﴾[لقمان:١٠-١١] .

وقال سبحانه: ﴿ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾[القصص:٥٧]

وقال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾[العنكبوت:٦٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [فاطر:٣] .

هو جَلَّ جَلَالُهُ العظيم في قهره ، هو القاهر كل ما سواه خلقًا وتدبيرًا وقهر الإنسان رحمةً به بالموت والمرض والفقر ليتوجه إليه في قضاء حاجته ، ويعلم أن هذه ليست داره إنما داره دار القرار في الجنة أو النار : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾[الأنعام:١٧-١٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾[فاطر:٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾[الشورى:١٢] .

٣- الخزانة الثالثة

الله ﷻ خلق الخلق لعبادته وحده لا شريك له وتكفل بأرزاقهم ، فعليهم العبادة وعليه الرزق : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢ ﴾ [البقرة: ٢١ - ٢٢]

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ٥٨ ﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨] .

والله تبارك وتعالى هو الرزاق الذي خلق الأرزاق ، وخلق المرزوقين وتكفل بإيصالها إلى كل مخلوق ، ورزق الله ﷻ كثيرًا باعتبار كثرة الرزق وكثرة المرزوقين : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ٥٨ ﴾ [الذاريات:٥٦] .

فكم أعطى الله كل أحدٍ من أنواع الرزق من الصحة والعافية ، والسمع ، والبصر والعقل والسكن ، والمال والزوج والولد وغيرها ممالا يحصيه إلا الله : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨ ﴾ [النحل:١٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ٣٤ ﴾ [إبراهيم:٣٤]

ورزق الله كثير باعتبار كثرة المرزوقين ، فكل دابة في الأرض على الله رزقها من إنسان وحيوان : ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦ ﴾ [هود:٦] .

والله سبحانه خلق الخلق وقسم الأرزاق كميةً ونوعيةً ومكانًا وزمانًا : ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٣٢ ﴾[الزخرف:٣١-٣٢] .

وقال سبحانه: ﴿ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٣١ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ٣٢ ﴾[يونس:/ ٣١-٣٢].

وقال الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٦٢ ﴾[العنكبوت:٦٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ٨٨ ﴾[المائدة:٨٨] .

وقال سبحانه: ﴿ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٧ ﴾[المائدة:٧]

- **ولكل إنسان ثلاثة أحوال :**

الماضي .. والحاضر .. والمستقبل .

أما الماضي : فقد كان الإنسان معدومًا فأوجده الله ﷻ .

قال الله تعالى: ﴿ هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ١ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ٢ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ٣ ﴾[الإنسان:١-٣] .

وكان الإنسان ميتًا فأحياه الله، كما قال سبحانه : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[البقرة:٢٨] .

وكان جاهلًا فعلمه الله : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل:٧٨] .

وأما حالة العبد الحاضرة : فإن الله لما أوجده انفتحت عليه أبواب الحاجات ، ولا يقضيها إلا ربه الصمد الرحمن الرحيم.

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾ ﴾[الإخلاص:١-٤] .

هو سبحانه الصمد التي تصمد إليه جميع المخلوقات في حوائجها ويقضيها لجميع خلقه ولا ينسى أحدًا : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾[يونس:/ ٣١].

وأما حالة الإنسان المستقبلة :

فهي حال ما بعد الموت فهو صائر إلى مالك يوم الدين وهناك ، إما أن يدخل القصور الملكية إن كان مؤمنًا يعمل الصالحات ، أو السجون الجهنمية إن كان كافرًا يعمل السيئات : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾[التوبة:٧٢] .

وقال سبحانه: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ هِيَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾[التوبة: ٦٨] .

فجميع مصالح العبد في الحاضر والماضي والمستقبل تكفل الله له بها ، ووجب على العبد أن يعبد الله وحده لا شريك له : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾[الفاتحة : ٢-٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾[النحل:٥٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾[الجاثية:٣٦-٣٧] .

من رحمة الله بالإنسان وإحسانه إليه أنه خلقه في أحسن تقويم ، ثم سخر له ما في السماوات وما في الأرض من النعم الظاهرة والباطنة ليعرف ربه العظيم بأسمائه وصفاته وأفعاله ويعرف عظمة مُلكه وسلطانه ، ويعرف عظيم نعمه وإحسانه : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾[لقمان:٢٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾[الطلاق:١٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[إبراهيم:٣٤]

فسخر الله جميع المخلوقات للإنسان بسنن كونية جارية، فشمسٌ تشرق ، وأرضٌ تنبت، وسحب تمطر، وأرحام تحمل، ولسان يتكلم، وأذن تسمع ، وعين تبصر ورياح تهب وهكذا من سائر النعم ، فما في السماوات وما في

الأرض مُسخر للمؤمن والكافر : ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾[الإسراء:٧٠] .

وليعلم الإنسان أن الله الذي خلقه هو الخالق المدبر وحده لا شريك له ، ولكي لا يستعلي الإنسان يلفت الله الإنسان إلى أن وراء الأسباب مسببًا ووراء الخلق خالقًا ، ووراء الصور مصورًا ، ووراء النعم منعمًا متصرفًا يفعل ما يشاء ليذكر الغافل بربه ويهز به ضمائر الكفار والغافلين : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾[الأنعام:١٠٢] .

فيأمر الله سبحانه الشمس فتكسف ، والأرض أن ترجف ، والرياح أن تعصف ، واللسان أن يخرس : ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ ﴾[الإسراء:٥٩] .

كل ذلك ليلفت الخلق إلى عظمته لعظمته وقدرته وقوته ورحمته جَلَّ جَلَالُهُ ، ولكي لا يعيش فاعل السبب مع السبب فيهزه ليرى خالق السبب هو الذي يفعل : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾[البقرة:٢٩] .

والله ﷻ أنعم على عباده بنعمٍ كثيرة لا تُعد ولا تُحصى بل لا تُعد نعمة واحدة ولا يمكن إحصاؤها: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[إبراهيم:٣٤]

والفرق بين النعم التي يجازى بها العبد والنعم التي يستدرج بها العبد ، أن الإنسان إذا كان مستقيمًا على شرع الله فما يُعطاه من النعم من باب الجزاء والعون على الطاعة : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف:٩٦] .

وقال سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل:٩٧] .

وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام:٨٢].

وإن كان الإنسان مقيمًا على معصية الله مع توالي النعم فهي استدراج : ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام:٤٤] .

وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف:١٨٢-١٨٣] .

وقال سبحانه: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون:٥٥-٥٦] .

والله ﷻ كل ما يجريه على عباده فهو نعمة سواء كانت نعمة إيجاب، كالأرزاق والعافية والأمن والأولاد، أو نعمة سلب كالأمراض والمصائب، فهو المحمود جَلَّ جَلَالُهُ على جميع أسمائه وصفاته وأفعاله ، هو المحمود على السراء والضراء، ولا يحمد إلا من أنعم وأحسن فمرة ينعم بالعطاء ، وتارة يُنعم بالمنع فهذا نعمة وهذا نعمة : ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾

كَلَّا بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الفجر:١٥-٢٠] .

فكل ما يجريه الله على عباده فهو نعمة ، إما بسلب أو إيجاب ؛ ولكن الإنسان يرى الأولى ولا يرى الثاني : ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ [البقرة:٢١٦] .

وإذا ابتلى العباد بالخير والشر فإنما ذلك الابتلاء ليتبين المؤمن من الكافر ويتبين الصادق من المنافق: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [العنكبوت:٢-٣] .

وقال سبحانه: ﴿ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنبياء:٣٥] .

والله ﷻ رءوف بالعباد وكل أفعاله حكمة ورحمة وعدل وإحسان .

- **ولله على العامل عملًا صالحًا ثلاث نعمٍ عظيمة :**

الأولى : أن الله ﷻ بين له العمل الصالح من العمل السيئ بما أنزله من الوحي في القرآن والسنة :﴿ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [النحل:٨٩] .

الثانية : توفيق الإنسان لهذا العمل الصالح .

لأن الله أضل أممًا بسبب ذنوبهم عن العمل الصالح كالنصارى : ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ

وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ ﴾ [الحجرات:٧-٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحجرات:١٧] .

الثالثة : ثواب الله ﷻ على العمل الصالح ثوابًا مضاعفًا الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعافٍ كثيرة : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [الأنعام:١٦٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ [البقرة:٢٦١] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [الزمر:١٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ ۖ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ﴾ [البقرة:٢٤٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [التغابن:١٧] .

فما أعظم كمال رحمة الله بخلقه يُنعم سبحانه ثم يشكر المُنعَم عليه : ﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الإنسان:٢٢] .

المال نعمة من نعم الله يعطيها الله ﷻ من يشاء من عباده وهو أعلم بما يصلح عباده في الدنيا والآخرة : ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ [العنكبوت:٦٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾[آل عمران:٧٣ -٧٤] .

فالمال نقدًا كالذهب والفضة والأوراق المالية ، أو سلعةً وهي كل عينًا يمكن الانتفاع بها مباشرة ، كالرغيف والقلم والثوب والسيارة ونحو ذلك ، فالمال النقدي وسيلة للحصول على ما ينفع الإنسان مباشرةً ، ولا يصلح أن يكون النقد غايةً أو سلعة ؛ لأنه يستعبد صاحبه ، فالمال عبدٌ مخلصٌ ينفعك ؛ ولكنه سيدٌ رديء يذلك .

فالمال يخدمك إذا كان معك بإخلاص تشتري به ما تريد وتستغني به عن الناس ، فإذا جعلته سيدًا استغلك واستعبدك وأذلك وجعلك تكذب وتسرق وترتشي وتغش ، واليهود جعلوه سيدًا فأذلهم واستعبدهم : ﴿ وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾[البقرة: ٩٣] .

ونعم الله على العباد كثيرة لا تُعد ولا تُحصى ، والهداية للإسلام أعظم النعم وتمامها بأداء مطلوب الإيمان بتنفيذ ما أمر الله به : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾[الحجرات:١٧] .

ومطلوب الإيمان : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ ﴾[الحج:٧٧] .

فبداية النعمة بالإيمان وتمام النعمة بتنفيذ مطلوب الإيمان : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ ﴾[المائدة:٣] .

فمن قرن الطاعة بالثواب عليها خفت عليه ، ومن قرن المعصية بالعقوبة عليها هان عليه تركها : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾[النساء :١٣-١٤] .

والرزق هو كل ما ينتفع به المخلوق ، فالمال رزق والعلم رزق والجاه رزق والقوة رزق ، والمال كله من حلال وحرام رزق من الرزاق جَلَّ جَلَالُهُ ، فإن كان من حلال فهو حلال وإن كان من حرام فهو رزقٌ حرام ، فالأول يثاب عليه ، والثاني يحاسب عليه .

والرزق من الله لعباده سواء ؛ لأن عطاء الربوبية للجميع واحد ولكنه يختلف في نوعه من شخص إلى شخص من مال أو جاه أو خُلق أو علمٍ أو عافية ، والله يريد من كل مرزوق أن يرد ما رزقه ربه على غيره من الناس من مالٍ أو علم أو خُلق ليزداد أجرًا من ربه ومنزلةً عند ربه:﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾[الحديد:٧] .

وقال سبحانه: ﴿ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾[التغابن:١٧] .

والله سبحانه قسم الأرزاق بين خلقه بالعدل : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّاۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزخرف:٣٢] .

فالله قسم الأرزاق بين خلقه بالعدل وبغير حساب: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: ٣٧] .

والعطاء من الله لعباده لا يدل على الإكرام والمنع لا يدل على الإهانة ، بل من وفقه الله لصرف ما أعطاه في مرضاته فهو إكرام ولا يكون إهانة ، إلا لمن صرفه في معصية الله ويكون المنع إكرامًا إذا كان يُشغله عن طاعة الله ويكون إهانة عقوبةً له على ما ترك من محارم الله :﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الليل:٤-١٠] .

وقال الله تعالى : ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ سَوْفَ﴾ [الفجر:١٥-١٩] .

وقد يكون العطاء إكرامًا على فعل الطاعات : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف:٩٦] .

فقد يكون العطاء إكرامًا وقد يكون عقوبة : ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ [النساء:١٢٣] .

وإن العبد ليحرم من الرزق بالذنب يصيبه .

٤ - الخزانة الرابعة

كل النعم في الدنيا والآخرة من الله ﷻ : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾[النحل:٥٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾[الشورى:١٢] .

- **والنعمة تكون كاملة بثلاثة أمور :**

١-أن تكون منفعة .

٢-وأن تكون خالية من شوائب الضرر .

٣-وأن تكون أمنة من خوف الانقطاع .

والنعمة الكاملة لا تحصل إلا من الله تعالى، فوجب أن لا يستحق الحمد الكامل إلا الله تعالى فهو أهلٌ أن يُعبد وأن يُطاع وأن يُشكر: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾ ﴾[قريش:٣-٤].

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

[البقرة: ٢١ - ٢٢]

والنعمة :

هي المنفعة المعمولة على جهة الإحسان للغير، والله ﷻ هو المُنعِم بكل نعمة ، وهو المعطي بكل عطاء وكل ما سواه نعمة، أو منعم عليه الله هو المُنعِم وكل ما سواه نعمة، أو مُنعَم عليه وكل ما يصل إلى الخلق من النفع

ودفع الضرر فكله من الله وحده : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾[النحل:٥٣] .

ونعم الله ثلاثة أقسام :

أحدها : نعمًا تفرد الله بإيجادها نحو أن خلق ورزق وهدى .

الثاني : نعمٌ جاءت في الظاهر من غير الله ، وفي الحقيقة أنها وصلت من الله كما يرزق ويعطي الناس بعضهم بعضًا ؛ لأن الله هو الخالق لتلك النعمة والخالق لذلك المُنعِم والخالق لذلك لداعية الإنعام في قلب المُنعِم إلا أن الله لما أجرى تلك النعمة على يدي العبد كان ذلك العبد مشكورًا ؛ ولكن المشكور في الحقيقة هو الله ﷻ :﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [لقمان:١٤] .

الثالث : نعمٌ من الله وصلت إلينا بسبب طاعتنا وهي من الله لأن الله تعالى هو الذي وفقنا للطاعات وحببها إلينا وأعاننا عليها وهدانا إليها وأزاح الأعذار عنا ، ولولا فضله وإحسانه وعونه لما قمنا بها : ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾[الحديد:٢١] .

وقال سبحانه:﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾[آل عمران:٧٣-٧٤] .

وأول نعم الله على العبيد أن خلقهم أحياء، كما قال سبحانه : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[البقرة:٢٨] .

ثم ثنى بذكره ما ينتفع الحي به، وقال : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [البقرة:٢٩] .

ونعم الله المادية عامة للمؤمن والكافر والبر والفاجر ، فيجب عليهم جميعًا عبادة الله لما أنعم به عليهم من النعم العظيمة المادية والنعم العظيمة وهي دينه الحق : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[البقرة: ٢١]

وسخر سبحانه للعباد كل شيء فيجب عليهم أن يعبدوه وحده لا شريك له .
قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾[لقمان:٢٠] .

وخلق الله للناس كل شيء وأمرهم بما يسعدهم في الدنيا والآخرة ، فوجب عليهم أن يعبدوه وحده لا شريك له : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الحج:٧٧] .

وقال سبحانه:﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾[الأنعام:١٠٢-١٠٣] .

- **النعم الكبرى التي أنعم الله بها على جميع المكلفين أربعة :**

الأولى : نعمة الحياة .
قال الله تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[البقرة:٢٨] .

الثانية : نعمة الأرزاق .

قال الله تعالى:﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾[البقرة:٢٩] .

الثالثة : نعمة الخلافة في الأرض .

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[البقرة:٣٠] .

فالله خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه ، وعلمه أسماء كل شيء ، وأسجد له ملائكته ، وجعله في الدنيا خليفة ، ويوم القيامة جليسه إذا كان مؤمناً متقياً ، فآدم وذريته هم الخلفاء يخلف بعضهم بعضًا ، وخلفاء وكَلهم الله بالحكم بين المخلفين من خلقه وخلفاء الأرض بعد الجن : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾[الأنعام:١٦٥] .

الرابعة : نعمة التشريف للآدميين .

بأن أمر الله الملائكة بالسجود لأبيهم آدم ، فسجدوا كلهم جميعًا ، كما قال سُبْحَانَهُ : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾[البقرة: ٣٤] .

وقال سبحانه:﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾[الإسراء:٧٠] .

فيا بني آدم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[البقرة: ٢١]

والله سبحانه هو الذي مَن على عباده بكل نعمة ، المنان الذي أعطى خلقه ابتداءً من غير أن يطلب منهم عوضاً ، فقد مَن الله على عباده بالإسلام ومَن عليهم بالهداية ، ومَن عليهم بإنزال الكتب ، ومَن عليهم بإرسال الرسل ، ومَن عليهم بإنزال الغيث : ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾[آل عمران:١٦٤] .

وقال سبحانه:﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾[الشورى:٢٨] .

فبعثة الرسول ﷺ إحسانٌ إلى كل العالمين لكونه داعياً لهم إلى ما يوصلهم إلى ثواب الله ويخلصهم من عقاب الله : ﴿﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾[الأنبياء:١٠٧] .

وفي الوجود اثنان :

ربٌ وعبيد

وخالق ومخاليق .

والله هو الرب الغني الكريم الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلا والأفعال الحميدة ، ولا معروف أعظم منه وأكبر منه وأكرم منه ، ولا معروف أشرف من تعظيمه وإظهار عبوديته و إظهار الخضوع والخشوع على باب عزته:﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾[الأنعام:١٠٢] .

وقال سبحانه:﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾[فاطر: ١٣] .

وكل ما سوى رب العالمين فهم عبيده وقد أمرنا الله بإيصال الخير إليهم ، فمن كان منهم حياً أو عاقلًا و هو الإنسان ، فإيصال الخير إليه بدعوته إلى الإيمان بالله وعبادة ربه:﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾[آل عمران:١١٠] .

وقال سبحانه:﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾[آل عمران: ١٠٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ الْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾[إبراهيم:٥٢] .

وإن كان حياً لا عاقلاً فيجب الإحسان إليه وعدم إيذائه : ﴿ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [البقرة:١٩٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَٰوَٰتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى السَّرَّآءِ وَالضَّرَّآءِ وَالْكَٰظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾[آل عمران:١٣٣-١٣٤].

ومن لم يكن حياً ولا عاقلاً ، وهم جملة المخلوقات في العالم العلوي والعالم السفلي فيجب النظر إليها بعين التعظيم ، من حيث أنها مخلوقة لله تعالى تشهد بوحدانيته وتسبح بحمده وتخضع لمشيئته وتُسرع إلى إرادته ، وكل ذرة منها دالًا على عظمة الله وجلاله وجماله : ﴿ قُلِ انظُرُوا۟ مَاذَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى الْءَايَٰتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾[يونس:١٠١] .

وقال الله تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾ ﴾[الحج:١٨] .

وقال الله تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ ﴾[النور:٤١-٤٢] .

فلله الحمد على نعمه التي لا تُعد ولا تُحصى :﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾[الجاثية:٣٦-٣٧] .

الله ﷻ غنيٌ كريمٌ رءوفٌ بالعباد ، أنعم على عباده بجزيل النعم ، فإذا شكروه زادها لهم وإذا عصوه رفعها عنهم وغيرها عليهم بسبب الذنوب التي ارتكبوها لعلهم يتضرعون :﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾[إبراهيم:٧] .

وقال سبحانه:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾[الرعد:١١] .

وقال سبحانه:﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾[الأنفال:٥٣-٥٤] .

وقال الله تعالى :﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ

ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ﴾ [النساء:٧٨-٧٩] .

والله ﷻ لطيفٌ بعباده ، أعطانا النعم لنستعملها فيما يحبه ويرضاه: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [النحل:١١٤]

فأعطانا السمع لنسمع به أحسن شيء ، وأعظم شيء نسمع به عن عظمة الله وعظمة أسمائه وصفاته وأفعاله وعظمة مُلكه وسلطانه ، وعن دينه وشرعه الذي يحبه ويرضاه :﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾ [الزمر:١٧-١٨].

فالله سبحانه حق ، والكلام عليه حق ، وعن دينه حق ، والسماع عنه حق ، والكلام عنه والسماع عنه يولد المحبة له والمحبة لدينه وأمره :﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾ [محمد: ١٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الإسراء:٨١] .

وإذا تنور القلب بنور الإيمان واليقين اخترق حجب المخلوقات ، فرأى فعل الله في مخلوقاته ، رأى ربه يخلق ويرزق ويعطي ويمنع ويبسط ويقبض .

قال الله تعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ [آل عمران:٢٦-٢٧] .

فإذا اخترق القلب حُجب المخلوقات رأى فعل الله في مخلوقاته ، ثم تعلق بالله الذي يتصرف في مخلوقاته :﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾[الأنعام:١٠٢] .

وقال سبحانه:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ ﴾[فاطر:٣] .

وإذا تعلق القلب بالإله الواحد الأحد كفاه غيره و استغنى به عما سواه من خلقه :﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ ﴾[الذاريات: ٥٠-٥١] .

ومن تعلق بغير الله عُذب به :﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ ﴾[الشعراء:٢١٣] .

فالله وحده هو الغني وكل ما سواه فقيرٌ إليه ، يرزق بالأسباب و بدون الأسباب وبضد الأسباب ، وإذا عرفنا الغني الذي يملك كل شيء تركنا الفقير الذي ليس بيده شيء ، فغير الله كالشمس والماء والنبات والإنسان نرى فعله ، وإذا لم نعرف عظمة الله وعظمة أسمائه وصفاته وأفعاله حجبنا المخلوق وفعله أن نُرى فعل الله في مخلوقاته ، تعلقنا به من دون الله الذي خلقه .

لهذا يجب النظر في الآيات الكونية و الآيات القرآنية لتتعلق القلوب بالله ﷻ :﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾[يونس:١٠١] .

وقال سبحانه: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾ [ق:٦-٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنبياء:٣٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الغاشية:١٧-٢٠] .

فالله أمرنا بفعل الأسباب ، لكنه نهانا عن الاعتماد عليها والتعلق بها لأنها فقيرة في خلقها وبقائها وفعلها ، والإنسان فقير والفقير لا يغني الفقير: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [التغابن:١٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [المائدة:٢٣] .

فنفعل الأسباب بجوارحنا ، ونتوكل على الله بقلوبنا ، والله قادر أن يؤمن عباده بدون أسباب الأمن ؛ لأنه الغني المؤمن الذي يملك الأمن وأسبابه.

قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحشر: ٢٣] .

فقد نصر الله الرسول ﷺ وأصحابه في بدر بدون أسباب الأمن ، بل هم قلة في العدد والعدة وجميع أسباب الأمن مع كفار مكة من الأموال والعتاد وكثرة الفرسان ، فأمن المؤمنين بالنعاس: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾ [الأنفال:١١] .

وتقليل الكفار في أعين المؤمنين وتكثير المؤمنين في أعين الكفار، كما قال سبحانه : ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾[الأنفال:٤٣-٤٤] .

ويخوف سبحانه بأسباب الأمن فاليهود قذف الله في قلوبهم الرعب مع كثرة أموالهم وقوة حصونهم وقوة سلاحهم، كما قال سبحانه : ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[الحشر:١٣-١٤] .

٥- الخزانة الخامسة

الله ﷻ أنعم على عباده بنعم كثيرة، أنعم عليهم بنعمة الخلق والإيجاد، ونعمة القوت والإمداد ، ونعمة الهداية والإسعاد، وأعظم النعم هي نعمة الإسلام : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾[الحجرات:١٧] .

والإسلام هو دين الله ﷻ الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه :﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ ﴾[آل عمران:١٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾[آل عمران:٨٥] .

والقرآن العظيم ، هو أعظم نعمة أنعم بها الله على هذه الأمة ، وهو العلامة الوحيدة على الاصطفاء ، فالله لا يورث هذا الكتاب إلا من اصطفاه من خلقه، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾[فاطر:٢٩-٣٢] .

ولهذا علمنا الله ﷻ أن نحمده على هذه النعمة العظيمة الكبرى ، والفضل الأعظم، كما قال سبحانه : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴿١﴾ ﴾ [الكهف:١] .

فألفاظه بليغة ، ومعانيه كريمة ، وأخباره صدق ، وأحكامه عدل، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾[النساء:١١٥] .

وامتن على هذه الأمة بهذا الكتاب العظيم فقال سبحانه : ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾[الأنبياء:١٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الحجر:٨٧].

وقال سبحانه:﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾ [الجمعة: ٢]

- **وقد قسم الله هذه الأمة إلى ثلاثة أقسام :**

ظالم لنفسه .. ومقتصد .. وسابق بالخيرات .

فالظالم لنفسه :

هو الذي يطيع ربه مرة ويعصيه مرة ويخلط العمل الصالح بالسيئ ، وبدأ به في الآية إظهاراً لكرم الله وفضله عليه ولأن لا يقنت .

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾[الزمر:٥٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾[النساء:١١٠] .

الثاني : المقتصد الذي يأتي بالواجبات ويترك المحرمات فقط .

والسابق بالخيرات : هو الذي يأتي بالواجبات ويترك المحرمات ، ويتقرب إلى الله بالنوافل ، وأخر ذكره في الآية لأن لا يُعجب بعمله فيحبط ؛ ولأنه أولى الناس بدخول الجنة التي ذكرها بعده، كما قال سبحانه : ﴿ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٣٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ﴿٣٥﴾ ﴾ [فاطر:٣٢-٣٥] .

وأكثر أهل الجنة الظالمون لأنفسهم وأقلهم السابقون ولما كان الظالمون لأنفسهم أكثر أهل الجنة بدأ به في أول الآية ، وقد وعد الله الجميع بدخول الجنة فلله الحمد والمنة على نعمه التي لا تُعد ولا تُحصى : ﴿ فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الجاثية:٣٦-٣٧] .

- **عطاء الله للعبد على وجهين :**

أحدهما : ما يكون بسبب فعل العبد كالمال الذي يرزقه بكسبه ، والولد الذي يرزقه بالنكاح المعتاد ، والرحمة التي ينالها بالأسباب التي يفعلها ونحو ذلك : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [البقرة:١٧٢] .

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الجمعة:٩-١٠] .

الثاني : ما يعطيه الله للعبد من غير أن يحوجه للسبب الذي يناله به ، كما أعطى زكريا الولد مع أن امرأته عاقر ، فهذا الولد يحيى وهبه الله من لدنه لا بالسبب المعتاد : ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾﴾ [مريم:٧-٩] .

وكذلك العلم الذي علمه الله الخضر من لدنه لم يكن بالتعلم المعتاد ، وكذلك الرحمة الموهوبة له ، كما قال سبحانه : ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف:٦٤-٦٥] .

والله ﷻ هو الملك المالك لكل شيء له مُلك السموات والأرض ما فيهن يملك الإنسان وما يملك من أموال ، والله ﷻ يملك جميع الأموال ويملك مالكيها سواءً كانت مباحة ، أو كانت محرمة كالمغصوب والمسروق ، فالإنسان إذا مَلك مالًا ببيع أو إجارة أو هبة أو ميراث ونحوها من المال المأذون فيه شرعاً ، فهذا مَلكه الله إياه قدراً وشرعاً يأكل منه ويتصدق منه وينفقه في سبيل الله ويثاب على ذلك كله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾ [البقرة:٢٦٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾[المائدة:٢٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ﴾ [البقرة:٢٧٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ [البقرة:٢٦١] .

ومن أخذ مالاً بغصبٍ أو ظلم أو سرقة فالله مالكه ، وقد مَلكه إياه قدراً لا شرعاً ؛ لأنه لا يقع في مُلك الله ما لا يريده لكن الله أذن به ولم يأمر به بل توعد عليه ، فهذا لا يحل له الأكل منه ولو أنفق منه لم يُقبل منه ؛ لأن النفقة المقبولة لابد أن تكون من مالًا مأذون فيه شرعاً ولا يكفي الإذن القدري : ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾[المائدة:٢٧] .

وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴾[البقرة:٢٦٧] .

وقال النبي ﷺ : « إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ عُقُوقَ الأُمَّهَاتِ ، وَمَنْعاً وَهَاتِ ، وَوَأْدَ البَنَاتِ ، وَكَرِهَ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ ، وَإِضَاعَةَ المَالِ »متفق عليه[1] .

وقال الله تعالى : ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٥٩٧٥) ، واللفظ له ، ومسلم برقم: (١٢/ ٥٩٣).

﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٤].

الله ﷻ هو الكريم الرحمن المنان الذي مَن على خلقه بكل نعمة ، فهو ﷻ امتن على كل مخلوق بقوت الأبدان من الطعام بأنواعه والشراب بأنواعه : ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود:٦] .

وامتن على الإنسان خاصة بقوت القلوب ، وهو معرفة علام الغيوب والإيمان به والعمل بشرعه وعبادته وحده لا شريك له، وهذا القوت يملأ القلب بالإيمان ويملأ النفس بالسكينة والطمأنينة، ويشغل الجوارح بطاعة من خلقها وسواها :﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٨] .

وقال سبحانه:﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨] .

وإشباع الجسد من الطعام والشراب لا يغني الروح شيئًا ، فالروح لها قوتٌ خاصٌ بها هو الإيمان والتقوى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

وقال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ﴿٢٩﴾ ﴾ الرعد:٢٨ -٢٩] .

وكلما كبر الإنسان كانت حاجته إلى قوت القلوب أشد ، فعندما يزيد إيمانه لا يرى سعادة إلا في مناجاة ربه ، وحينما يفتقر القلب إلى القوت يتضجر لأن الطمأنينة منعدمة : ﴿ إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[السجدة:١٥-١٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾[الأنبياء:٩٠] .

والله سبحانه هو المقيت الحفيظ لجميع الأقوال والأعمال المُنعِم بكل نعمة ، فمن دل غيره على خير فله منه نصيب ، ومن دله على شر فله منه كِفل فالله حافظٌ وشهدٌ ورقيبٌ على من فعل خيرًا أو شراً : ﴿ مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ ﴾[النساء:٨٥] .

فالناس في القوت مختلفون ، فمنهم من جعل الله قوته في المطعومات فهذا يعيش ليأكل غافلًا عن ربه : ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا ﴿٥٩﴾ ﴾[مريم:٥٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ﴿١٢﴾ ﴾[محمد:١٢] .

ومنهم من جعل الله قوته في طاعة الله ، فهذا يأكل ليعيش لله فقوته أحسن الأقوات وأكملها : ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾[الأنعام:١٦١-١٦٣] .

والمال الذي أعطاه الله ﷻ لبني آدم أعطاهم الله إياه فتنة ليبلوهم هل يحسنوا التصرف فيه حسب الشرع أم لا ؟

قال الله تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾[الأنفال:٢٨] .

وقال الله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾[التغابن:١٦-١٨] .

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ ﴾[الكهف:٧] .

والناس في صرف المال أصناف فمن الناس من ينفق ماله ابتغاء وجه الله فيما يقرب إلى الله وفق شريعة الله فهذا ماله خيراً له : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ﴾[البقرة:٢٧٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ [البقرة:٢٦١] .

وقال الله تعالى : ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ ﴾[آل عمران:١٣٣-١٣٤].

ومن الناس من ينفق ماله في شهواته المحرمة فهذا ماله وبالٌ عليه : ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ١٢ ﴾[محمد:١٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ٥٥ ﴾[التوبة:٥٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ ٣٦ ﴾[الأنفال:٣٦].

ومن الناس من ينفق ماله بدون فائدة ليس في شيء محرم ، ولا في شيء مشروع ، فهذا ماله ضائعٌ عليه ، وقد نهى النبي ﷺ عن إضاعة المال ، كما قال ﷺ : « إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ عُقُوقَ الأُمَّهَاتِ ، وَمَنْعاً وَهَاتِ ، وَوَأْدَ البَنَاتِ ، وَكَرِهَ لَكُمْ : قِيلَ وَقَالَ ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ ، وَإِضَاعَةَ المَالِ »متفق عليه[1] .

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٥٩٧٥)، واللفظ له، ومسلم برقم: (١٢/ ٥٩٣).

٦- الخزانة السادسة

مقصود الله ﷻ من النعم والمصائب أن تتوجه القلوب إليه وحده في حال السراء والضراء ، ولا تلتفت لأحدٍ سواه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[البقرة: ٢١ - ٢٢]

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾[البقرة:١٥٥-١٥٧] .

فإذا حلت بالمسلم مصيبة أو محنة ثم دعا ربه كما أمره ، فأجابه : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾[غافر:٦٠] .

فإذا دعا ربه فأجابه زاد حبه لربه ، وزاد تعظيمه له ، وزاد إيمانه به ، وزاد حمده له ، وزاد ذكره له ، وهذه هي الحكمة العظمى في سوق المصائب للناس ، فإذا أراد الله أن يرفع درجاتك ويزيد إيمانك ويردك إليه ، أرسل إليك مصيبة ، لتدعوه وتسأله فإذا دعوته كشفها ازدت حباً له وتعظيما لهً وطاعةً له وذكراً له : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة:١٨٦] .

وقال الله تعالى : ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ﴿٦١﴾ ﴾[هود:٦١] .

فكل محنة وراءها منحة ، ووراء كل مصيبة توبة جديدة ومعرفة جديدة ، ومحبة جديدة ، وإيمانٌ جديد وعملٌ جديد : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾[لقمان:٢٠] .

والنعم الظاهرة : هي الأموال والعافية .

والنعم الباطنة : هي المصائب والمكاره .

وإذا احتاج العبد إلى نعمه سأل الله فأجابه ، فإذا أجابه زاد حبه لربه ، وزاد تعظيمه له ، وزادت طاعته له ، وزاد إيمانه به وحمده له ، فسبحان من يبتلي بالنعم والمصائب ويقلب أحوال عباده من حالٍ إلى حال ، ومن مقامٍ إلى مقام ، ومن درجةٍ إلى درجة ، ليدعوه ويتقربوا إليه ويصلوا إليه ، ابتلى الأغنياء بالأموال ليشكروا ، وابتلى الفقراء بالفقر ليصبروا : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾[التوبة:٥١] .

فالمؤمنون قسمان :

إما غنيٌ شاكر

أو فقيرٌ صابر .

ولكل منهم عبودية عظيمة : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[الحج:٣٤-٣٥] .

والله ﷻ غنيٌ كريم حكيمٌ خبير ، يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولكنه لا يعطي الدين إلا من يحب ، أعطى قارون المال وهو لا يحبه ، فلما لم يشكر ربه ، سلبه الله منه وما انتفع به وخسف به وبداره الأرض ، كما قال سبحانه : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[القصص:٨١-٨٢] .

وأعطى الله ﷻ فرعون المُلك وهو لا يحبه ، فلما جار وظلم وكفر بالله ، سلبه الله منه فجأة وأغرقه: ﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [يونس: ٩٠-٩٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾[الزخرف:٥٥] .

ومن أحبه الله أعطاه في الدنيا من مثل ما أعطى الأنبياء من الإيمان والتقوى والأعمال الصالحة والعلوم النافعة ، كما قال سبحانه عن موسى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾[يوسف:٢٢] .

فالله ﷻ يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولكنه لا يعطي الدين إلا من يحب : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ

رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾[الإسراء:١٨-٢٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾[آل عمران:٧٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾[البقرة:٢٦٩] .

خلق الله الإنسان في أحسن تقويم ، وأكرمه بنعمٍ لا تُعد ولا تُحصى ، وأكرمه بالزينة الحسية الظاهرة التي يستعين بها على عبادة ربه : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾[البقرة:٢٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ ۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾[الأعراف:٣١-٣٢] .

وأكرمه جَلَّ جَلَالُهُ بالزينة الروحية الباطنة وهي الإيمان والتقوى : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ ﴾[الحجرات:٧-٨] .

وقال الله تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾[الحجرات:١٧] .

وزينة الأجساد يشترك فيها المؤمن والكافر ، وزينة القلوب خاصةٌ المؤمنين وهي محل نظر الله ، كما قال النبي ﷺ : « إِنَّ اللهَّ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ »أخرجه مسلم[1] .

ووعد الله ﷻ على زينة الإيمان والأعمال الصالحة بأعظم نعيم وزينة ، كما وقال الله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾[التوبة:٧٢] .

وقال الله تعالى:﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾[القيامة:٢٢ -٢٣] .

فزينة القلوب بالإيمان والتقوى يقابلها زينة القصور وما فيها من النعيم المقيم : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾[البقرة:٢٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ ﴾[الكهف:١٠٧-١٠٨] .

وأول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر .

- **والإنعام من الله ﷻ على عباده على قسمين :**

أحدهما : دفع الضرر .

كما دفع الله أصحاب الفيل عن أهل مكة وهم مشركون : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ

(١) أخرجه مسلم برقم: (٣٤ / ٢٥٦٤).

﴿ ۝٣ تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ ۝٤ فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۢ ۝٥ ﴾ [الفيل:١-٥] .

وهذه أعظم نعمة عليهم .

الثاني : جلب النفع .

كما أعطى الله نبيه ﷺ الكوثر ، وهو الخير الكثير بالنبوة والرسالة وكثرة من آمن به ، وفي الجنة نهرٌ عظيمٌ واسع آنيته كعدد نجوم السماء ، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدًا .

فقريش دفع الله عنهم أصحاب الفيل ، ومَن عليهم بوجود البيت الحرام : ﴿ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۢ ۝٤ ﴾[قريش:٣-٤].

وذلك كله استجابة لدعاء إبراهيم : ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝١٢٦ ﴾[البقرة:١٢٦] .

وقال في دعائه ﷺ : ﴿ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا ﴾[البقرة:١٢٦] .

ونعم الله على خلقه لا تُعد ولا تُحصى : ﴿ أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝٢٠ ﴾[لقمان:٢٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ۝٣٤ ﴾[إبراهيم:٣٤]

وكل يوم نستيقظ على عظيم نعم الله التي لا تُعد ولا تُحصى ، روحٌ عادت ونعمٌ زادت وصبحُ أطل ، وأمنُ أظل ، وعافيةٌ في البدن ، وعينٌ تبصر وأذنٌ تسمع ولسانُ يتكلم ، وقلبٌ يعمل وعقلٌ حاضر .

فالله الحمد على نعمه التي لا تُعد ولا تُحصى ، وله الحمد أن أعطاني خيرًا وصرف عني شرًا ، وله الحمد أن أنعم علي وعلى غيري : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ﴾[الفاتحة : ٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾[الجاثية:٣٦-٣٧] .

الله سبحانه غنيٌ كريم رءوفٌ بالعباد ، لم يقطع موائد نعمه عن المذنبين والعصاة ، خلق هذا الإنسان في أحسن تقويم ، وأنزل عليه أحسن دين ، وأفاض عليه أنواع التكريم: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء:٧٠] .

فما الذي حمله على معصية الله الذي أكرمه ؟ هل غره حلم الله عليه وستوره المرخاة ؟ أم غره جهله بربه وحمقه على نفسه ؟ أم غره الشيطان وزين له المعصية ؟ .

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ ﴾[الانفطار:٦ -٨] .

وقال الله تعالى:﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾ ﴾[التين:٤-٨] .

فالله كريمٌ غنيٌ عن العالمين ، تستوي عنده طاعة الطائعين ومعصية العاصين : « يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلكي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ

أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلكي شَيْئًا »أخرجه مسلم[1] .

فهو سبحانه الكريم ، الذي يمهل العصاة لعلهم يتوبون ، وهذا موجب لا غترار العبد لما يراه من إمهاله له وحسن إكرامه وعنايته به ، فمن كرم الله أنه خلق الإنسان وأوجده من العدم ، وأمده بالأقوات ، وسواه فجعله سوياً سالم الأعضاء يعقل ويسمع ويُبصر .

وأنطق لسانه بالذكر وقلبه بالعقل وروحه بالمعرفة ، وفضله على كثيرًا ممن خلق تفضيلًا : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾[النحل:٧٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ ﴾[الكهف:٣٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ ﴾[يس:٧٧] .

وعَدله سبحانه ، فعدل خلق عينيه وأذنيه ويديه ورجليه ، فلم يجعل إحداهما أصغر من الأخرى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ ﴾[الانفطار:٦ -٨] .

وجعله حسن الصورة ، قائمًا لا كالبهيمة المنحنية ، وخلقه في أحسن تقويم وجعله مستعداً لقبول العلم والعمل والقدرة والفكر ، ومن خصه الله بهذا التكريم فالواجب عليه طاعة مولاه الذي خلقه وسواه ، ولا يليق به أن

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٥٥/ ٢٥٧٧).

يعصي ربه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ٨ ﴾[الانفطار:٦-٨] .

وأعقل الناس وأسعد الناس من عرف ربه بأسمائه وصفاته ، وعرف عظمة كبريائه وجلاله ، وعرف عظيم نعمه وإحسانه ، فعبد الله ﷻ بموجب ذلك ونال ثوابه العظيم من ربه العظيم .

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤ ﴾[الأنفال: ٢ - ٤].

وقال سبحانه:﴿ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨ ﴾ [النحل:١٧-١٨] .

٧- الخزانة السابعة

كل ما في الكون وكل ما في العالم العلوي والعالم السفلي ، وكل ما في الدنيا والآخرة كل ذلك نعمٌ الله ﷻ وخلقٌ من خلقه : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾[النحل:٥٣] .

وكل ما سوى الله إما نعمة وإما مُنعمٌ عليه ، فليس في الكون إلا غنيًا وفقراء وقويٌ وضعفاء وخالق ومخاليق ومُنعم ومنعَم عليه .

فالله ﷻ هو الذي يرزق الخلائق جميعًا ، وما يملكونه من مالًا حلالاً أو حرام ، فهم وما يملكون مُلك لله ﷻ: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾[المائدة:١٢٠] .

لكن الخلق يثابون على كسب الحلال وعلى إنفاق الحلال والله أذن بذلك وأمر به شرعًا ، أما المال الحرام فقد أذن الله به قدرًا وحرمه شرعاً .

- **والمال الحلال يدخل على الإنسان من سبعة أبواب :**

الأول : ما يؤخذ من غير مالكٍ له ، كالاحتطاب والاحتشاش والصيد وماء الأنهار والمعادن ، وغيرها مما ليس له مالك : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾[البقرة:٢٩] .

الثاني : المال المأخوذ قهراً ممن لا حرمة له ، وهي أموال الكفار المحاربين من الفيء والغنائم : ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾[الأنفال:٦٩] .

الثالث : ما يؤخذ قهراً باستحقاق عند امتناع من وجب عليه ، فيؤخذ منه دون رضاه ، كالديون الحالة تؤخذ ممن حبسها وتعطى لأصحابها .

الرابع : ما يؤخذ تراضيًا بمعاوضة كسائر البيوع والإجارات بشروطها الشرعية : ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾[البقرة:٢٧٥] .

الخامس : ما يؤخذ بالرضا من غير عِوض كالهبة والهدية والصدقة والوصية بشروطها الشرعية .

السادس : ما يحصل له بغير اختياره كالميراث فهذه مجامع الأموال الحلال بفعل العباد .

السابع : باب الإيمان والتقوى وهذا أعظم الأبواب وأشرفها ، فمن اتقى الله حقا رزقه الله مالا حلالًا من حيث لا يحتسب :﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣ ﴾[الطلاق:٢-٣] .

وقال الله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝٩٦ ﴾ [الأعراف:٩٦] .

وهذا الكسب الحلال بوجوهه السبعة يجب على العبد شكر الله عليه واستعماله في طاعته ونشر دينه ومواساة المحتاجين ، والنفقة منه على النفس والأهل وغيرهم بلا إسرافٍ ولا تبذير: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝١٧٢ ﴾ [البقرة:١٧٢] .

ويحرم عليه صرفها فيما حرم الله من الزنا وشرب الخمر والميسر والقمار ونشر الفساد والإسراف والتبذير : ﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ ﴾[الأعراف:٣١] .

وقال سبحانه:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٢٩ ﴾[النساء:٢٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٧٨ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ٢٧٩ ﴾[البقرة:٢٧٨-٢٧٩] .

- **أما المال الحرام فيدخل على الإنسان من أبوابًا كثيرة :**

الأول : باب المعاملات المحرمة كالربا والميسر والغش والعدوان وبيع ما حرم الله من المأكولات والمشروبات والملبوسات كالخنزير والخمر ، وغيرها مما حرمه الله : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٧ ﴾[الحشر: ٧] .

الثاني : باب السؤال بغير حاجة كما قال النبي ﷺ : « مَنْ سَأَلَ النَّاسَ تَكَثُّرًا ، فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا ، فَلْيَسْتَقِلَّ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ »أخرجه مسلم[1] .

الثالث : باب الغصب والسرقة والانتهاب والاختلاس ، كما قال النبي ﷺ : « أَيُّهَا النَّاس إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ حُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا » أخرجه أبو داود[2] .

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (١٠٥/ ١٠٤١).

(٢) صحيح/ أخرجه أبو داود برقم: (٣٣٣٤).

وكل ذلك كسبٌ خبيث لا يقبله الله ممن تصدق به وسوف يُحاسب عليه من كسبه بطريقٍ حرمها الله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨ ﴾[البقرة:١٦٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ٢٦٧ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٢٦٨ ﴾[البقرة: ٢٦٧ – ٢٦٨]

والله ﷻ طيبٌ لا يقبل إلا طيبًا .

الله جل جلاله له الأسماء الحسنى ، والصفات العلى ، والأفعال الحميدة ، والمثل الأعلى ، هو الغني الكريم الذي أنعم بكل نعمة ، وأنعم بجميع أنواع النعم على جميع الخلق ، نعمٌ على أنفسنا ، ونعمٌ على غيرنا ، كل ذلك نعمٌ عظيمة لا يحصيها إلا هو ، وهي جارية على العباد على مر الدهور والقرون : ﴿ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ٢١ ﴾ [الحجر:٢١] .

وقال الله تعالى:﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ٥٣ ﴾[النحل:٥٣] .

وقال الله تعالى:﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ١٠ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ١١ ﴾[لقمان:١٠-١١] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾[القصص:٥٧]

وقال الله تعالى:﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الأنعام:١٤] .

وقال الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿١٠٢﴾ ﴾[الأنعام:١٠٢] .

فنعم الله علينا في كل زمانٍ ومكان مقسومة مقدرة موهوبة من ربنا العزيز الوهاب :

نعمٌ في الماضي حين كنا عدمًا ؛ فأوجدنا الله .. ونعمٌ يومية حال التكليف.. ونعمٌ في المستقبل في حياتنا .. ونعمٌ في المستقبل يوم القيامة: ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴿٣٤﴾ ﴾[إبراهيم:٣٤]

وقال الله عز وجل : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾[النحل:٥٣] .

وقال الله عز وجل : ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾[التوبة:٧٢] .

فالحمد لله رب العالمين على نعمه التي لا تُعد ولا تُحصى ، الحمد لله رب العالمين الذي أنعم علي ، وأنعم على غيري ، والحمد لله رب العالمين الذي أعطاني خيرًا ، وصرف عني شرًا ، والحمد لله رب العالمين الذي أنعم

علينا بنعمة الإيجاد ، ونعمة الإمداد ، ونعمة الهداية ، ونعمة الثواب والأجر العظيم : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨ ﴾ [البينة:٧-٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٣٦ وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣٧ ﴾ [الجاثية:٣٦-٣٧] .

وله سبحانه الحمد على خَلقه المكان والزمان ، فالمكان والزمان من أصول النعم العظيمة ، فالمكان ظرف الأشياء الحسية ، والزمان ظرف الأعمال صالحة أو غير صالحة ، وهما من أعظم الآيات الدالة على قدرة الله : ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝١٩٠ ﴾ [آل عمران:١٩٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ۝٣٧ ﴾ [فصلت:٣٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝١٢٠ ﴾ [المائدة:١٢٠] .

إشارة إلى المكان ، والمكانيات من الأشياء التي خلقها الله ، وقوله سبحانه : ﴿ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝١٣ ﴾ [الأنعام:١٣] .

إشارة إلى الزمان ، والزمانيات من الأفعال .

والزمان أشرف وأعلى ، ولهذا أقسم الله به ، وأخبر أن كل من لم ينتفع به فهو خاسر في قوله : ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾[العصر:١-٣].

وأثنى على نفسه بخلقه الليل والنهار بقوله : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ۝٦٢﴾[الفرقان:٦٢] .

وأقسم به بقوله : ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢﴾[العصر:١-٢].

وقال سبحانه:﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾[الضحى:١-٢] .

وقال سبحانه:﴿وَٱلۡفَجۡرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ۝٢﴾[الفجر:١-٢] .

وقال سبحانه:﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾[الليل:١-٢] .

والليل والنهار آيتان تدلان على كمال قدرة الله في البعث ، ففي الليل تموت الأحياء وتسكن ، وفي النهار تُبعث الأحياء وتتحرك : ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا ۝١٢﴾[الإسراء:١٢] .

الله ﷻ هو الغني الكريم المُنعِم بكل نعمة ونعمة لا تُعد ولا تُحصى .

- **ونعم الله على العباد نوعان :**

١- نعم دنيوية : من الصحة والقوة والجمال والمال .

٢-نعم إيمانية : الله يعطينا الإيمان والسكينة والطمأنينة والأمن وحب الله ﷻ : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ۝٢٨﴾[الرعد:٢٨] .

وقال الله تعالى : ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ۝٥٨﴾[يونس:٥٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النحل:٥٣] .

وعطاء الله ابتلاء ، ومنعه دواء كما قال : ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النمل:٤٠] .

فالله ﷻ حكيمٌ عليم يعطي المال والجمال لجميع الخلق ، ويعطي الإيمان والتقوى لخواص خلقه : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [النحل: ٣٦] .

والإيمان بالقدر نظام التوحيد ، فالله حكيمٌ فيما يعطى حكيمٌ فيما يمنع ، النعم الدنيوية يسعد بها الإنسان في الدنيا ، أما النعم الإيمانية فيسعد بها في الدنيا والآخرة : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الإسراء:١٨-٢٢] .

فعطاء الله للعباد ثلاثة أنواع :

عطاءٌ دنيوي مادي .. عطاءٌ إيماني .. عطاءٌ أخروي .

العطاء المادي : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النحل:٥٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ أَحْيَآءٍ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [النحل: ١٨] .

وعطاء إيماني : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الكهف:١٠٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحجرات:١٧] .

وعطاء آخروي : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾ [التوبة:٧٢] .

فالجنة عطاءٌ دائمٌ لا ينقطع أبدًا : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [البقرة:٢٥] .

فالله حكيمٌ في عطاءه ومنعه ، ولن يجد الإنسان طعم الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وما قدره الله ﷻ عليه فكله خير : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ [التغابن:١١] .

وقال الله تعالى : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [التوبة:٥١] .

فإذا أعطاك الله شيئًا أو منعك شيئًا فأنت في عناية ربك الكريم الرحيم :

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة:١٤٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ ﴾[العنكبوت:٦٢] .

فالنعم عطاء والمصائب عطاء ، لكن النعم ابتلاء ، والمصائب دواء ترد الغافل إلى ربه : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾[لقمان:٢٠] .

وعطاء الله للعبيد مطلقٌ غير محدود : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ [ص:٥٤] .

فالعظيم لا يعطى إلا العظيم ، والله يحب من عباده أن يعطوا مما أعطاهم الله من مالٍ أو علمٍ أو نفع وأجر ذلك عائدٌ عليهم : ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾[سبأ:٣٩] .

وخزائن كل شيء عند الله ﷻ : ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾[الحجر:٢١] .

وفتح الله على عباده نوعان :

الأول : فتحٌ محمود سببه الاستقامة : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾[الأعراف:٩٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾[فصلت:٣٠-٣٢] .

الثاني : فتحٌ مذموم بسبب إضاعة الدين : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ٤٤ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٥ ﴾[الأنعام:٤٤-٤٥] .

وهذا ، وهذا كله بيدي الله ﷻ يفتح به حسب الأحوال .

- **في المدينة حصل ضرورتان :**

أعلى الضرورات .. وأدنى الضرورات .

فالدين وجُهد الدين أعلى الضرورات ، وأدنى الضرورات كسب المعاش فقدم الصحابة رضي الله عنهم جُهد الدين على الكسب فأصابتهم الفاقة ، فملكهم الله الأرض وجعل البركة في حياتهم : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١ ﴾ [الحج:٤٠-٤١] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٠٠ ﴾[التوبة:١٠٠] .

٨- الخزانة الثامنة

من أعظم نعم الله على عباده ، بل هي النعمة الكبرى على جميع الخلق أن أرسل الله ﷻ الرسل وأنزل الكتب هداية لعباده ليعبدوا الله وحده لا شريك له ، فالله سبحانه رحيمٌ كريم حين أمر الإنسان بعباده الله : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾ [الجمعة: ٢]

وقال الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾[الأنعام:١٠٢] .

فالله سبحانه لطيفٌ بعباده يسر لهذا الإنسان ما يعينه على حسن عباده ربه وإخلاصها لها ؛ فأعطاه عقلاً يعرف به من خلقه ويميز به بين الخالق والمخلوق ، وبين الكبير والصغير ، وبين الغنى والفقير : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾[النحل:٧٨] .

وأعطاه ربه كوناً يعرف به ربه بأسمائه وصفاته وأفعاله ، كوناً ينطق بوحدانية الله ووجوده وجلاله وجماله : ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾[يونس:١٠١] .

وقال الله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾ [ق:٦ -٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [نوح:١٥ -٢٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنبياء:٣٠] .

وأعطاه ربه فطرة يميل بها إلى حب الفضيلة والحق والخير ، وبها يكشف أخطائه : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم:٣٠] .

وأعطاه سبحانه شهوة تحركه إلى استبقاء حياته : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٤] .

وأعطاه ربه منهجاً يسير عليه في حياته ويسعد به في دنياه وآخرته : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [المائدة: ١٥ - ١٦]

وأعطاه ربه طعامًا وشرابًا يستعين به على طاعة من خلقه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾[البقرة:١٧٢] .

وقال سبحانه: ﴿ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾[المائدة:٨٨] .

وأعطاه ربه مكاناً يسكن فيه وهو بيته ، ومكان يتجول فيه وهو الأرض كلها : ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران:١٩٠ -١٩١] .

وأعطاه ربه وقتاً يعمل فيه ويتعبد لله فيه بأنواع العبادات ، فالوقت وعاءٌ للأعمال ، والمكان وعاءٌ للأجسام والذوات: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[فصلت:٣٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾[آل عمران:١٩٠] .

وقال سبحانه: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾[الأنعام: ١] .

وأعطاه ربه اختياراً يفعل ما يريد ، ورغبه في الخير وحذره من الشر : ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ

مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾[الكهف:٢٩-٣٠] .

فالإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، وإذا أحبك الله فتح لك أبواب رحمته : ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾[آل عمران:٧٣] .

وقال الله تعالى : ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾[البقرة:٢٦٩] .

فإذا آمنت بالله خالق ورزاقاً وواحدًا ومدبرًا وآمنت بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ، فهذا وحده لا يكفى وهذا الإيمان لا يقدم ولا يؤخر ولا يرفعك درجة ؛ لأنه غير مقرون بالأعمال الصالحة ، فهو مثل إيمان إبليس الذي لعنه الله وأخرجه من الجنة ومثل إيمان الكفار : ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾[يونس:/ ٣١-٣٢].

وإذا عرف الإنسان ربه فعليه أن يعبده : ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾[الكهف: ١١٠]

فلابد أن يكون هذا الإيمان الحق مقروناً بالعمل الصالح ؛ لأن الإيمان بالله ثمرته العمل الصالح الذي يُقرب إليه ، فإذا لم تحصد الثمرة فلا قيمة لهذا الإيمان ، فالإيمان هو المحرك للطاعات ، فيعطى العبد ويمنع لله ويحب ويكره لله ويقدم ويؤخر لله ويسعى ويجاهد لله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ ﴾[الحج:٧٧] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقٗا ﴿٢٩﴾ ﴾[الكهف: ٢٩] .

وقال الله تعالى: ﴿ ۞ لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿١١٤﴾ ﴾[النساء:١١٤] .

- **كيف يستفيد الإنسان من نعم الله ﷻ :**

المؤمن يستفيد من الإيمان بالله ﷻ بالجُهد على نفسه بالاستقامة والجُهد على غيره بالدعوة والتعليم والإحسان ، والصوارف عن الأعمال الصالحة في زماننا كثيرة جدًا من المرئيات ، والمسموعات ، والشهوات والأعمال الكسبية ، والعوائد والعوائق والعلائق التي تعوق العبد عن العمل الصالح أو تصرفه عنه ، لهذا فالأجر عظيمًا لمن يجاهد نفسه على العمل الصالح وكبيرٌ جدًا : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٩] .

فالأجور الكبيرة تكون مع الصوارف الكثيرة والعوائق الكثيرة والعلائق الكبيرة : ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾[الحج:٧٨] .

وقال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾[الأنعام:١٠٢] .

فاللهم لك الحمد على فتح أبواب العمل الصالح : ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾[النمل:١٩] .

وأعظم الأعمال الصالحة ما بقي نفعه بعد الموت ، وأعظم ذلك الدلالة على الحق وتعليم السنة والصدقة الجارية : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾[فصلت:٣٣].

وقال النبي ﷺ : « مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنْ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنْ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أوزارهم شَيْئًا »أخرجه مسلم(١) .

وقال النبي ﷺ : « لَأَنْ يُهْدَى اللَّهَ بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ »متفق عليه(٢) .

وقال النبي ﷺ : « إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ »أخرجه مسلم(٣) .

وأشقى الناس من له عمل سيء يستمر شره من بعده كمن كتب في الإلحاد ونشر الإباحية ومجد الباطل ، ودعا للكفر والرذيلة بلسانه أو قلمه : ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا

---

(١) أخرجه مسلم: (١٦/ ٢٦٧٤).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٢٩٤٢) واللفظ له، ومسلم برقم: (٣٤/ ٢٤٠٦).

(٣) أخرجه مسلم برقم: (١٤/ ١٦٣١).

﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٦] .

والعمل الصالح هو سر وجود الإنسان في هذه الأرض : ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾ ﴾ [الفرقان:٧٧] .

فالحياة دار عمل لا دار أمل ، ودار تكليف لا دار تشريف ، ودار تكميل محبوبات الرب لا تكميل محبوبات النفس ، ودار الجهود لا دار القعود : وقال سبحانه: ﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ ﴾ [الحج:٧٨] .

والزمن أوسع المخلوقات لأنه يتجدد كل يوم ، ولهذا أثني الله على نفسه بتكرار الوقت : ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النور:٤٤] .

والمكان والزمان أعظم مخلوقات الله ، الدالة على كمال قدرته وجميل صنعه وعظمة تدبيره وعظمة نعمه : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [آل عمران:١٩٠] .

وقد أقسم الله بالمكان والزمان في آيات كثيرة في القرآن : ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ ﴾ [الطارق:١] .

وقال سبحانه: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ ﴾ [الشمس:٥-٦] .

وقال سبحانه: ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ ﴾ [الليل:١-٢] .

وقال سبحانه: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ ﴾ [الضحى:١-٢] .

وقال سبحانه: ﴿ وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ ﴾ [الفجر:١-٢] .

وغير ذلك من الآيات التي جاءت في كتاب الله .

والإنسان مكان من حيث مادته ، وزمان من حيث حياته ، كلما انقضي من حياته يوم انقضى من عمره يوم ، وكلما ازداد الإنسان علمًا ازداد اهتماماً بالوقت ، فأودع فيه ما يصلح أمور دينه ودنياه ، وأعظم ما يودع في الأوقات عبادة الله وحده لا شريك له ، والدعوة إلى الله ، وتعليم شرع الله والإحسان إلى الخلق : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾[يوسف:١٠٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾[الحج:٧٧] .

وقال سبحانه:﴿ كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾[آل عمران:٧٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل:٩٠].

فهذه الأربع أحسن ما تدار به الأوقات : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣] .

- **حفظ الأوقات :**

المكان محل الأشياء والزمان مكان الأعمال ، وجميع أوامر الله ﷻ مبنية على المبادرة والمسابقة والمسارعة إلى الخيرات لما فيها من الخير والبركة وعظيم الأجر : ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾

وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾[آل عمران:١٣٣-١٣٦] .

وقال سبحانه:﴿ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾[الحديد:٢١] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ ﴾[الحج:٧٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ ﴾[الجمعة : ٩] .

فأسعد الناس من وضع في أوقاته ما أمر الله ورسوله به ، وما يحبه الله ورسوله فاستبقوا الخيرات : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾[الأنبياء:٩٠] .

وأعقل الناس من استغل عمره فيما ينفعه في الدنيا والآخرة : « اغتنم خمساً قبلَ خمسٍ اغتنم حياتَكَ قبلَ موتِكَ وصِحَّتَكَ قبلَ سَقَمِكَ وشبابَكَ قبلَ هَرَمِكَ وغِنَاكَ قبلَ فقرِكَ وفراغَكَ قبلَ شغلِكَ »أخرجه الحاكم(١) .

فيا حسرة على من أضاع أوقاته فيما يضره ولا ينفعه : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾[العصر:١-٣].

---

(١) صحيح/ أخرجه الحاكم برقم: (٧٨٤٦) .

ويقول النبي ﷺ : « بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ الصالحة فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا ، أَوْ غِنًى مُطْغِيًا ، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا ، أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا ، أَوْ مَوْتًا مجْهِزًا ، أَوْ الدَّجَّالَ ؛ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ ، أَوْ السَّاعَةَ ؛ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ »أخرجه الحاكم (١) .

وقد أكرم الله ﷻ بني آدم بما يعينهم على حفظ الأوقات بعباده الله وحده لا شريك له ، فسخر لهم الكون كله ينطق بوحدانية الله وجمال وجلال أسماء الله وصفاته ، وزودهم بالعقول التي تعقل والأبصار التي ترى والأذان التي تسمع والقلوب التي تحب وتخشع : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل:٧٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [لقمان:٢٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يونس:١٠١] .

وقال الله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء:٨٢].

ثم أعطاهم الكريم الفطرة التي تحب الحق والفضيلة وتكره الباطل والرذيلة : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا

(١) صحيح/ أخرجه الحاكم برقم: (٤/ ٣٢٠).

نَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم:٣٠] .

ثم أعطاهم الشهوة التي بها حفظ الحياة ، وحفظ النوع الإنساني ثم أعطاهم الاختيار تكريمًا لهم ، ثم أعطاهم المكان يسكنون ويسيرون فيه ، وأعطاهم الزمان إناءً لأعمالهم : ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام:١٦١-١٦٣].

وقال الله تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر:٩].

وخسارة الأوقات أعظم من خسارة الأموال ، فمن أفنى حياته كافرًا يعيش عيشة البهائم ويتمرغ في الشهوات فهذا أشد الناس حسرة وخسرانًا يوم القيامة : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر:١٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف:١٠٣- ١٠٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾ [محمد:١٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾﴾ [البقرة:١٧٥] .

٩- الخزانة التاسعة

- **السؤال عن النعم :**

كل إنسان سوف يُسأل عشرة أسئلة عن وقته عن عمله وعن حياته كيف كانت ؟

قال الله تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الحجر:٩٢-٩٣] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الصافات:٢٤] .

وقال الله تعالى: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الأعراف: ٦ - ١٠] .

فالعبد سوف يُسأل في القبر من ربك ؟ ما دينك ، من نبيك ؟ وسوف يُسأل يوم القيامة

كما قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ ، فِيمَ أَفْنَاهُ ؟ وعَنْ شَبَابِهِ ، فِيمَ أَبْلَاهُ ؟ وَعَنْ مَالِهِ ، مِنْ أَيْنَ ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ ، مَاذَا عَمِلَ بِهِ »رواه الترمذي [1] .

وفى الحساب يوم القيامة سيقال لجميع الخلق ماذا أَجبتم المرسلين ؟ وماذا كنتم تعملون ؟ .

---

(١) صحيح/ رواه الترمذي برقم: (٢٤١٦).

قال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾[القصص:٦٥-٦٦] .

- **والناس في استعمال الوقت صنفان :**

الأول : وهم أكثر الناس الذين ينفقون أوقاتهم في المباحات والشهوات والقيل والقال ، وإضاعة الأموال والأوقات فهؤلاء أخسر الناس : ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾ [مريم:٥٩] .

وقال الله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾[التوبة:٥٥] .

وهؤلاء قد استهلكوا أوقاتهم في طاعة الشيطان وإتباع هوى النفس : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾[القصص:٥٠] .

وهم أخسر الناس : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ ﴾[الزمر:١٥] .

الثاني : صنف استثماري ، وهم من استغل أوقاته فيما ينفعه وهم صنفان :

١-أعلاهما من استثمر أوقاته في عباده الله والدعوة إليه وتعليم شرعه والإنفاق في سبيله فهؤلاء ورثة الأنبياء وأعظم الناس ربحًا : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾[العصر:١-٣].

وقال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾[العنكبوت: ٦٩] .

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[الأنفال: ٢ - ٤].

وقال الله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾[آل عمران: ١٠٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾[آل عمران:٧٩] .

وقال الله تعالى: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾[آل عمران:١٣٣-١٣٤].

٢-وأدناهما من أشغلته تجارته عن المسابقة في الخيرات والمنافسة في القُربات : ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [الروم:٦-٧] .

- **والوقت ثلاثة أقسام :**

١- الماضي وقد فات بما عملت فيه من خيرٍ أو شر .

٢- المستقبل ولا تعلم ما سيجرى فيه .

٣- الحاضر وهو الذي بيدك تضع فيه ما تستطيع من الأعمال الصالحة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾[الحج:٧٧] .

والعاقل من أحسن إدارة وقته وشغله بأحسن الأعمال التي تثمر أعظم الحسنات والأرباح : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [فصلت:٣٣].

وقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الصف:١٠-١٤] .

- **حفظ الأوقات :**

الوقت هو رأس مالك الوحيد أيها المسلم سواءً كنت من أهل الدنيا أو من أهل الدين : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [المنافقون:٩-١٠] .

فاستثمر أوقاتك أيها المسلم فإنك إن استعملته فيما يحبه الله ويرضاه أعطاك من هداك إليه أجرًا عظيماً ، يبدأ ربحاً على كل عملٍ صالح ، الحسنة بعشر أمثالها : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [الأنعام:١٦٠] .

إلى سبعمائة ضعف : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾[البقرة:٢٦١] .

إلى أضعافٍ مضاعفة : ﴿ إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾[التغابن:١٧] .

إلى أضعافٍ كثيرة : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ﴾[البقرة:٢٤٥] .

إلى أجورٍ بغير حساب : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿١٠﴾ ﴾[الزمر:١٠] .

وأمام مُستهلك الوقت في شهواته أو مستثمره فيما ينفعه في دنياه وأخراه الموت الذي ينهي حكم الحاكم، وغنى الغني، وقوة القوي، ووسامة الوسيم، وضعف الضعيف : ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾[المنافقون:١١] .

والوقت كالإناء تُوضع فيه الأعمال حسنة كانت أو سيئة ، يقصر على أهل السرور ويطول على أهل العذاب ، فدقيقة الألم ساعة وساعة الفرح دقيقة: ﴿ بَلَىٰ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾[البقرة:١١٢] .

وقال الله تعالى: ﴿ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾[يونس:٥٨] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ﴿٧٠﴾ ﴾[النساء:٦٩ - ٧٠] .

والوقت في الآخرة يخف على المؤمنين ويثقل على الكافرين: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾[غافر: ٤٦] .

والقبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار ، فمن أحسن في حياته كان قبره روضة ، ومن أساء كان قبره حفرة من حفر النار: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الانفطار:١٣-١٦] .

ومن عاش تقياً مات قوياً ، ومن عاش فاجراً مات خائباً : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾[الكهف:١٠٣- ١٠٤] .

وقال الله تعالى: ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾[الطور : ٤٥] .

ومن أخطر آفات الوقت التسويف والتأخير ، فسوف من جند إبليس فتزود من التقوى ما دمت قادرًا ذاكرًا : ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾[البقرة:١٩٧] .

وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأحزاب:٤١-٤٤] .

وقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ ﴾[الحج:٧٧] .

ومن بورك له في وقته بورك له في عمره : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾[الأنبياء:٩٠] .

والوقت من أعظم النعم ، كما قال النبي ﷺ : « نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ : الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ »أخرجه البخاري[1] .

والمغبون حقًا من نقص أجله ولم يزد عمله ، فالذي لا يعرف كيف ينفق الوقت ويديره إنسانًا غافلُ خاملٌ محتاج إلى تذكير لسر وجوده ، وما المراد منه وماذا أعد الله له ، حتى يحسن استغلال الوقت ، فاحذر أن تكون في عمل يأكل كل وقتك ، فهذا العمل أخطر الأعمال ؛ لأنه ألغى مهمة الإنسان في الحياة وهي عبادة الله وحده : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾[الذاريات:٥٦-٥٨] .

وقال الله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾[الأنعام:١٦٢-١٦٣] .

فإضاعة الوقت يلغي مهمة الإنسان كأب ومهمته كزوج ومهمته كداعٍ إلى الله ، ومهمتك تضيع بإهمال وقتك ، فمهمة الإنسان في الحياة تضيع بإضاعة أوقاته ، تضيع كطالب علم ، تضيع كإنسان ، تضيع كمربي ، تضيع كمسلم : ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾[القصص:٧٧] .

---

(١) أخرجه البخاري برقم: (٦٤١٢).

فلابد من تنظيم الأوقات فلله عملٌ في الليل لا يُقبل بالنهار ، وله عمل في النهار لا يقبله في الليل : ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٢ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ١١٣ ﴾[هود:١١٢-١١٣] .

- **حفظ الأوقات :**

أحسن من حفظ أوقاته بما يحبه الله ويرضاه هم الأنبياء والرسل عَلَيْهِم الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وأحسنهم في ذلك سيد الخلق محمداً ﷺ الذي حفظ أوقاته بكل عملٍ صالح ، من عبادة وذكرٍ ودعاءٍ ودعوةٍ وإحسانٍ إلى الخلق وتعليمٍ لشرع الله .

لهذا لابد من تنظيم الأوقات ، فلله عملٌ في الليل لا يقبله في النهار ، وله عملٌ في النهار لا يقبله في الليل ، وقد بين الله ﷻ أنواع العبادات وفرقها على جميع الأوقات ، فليسارع العبد إلى حفظ أوقاته بما يحبه ويرضاه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٧٧ ﴾[الحج:٧٧] .

ولإضاعة الأوقات أسباب أهمها :

أولاً : الجهل بقيمة الوقت : ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٥ ﴾[الأنعام: ٣٥] .

ولا يضيع عليك وقتك فيما لا ينفعك فإنك مسئولٌ عنه .

الثاني : الكسل عن طلب المعالي فهؤلاء يقتلون الوقت قتلاً في الانهماك في الشهوات والقيل والقال وسوف يُسألون عن ذلك : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٢ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٣ ﴾[الحجر:٩٢-٩٣] .

وقال النبي ﷺ : « لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلاهُ ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ ، وَعَنْ عَلِمِهِ مَاذَا عَمِلَ بِهِ »أخرجه الترمذي(١) .

فهؤلاء أضاعوا أوقاتهم بما يضرهم ولا ينفعهم ، سهرٌ بلا فائدة ومجامع سيئة ، وسماع محرم ، وأعمالٌ رديئة ، ومن نتائج الكسل الخسارة والفقر ، وسبب الكسل عدم معرفة مقصد الحياة:﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾[الأعراف:١٧٩] .

الثالث : عدم معرفة مقصد الحياة ، فالله خلق الناس لعبادة وامتثال أوامره وخلقهم ليرحمهم : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾[الذاريات:٥٦-٥٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ ﴾[هود:١١٨-١١٩] .

الرابع : سوء التنظيم وعدم إدارة الوقت فلابد من تنظيم الوقت ، وحفظه بالعبادة التي أمر الله ﷻ بها في ذلك الوقت ، فالعبادة الشاملة امتثال أوامر الله في كل حال وفي كل وقت ، ولكل وقتٍ عبادة ولكل عبادة وقت .

وبعض الناس مركزي لا يثق بأحد فيعمل كل شيءٍ بنفسه ، وهذا يستهلك منه وقتاً كثيراً مع إنجازٍ قليل ، ولو أعطى الفرصة لغيره لكان العمل أكثر والأرباح أكثر ، فكل أحدٍ له طاقة : ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾ ﴾[المائدة: ٢] .

---

(١) صحيح/ رواه الترمذي برقم: (٢٤١٦).

وقال النبي ﷺ :« المُؤْمنُ للْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشدُّ بعْضُهُ بَعْضًا»أخرجه البخاري[1] .

خامساً: إضاعة الأوقات بالتطفل على الناس، فبعض الناس فارغ ويذهب إلى غيره ليضيع وقته، وغيره لديه أعمالًا يريد إنجازها، وهذا قد أضاع عليه وقته.

- **فأسباب ضياع الوقت :**

الجهل .. والكسل .. وعدم تنظيم الوقت .. وعدم معرفة مقصد الإنسان في الحياة .. وسوء تنظيم الوقت .. والتطفل على الآخرين .

لكن المؤمن يحفظ وقته بما يحبه الله ويرضاه : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[الأنفال: ٢ - ٤].

وقال الله تعالى : ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّآئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾[التوبة:١١٢] .

ومن حفظ وقته فيما أمره الله به كالصلوات الخمس وصيام رمضان ، حفظ له بقية أوقاته وبارك له فيها ، فمن ظن على ربه في عبادته وامتثال أوامره ، أدبه ربه بأن يُضيع له وقتاً طويلاً بلا سببًا ولا فائدة ، فكل من استعمل وقته في غير ما خلق له أدبه الله بأن يأخذ منه وقتاً طويلاً بلا فائدة : ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ ﴾[الشعراء:٢١٣] .

---

(١) أخرجه البخاري برقم: (٤٨١).

فمن أضاع وقته فيما لا ينفعه ، وعرض عن عبادة ربه فقد أتلف وقتاً طويلًا بلا فائدة ، فيمرض ابنه ويراجع به الطبيب ، ويخطئ الطبيب في تشخيص المرض ، فيراجع به الأطباء وينفق عليه الأموال وينتقل من بلد إلى بلد ، ثم يزول المرض وقد خسر فيه الأموال وأضاع أوقاته ، فمن شغل وقته بالطاعات وامتثال أوامر الله يتولى الله صون وقته فيما يحبه الله ويرضاه من صلوات ، أو طلب علم أو عملٍ صالح ، أو قراءة القرآن .

فتذكية الأوقات بالأعمال الصالحة واجبًا شرعي ومن خالف برحمة الله عقوبته ليلجأ إلى حفظ وقته : ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾[الأنعام:٤٣]

وقال الله تعالى: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ ﴾ [النساء:١٢٣] .

١٠- الخزانة العاشرة

من حفظ وقته فيما يحبه الله ويرضاه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، فقد أدى الأمانة التي أمره الله بها : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾[الأحزاب:٧٢-٧٣].

ومن استعمل أوقاته بما أمره الله به من عبادة لله ودعوة إليه ، وتعليم لشرعه وإحسانٍ إلى خلقه بارك الله في عمره وإن كانت حياته قصيرة ، فكثيرٌ من العلماء والدعاة أعمارهم الزمنية قصيرة ؛ لكن أعمارهم العلمية طويلة: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾[يس:١٢] .

فماذا عملت في وقتك أيها المسلم هل دعوة إلى الله فيه ؟ هل علمت العلم للناس فيه ؟ هل صنفت من أجل دينك فيه ؟ هل أحسنت إلى الناس بجاهك ومالك فيه ؟ ماذا قدمت للمسلمين وماذا قدمت لنفسك ؟ .

قال الله تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الحجر:٩٢-٩٣] .

وقال الله تعالى:﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾[البينة:٥] .

وقال الله تعالى:﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾[الكهف: ١١٠]

وأحسن ما تحفظ به الأوقات ما فعله النبي ﷺ : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب:٢١] .

فاحفظ أوقاتك في كل عملٍ صالح يقربك إلى الله ، وأعلم أن مَلك الموت قد تخطاك إلى غيرك وسوف يتخطى غيرك إليك ، وكل يوم تخرج من بيتك وتعود وسيأتي عليك يوم تخرج منه ولا تعود إليه ، وكل يومًا تدخل بيتك وتخرج وسيأتي يوم تدخل ولا تخرج إلا ميتاً :﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾[آل عمران:١٨٥] .

وقال الله تعالى:﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾[الجمعة:٨] .

فحاسب أيها المسلم قبل أن تُحاسب ، فاليوم عملٌ ولا حساب ، وغداً حسابٌ ولا عمل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾[المنافقون:٩] .

وقال الله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۚ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾[الحشر:١٨-٢٠] .

واعلم أيها العبد أن ما مضى من عمرك فات بما فيه من خيرٍ أو شر ، والمستقبل غيبٌ لم تصل إليه ولك الساعة التي أنت فيها ، فاعمل فيها ما أمرك فيها من أنواع العمل الصالح: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾[الحشر: ٧] .

واعلم أيها العبد أنك بين خمسة أيام :

يوم مفقود هو الماضي .. ويوم مشهود هو الحالي .. ويوم مورود هو يوم موتك .. ويوم مشهود هو يوم القيامة .. ويوم مشهود هو يوم القيامة .. ويوم ممدودٌ هو يوم مقامك الأبدي في الجنة أو النار:﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾[التوبة:٧٢] .

وقال الله تعالى:﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾[التوبة: ٦٨] .

واعلم أيها الإنسان أن التفكر بالموت كل يوم يجعلك تسير على الصراط المستقيم دائمًا ، فالتفكر بالموت يمنعك من أن تعصي الله ، يدفعك إلى طاعة الله ، يزهدك في الدنيا يرغبك في الآخرة ؛ فبادر فوراً إلى الأعمال الصالحة ، وأكثر من التوبة والاستغفار : ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾[البقرة:١٩٧] .

وقال النبي ﷺ :«أَكْثِرُوا من ذِكْرَ هَادِمِ اللَّذَّات» أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه.(١) .

وقال النبي ﷺ : « عِشْ أيها الإنسان مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ ، وَأَحْبِبْ مَنْ أَحْبَبْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ ، وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مجَزِيٌّ بِهِ إن خيرًا فخير وإن شراً فشر » أخرجه الطبراني(٢) .

وقال الله تعالى:﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾[الزلزلة: ٦-٨] .

---

(١) صحيح/ أخرجه الترمذي (٢٣٠٧)، والنسائي (٤/ ٤)، وابن ماجه (٤٢٥٨).

(٢) صحيح/ أخرجه الطبراني برقم: (٤/ ٣٠٦).

وقال الله تعالى: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾[الأنعام:١٦٠] .

وقال الله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ ﴾[الشعراء:٢٠٥-٢٠٧] .

فكن ابن وقتك واعمل بما فرض الله عليك ، وتقرب إلى مولاك الذي خلقك وهداك : ﴿ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ ﴾[الذاريات: ٥٠-٥١] .

وقال الله تعالى: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾[آل عمران:١٣٣-١٣٤].

- **أفعال الله الكبرى الذي أنعم بكل نعمة :**

الله جل جلاله له الأسماء الحسنى والصفات العلا والأفعال الحميدة والمثل الأعلى : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾[طه:٨] .

فما هي أسمائه وصفاته ، وما هي أفعاله الكبرى في مُلكه العظيم ، وما هي أفعاله في بني آدم ، وما هي أفعاله بأوليائه ، وما هي أفعاله بأعدائه ؟ .

الله ﷻ هو الملك الحق الواحد الأحد القادر على كل أحد ، الغني عن كل أحد ، الذي يحتاج إليه كل أحد ، لا إله غيره ولا رب سواه لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه ، أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددًا رحمته وسعت كل شيء ، ونعمه لا تُعد ولا تُحصى:﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾[الأنعام:١٠٢] .

هو السميع لكل شيء البصير بكل شيء القاهر لكل شيء ، العلي فوق كل شيء :﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحشر: ٢٢ -٢٤] .

وأما أفعاله في مُلكه العظيم ، فهو سبحانه خالق كل شيء ومدبر كل شيء في عالم الغيب وعالم الشهادة ، وفي العالم العلوي ، وفي العالم السفلي وفي الدنيا والآخرة: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الزمر:٦٢-٦٣] .

هو الخلاق العليم الذي خلق كل شيء الكبير والصغير، والرطب واليابس، والذكر والأنثى من جميع المخلوقات:﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الأنعام:١٠٢] .

وقال الله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾ [فاطر:٤١] .

وقال الله تعالى:﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الغاشية:١٧ - ٢٠] .

وقال الله تعالى:﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ۗ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأعراف:٥٤] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزمر:٦٧].

وقال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الأنبياء:١٠٤] .

وقال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [نوح:١٣ -٢٠] .

وما فعله بآدم وذريته فقد خلق أباهم في أحسن تقويم : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ ﴾ [التين:٤-٦] .

وزود آدم وذريته بآلات العلم : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل:٧٨] .

وسخر لهم ما في السموات وما في الأرض : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [لقمان:٢٠] .

وأمدهم بالأقوات في كل مكانٍ وزمان : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النحل:٥٣] .

وأكرمهم بالدين الحق : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [النحل: ٣٦] .

وفضلهم على غيرهم من المخلوقات : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٠] .

وأكمل لهم الدين : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۚ ﴾ [المائدة: ٣] .

وأمرهم بما يسعدهم في الدنيا والآخرة من الإيمان والعمل الصالح: ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٨] .

وقال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [البقرة: ٢١ - ٢٢]

ووعدهم على الإيمان والتقوى أعظم الأجور : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الكهف: ١٠٧- ١٠٨] .

وضاعف لهم الأجور : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦٠] .

وأمدهم بالتوبة والاستغفار وأمرهم جل جلاله بالتوبة والاستغفار ليكفر عنهم سيئاتهم:﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾[النور:٣١] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١١٠﴾ ﴾[النساء:١١٠] .

ووعدهم إن أقاموا الدين بالخلافة في الأرض والنصر على الأعداء :﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾[النور:٥٥] .

وأما أفعاله جل جلاله بأوليائه فقد نصرهم على أعدائهم :﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾[غافر:٥١] .

ومكن لهم في الأرض بالخلافة: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾[الحج:٤٠-٤١] .

وأكرمهم بالأمن والهداية :﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[الأنعام:٨٢].

ووعدهم على الإيمان والعمل الصالح الأجور العظيمة :﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾[التوبة:٧٢] .

رضي الله عنهم ورضوا عنه ووعدهم على عملهم الخلود في الجنة :﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾[التوبة:١٠٠] .

أعظم نعم الله على عباده ، هي نعمة الهداية إلى الإسلام .

- **والمقصود بنعمة الله أمران. :**

الأول : دلائل التوحيد والإيمان والهدى ، وهي من أجل أقسام نعم الله على عباده ؛ لأنها أعظم أسباب الهدى والنجاة من الضلالة : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ ﴾[المائدة:٣] .

الثاني : نعم الله المادية من أسباب الصحة والأمن ، والأرزاق ، والكفاية ، كما قال سُبْحَانَهُ : ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[إبراهيم:٣٤]

فكل نعمة في الدنيا والآخرة من الله وحده ، سواء كانت مادية أو إيمانية: ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ﴾[المائدة:٧]

وقال الله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾[النحل:٥٣] .

ومن يبدل نعمة الله بعد ما عرفها ولم يشكرها ، ولم يقم بالواجب عليه فيها فردها وكفر بها ، فسينال عقوبة ذلك في الدنيا والآخرة:﴿ سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ ﴾[البقرة:٢١١] .

والله سبحانه هو العزيز الرحيم الجبار للمظلومين والمنكسرين:: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾[النمل:٦٢] .

وقال الله تعالى:﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾[الحجر:٤٩-٥٠] .

وقال الله تعالى:﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾[الصافات:٧٥] .

هو سبحانه العليم الحليم اللطيف بعباده الذي يحفظ أولياءه مما يكره ، هو لهم لا بما يكره العبد الله يحفظ العبد بما يحب وبما يكره ، لا بما يحبه العبد أو يكره إن الله لطيف خبير :﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾[البقرة:٢١٦] .

وأفعل الملك العزيز الجبار مع أعدائه أنه أهلك الظالمين ، وخسف بالمجرمين وأغرق الكافرين والمستكبرين: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ ﴾[الطلاق:٨] .

وقال الله تعالى:﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾[العنكبوت:٤٠] .

وقال الله تعالى:﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾[هود:١٠٢] .

وقال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَـٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ ﴾ [الفجر:٦-١٣] .

وقال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَـٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥ ﴾ [الفيل:١-٥] .

وقال الله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝١٠ ﴾ [الحاقة:٤-١٠] .

موسوعة خزائن العلوم الإسلامية

١٤ - خزائن النعـــــــم

القسم الثاني

ويشتمل على ما يلي :

١ - الخزانة الأولى

٢ - الخزانة الثانية

٣- الخزانة الثالثة

٤ - الخزانة الرابعة

٥ - الخزانة الخامسة

٦ - الخزانة السادسة

٧- الخزانة السابعة

٨- الخزانة الثامنة

٩ - الخزانة التاسعة

١٠ - الخزانة العاشرة

١٤ - خزائن النعـــــم

القسم الثاني

١ - الخزانة الأولى

الله جل جلاله هو الرب الذي لا إله غيره ولا رب سواه ، أنعم على خلقه بنعمٍ لا تُعد ولا تُحصى فهو المُنعِم بجميع النعم الظاهرة والباطنة المادية والروحية ، نعمٍ على البدن ونعم على الروح ونعمٌ ظاهرة ونعم باطنة ، نعمٌ داخل الإنسان ونعمٌ خارج الإنسان ، ونعمٌ في حصول محبوب ونعمٌ في دفع مكروه ، ونعمٌ في الدنيا ونعمٌ في الآخرة :﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النحل: ١٨] .

والله سبحانه له في كل ذرة في الكون نعمة ، وله فيها حكمة وله فيها أمرٌ بالإيجاد وأمرٌ بالبقاء وأمرٌ بالنفع والضر :﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾[الأنعام:١٠٢] .

وأجل النعم وأعلاها وأشرفها وأكملها وأعظمها نعمة الإسلام ، وهي فضل من الله فهو المان بها ابتداءً بلا سببًا من العبد ولا استحقاق منه : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحجرات:١٧] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾[النحل:٥٣] .

وكل ما وصل إلى العبد من خير فهو لله وبالله ومن الله : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾[المائدة:١٢٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾[النحل:٥٣] .

والعاقل كلما رأى هذه النعم أحدث له ذلك ذلًا وانكسارًا ، وكلما جدد الله له نعمة ازداد له خشوعًا وخضوعًا وذلًا وانكسارًا وخوفًا ورجاءًا ومحبة وحمدًا : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[السجدة:١٥-١٧] .

- **وإنما يحصل هذا للعبد بأمرين :**

الأول : علمه بربه وكماله وبره وغناه وجوده وإحسانه وفضله ورحمته ، وأن الخير كله في يديه ، وهو مُلكه يؤتي منه من يشاء ويمنع منه من يشاء ، وله الحمد على هذا وهذا أكمل حمدٍ وأتمه :﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الجاثية:٣٦-٣٧] .

الثاني : علم العبد بنفسه ووقوفه على حدها وقدرها ونقصها وضعفها وظلمها وجهلها وتقصيرها وتفريطها ، وأنها ليست بشيء ولا بيدها شيء ، ولا تقدر على شيء ، فالله بيده كل شيء والمخلوق ليس بيده شيء : ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾[الأعراف:٥٤] .

فإذا صار هذان العلمان صبغة لها علمت حينئذ أن الأمر كله لله ، وأن الحمد كله لله ، وأن الخير كله بيد الله وأنه سبحانه المستحق للحمد والثناء ، والمدح دونها وأنها هي أولى بالذم والعيب والفقر والذل واللوم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾[فاطر: ١٥] .

ومن أعجب الأشياء أن تعرف ربك ثم لا تحبه ، وأن تسمع داعيه ثم لا تجيبه ، وأن تعرف قدر نعمة الله ثم لا تشكره ، وأن تعرف قدر الربح في معاملته ثم تعامل غيره ، وأن تعرف قدر غضبه ثم تتعرض له بمعصيته ، وأن تذوق ألم الوحشة في معصيته ثم لا تطلب الأنس بطاعته .

وأعجب من هذا علمك بأنك راجع إليه حامل أوزارك بين يديه ، ومعروضة أعمالك عليه ، فسبحان الله كم لعب الشيطان بعقول كثيرًا من الناس وأفسد حياتهم : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[الأنفال: ٢ - ٤].

وقال الله تعالى: ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[يس: ٣٠]

وقال الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾[المائدة:٧٤] .

نعم الله على العباد ثلاث :

١-نعمٌ حاصلة يعلم بها العبد .

٢-ونعمٌ حاصلة هو فيها لا يشعر بها .

٣-ونعمُ منتظرة يرجوها إما في الدنيا وإما في الآخرة .

قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾[الإسراء:٧٠] .

فإذا أراد الله ﷻ إتمام نعمته على عبده عرفه نعمته الحاضرة ، وأعانه على شكرها حتى لا تشرد ، فإن النعم تقيد بالشكر وتشرد بالمعصية : ﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾[البقرة:١٥٢] .

ووفقه سبحانه لعملٍ يستجلب به النعمة المنتظرة ، وبصره لاجتناب الطرق التي تسدها وتمنع وصولها : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾[البقرة:١٧٢] .

وعرفه النعمة التي هو فيها ولا يشعر بها ليشكر ربه عليها ، والله ﷻ أعطى ما شاء من خلقه من النعم المادية ، كالمُلك أو المال أو الجاه أو الأشياء أو القوة لينظر من يستخدمها كما أمر الله ، ومن يضحي بها من أجل الدين ، ومن يستعملها في طاعة الله وفي إعلاء كلمة الله ومن يشكره ويحمده عليها ويستعين بها على طاعة الله :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾[المؤمنون:٥١] .

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحجرات:١٥] .

وليعلم سبحانه من يستعمل هذه النعم في معصية الله ومن يترك الدين من أجلها ومن يشتغل بها عن المُنعِم بها : ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾[مريم:٥٩] .

وهكذا الأولاد والزوجات والصحة والأمن وسائر النعم، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٥ ﴾[التغابن:١٥] .

فإن تعارضت هذه النعم مع ما يحبه الله ويرضاه من العبادات أو الدعوة إلى الله أو الجهاد في سبيل الله ، تركها من أجل الدين ولا يترك الدين وأعمال الدين من أجلها : ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨٨ ﴾[التوبة:٨٨] .

ونعم الله على العباد لا تُعد ولا تُحصى ؛ لأن الإحصاء إنما يكون لشيء محدود ، ونعم الله لا حد لها وخزائنه مملوءة بكل شيء، كما قال سبحانه : ﴿ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ٢١ ﴾[الحجر:٢١] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ٥٤ ﴾[ص:٥٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ٣٤ ﴾[إبراهيم:٣٤]

وظلم الإنسان له صورتان :

إما بأخذ حق الغير

أو الحكم للغير بحقٍ ليس له .

- **وكفر الإنسان بالنعم له صورتان :**

١-إما بسترها وعدم البحث عنها في خبايا الأرض وذلك هو الكسل أو نسبتها إلى غير المُنعِم بها أو الاستهانة بها وعدم شكرها أو صرفها في ما لا يجوز في محرمات أو معاصي أو إسراف أو تبذير .

٢-وإما أن يستنبطها ويتملكها ويحجزها على الغير ، فذلك هو الظلم : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [آل عمران:٥٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الجمعة:٩-١٠] .

وكل إنسان سوف يحاسب على النعم التي أنعم الله بها عليه ، ويسأل عن شكرها وعن استعمالها في ما خلقت له ، وعن صرفها فيما يرضي الله ، وعن أداء حق الله فيها : ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾ [التكاثر:٨] .

وقال الله تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الحجر:٩٢-٩٣] .

٢- الخزانة الثانية

- **أنعم الله على الخلق بنوعين من الرزق :**

أحدهما : رزق الأبدان من الطعام والشراب وسائر الأموال والأشياء .

الثاني : رزق القلوب من الإيمان والتوحيد والأعمال الصالحة ، وفوت سبحانه بين عباده في قسمة هذين الرزقين ، بحسب علمه وحكمته ومعرفته بأحوال عباده ، ومن يصلح لهذا ومن يصلح لهذا ومن يصلح لهما معًا .

وقد قسم الله ﷻ الأرزاق بين العباد كمية ونوعية ومكانًا وزمانًا ، فكل أحدٍ سيأخذ رزقه : ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦ ﴾[هود:٦]

وقد قسمها الله بين الخلق بعلمه جل جلاله : ﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٦٢ ﴾[العنكبوت:٦٢] .

فمن الخلق من وفر حظه من الرزقين ووسع عليه فيهما ، ومنهم من قطر عليه في الرزقين ، ومنهم من وسع عليه رزق القلب وقطر عليه رزق البدن ، ومنهم من وسع عليه رزق البدن وقطر عليه رزق القلب ، وهذا الرزق بنوعيه إنما يتم ويبقى ويزيد بالشكر ، وترك الشكر سبب زواله وانقطاعه عن العبد : ﴿ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ٧ ﴾[إبراهيم:٧] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٧٢ ﴾[التوبة:٧٢] .

وقال الله تعالى: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾[النحل:١١٤]

والنعم كلها من الله وحده ، نعم الطاعات ونعم اللذات ، فعلى العبد أن يرغب إلى الله أن يلهمه ذكرها ويوزعه شكرها ، كما قال سبحانه : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾[الأحقاف:١٥] .

وكما أن النعم منه سبحانه ومن مجرد فضله فذكرها وشكرها لا يُنال إلا بتوفيقه وعونه ، والذنوب من خذلانه وتخليه عن عبده .

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾[النحل:٥٣] .

وقد أنعم الله ﷻ على كل عبدًا بنعمٍ لا تُعد ولا تُحصى وهي نوعان :

نعمٌ خاصة .

ونعمٌ عامة .

فالخاصة : ما أنعم الله به على المسلم من الإيمان في القلب ، والطاعة في الجوارح وحسن الخلق .

قال الله تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾[الحجرات:١٧] .

أما النعم العامة فهي قسمان :

١-نعمٌ متصلة بالإنسان .

كالسمع والبصر والعقل واللسان والعافية وسائر الجوارح والمنافع .

٢-ونعمٌ منفصلة .

وهي الأموال والأشياء والزوجات والأولاد فالأولى خاصة بالمسلمين ، والثانية عامة للمسلمين وغيرهم ، وأرزاق الدنيا تكفل الله بها لجميع خلقه ، كما قال سبحانه : ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦ ﴾ [هود:٦]

أما أرزاق الآخرة فلابد لها من العمل ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقٗا ١١ ﴾ [الطلاق:١١] .

والرزق يطلب الإنسان في الدنيا عمل أو لم يعمل كما يطلبه أجله مهما هرب منه ، وسيأخذ العبد رزقه المقدر له في كميته ونوعيته ومكانه وزمانه .

قال الله تعالى: ﴿ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٣٢ ﴾ [الزخرف:٣٢] .

فلن تموت نفسٌ حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ، فإذا كان يقين العبد على الله أخذه بعزة ، وإن كان يقينه على المخلوق أخذه بذلة ، فسبحان من قدر الأرزاق والآجال والأحوال والأنفاس والأعمال .

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ٤٩ وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ٥٠ ﴾ [القمر:٤٩-٥٠] .

وقال الله تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك:١٣-١٤] .

الله ﷻ هو الرزاق ذو القوة المتين ، يُنعم على المؤمن والكافر وعلى المطيع والعاصي وعلى البر والفاجر ، وعلى كل ما في الكون ؛ لأنه وحده خالق الأرزاق ورازقها وموصلها إلى المرزوقين : ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود:٦] .

فالنعمة للمؤمنين تكون برضا الله تعالى والنعمة للعصاة والكفار تكون من غضب الله تعالى ، وكلٌ مسئولٌ عن هذه النعم ، وكذلك المصائب تكون على المؤمنين والمطيعين برضا الله تعالى ابتلاءًا وامتحانًا وتكفيرًا للسيئات ورفعة في الدرجات:﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [التوبة:٥١] .

وقال الله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ [النساء:١٢٣] .

والمصائب على الكفار تكون من غضب الله تعالى ، وبعدها الهلاك وهي لازمة لهم لا تنفك عنهم حتى يأتي وعد الله ، كما قال سبحانه : ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾ [الرعد:٣١] .

وهذا من رحمة الله لعل النعم تذكرهم به، ولعل العقوبات تخوفهم من عقابه.

والنعمة لأهل الإيمان والطاعات كالطعام الذي يوضع في قفص البلابل ، والنعمة لأهل الكفر والمعاصي كالطعام في قفص الفئران ليست بسبب الرضا بل للبطش والهلاك، كما قال سبحانه : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾[الأنعام:٤٤-٤٥] .

فالنعمة الأولى : تقدم للناس بالفرح والسرور ثوابًا وإكرامًا لأهل الإيمان والطاعة ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ ﴾[الكهف:١٠٧-١٠٨] .

النعمة الثانية : تقدم بالغضب والبطش، كما قال سبحانه : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾[التوبة:٥٥] .

وقال الله تعالى:﴿ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ ﴾[القلم:٤٤-٤٥] .

وقال الله تعالى:﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾[المؤمنون:٥٥-٥٦] .

والمصيبة على الكفار والعصاة كالسكين بيد الغضبان ، والمصيبة على أهل المن والطاعات كالسكين للعملية الجراحية يكون بعدها الشفاء.

قال الله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ

﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧] .

السكين بالغضب يكون بها الموت ، والسكين بالرضا يكون بعدها الشفاء ، ومثال سكين الغضب :﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[الأنعام:٤٤] .

ومثال سكين الرضا : ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾[البقرة:١٥٥-١٥٧] .

- **ونعم الله ﷻ على عباده ثلاثة درجات :**

الأولى : نعمة الإيجاد .

فالله وحده هو الذي أوجد المخلوقات كلها : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾[الزمر:٦٢-٦٦] .

الثانية : نعمة الإمداد .

فبعد إيجاد الخلق أمدهم الله بأرزاقهم فردًا فَردًا ، وجيلًا بعد جيل .

قال الله تعالى : ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٦﴾ ﴾[هود:٦]

الثالثة : نعمة الهداية للإسلام .

وهذه خاصة بالإنس والجن : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨] .

وقال الله تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحجرات:١٧] .

فأرسل الله الرسل إلى الجن والإنس يدعونهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ؛ ليسعدوا في الدنيا والآخرة فمن قبل النعمة نجا وسعد في الدنيا والآخرة ، ومن ردها هلك وشقي في الدنيا والآخرة :﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [البقرة:٣٨-٣٩] .

٣- الخزانة الثالثة

الله ﷻ هو الملك الغني الكريم المنان الذي من على خلقه بكل نعمة على أبدانهم وقلوبهم ، والمنة تكدر النعمة وهذه منة المخلوق على المخلوق ، وإنما قبحت منة المخلوق لأنها منة بما ليس منه وهي منة يتأذى بها الممنون عليه وهي مذمومة مبطلة للثواب، كما قال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ ﴾[البقرة:٢٦٤] .

أما منة الخالق على المخلوق فبها تمام النعمة ولذتها وطيبها وحُسنها، كما قال سبحانه : ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٦٤﴾[البقرة / ١٦٤] .

وهل المنة كل المنة إلا لله المان بفضله والذي جميع الخلائق من مننه ، وفي مننه وما طاب العيش إلا بمنته سبحانه : ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾[المائدة:٣] .

وكل نعمة في الدنيا والآخرة فهي منة يمن بها الله ﷻ على من أنعم عليه ودخول الجنة برحمة الله وفضله ، وذلك محض منته على أهل طاعته ، فلا يدخل أحد الجنة بعمله ولكن بفضل الله ورحمته ؛ ولكن الإيمان والطاعات سببٌ لدخول الجنة ، فهو سبحانه الغني الكريم المنان بإرسال رسله وإنزال كتبه والتوفيق لطاعته والإعانة عليها والمن بالجزاء عليها ، فلا يدخل أحد الجنة بعمله وإنما برحمة الله وفضله .

ولكن الأعمال سبب وهو المان سبحانه في رفعة الدرجات ومضاعفة الحسنات وتكفير السيئات ، وهو المان بكل نعمة وبكل رحمة وبكل إحسان وبكل هداية ، ولا منة لأحد على الله بل لله المنة على خلقه بنعمه التي لا تُعد ولا تحُصى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾[النحل:٥٣] .

وإنعام الله على عباده يتضمن إنعامه بكل ما يحتاجون إليه في حياتهم ، من طعامٍ وشرابٍ ومالًا ونحو ذلك وإنعامه بالهداية التي هي الإيمان ، والعلم النافع ، والعمل الصالح ، وإنعامه بحسن الثواب والجزاء يوم القيامة ، فهذا تمام النعمة، كما قال سبحانه : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ ﴾[المائدة:٣] .

والنعمة نعمتان :

نعمة مطلقة . . ونعمة مقيدة .

فالنعمة المطلقة : هي المتصلة بسعادة الأبد وهي الإسلام وهي خاصة بالمؤمنين ، وهي معروضة على سائر البشر وحقٌ لهم جميعًا فمنهم من قبلها وهم المؤمنون فأورثهم سعادة الأبد .

قال الله تعالى:﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[الأنفال: ٢ - ٤].

ومنهم من ردها وبدلها فأورثهم ذلك شقاوة الأبد ، وهؤلاء بمنزلة من أُعطي مالًا ليعيش به فرماه في البحر فعاقبه فعله الندامة والخسران والهلاك فما أعجب حال هؤلاء وما أشد عقوبتهم إذا قدموا على ربهم :﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ

إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾[إبراهيم:٢٨-٣٠] .

ونعمة الإسلام هي النعمة الكبرى التي يفرح بها المؤمنون، كما قال سبحانه : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يونس:٥٨] .

أما النعمة الثانية فهي النعمة المقيدة :

وهذه النعمة مشتركة بين المؤمن والكافر ، والبر والفاجر بأشكالها وأنواعها كنعمة الصحة والغنى والأمن والرخاء ، ونعمة الزوجة والولد ونحو ذلك .

وأفضل النعمتين ، نعمة الإيمان وما يصيب الإنسان إن كان يسره فهو نعمة بينة ، وإن كان يسوؤه فهو من جهة أنه يكفر خطاياه ويثاب بالصبر عليه ، ومن جهله أن فيه حكمة ورحمة هو لا يعلمها ، وهاتان النعمتان تحتاجان مع الشكر إلى الصبر: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[الروم:٦٠]

وقال الله تعالى:﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾[العصر:١-٣].

أما نعمة الضراء فاحتياجها إلى نعمة الصبر ظاهر ، وأما نعمة السراء فتحتاج إلى الصبر على الطاعة فيها ومعها فإن فتنة السراء أعظم من فتنة الضراء .

قال الله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾[العلق:٦-٧] .

والعبد مأجورٌ في كلتا الحالتين كما قال النبي ﷺ : « عَجَبًا لأمرِ المؤمنِ إِنَّ أَمْرَه كُلَّهُ لهُ خَيرٌ وليسَ ذلكَ لأحَدٍ إلا للمُؤْمنِ إِنْ أَصَابتهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فكانتْ خَيرًا لهُ وإنْ أَصَابتهُ ضَرَّاءُ صَبرَ فكانتْ خَيرًا له »أخرجه مسلم[1] .

محبة النعم ومحبة المُنعِم بينهما كما بين المشرق والمغرب ، فالمؤمن عند النعم يذكر المُنعِم ويتوجه إليه بالعبودية بالذكر والحمد والشكر ، فهو في الدنيا يرى النعمة ويعبد المُنعِم ، ويوم القيامة يجلس على النعمة ويرى المُنعِم : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾[القيامة:٢٢ -٢٣] .

والكافر يشتغل بالنعم عن المُنعِم لأنه يعرف قدر النعم ولا يعرف قدر المُنعِم ، ولو أن ملكًا عظيمًا أهدى لأحد الناس جوهرة نفيسة مثلًا ، فإنه سيكون لها نوعان من المحبة وسيتلذذ بها شكلين من اللذة :

الأولى : المحبة التي تعود إلى أصل الجوهرة من حيث جمالها وحجمها وقيمتها والتلذذ بحُسنها وهي لذة جزئية إلى زوال .

الثانية : محبة للتكرمة السلطانية التي ظهرت بالجوهرة التي خصه بها ، فهي ثناءٌ مجسم من السلطان لهذا الإنسان : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾[البقرة:١٥٢] .

وهكذا الإنسان إذا وجه محبته إلى النعم والأموال بالذات ، فتلك محبة نفسانية زائلة مؤلمة ، أما إذا كانت المحبة متوجهة إلى جهة التكرمة الربانية له فهي شكر معنوي ولذة تورث كل سعادة :﴿ مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾[النساء:١٤٧] .

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٦٤/ ٢٩٩٩).

وإذا أنعم الله على إنسان بنعمة حفظها عليه ولا يغيرها عليه ، حتى يكون هو الساعي في تغييرها عن نفسه بمعصية المُنعِم بها : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ١١﴾ [الرعد:١١] .

وكل من زالت عنهم النعم من الأمم الماضية إنما هو بسبب مخالفة أوامر الله ومعصية رسله : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٥٣﴾ [الأنفال:٥٣] .

فما حُفظت نعمة الله بشيء مثل طاعته ولا حصلت فيه الزيادة بمثل شكره ، ولا زالت عن العبد بمثل معصيته لربه فالمعاصي نار النعم التي تعمل فيها ، كما تعمل النار في الحطب اليابس : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب: ٧١] .

والله ﷻ هو الرزاق الذي يرزق المخلوقات جميعًا ، وما من مؤمنٍ ولا فاجرٍ إلا وقد كتب الله له رزقه من الحلال فإن صبر حتى يأتيه وطلبه بوجوه الحلال أتاه تجاه ربه حلالًا ، وإن جزع فتناول شيئًا من الحرام نقصه الله من رزقه الحلال .

والله على كل شيء قدير وهو الحكيم العليم قسم جميع أرزاق الخلائق وجميع الدواب ، وجميع ما في البر والبحر من الحيوانات والدواب والحشرات والطيور والإنس والجن وغيرهم مما لا يعلمه إلا الله ، وأوصلها إلى المخلوقين

قسم سبحانه رزق كل مخلوق ، من حيث الكمية والنوعية ومن حيث الزمان والمكان ، فقدر سبحانه رزق كل مخلوق فلا يزيد وقدر نوع الأرزاق فلا تتغير وقدر وقت الأرزاق فلا تتقدم ولا تتأخر .

وقدر مكان الأرزاق فلا تتغير ولا تتبدل ، فمن قُطع له رزقه في بلد لم يأخذه إلا من ذلك البلد ، ومن قُطع له رزقه في وقت فلن يأخذه إلا في ذلك الوقت : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾[الأعراف:٥٤] .

والرزق يطلب الإنسان كما يطلبه أجله ، ولن تموت نفسٌ حتى تستكمل رزقها وأجلها وأثرها وعملها ولابد لكل مخلوقٍ من الرزق ، وقد تكفل الله الرزاق بأرزاق الخلق كلهم ، وكل ما يتناول الإنسان من الحلال والحرام داخلٌ في هذا الرزق ، فالكفار قد يرزقون بأسباب محرمة ويرزقون رزقًا حسنًا وقد لا يرزقون إلا بتكلف ، والمؤمنون يرزقهم الله بالأسباب المشروعة ويرزقهم من حيث لا يحتسبون، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾[الطلاق:٢-٣] .

ولا يكون رزقهم بالأسباب المحرمة ، ولا يكون خبيثًا والله يرزق المؤمن ما يحتاج إليه ويحميه من ظهور الدنيا رحمةً به وإحسانًا إليه وصيانةً له :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ ﴾[البقرة:١٦٨] .

٤- الخزانة الرابعة

الغنى ليس دليلًا على إكرام الله للعبد ، وكذلك الفقر ليس دليلًا على إهانة الله للعبد : ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ ﴾[الفجر:١٥-٢٠] .

فقد يوسع الله الرزق على العبد إملاءً واستدراجًا وقد يقدر عليه رزقه حمايةً له وصيانة ، وقد يضيق الله على بعض المؤمنين لما لهم من الذنوب فيُحرم الرزق بالذنب الذي يصيبه ، فالطاعات سبب للرزق والراحة ، والمعاصي سببٌ للحرمان والمصائب ، والإنسان مكينة الأعمال كالشجرة مكينة الثمار خلقه الله متفكرًا عاملًا متحركًا .

فإن اجتهد على الأموال والأشياء والمشاهدات تخدر قلبه عن الغيبيات وثقلت عليه الطاعات فأرتكب المحرمات ، وترك الطاعات واشتغل بما قسم الله له عن ما وعده الله به وما أمره الله به وهو الإيمان والتقوى والجنة التي وعدها الله إياه : ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾[التوبة:٧٢] .

وإن اجتهد هذا الإنسان على الإيمان والأعمال الصالحة ، تخدر قلبه عن المشاهدات وأقبل على ربه اشتغل بالطاعات ، واجتنب المحرمات واشتغل بما وعده الله به عن ما قسمه الله له من الرزق .

وفي هذه الحياة الدنيا متاع جذابٌ براق ، وهناك أولادٌ وأرزاق وشهوات ولذائذ وجاه وسلطان ، وهناك نعم أتاها الله لعباده في الأرض تلطفًا منه وهبة خالصة لم يعلقها بطاعة ولا معصية ولا إيمانًا ولا كفر ، وإن كان يبارك للطائع ولو في القليل ، ويمحق البركة من العاصي ولو كان في يده الكثير : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الرحمن:٧٨] .

ولكن مع هذا ؛ ولكن هذا كله ليس له قيمة ثابتة باقية وإنما هو متاع زائل محدود الأجل : ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [العنكبوت:٦٤] .

وقال الله تعالى: ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾ [النساء:٧٧] .

فهذه الأموال لا تُعد بذاتها دليل كرامة عند الله أو مهانة ، ولا يعتبر بذاته علامة رضًا من الله أو غضب .

قال الله تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المؤمنون:٥٥-٥٦] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنبياء:٣٥] .

إنما هو متاع وما عند الله خير وأبقى خيرٌ في ذاته وأبقى في مدته ، ومتاع الحياة الدنيا زهيد معدود الأيام وهو بالنسبة لنعيم يوم القيامة غمضة عين أو تكاد : ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الشورى:٣٦] .

والرزق نوعان :

أحدهما : ما علم الله وقدر أنه يرزقه لعبده ، فهذا لا يتغير ولا يزيد ولا ينقص فلكل إنسان رزقه المقدر .

الثاني : ما كتبه الله وأعلم به الملائكة فهذا يزيد وينقص بحسب الأسباب التي قدرها الله ، فإذا كان الله قد قدر أنه يرزق العبد بسعيه واكتسابه ألهمه السعي والاكتساب ، وما قدره الله من الرزق بغير اكتساب ولا سعي كالميراث والهبات والصدقات والوصايا يأتيه بغير اكتسابٍ ولاسعي .

والرزق يراد به شيئان :

أحدهما : ما ينتفع به العبد .

والثاني : ما يملكه العبد من الحلال .

فالأول هو المذكور بقوله : ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦ ﴾ [هود:٦]

والثاني وهو المذكور في قوله : ﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠ ﴾ [المنافقون: ١٠] .

والعبد قد يأكل الحلال والحرام فهو رزقٌ بهذا الاعتبار ، لا بالاعتبار الثاني وما اكتسبه ولم ينتفع به هو رزقٌ بالاعتبار الثاني دون الأول ، ومن سرق أو أكل الحرام فليس هذا من الرزق الذي أباحه الله له ؛ ولكن هذا الرزق الذي سبق به علم الله وقدره وسوف يحاسب عليه من فعله: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٢ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٣ ﴾ [الحجر:٩٢-٩٣] .

فكما أن الله كتب ما يعمله العبد من خير وشر وهو يثيبه على الخير ويعاقبه على الشر ، فكذلك كتب ما يرزقه من حلالٍ وحرام مع أنه يعاقبه على

الرزق الحرام فكل شيء واقعًا بمشيئة الله وقدره وإذنه وعلمه ، والرزق الذي ضمنه الله لعباده هو لمن يتقيه بأن يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ۝٣ ﴾[الطلاق:٢-٣] .

ومن ليس من المتقين ضمن له ما يناسبه بأن يمنحه ما يعيش به في الدنيا على تفاوتٌ بين هؤلاء ، ثم يعاقبه في الآخرة :﴿ ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ ﴾[التكاثر:٨] .

الله ﷻ هو الملك الحق الذي له مُلك كل شيء : ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝١ ﴾[الملك: ١] .

فجميع الأرزاق مُلكه ، والله ﷻ أباح الرزق لمن يستعين به على طاعته ولم يبحه لمن يستعين به على معصيته ، ولذلك كانت أموال الكفار غير مغصوبة ، بل مباحة للمؤمنين وتسمى فيئًا إذا عادت إلى المؤمنين ؛ لأن الأموال إنما يستحقها من يطيع الله بها لا من يعصيه ، كما قال إبراهيم : ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝١٢٦ ﴾[البقرة:١٢٦] .

وقال الله تعالى: ﴿ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣٢ ﴾[الأعراف: ٣٢] .

ولما كان مقصود يا أولي الألباب لقاء الله تعالى في دار الثواب ، ولا طريق للوصول إلى ذلك إلا بالعلم والعمل ، ولا تمكن المواظبة عليهما إلا بسلامة البدن ولا تصفو سلامة البدن إلا بالأطعمة والأقوات والتناول منها بقدر الحاجة ومن هنا كان الأكل من الدين ، كما قال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١ ﴾[المؤمنون:٥١] .

فيأكل المرء مقتصدًا بسنة ولا يسترسل في الأكل استرسال البهائم في المراعي ، ويأكل من نعم الله ويشكره عليها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢ ﴾ [البقرة:١٧٢] .

فالله سبحانه أكرم الإنسان بين المخلوقات وشرف المسلم وأكرمه بالدين على سائر البشر : ﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩ ﴾ [آل عمران:١٣٩] .

وسخر له ما في السماوات وما في الأرض وأنعم عليه بنعمٍ لا تُعد ولا تُحصى ، وأباح له جميع الطيبات وحرم عليه الخبائث وخلقه وهداه واشتراه وأكرمه بمنهجٍ يسير عليه وهداه الطريق الموصل إليه ، وله بعد موته الجنة والرضا من ربه فله الحمد والمنة على نعمه الظاهرة والباطنة ، وعلى إحسانه في الدنيا والآخرة :﴿ أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٢٠ ﴾[لقمان:٢٠] .

وكل ما عند أهل السماء من النعم ، وكل ما عند أهل الأرض من النعم ، وكل ما في الجنات من النعم كل ذلك بالنسبة لما في خزائن الله من النعم

قطرة من بحر وذرة من جبل :﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾[الحجر:٢١] .

وقال ﷻ في الحديث القدسي : « يا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ »أخرجه مسلم(١) .

وما في الدنيا من النعم وما في الآخرة من النعم لا يساوي ذرة بالنسبة لما في علم الله ﷻ : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[النحل:٧٧] .

فسبحانك ما أعظمك وسبحانك ما أكرمك وسبحانك ما أرحمك تفعل ما تشاء وأنت على كل شيء قدير :﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾[الأنعام:١٠٢] .

وقال سبحانه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ ﴾[الحج:٦٥] .

تبارك اسمك الذي بثت فيه أرزاق العباد فوجدت ووضعته على الأرض فاستقرت : ﴿ تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾[الرحمن:٧٨] .

وتبارك اسمك الذي وضعته على السماوات فاستقلت ، وعلى الجبال فرست وعلى الرياح فتحركت ، وعلى النهار فاستنار ، وعلى الليل فأظلم وعلى الشمس فأشرقت وعلى الأرض فأنبتت ، وعلى الإنسان فتكلم وعلى العين فأبصرت وعلى الأذن فسمعت ، وعلى المريض فشفي ، وعلى الجاهل فعلم : ﴿ تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾[الرحمن:٧٨] .

---

(١) أخرجه مسلم برقم : (٥٥/ ٢٥٧٧) .

سبحانك أنت الكريم الرحمن وأنت القوي العزيز وأنت الخلاق العليم ، كم وحيًا أوحيته إلى أنبيائك ورسلك رحمةً بعبادك ؟ وكم قضاءً قضيته وكم رزقًا أنزلته وكم ضالًا هديته وكم فقيرًا أغنيته ؟ وكم مريضًا شفيته ؟ وكم سائلًا أعطيته ؟ وكم ذنبًا غفرته وكم همًا فرجته ؟ وكم كربًا نفذته ؟ وكم عسيرًا يسرته ؟ وكم داعيًا أجبته ؟ .

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [غافر:٦٠] .

فلك الحمد والشكر كثيرًا كما تنعم كثيرًا وكما ترحم كثيرًا ، ولك الحمد والشكر حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت ولك الحمد بعد الرضا ، ولك الحمد في الآخرة والأولى ، خلقتنا ورزقتنا وهديتنا وعافيتنا ورحمتنا وأكرمتنا :﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الجاثية:٣٦-٣٧] .

« اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ مِلْءُ السَّمَاوَاتِ وَمِلْءُ الْأَرْضِ وَمِلْءُ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالمَجْدِ أَحَقُّ مَا قَالَ العَبْدُ وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ ، لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ وَلَا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدّ »أخرجه مسلم[1] .

(١) أخرجه مسلم برقم: (٢٠٥/ ٤٧٧).

٥- الخزانة الخامسة

ما أعظم نعم الله على عباده في دنياهم ودينهم وأخراهم ، وما أرأفه بهم وما أشد عنايته بأمورهم وما ألطف تدبيره لما يصلحهم : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾[البقرة:١٤٣] .

لقد خلقك الله أيها الإنسان في أحسن تقويم ورزقك وعافاك وهداك وعصم عرضك بإيجاب الحد بقذفك ، وعصم مالك بقطع يد من سرقه ، وأباح لك الميتة عند الضرورة سدًا لرمقك وزجرك عن ما يضرك بحدٍ عاجل ووعيد آجل لسلامتك وسعادتك ، وأسقط شطر الصلاة في السفر عنك رحمةً بك : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ ﴾[التين:٤-٦] .

وأنزل الله عليك الكتب وأرسل إليك الرسل وأطعمك وسقاك وألبسك وكساك وأسكنك الديار ، وأركبك المراكب ورزقك الأموال والأولاد ، وزودك بالسمع والبصر والعقل وأمرك بالعمل الصالح ، ووعدك على ذلك الجنة : ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾[الإسراء:٧٠] .

وقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ ﴾[الحج:٧٧] .

وقال الله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾[النحل:٩٧] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾[التوبة:٧٢] .

أما يليق بهذا المُنعِم العظيم الذي هذه بعض نعمه عليك أن توقره وتعظم شعائره ، وتطيع أوامره وتجتنب زواجره وتحَذر من عدوه : ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾[يونس: ٣٢].

أيحسن بك أيها الإنسان مع هذا الإكرام العظيم من ربك العظيم ، أن يراك على ما نهاك عنه مقبلًا ولما أمرك به تاركًا وعن داعيه معرضاً ولداعي عدوه مطيعًا : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ ﴾[البقرة:٢٠٨] .

ما أعظم تلاعب الشيطان بالإنسان وما أشد عداوته للإنسان : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾[فاطر:٦].

بينما هذا الإنسان بحضرة الحق والملائكة سجود له تترامى به الأحوال والجهالات إلى أن يطيع الشيطان ويوجد مع البهائم عاكفًا على شهواته ، أو يوجد ساجدًا لصورة في حجر ، أو لشجرة من الشجر أو لشمسٍ أو قمر أو لحيوانٍ أو بشر: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾[يس:٦٠:٦١].

وقال سبحانه:﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾[البقرة:٣٤] .

لا يليق بهذا الحي الكريم الفاضل على جميع الحيوانات الذي خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته ، أن يرى إلا عابدًا لله في دار التكليف ومجاورًا له في دار الجزاء والتشريف ، ومابين ذلك فهو واضعٌ

نفسه في غير موضعها : ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ ﴾ [المائدة:٧٦] .

وقال سبحانه: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٠-٥١] .

إن الله تبارك وتعالى يبتلي عباده بالسراء والضراء والخير والشر والرخاء والشدة ، فالرخاء ابتلاءٌ من الله وفتنة ، والشدة كذلك ابتلاءٌ من الله وفتنة ، والصبر على الرخاء أشق من الصبر على الشدة : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنبياء:٣٥] .

وكثيرٌ من الناس يصبرون على الشدة ويتماسكون لها ، وأما الرخاء فينسي ويلهي ويهيئ الفرصة للغرور بالنعمة والاستنامة للشيطان وهوى النفس والإعراض عن الرحمن: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾ [العلق:٦-٧] .

فنعمة المال ، كثيرًا ما تعود إلى فتنة البطر وقلة الشكر مع السرف أو البخل وكلاهما آفة للنفس والحياة .

ونعمة القوة ، كثيرًا ما تقود إلى البطر وقلة الشكر مع الطغيان والجور والتطاول بالقوة على الحق وعلى الناس والتهجم على حرمات الله .

ونعمة الجمال ، كثيرًا ما تقود إلى فتنة الخيلاء والتيه والغرور والتردي في مدارك الإثم والغواية .

ونعمة الذكاء ، كثيرًا ما تقود إلى فتنة الغرور والاستخفاف بالآخرين ، وما تكاد تخلو نعمة من الفتنة إلا من ذكر الله فعصمه الله .

الرزق في الدنيا والآخرة :

الرزق في الدنيا محدودٌ يناسب حياة الإنسان المحدودة ، فكل ما رزقه الله لعباده في الدنيا فهو مقيدًا محدودٌ محسوب لما يعلمه الله من أن هؤلاء البشر لا يطيقون في الأرض أن يفتح عليهم فيض الله غير المحدود ، ولما يحُدثه من البغي في الأرض كما قال سبحانه : ﴿ ۞ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٢٧ ﴾[الشورى:٢٧] .

أما فضل الله في الآخرة فهو مطلقٌ بلا حساب ولا حدود ولا قيود ولا جهود ، يكرم الله به أهل طاعته كما قال سبحانه : ﴿ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٤٠ ﴾[غافر:٤٠] .

وكل ذرة وكل حشرة وكل طائر وكل حيوان وكل إنسان ، وكل أمة في البر أو في البحر ، كل مخلوق من هؤلاء سيصل إليه رزقه ، فما دام الأجل باقيًا كان الرزق آتيًا لا محالة : ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦ ﴾[هود:٦]

فإن سد الله عليك بحكمته طريقاً فتح لك برحمته طريقاً أنفع لك منه ، وتأمل حال الجنين في بطن أمه يأتيه غذاءه وهو الدم من طريقٍ واحدة وهو السرة ، فإذا خرج من بطن الأم وانقطعت تلك الطريق ، فتح الله له طريقين هما ثديي الأم لبناً خالصاً ، فإذا تمت مدة الرضاع وانقطع الطريقان بالفطام فتح له مولاه طرقاً أربعة أكمل منها طعامان من النبات والحيوان ، وشرابان من المياه والألبان .

فإذا مات الإنسان انقطعت عنه هذه الطرق الأربعة وفتحت له إن كان سعيداً طرقاً ثمانية وهي أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء ، وهكذا الله ﷻ الكريم المنان لا يمنع عبده المؤمن شيئاً من الدنيا إلا ويؤتيه أفضل منه وأنفع له وليس ذلك إلا للمؤمن .

والله سبحانه حكيمٌ عليم قسم الأرزاق بين عباده بالسوية، ونعم الله ظاهرة وباطنة، ومن الناس من لا يرى إلا النعم الظاهرة ، ويغفل عن النعم الباطنة، وبعض الناس يرى أنه ينبغي أن يُعطى فوق ما هو فيه، ويرى أنه مظلومٌ مع الرب لا ينصفه ولا يعطيه مرتبته، وأنه ينبغي أن ينال الثريا ولكنه مظلومٌ مبخوس الحظ.

وهذا الدرب من الخلق من أبغض الخلق إلى الله وأشدهم مقتاً عنده لا يذكرون إلا ما ينبغي لهم ولا يذكرون ما يجب عليهم لله وخلقه : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴿٣٤﴾ ﴾[إبراهيم:٣٤] وحكمة الله ﷻ تقتضي أن هؤلاء لا يزالون في سفال ، فهم بين عتب على الخالق ، وشكوى له وذلٍ لخلقه وحاجه إليهم وخدمة لهم .

أشغل الناس قلوباً بأرباب الولايات والمناصب ينتظرون ما يقدمون به إليهم من عظامهم وغسالة أيديهم ، وأفزع الناس قلوباً عن معاملة الله والانقطاع إليه والتلذذ بمناجاته والطمأنينة بذكره والافتقار إليه وبث الشكوى له : ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٤﴾ ﴾ [المائدة:٧٤] .

وليس لأحدً حجةٌ على الله بل لله الحجة على الناس جميعاً ، فقد خلقنا وأعطانا المكان وأعطانا الزمان وأعطانا العقل وأعطانا السمع والبصر ، وأرسل إلينا رسله وأنزل علينا كتبه ، وارزقنا من الطيبات ، وهدانا للإسلام

وما جعل علينا في الدين من حرج ، ووعدنا بعد الموت الجنة في الآخرة ، فهل فوق هذا من عطاء وهل بعد هذا من إكرام .

فماذا عملنا ؟ وماذا قدمنا ؟ وماذا أخرنا ؟ وبماذا نواجه ربنا إذا لقيناه ؟ .

قال الله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الحديد:١٦] .

وقال سبحانه: ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم:٣٤]

ونعمُ الله سبحانه على عباده لا يحصيها أحد ، والاستعانة بها على طاعته هو ما يقتضيه الشرع والعقل ، فإن من أحسن إليك بشيء لا يجوز لك أن تقابله بالإساءة إليه ، ومن فعل ذلك من الناس فهو في نظرهم وقحٌ ناكرًا للجميل وجاحدًا له ، فكيف إذا استعان بإحسانه على الإساءة إليه هو أشد وقاحة وجحوداً بالجميل .

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [البقرة:١٧٢] .

٦- الخزانة السادسة

النعم إنما خلقها الله ﷻ ليدل على عظيم كرمه وإنعامه وإحسانه إلى عباده ، وليستعين بها أهل الإيمان على طاعة الرحمن : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٥١﴾ ﴾ [المؤمنون:٥١] .

وأما أهل الكفر والفجور فإن النعم محرمة عليهم لأنهم يستعينون بها على معصية الله ، وهم محاسبون عليها يوم القيامة : ﴿ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأعراف: ٣٢] .

وقال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾ [التكاثر:٨] .

وفي كل جارحة من جوارح الإنسان نعمة ، وعلى كل جارحة عبودية تخصها ، وعلى كل جارحة شكرٌ يخصها ، وعلى اللسان من ذلك ما على سائر الجوارح ، وشكر كل جارحة إنما هو باستعمالها بتقوى الله ، بامتثال ما يخصها من الطاعات واجتناب ما يخصها من المعاصي .

فشكر البدن ألا تستعمل جوارحه في غير طاعة الله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الحج:٧٧] .

وشكر القلب ألا تشغله بغير ذكر الله ومعرفته : ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴿١٩﴾ ﴾ [محمد: ١٩] .

وقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأحزاب:٤١-٤٢] .

وشكر اللسان ألا تستعمله في غير الثناء على الله ومدحه ، وذكره وسؤاله وتلاوة كتابه والدعوة إلى دينه وتعليم أحكام شرعه والإصلاح بين عباده : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾[فصلت:٣٣].

وقال الله تعالى: ﴿ كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾[آل عمران:٧٩] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [البقرة:١٩٥] .

وقال الله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[فاطر:١] .

وقال الله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾[الأنعام: ١] .

وشكر المال ألا تنفقه في غير رضا الله ﷻ ومحبته وطاعته : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴾[البقرة:٢٦٧] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ ﴾[المنافقون: ١٠] .

وكلما كمُلت للعبد معرفة الله ومعرفة آلاءه ونعمه وإحسانه ازداد شكر العبد وثناءه على ربه ، وأعرف الخلق بذلك هو النبي ﷺ : « فقد قام النبي ﷺ

الليل حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ ، فَقِيلَ لَهُ : قَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ، قَالَ : أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا »متفق عليه[1] .

وكل ما خلقه الله عز وجل فيه إحسانٍ إلى عباده يشكر عليه ، وله فيه حكمة تعود إليه يستحق سبحانه أن يُحمد عليها لذاته ، وجميع المخلوقات فيها إحسانٌ وإنعامٌ على عباده تحصل بها هدايتهم ، وتدل على وحدانيته وصدق أنبيائه : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾[الأعراف:٥٤] .

ونعمة السراء والضراء تحتاج مع الشكر إلى الصبر ، أما الضراء فظاهر وأما نعمة السراء فتحتاج إلى الصبر على الطاعة فيها ، لكن لما كان في السراء اللذة وفي الضراء الألم ، اشتهر ذكر الشكر في السراء والصبر في الضراء ، والله منعمٌ بهذا كله وإن كان لا يظهر ابتداءً لأكثر الناس : ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾[النور:١٩] .

وقال الله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾[لقمان:٢٠] .

وذنوب الإنسان من نفسه ، ومع هذا فهي مع حُسن العاقبة نعمة ، وهي نعمة على غيره لما يحصل بها من الاعتبار : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾[البقرة:٢١٦] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٤٨٣٦) واللفظ له، ومسلم برقم: (٧٩/ ٢٨١٩).

الله تبارك وتعالى هو رب العالمين ، وذو فضلٍ على العالمين ، بين سبحانه بكلامه وكلام رسوله جميع ما أمر الله به ، وجميع ما نهي الله عنه ، وجميع ما أحله ، وجميع ما حرمه ، وجميع ما عفا عنه ، وجميع ما يحب ، وجميع ما يكره ، وجميع ما يرضيه ، وجميع ما يسخطه : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾[النحل:٨٩] .

وبهذا كان دينه كاملًا ونعمته تامة ، كما قال سبحانه : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾[المائدة:٣] .

وسعادة الإنسان في الدنيا مبنية على ثلاثة أركان :

الإيمان الله .. والإتباع لرسول الله .. والعافية .

قال الله تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾**﴾[الأنعام:٨٢].

وقال الله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: ١٥٨] .

وقال النبي ﷺ : « نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ : الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ » أخرجه البخاري (١) .

وأوامر الله ﷻ كلها رحمة وإحسان وشفاء ودواء وغذاء للقلوب وزينة للظاهر والباطن ، وحياة للقلب والبدن : ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[الأنعام:١٢٢] .

---

(١) أخرجه البخاري برقم: (٦٤١٢).

وقال الله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [آل عمران:١٣٨] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾[الإسراء:٨٢] .

وما يسميه بعض الناس تكاليف، إنما هو قرة للعيون، وبهجة للنفوس، وحياة للقلوب ، وإحسانًا تام إلى النوع الإنساني أعظم من إحسان الله إليه بالصحة والعافية والطعام والشراب ، وكم في ضمن الإيمان بالله والتعبد له من مسرة وفرحة ولذة وبهجة : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾[يونس:٥٨] .

وقال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾[الرعد:٢٨] .

فنعمته سبحانه على عباده بإرسال الرسل إليهم ، وإنزال الكتب عليهم ، وتعريفهم بأمره ونهيه وما يحبه وما يبغضه ، أعظم النعم وأجلها وأعلاها وأفضلها : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾[الحجرات:١٧] .

بل لا نسبة لرحمة الناس بالشمس والقمر والغيث والنبات والطعام والشراب إلى رحمتهم بالعلم والإيمان والشرائع ومعرفة الحلال والحرام ، ولولا ذلك لكان الناس بمنزلة البهائم يتهارجون في الطرقات ، ويتسافدون تسافد الحيوانات بين الملأ لا يعرفون معروفاً ، ولا ينكرون منكراً ولا يمتنعون عن قبيح ولا يهتدون إلى رشد : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾ [الجمعة: ٢]

فاللهم لك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً ملء السماء وملء الأرض وملء ما شئت من شيءٍ بعد على نعمك العظيمة وآلاءك الجسيمة ، حيث أنزلت علينا أفضل كتبك ، وأرسلت إلينا أفضل رسلك : ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾[الجاثية:٣٦-٣٧] .

والأمكنة والأزمنة التي خفيت فيها آثار النبوة أو ضعفت ، ساد فيها الجهل والظلم والكفر والشرك والرعب والخوف ، وعمت فيه المنكرات والقبائح والفواحش ، فالإسلام غذاءٌ للأصحاء وشفاءٌ للمرضى وعافية للقلوب وزينة للجوارح : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾[آل عمران:٨٥] .

وقال الله تعالى: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ ﴾ [الشعراء:٢١٣] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾[آل عمران: ١٠٣] .

٧- الخزانة السابعة

الفرق بين النعمة والفتنة :

يجب على الإنسان أن يفرق بين النعمة التي يرى بها الإحسان واللطف من ربه ويُعان بها تحصيل سعادته الأبدية ، وبين النعمة التي يرى بها الاستدراج إلى العقوبة والعذاب : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [آل عمران:٧٣] .

وقال الله تعالى:﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾ [البقرة:٢٦٩] .

فكم من مستدرجٍ بالنعم وهو لا يشعر ، مفتونٌ بثناء الجهال عليه ، مغرورٌ بقضاء الله حوائجه ، وستره عليه مع معاصيه ، فإذا كملت هذه الثلاثة فيه ، النعمة والثناء عليه وقضاء حوائجه ، عرف حينئذ أن ما كان من نعم الله عليه يجمعه على الله فهو نعمة حقيقة:﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

وما فرقه عنه وأخذه منه فهو البلاء في صورة النعمة ، والمحنة في صورة المنحة ، فليحذر فإنما هو مستدرجٌ ، كما قال سبحانه : ﴿ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القلم:٤٤-٤٥] .

وقال الله تعالى:﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[الأنعام:٤٤] .

ويميز كذلك بين المنة والحُجة ، فإن العبد بين منة من الله عليه وحُجة من الله عليه ولا ينفك عنهما ، والحكم الديني متضمنٌ لمنة الله وحجته ، كما قال تعالى:﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾[آل عمران:١٦٤] .

وكل علمٍ صحبه عمل يرضى الله ورسوله فهو منة ، وإلا فهو حجة على صاحبه ، وكل قوة ظاهره أو باطنة صحبها تنفيذٌ لأوامر الله فهي منة ، وإلا فهي حجة سيسأل عنها العبد يوم القيامة .

وكل مال ، وكل حال ، وكل طاقة صحبها تأثيرٌ في نصرة دين الله والدعوة إليه فهو منة من الله عليه ، وإلا فهو حجة سيُسأل عنها .

وكل فراغٌ اقترن به اشتغالٌ بما يريد الرب من عبده ، من أنواع العبادة والدعوة وتعليم شرع الله فهو منة على العبد ، وإلا فهو حُجة سيُسأل عنه .

وكل قبولًا في الناس وتعظيم ومحبة له أتصل به خضوع للرب وذل له وانكسارٌ بين يديه ومعرفة بعيب النفس والعمل وبذل النصيحة للخلق فهو منة من الله عليه ، وإلا فهو حجة من الله عليه سيُسأل عنه .

وكل موعظة وتذكيرًا بالرب اتصل به عبرة ومزيدٌ في العقل ومعرفة الإيمان فهو منة ، وإلا فهو حجة من الله عليه سيُسأل عنها: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾[الحجر:٩٢-٩٣] .

قال النبي ﷺ : « لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ ، فِيمَ أَفْنَاهُ ؟ وعَنْ شَبَابِهِ ، فِيمَ أَبْلَاهُ ؟ وَعَنْ مَالِهِ ، مِنْ أَيْنَ اكتسبه ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ ، مَاذَا عَمِلَ بِهِ ؟ » أخرجه الترمذي (١) .

وقال الله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الأعراف:٢-٩] .

نعمُ الله بين شكرها وكفرها :

نعمُ الله على عباده لا تُعد ولا تُحصى ، تفوت العد والحصر ، وأعظمها نعمة الإسلام : ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ﴾ [المائدة:٧]

وإذا بدلت البشرية هذه النعمة أصابتها المصائب والعقاب الشديد في الدنيا قبل عقاب الآخرة ، كما حصل لبني إسرائيل حين بدلوا نعمة الله وأبوا الطاعة والاستسلام لله ، وكانوا دائماً في موقف الشك المتردد ، ونقضوا العهد والميثاق : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ

(١) حسن/ أخرجه الترمذي برقم: (٢٤١٧).

بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾[آل عمران:١١٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾[النحل:٨٣] .

وقال سبحانه :﴿ ۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ ﴾[إبراهيم:٢٨-٣٠] .

وأمم من المسلمين اليوم بدلوا نعمة الله فحل بهم ما حل ببني إسرائيل ، فهي تعاني العقاب الشديد والفقر الشديد والخوف الشديد ، وتتمرغ في الشقوة والنكد وتعاني القلق والحيرة ويأكل بعضها بعضًا ويأكل الفرض منها نفسه وأعصابه .

والكل يعيش في حيرة قاتلة لا طمأنينة فيها ولا سلام ، وإن هو إلا عقاب الله لمن حاد عن منهجه ورد دعوته : ﴿ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢١١﴾ ﴾[البقرة:٢١١] .

ومن سافر بفكره أو ببصره في أحوال العالم الخاصة والعامة ، استغنى عن تعريف غيره له وساءه انبطاح الأمة للشياطين والفجار والطغاة : ﴿ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾[القصص:٤] .

وقال الله تعالى: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ﴿٣٨﴾ ﴾[النساء:٣٨] .

وجميع المجتمعات البشرية المحرومة من نعمة الإسلام مجتمعات بائسة ولو غرقت في الرغد المادي خاوية ولو تراكم فيها الإنتاج ، قلقة مضطربة

ولو توفرت لها الحريات والأمن والسلام : ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ ﴾[الشعراء:٢١٣] .

وقال الله تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الإسراء:٢٢] .

وهذه الأمم الكافرة تمضي في الأرض كالبهائم تأكل وتستمتع كما تأكل الأنعام وتستمتع والنار مثوى لها : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ ﴾[محمد:١٢] .

وقد تنطح هذه الأمم الغافلة وترفس كالبهيمة أو تفترس وتنهش كالوحش ، وتزاول الطغيان والجبروت والبغي والبطش وتنشر الفساد ثم تمضي ملعونة من الله ملعونة من الناس : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾[آل عمران:٨٧] .

وقال الله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾[البقرة:١٦] .

فما أعظم نعمُ الله علينا حيث اختار لنا أفضل الرسل ، وأفضل الشرائع ، وأفضل الأديان ، وأفضل الكتب ، وجعلنا خير الأمم ، وأكمل لنا الدين ، وأتم علينا النعمة ، ورضي لنا الإسلام دينًا : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾[النساء :١٣-١٤] .

وقال الله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾[آل عمران:١١٠] .

فهل فوق هذا من نعمة ؟ وهل يستطيع أحدٌ أن يكافئ هذه النعم ؟ ومن يستطيع أن يعرف كل نعم الله ؟ ومن يستطيع أن يحصيها ؟ ثم من يستطيع أن يقوم بشكرها ؟ .

ولكن رحمة الله واسعة طلب منا القليل من العمل وأعطى الكثير من الأجر ، وإنما هو جُهد الطاقة في شكر النعمة ومعرفة المُنعِم وإدراك الواجب ، ثم القيام بما يستطيع الإنسان منه ، ومعرفة الحرام ثم الحذر منه ، وطلب المغفرة عن التجاوز أو التقصير : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾[الأعراف:٢٣] .

وقال الله تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [التغابن:١٦] .

فما أنكد وما أحمق وما أضل من يرفض ما رضيه الله ، ويختار لنفسه غير ما اختار الله له : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾[المائدة:٤٩-٥٠] .

وإنها لجريمة كبرى لا تذهب بغير جزاء ، ولا يترك صاحبها ناجيًا أبدًا ، وقد رفض ما ارتضاه الله له : ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ ﴾[النساء:١٢٣] .

وقد يترك الله الذين لم يعرفوا الإسلام أو لم يتخذوه دينًا لهم يرتكبون ما يرتكبون ويمهلهم إلى حين : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء:١٥] .

فأما الذين عرفوا هذا الدين ثم أهملوه وتركوه أو رفضوه ، واتخذوا لأنفسهم مناهج في الحياة غير منهج الله الذي ارتضاه الله لهم ، فهؤلاء لن يتركهم الله أبدًا ، ولن يمهلهم أبدًا حتى يذوقوا وبال أمرهم وهم مستحقون : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا ١٣٧ ﴾[النساء:١٣٧] .

وقال سبحانه :﴿ فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٠ ﴾ [العنكبوت:٤٠] .

وقال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢ ﴾[هود:١٠٢] .

٨- الخزانة الثامنة

تفاوت الناس في الأرزاق :

الله ﷻ هو الرزاق ذو القوة المتين ، قسم الأرزاق بين خلقه بحكمته وعلمه : ﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٦٢ ﴾ [العنكبوت:٦٢] .

فالناس في الأرزاق التي قسمها الله لهم متفاوتون ، وهم في وقت حصولهم على أرزاقهم مختلفون ، فمنهم من يجمع الله له رزقه في أول عمره ، ومنهم في وسط عمره ، ومنهم في أخر عمره ، وهم في الحصول عليه متباينون فمنهم من يُساق إليه رزقه عفواً بلا تعب ، ومنهم من يصل إليه رزقه بعد جُهدٍ وعناء وكدح .

وهم في طريقة الحصول عليه مختلفون ، فمنهم من يأخذه من طريق الحلال حسب أمر ربه وهدي رسوله ، ومنهم من يأخذه عن طريق الحرام بالسرقة أو الربا أو الرشوة ونحوها .

ومكان أرزاق العباد مختلف ، فمنهم من يأخذه من تحت قدميه ، ومنهم من فرق الله رزقه في البلاد فهو يجمعه من الأمصار والبلدان في البر والبحر : ﴿ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٣٢ ﴾[الزخرف:٣٢] .

والناس كذلك مختلفون في صرف هذه الأرزاق ، فمنهم من يصرفها فيما رضيه الله وأحبه وأمر به : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ

حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾[البقرة:٢٦١] .

ومنهم من يبذرها فيما يغضب الله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾[الأنفال:٣٦].

وقال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ﴿١٢﴾﴾[محمد:١٢] .

ومنهم من يستعين بما رزقه الله على طاعة الله ، ومنهم من يستعين به على معصية الله .

إن الإسلام أعظم نعمة أنعم الله بها على عباده ، والأموال والأعراض والأشياء في الإسلام خادمة للعبد لا مخدومة يستعين بها على طاعة الله ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾[البقرة:١٧٢] .

والإنسان فوق المال ينتفع به ولا يكون عبداً له خاضعاً له ، والإسلام لا يحُقر أعراض الحياة الدنيا ليهجرها الناس ويزهدوا فيها ، إنما هو يزنها بوزنها ليستمتع بها الناس ، وهم أحرار الإرادة تلقاء الأيدي يتقربون بها إلى الله : ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾[القصص:٧٧] .

مطمح المؤمنين أعلى من هذه الأرض ، وآفاقهم أسمى من دنيا الأرض ، مقصدهم الأعلى الإيمان ، الإيمان عندهم هو النعمة ، وتأدية مقتضيات

الإيمان هي الهدف من العبادة والدعوة وتعليم شرع الله والإحسان إلى خلق الله .

والدنيا بعد ذلك مملوكة لهم لا سلطان لها عليهم ، يركبون عليها ويمشون عليها ، وإذا ركبتهم قتلتهم ، فالنعمة الكبرى والرحمة الواسعة هي ما جاء من عند الله من موعظة وهدى : ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾[آل عمران:١٣٨] .

فأما المال وأما الثراء وأما النصر ذاته فذلك كله تابع .

وإذا حصل للأمة استخدمته في إعلاء كلمة الله ونشر دينه ، كما فعل أصحاب النبي ﷺ ، كأبي بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم ، وقبل ذلك خديجة رضي الله عنها كلهم قدموا أموالهم في نصره دين الله وإعلاء كلمته ونشر دينه .

فالأرزاق ليست هي تحدد مكانة الناس في هذه الأرض فضلاً عن مكانتهم في الآخرة ، بل إنها يمكن أن تصبح من أسباب شقوة البشرية ، لا في الآخرة المؤجلة بل في الدنيا المعجلة كما هو مشاهدٌ اليوم : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾[التوبة:٥٥] .

والذين جعلوا الأموال قبله يركزون على جمع الأموال ، ويغفلون عن قيمة الدين هم حقاً أعداء البشرية الذين لا يريدون لها أن ترتفع عن مستوى الحيوان ولا على مطالب الحيوان ، ويهدفون من وراء ذلك كله إلى القضاء على القيم الإيمانية ، وعلى العقيدة التي تعلق قلوب الناس بما هو أرفع من مطالب الحيوان ، دون أن تُغفل ضروراتهم الأساسية من الطعام والشراب واللباس والنكاح ونحوها : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ

لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾[الأعراف:١٧٩] .

وهذا الصياح ، وهذا الصراخ المستمر بكل وسيلة وبكل مكان وفي كل وقت ، الذي ينادى بتضخيم الأموال والإنتاج المادي بحيث يطغى الانشغال به على حياة الناس وتفكيرهم ودينهم وعبادة ربهم ومتطلبات إيمانهم من العمل الصالح والدعوة إلى الله والجهاد في سبيل الله .

وبحيث تحول الناس إلى آلات تلهث وراء الدرهم والدينار والدولار ، و تُعدها قيمة الحياة الكبرى وتجعلها الصنم المعبود في الأرض ، وتنسى في هذه العاصفة، عاصفة الإنتاج المستمر ، تنسى كل القيم الروحية والأخلاقية وتهمل الشعائر التعبدية وتدوس القيم كلها في سبيل الإنتاج المادي .

هذا الصياح الذي عم وتم ليس مراداً لذاته ، إنما هو خطوة مدبرة محكمة لإقامة أصنامًا تُعبد في الأرض من دون الله بدل أصنام الجاهلية الأولى ، فتكون لها السيادة العليا على القيم جميعًا : ﴿ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [الروم:٦-٧] .

وعندما يصبح الإنتاج المادي صنماً يكدح الناس من أجله ويطوفون به صباحاً ومساءً ، فإن الدين والأخلاق والقيم تُداس في سبيله وتُنتهك الأعراض والأخلاق والأسر والحريات ، وتداس كلها إذا تعارضت مع توفير الإنتاج ، وهذا ما حصل ولا يزال يحصل .

فماذا تكون الأرباب والأصنام إن لم تكن هذه البلوة التي جعلت المال مكان الإيمان ، والأشياء مكان الأعمال الصالحة ، وخدعت الناس بعمارة الدنيا وتخريب الآخرة : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ

عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔاۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾[لقمان:٣٣] .

وقال الله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت:٦٤] .

فقه الأموال :

الأموال نعمة من الله كسائر النعم ولكنها بدون الدين تجعل الإنسان عبداً لها ، وتصبح لعنة يشقى بها الناس ؛ لأنها يومئذ تستخدم في الظلم والطغيان والعدوان وفي إعلاء القيم الحيوانية والآلية على حساب القيم الإيمانية العليا : ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾ [محمد:١٢] .

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾[الأنفال:٣٦].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص:٤] .

والإنسان إذا اعترف أن الله هو الخالق الرازق يتبعه قطعاً أن يكون الله هو الرب المعبود ، وأن يكون هو الذي يحكم في أمر الناس كله ، ومنه أمر هذه الأرزاق التي أعطاها الله البشر ، وهي تشمل كل ما يرزقهم الله من السماء والأرض ، فليس لأحدٍ أن يحلل أو يحرم ذلك حق الله وحده : ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾[الأنعام:١٠٢] .

وهؤلاء الذين يحللون ويحرمون بما لم يأذن به الله ، إنما يعتدون على حق الله وهو أمر التشريع ، وهؤلاء ظالمون كافرون كاذبون ومن أطاعهم فهو مشركٌ مثلهم : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾[يونس:٥٩] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾[النحل:١١٦-١١٧] .

فالمشرعون اعتدوا على حق الله في الربوبية الذي له الخلق والأمر ، وأتباعهم اعتدوا على حق الله في العبودية فعبدوا صنم المال من دون الله ﷻ وهذا تناقض قبيح يدمغ الطرفين بالكفر والشرك ، وكلاهما مركبٌ إلى النار : ﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[يونس:٦٠] .

والله سبحانه رءوف بالعباد وذو فضلٍ على الناس برزقه المادي الذي أودعه في هذه الأرض وفي هذا الكون العظيم من أجلهم ، وأودع فيهم القدرة على معرفة مصادره وأقدرهم على الاستكثار منه ومكنهم من الانتفاع به وحفظه والاستفادة منه ، والله كذلك ذو فضلٍ على الناس بدينه الذي أنزله هدي ورحمة للناس ، يهدي الناس إلى منهج الحياة السليم القويم .

قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[الأنعام:٨٢].

وقال الله تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[يونس:٦٠] .

فإذا لم يشكروا ربهم على هذا الرزق وذلك الرزق فإنهم يشقون في الدنيا بالهم والتعب والرعب والخوف، ويشقون في الآخرة بنار الجحيم والسعير: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ ﴾[الشعراء:٢١٣] .

وقال الله تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾[طه:١٢٣] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾[طه:١٢٤-١٢٦] .

إن شكر النعمة دليلٌ على استقامة النفس البشرية ، فالخير يُشكر لأن الشكر هو جزاءه الطبيعي في الفطرة المستقيمة : ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[الروم:٣٠] .

والنفس التي تشكر الله على نعمته تراقبه في التصرف في هذه النعمة بلا بطرٍ و بلا استعلاء على الخلق ، وبلا استخدام للنعمة في الأذى والشر والفساد ، وهذا كله مما يزكي النفس ويدفعها إلى العمل الصالح والتصرف الصالح في النعمة بما ينميها ويبارك فيها : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾[إبراهيم:٧] .

والكفر بنعم الله له صور ، فقد يكون بعدم شكرها ، أو بإنكار أن الله واهبها ، أو نسبتها إلى العلم والخبرة ، أو الكد الشخصي والسعي كأنه هذه الطاقات ليست نعمة من نعم الله ، وقد يكون بسوء استخدام النعم بالبطر والكبر على الناس ، وقد يكون باستغلالها للشهوات والفساد ، وكل ذلك كفرٌ بنعمة الله .

والعذاب الشديد الذي يصيب من كفر بالنعمة له صور :

١ -فقد يتضمن سحق النعمة عيناً بذهابها .

٢- أو سحق آثارها في الشعور فكم نعمة شقي بها صاحبها وحسد الخالين منها .

٣- وقد يكون عذاباً مؤجلاً إلى أجله في الدنيا أو مؤجلاً في الآخرة ، فهو وإن تأخر فهو واقع إن الكفر بنعمة الله لا يمضي بلا جزاء .

قال الله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ ﴾[إبراهيم:٢٨-٢٩] .

والله سبحانه غني عن العباد وعن طاعتهم ، وهم الفقراء إليه : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾[فاطر: ١٥] .

وصلاح الحياة يتحقق بشكر الناس لربهم ، ونفوس الناس تزكو بالاتجاه إلى الله ، وتستقيم بشكر الخير وتطمئن إلى الاتصال بالمُنعِم ، فلا تخشي نفاد النعمة وذهابها ، ولا تذهب حسراتٍ وراء ما يُنفق أو يضيع منها ، فالمُنعِم موجود والنعمة بشكره تزكو وتزيد:﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾[إبراهيم:٧] .

٩- الخزانة التاسعة

نعمة الهداية إلى الإيمان :

الله ﷻ هو المُنعِم بكل نعمة ، وأعظم النعم نعمة الإيمان بالله وتوحيده وعبادته وحده لا شريك له : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾[الحجرات:١٧] .

فأعظم النعم نعمة الإيمان بالله ، ولكن النفوس المريضة لا تقبل هذه النعمة ولا تحس بالحاجة إليها ، بل قد تشعر أنها تضرها ، كما قال كفار مكة للرسول ﷺ : ﴿ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾[القصص:٥٧]

ألا ما أعجب حال هؤلاء الذين وهبهم الله نعمة الإيمان ، الذي هو النور الذي يهتدي به الإنسان إلى السعادة في الدنيا ، ويصل به إلى الجنة في الآخرة ثم هم يتركون هذا كله : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ ﴾[قريش:١-٤].

فما أسفه عقول هؤلاء يتركون ما أمرهم الله به من الإيمان به والاتصال به، ويأخذون بدله كفرًا، أولئك هم السادة والقادة من الكبراء، وبهذا الاستبدال العجيب قادوا قومهم إلى جهنم وأنزلوهم بها وبأس ما أحلوهم من مستقر : ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ ﴾[إبراهيم:٢٨-٢٩] .

وقال الله تعالى: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾[النحل:٨٣] .

إن عقيدة الإيمان والتوحيد هي النعمة الكبرى على البشرية كلها ، وبها يصل إلى كل ذي حقٍ حقه ، وهي خطرٌ عظيمٍ على سلطان الطواغيت والجبابرة في كل زمان ومكان ، يحذرونها ويحاربونها ويتقونها بكل وسيلة ، لأنهم لا يسمحون بإعطاء كل ذي حق حقه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾[الأنفال:٣٦].

إن الله ﷻ غنيٌ كريم ، فتح باب الكون على مصراعيه تنطق سطوره الهائلة بآيات الله الكبرى ، وبنعم الله التي لا تُحصى ، وتتوالى صفحاته بألوان هذه النعم على مد البصر معروضة ومبذولة كل آن ، السماوات والأرض والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والماء النازل من السماء ، والثمار النابتة من الأرض ، والبحر الذي تجري فيه الفلك وتسبح فيه المخلوقات، والأنهار التي تجري بالأرزاق، والجبال خزائن المعادن والذهب والفضة، وغيرها من المعادن ، والماء الذي ينبع من الأرض ، والبترول الذي يخرج من الأرض : ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾[يونس:١٠١] .

وقال الله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾ [ق:٦ -٨] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنبياء:٣٠] .

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران:١٩٠ -١٩١] .

أرأيت أيها المسلم أعظم من هذه الصفحات الكونية المعروضة على الأنظار، والتي تدل على عظمة خالقها وقدرته وكمال علمه وحكمته، وعظيم كرمه ورحمته: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الطلاق:١٢] .

وإذا عرفتم ذلك، عرفتم الرب العظيم الكبير فعظمتموه وكبرتموه ، وعرفتم الكريم المُنعِم فشكرتموه : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾[الأنعام:١٠٢] .

ولكن البشر الذين انحرفوا عن منهج الله لا ينظرون ولا يتدبرون ولا يشكرون : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾[الأعراف:١٧٩] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[إبراهيم:٣٤]

يبدل نعمة الله كفرًا ويجعل لله أندادًا وهو سبحانه الخالق الرازق المسخر لهذا الكون كله للإنسان ، فيجب عليه أن يعبد ربه الذي خلقه وخلقه هذا الكون وسخره له : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

[البقرة: ٢١ - ٢٢]

أفكل هذا مسخر للإنسان ؟ أفكل هذا الكون الهائل مسخر لذلك المخلوق الصغير ؟ أفكل هذه النعم موضوعة بين يديه وتحت تصرفه ؟

ثم هو لا يشكر ربه ولا يذكره وبعد ذلك يجعل لله أندادًا ليضل عن سبيل الله ويحارب ربه ودينه بنعمه ، ألا ما أجهل الإنسان وما أظلمه وما أكفره : ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[إبراهيم:٣٤]

التفكير في نعم الله :

إن المطر والإنبات كلاهما يتبع السنة التي فطر الله الكون عليه ، وإنبات حبة واحدة يحتاج إلى القوة المهيمنة على هذا الكون كله لتسخر أجرامه وظواهره وبواطنه في إنبات هذه الحبة ، وإمدادها بعوامل الحياة حتى تظهر وتنفع من تربة وماء وأشعة وهواء : ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ ﴾[الحج: ٥ – ٧].

ألا ما أجهل الإنسان بربه ، وما أقل شكره لمولاه ، إن أقل رزق يرزقه الله الكائن الإنساني في هذا الكون يقتضي تحريك أجراماً عظيمة لا يعلمها إلا الله حتى يصل إليه هذا الرزق وينضج ثم يوضع بين يديه : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾[الذاريات:٥٦-٥٨] .

فمثل ذلك الإنسان كيف هو محمولٌ مكفولٌ من ربه ، وكيف ربه الغني عن العالمين يحتفي به ويتودد إليه ويتحنن إليه بنعمه التي لا تُعد ولا تُحصى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [لقمان:٢٠] .

وكيف يعطيه ربه من كل ما سأل من مالٍ وذرية وصحة وغنى وزينة ومتاع : ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[إبراهيم:٣٤]

أفيليق بهذا الإنسان بعد رؤية هذه الآيات العظمى ألا يؤمن بالله ، وبعد رؤية هذه النعم الكبرى ألا يشكر ربه ، وبعد رؤية هذه وهذه أن يبدل نعمة الله كفرًا ، وبعد ذلك كله أيليق به أن يجعل لله نداً يعبده من دون الله ، والله ينزل عليه النعم آناء الليل وآناء النهار : ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾ ﴾[قريش:١-٤].

حقاً إن الإنسان ظلومٌ جهولٌ كفار ، خاصة إذا لم يهتدي بوحي السماء ولم يؤمن بما جاء به الأنبياء ، إن المؤمن حين ينظر في ملكوت السموات والأرض ويتأمل ويتدبر ما فيهما من آيات وعجائب يرتجف فؤاده ويخشع

قلبه وتخضع جوارحه ويقف بين يدي ربه ساجداً شاكرًا : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[السجدة:١٥-١٧] .

إن النموذج الكامل للإنسان الذاكر الشاكر هم المؤمنون فقط ، وأفضل المؤمنين الأنبياء والرسل ، وأفضل الأنبياء والرسل أولو العزم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عَلَيْهِمِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وأفضل هؤلاء الخليلان إبراهيم أبو الأنبياء ومحمد سيد الأنبياء ، وأفضل الخليلين محمد ﷺ الذي كان أحسن الناس خَلقاً وخُلقًا وكان خلقه القرآن ، وقد أثني عليه ربه بقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾[القلم:٤] .

فهل لنا بهم من أسوة ، وهل لنا بهم من قدوة : ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنعام:٨٩-٩٠] .

وقال الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾[الأحزاب:٢١] .

إن الكفر بنعم الله وجحدها واستعمالها في معصيته ، جريمة تستحق العقوبة ، كما قال سبحانه : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾[النحل:١١٢] .

فالغنى يولد الطغيان والاستكبار، والطغيان يولد الإسراف، فالغنى يولد الطغيان والاستكبار: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ ﴾[العلق:٦-٧] .

والطغيان يولد الإسراف والظلم ، والإسراف يسوق الإنسان إلى التبذير ، والتبذير دليلٌ على الترف ، والترف يولد الجريمة ، وبعد الجريمة تنزل العقوبة : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٤٠ ﴾[العنكبوت:٤٠] .

وقال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۝٤٤ ﴾[الأنعام:٤٤] .

والترف يُفسد الفطرة ، ويغلظ المشاعر ويسد المنافذ ويُفقد القلوب الحساسية المرهفة التي تتلقى وتتأثر وتستجيب ، ومن هنا يحارب الإسلام الترف ، ويقيم نظامه على أساسٍ لا يسمح للمترفين بالوجود في الأمة المسلمة ، لأن الترف كالعفن يفسد ما حوله حتى لا ينخر فيه السوس ويسبح فيه الدود .

فأين مصير المترفين الذين اشتغلوا به عن الإيمان بالله وطاعته وعبادته ؟ وأين هي دارهم ؟ .

قال الله تعالى: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ۝٤١ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۝٤٢ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝٤٣ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ۝٤٤ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ۝٤٥ ﴾[الواقعة:٤١-٤٥] .

والمترفون أشد الناس استغراقاً في المتاع والانحراف والذهول عن المصير فها هم يستيقظون على الكارثة الباغتة المفاجئة : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ۝٦٤ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ۝٦٥ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى

﴿ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [المؤمنون:٦٤-٦٧] .

بسط الرزق وقبضه :

مسألة بسط الرزق وقبضه ليست دليلاً على غضب الله ورضاه ، فهذه مسألة ، وهذه مسألة أخري ولا علاقة بينهما : ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الفجر:١٥-٢٠] .

وقال سبحانه: ﴿ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [سبأ:٣٥-٣٦] .

فالله سبحانه عليمٌ حكيم ، يغدق على أهل الشر استدراجاً لهم ليزدادوا إثماً وبطراً وسوءً ، ويتضاعف رصيدهم من الإثم والجريمة عقوبة على معاصيهم : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المؤمنون:٥٥-٥٦] .

وقال الله تعالى: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [التوبة:٥٥] .

وقد يحرمهم الله الرزق فيزدادوا شراً وفسوقاً وجريمة وجزعًا وضيقاً ويأسًا من رحمة الله فيتضاعف رصيدهم من الشر والضلال .

الله سبحانه حكيمٌ خبيرٌ بصيرٌ بعباده ، قد يغدق الله على أهل الخير ليمكنهم من أعمالِ صالحة كثيرة ، وما كانوا بالغيها لو لم يبسط لهم في الرزق ، وليشكروا نعمة الله عليهم بالقلب واللسان والفعل الجميل ، ويدخرون بهذا

كله رصيداً من الحسنات : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٤ ﴾[البقرة:٢٧٤] .

وقد يحرمهم فيبلو صبرهم على الحرمان وثقتهم بربهم ورجائهم فيه واطمئنانهم إلى قدره ورضاهم بربهم وحده، وهو خيرٌ وأبقى، وينتهون بهذا إلى مضاعفة رصيدهم من الخير والرضوان: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٥١ ﴾[التوبة:٥١] .

وقال سبحانه:﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٦٢ ﴾[العنكبوت:٦٢] .

وبهذا نعلم أن الله قد يُغدق الرزق على من هو عليه غاضب ، كما يغدقه على من هو عليه راض ، وقد يُضيق الله على أهل الشر ، كما يُضيق على أهل الخير ، وهو الحكيم العليم الذي يضع الشيء في موضعه ، فمن وهبه الله مالاً وولداً فأحسن فيهم التصرف ، ضاعف الله له الثواب ، جزاءً ما أحسن بنعمة الله .

وليست الأموال والأولاد بذاتها هي التي تقربهم من الله، ولكن تصرفهم في الأموال والأولاد وفق أمر الله هو الذي يُضاعف هم الجزاء الجميل، كما قال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ٣٧ ﴾ [سبأ:٣٧] .

وقال الله تعالى: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ٥٥ ﴾[التوبة:٥٥] .

إن الناس في حاجة إلى تذكيرهم عند دعوتهم إلى الله بأنهم هم الفقراء المحاويج إلى الله في خلقهم وإيجادهم وفي إمدادهم بأقواتهم وفي هدايتهم إلى ما يسعدهم في الدنيا والآخرة ، وأن الله غنيٌّ عنهم كل الغنى ، وأنهم حين يدعون إلى الإيمان بالله وعبادته وحده لا شريك له وحمده على آلائه ونعمائه ، فإن الله غنيٌّ عن عبادتهم وحمدهم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ ﴾[فاطر:٥].

وقال النبي ﷺ : « يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ واحدٍ مَسْأَلَتَهُ ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ »أخرجه مسلم[1] .

هو سبحانه الغني الحميد ، المحمود لذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ﴾[الفاتحة : ٢] .

وقال الله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[فاطر:١] .

وقال الله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴿١﴾ ﴾ [الكهف:١] .

فلابد من تذكير الناس بعظمة ربهم ليعظموه وبقدرته ليقدروه ويكبروه وأنهم لا يُعجزون الله ولا يعزون عليه فهم إن شاء أن يذهب بهم ويأتي بخلقٍ جديد من جنسهم أو من جنس آخر يخلفهم في الأرض ، فهو القادر على ذلك وهو عليه يسير: ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ ﴾[النساء:١٣٣] .

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٥٥/ ٢٥٧٧).

والناس جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها ، الأغنياء والفقراء ، العامة والخاصة ، السادة والعبيد كلهم بحاجة إلى أن يُذَكروا بهذه الحقيقة ليعرفوا الغني من الفقير ، والقوي من الضعيف ، والكبير من الصغير ، لأن لا يركبهم الغرور وهم يرون أن الله ﷻ يُعنى بهم ويرسل إليهم الرسل .

ويجاهد الرسل أن يردوهم عن الضلالة إلى الهدى ، ويخرجوهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ، فيركبهم الغرور فيظنون أنهم شيء عظيم عند الله ، و أن هداهم وعبادتهم تزيد شيئًا في مُلك الله تعالى ، وهو الغني الحميد : ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾[المائدة: ١٥ - ١٦]

وقال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾[فاطر: ١٣] .

وقال الله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾[الملك: ١] .

إن الله جل جلاله إنما يعامل عباده هكذا رحمه منه وفضلًا وكرمًا ومَنًّ ، لأن هذه صفاته المتعلقة بذاته ، له الأسماء الحسنى والصفات العلا والأفعال الحميدة والمثل الأعلى ، لا لأن هؤلاء العباد يزيدون في مُلكه شيء بهداهم أو ينقصون من مُلكه شيء بعماهم ، ولا لأن هؤلاء العبادة مخلوقات نادرة عزيزة صعبة الإعادة أو الاستبدال فيُغتفر لهم ما يقع منهم من الفكر والمعاصي لأنهم صنفٌ لا يعاد ولا يستبدل:﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾[محمد:٣٨] .

١٠- الخزانة العاشرة

نعم الدينِ والدنيا والآخرة كلها من الله وحده لا شريك له :

وقال الله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النحل:٥٣] .

والله سبحانه بالناس رءوفٌ رحيم ، يمنح العباد من رعايته وبفيض عليهم من رحمته ويغمرهم بسابغ فضله بتسخير ما في السماوات والأرض لهم ، وإرسال رسله إليهم ، وإنزال كتبه عليهم واحتمال رسله ما يحتملون من إيذائهم وإعراضهم والسخرية منهم وهم يعفون عنهم ويصبرون على أذاهم : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [لقمان:٢٠] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ﴾ [الحج:٨] .

إن الإنسان ليُحار ويدهش من رؤية فضل الله ومنه وكرمه حين يرى هذا الإنسان الصغير الضئيل الجاهل القاصر الضعيف العاجز ينال من كرامة الله وعنايته ورعايته ، كل هذا القدر الهائل العظيم من النعم:﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء:٧٠] .

فالإنسان ساكنٌ صغير من سكان هذه الأرض السابحة في الفضاء ، والسماء والأرض مملوءة بمخلوقات لا يحصيها إلا الله ، ثم ينال الإنسان من الله كل هذه الرعاية والعناية ، حيث خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له

ملائكته ، وعلمه أسماء كل شيء وجعله في الدنيا خليفة ويوم القيامة جليسه : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ﴾[القمر:٥٤-٥٥] .

وكم فضل الله وإحسانه إلى البعاد ، خلق الله الإنسان واستخلفه في الأرض ووهبه كل أدوات الخلافة سواء إن كانت في تكوينه وتربيته وتركيبه ، أو تسخير القوى والطاقات الكونية الملازمة له في خلافته ، من شمسٍ تشرق وهواءٌ يجري في الكون وأرض ممهدة وأرزاق مختلفة ، ويظل هذا المخلوق يتبجح حتى لا يشرك بربه أو ينكره .

فإذا ما حصل منه ذلك أرسل الله برحمته إليه الرسل رسولاً بعد رسول وينزل على الرسل الكتب والآيات والمعجزات ويخبرهم عن ذوات أنفسهم وعمن سبقهم ويسوقهم إلى ما ينفعهم ويحذرهم مما يضرهم ، كل ذلك من أجل هذا الإنسان:﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [النحل: ٣٦] .

والناس خُلقاء أن يدركوا هذه الحقيقة ، ليدركوا مدى فضل الله ورعايته ورحمته بعباده : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ ﴾[الحج:٦٥] .

وليستحيوا أن يقابلوا فضل الله الخالص ورعايته المجردة ورحمته الفائضة بالإعراض والجحود والإنكار : ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾[المائدة:٧٤] .

وقال الله تعالى:﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ

﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ١٨ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ١٩ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ٢٠﴾[نوح:١٣ -٢٠] .

فكتاب الله ﷻ فيه تبيان كل شيء ، يُلمس بمثل هذه الحقائق الكبرى قلوب البشر لأن الحقيقة حين تُجلى أفعل في النفس ، ولأن الله هو الحق وبالحق أنزل كتبه وأرسل رسله ، فلا يتحدث إلا بالحق ، ولا يُقنع إلى بالحق ، ولا يعرض إلا الحق ، ولا يشير ويوصي بغير الحق ، فما أحوجنا إلى تدبر القرآن بنور الإيمان:﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾[ص:٢٩] .

والله ﷻ لطيفٌ بعباده يرزق من يشاء ، يرزق الصالح والطالح والمؤمن والكافر ، وهو الغني المالك لذلك القادر عليه : ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ١٩﴾[الشورى:١٩] .

فجميع الأرزاق تخرج من خزائنه إلى جميع خلقه: ﴿ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ٢١﴾[الحجر:٢١] .

والبشر أعجز من إن يرزقوا أنفسهم شيئًا ، وقد وهبهم الله الحياة وكفل لهم أسبابها الأولية ، ولو منع الله رزقه عن الكافر والفاسد ما استطاعوا أن يرزقوا أنفسهم ولماتوا جوعاً وعطشاً وعرياً وعجزاً عن أسباب الحياة الأولى ، ولما تحققت الحكمة من إحيائهم وإعطائهم الفرصة أن يؤمنوا أو يكفروا ، كما قال سبحانه : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٢﴾[التغابن:٢] .

فالناس في الدنيا إما أن يؤمنوا أو يكفروا ، والله ابتلاهم ليعملوا في الحياة الدنيا ما يحُسب لهم في الآخرة أو عليهم: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٦٠﴾[الأنعام:١٦٠] .

ومن ثم أخرج سبحانه الرزق من دائرة الصلاح والطلاح ، ومن دائرة الإيمان والكفر ، وعلقه بأسبابه الموصولة بأوضاع الحياة العامة ، واستعداد الأفراد وجعله فتنة وابتلاءً يجزي عليهما الناس يوم الجزاء ، ثم جعل سبحانه الدنيا حرثًا والآخرة حرثًا يختار المرء منهما ما يشاء:﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾[الشورى:٢٠] .

فمن كان يريد حرث الآخرة عمل فيه وزاده الله له في حرثه وبارك له في عمله ، وكان له مع حرث الآخرة رزقٌ مكتوب له في هذه الأرض لا يحرم منه شيئاً ولا مثقال ذرة ، ومن كان يريد حرث الدنيا أعطاه الله من عرض الدنيا رزقه المكتوب له لا يُحرم منه شيئاً .

لكن ليس له في الآخرة من نصيب فهو لم يعمل في حرث الآخرة شيئاً ينتظر عليه ذلك التنصيب:﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾[الإسراء:١٨-٢٢] .

فاللهم فقهنا في الدين واجعلنا هداه مهتدين ، وما أحمق الذين يريدون حرث الدنيا فقط فالله بفضله يمد هؤلاء وهؤلاء ، ولكل إنسان نصيبه من حرث الدنيا وفق المقدور له بعلم الله ، ثم يبقى حرث الآخرة خالصاً لمن أراده وعمل فيه : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾[النحل:٩٧] .

أرزاق العباد كلها في السماء :

أرزاق العباد كلها في السماء ، ومكان الاستلام في الأرض ، كما قال سبحانه : ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[الذاريات:٢٢] .

ولو كانت الأرزاق في الأرض لتقاتل الناس عليها .

إن أسباب الرزق الظاهرة قائمة في الأرض حيث يكد فيها الإنسان ويكدح وينتظر من وراءها الرزق والنصيب ، ولكن القرآن يرد بصر الإنسان ونفسه إلى السماء إلى الغيب إلى الله ليتطلع هناك إلى الرزق المقسوم والخط المرسوم من الله الرزاق ذي القوة المتين .

أما الأرض وما فيها من أسباب الرزق الظاهرة فهي آيات للموقنين ، آيات ترد القلب إلى الله ليتطلع إلى الرزق من فضله ويتخلص من أثقال الأرض وأوفاق الحرص والأسباب الظاهرة للرزق ، فلا يدعها تحول بينه وبين التطلع إلى من أنشأ هذه الأرزاق وأنشأ هذه الأسباب :﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الأنعام:١٠٢] .

فالقلب المؤمن بربه يدرك هذه اللفتة ويعرف أن المقصود بها ليس هو إهمال الأرض وأسبابها ، فهو مكلفٌ بالخلافة فيها وتعميرها ، وإنما المقصود هو ألا يعلق نفسه بالأرض وألا يغفل عن الله في عمارتها ، ليعمل في الأرض وهو يتطلع إلى السماء ، وليأخذ بالأسباب وهو يستيقن أنها ليست هي التي ترزقه فرزقه مقدرٌ في السماء وما وعد الله لابد أن يكون في مكانه وزمانه ومقداره:﴿ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾[الزخرف:٣٢] .

وبهذا ينطلق قلب الإنسان من آثار الأسباب الظاهرة في الأرض ويراها آيات تدله على خالق الأسباب ويعيش قلبه موصولاً بربه ، موصولاً وناظراً إلى السماء وقدماه على الأرض ، والإيمان هو الوسيلة التي تجعل الإنسان مفضلاً على العالمين .

وإذا استقام الناس على الدين أفاض الله عليهم الرزق والرخاء وابتلاهم به لينظر أيشركون أم يكفرون ، فإذا آمنوا واتقوا فتح الله عليهم بركات السماء والأرض وتدفقت عليهم الأرزاق ، وإذا حادوا عن الطريق اُستلبت منهم الخيرات وما يزالون في نكد وفي شظف حتى يعودوا إلا الله :﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ ﴾[الجن:١٦-١٧] .

وقال الله تعالى:﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأعراف:٩٦] .

وإذا كانت هناك أممٌ لا تستقيم على دين الله ، ثم تنال الوفرة والغنى فإنها تعذب بآفات أخرى في إنسانيتها أو آمنها أو قيمة الإنسان وكرامته فيها ، فتلك النعم الظاهرة تسلب عن ذلك الغنى والوفر معنى الرخاء والطمأنينة ، وتحيل الحياة إلى تعاسة وترديٍ في الأخلاق :﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ ﴾[الشعراء:٢١٣] .

وقال الله تعالى:﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾[التوبة:٥٥] .

والرخاء كالشدة ابتلاءٌ من الله لعباده وفتنه ، كما قال الله سبحانه : ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[الأنبياء:٣٥] .

والصبر على الرخاء والقيام بواجب الشكر عليه والإحسان فيه ، أشق على النفس من الصبر على الشدة ، فكثيرٌ من الناس يصبر على الشدة ويتماسك لها بحكم ما تثيره في النفس من تجمع ويقظة ومن ذكره لله والتجاء إليه واستعانة به حين تسقط الأسناد في الشدة فلا يبقى إلا ستره عونا ، وعونه جل جلاله :﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧] .

فأما الرخاء فيُلهي ويُنسي ويُطغي : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾ [العلق:٦-٧] .

فالنعيم والرخاء فيلهي ويُنسي ويُطغي ويرخي الأعضاء ويقيم عناصر المقاومة في النفس ويهيئ الفرصة للغرور بالنعمة والاستنامة للشيطان والكبر والطغيان .

والله سبحانه الذي أعطى النعم للإنسان قادرٌ عل أخذها ، فهو الذي أعطاها وهو القادر على أخذها ، لأنه بيده المُلك:﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾ [الملك: ١] .

ولذلك فأول الأشياء في بقاء النعم نسبة الفضل إلى الله في حصولها للعبد ، وشكر الله عليها واستعمالها في طاعته ، وأداء حق الله فيها من الزكاة وإخراج حق ما أوصى الله بهم من الفقراء والمساكين وذلك الذي يحفظها ويزيدها بركة ونماءً :﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾ [إبراهيم:٧] .

فإن أنكر الإنسان قدرة الله في حصول النعمة ونسبها إلى نفسه ، عاقبه الله بتلفها وزوالها كما حصل لقارون حيث خسف الله به وبداره الأرض : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾[القصص:٨١] .

وإذا منع العبد حق الفقراء والمساكين منه عاقبه الله كذلك بزوالها وانتقم لحق الفقراء منه :﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ ﴾[النساء:١٢٣] .

الله ﷻ هو الرزاق ذو القوة المتين الذي تكفل بأرزاق الخلائق كلها ، كما قال سبحانه : ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ ﴾[هود:٦]

وليس المقصود هنا أن هناك رزقاً فردياً مقدراً لا يأتي بالسعي ولا يتأخر بالقعود ولا يضيع بالسلبية والكسل ، وإلا فإن الأخذ بالأسباب التي أمر الله بالأخذ بها ، فللدنيا أسباب من الكد والكدح ، وللآخرة أسباب من المجاهدة والأعمال الصالحة :﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ ﴾[الحج:٧٨] .

إن لكل مخلوقٍ رزقه علم الله كميته ونوعيته وحدد زمانه ومكانه ، وهذا الرزق مدخورٌ في هذا الكون مقدرٌ من الله في سنته التي ترتب الإنتاج على الجهد ، فالدنيا دار الإيمان والعمل والآخرة دار الثواب والعقاب ، فلا يقعدن أحدٌ عن السعي وابتغاء فضل الله ، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ

﴿ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠ ﴾ [الجمعة:٩-١٠] .

ولكن السماء والأرض تذخران بالأرزاق الكافية لجميع المخلوقات ، فالله ﷻ له خزائن السماوات والأرض وعنده خزائن كل شيء : ﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ٧ ﴾ [المنافقون:٧] .

فالسماء والأرض مملوءة بالأرزاق الكافية لجميع المخلوقات حين تطلبها هذه المخلوقات حسب سنة الله التي لا تحادي أحداً ولا تتخلف أو تحيد ، إنما هو كسبٌ طيب وكسبٌ خبيث وكلاهما يحصل من عمل وجهد ، فالأول له ثواب والثاني عليه عقاب .

فالإسلام نعمة الله الكبرى على البشرية ، فهل من يأخذها ويشكر المُنعِم بها ويتقرب إلى الله بها ويمشي بها في الناس:﴿ أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢٢ ﴾ [الأنعام:١٢٢] .

والإنسان مغمورٌ بنعم الله السابغة الوافرة التي لا يدرك مداها ولا يحيط بقدرها ولا يحصي أنماطها ، فهل ذكرته بربه ؟ وهل جعلها عونًا له على طاعته ؟ وهل دفعته إلى إخلاص العبادة للمنعم الشاكر ؟ .

قال الله تعالى: ﴿ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا ١٤٧ ﴾ [النساء:١٤٧] .

وقال الله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢ ﴾ [البقرة:١٧٢] .

واستمرار النعم تطرأ على العباد مع معاصيهم دليلًا أن المُنعِم غفورٌ رحيم ومن رحمته أنه لا يعطي النعمة للشاكرين وحدهم أو للمؤمنين وحدهم بل غمر بها المؤمن والكافر والمطيع والعاصي والبر والفاجر ، ومن رحمته سبحانه أنه لا يحرم من يعصيه من نعمه .

ولو لم يكن الله ﷻ رحمنًا رحيمًا لمنع نعمه عمن عصاه ، ولو لم يكن الله عفوًا غفورًا لمنع نعمه عمن كفر به ونعم الله لا تُعد ولا تُحصى وخزائنه مملوءة بكل نعمه وهي لا تنقص ولا تفنى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ ﴾[ص:٥٤] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾[الحجر:٢١] .

والله سبحانه تارة يعرض نعمه الواسعة على الخلق ، ثم يعرض بعد ذلك ما فعل الإنسان بهذه النعم، كما قال سبحانه : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[إبراهيم:٣٤]

وتارة يذكر نعمه على الخلق ثم يذكر عموم مغفرته ورحمته لمن أطاعه وعصاه ، كما قال سبحانه : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾[النحل:١٨] .

ولولا رحمة الله ولولا عفو الله ولولا مغفرة الله ما بقيت لنا نعمة: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾ ﴾[فاطر:٤٥] .

الله حكيمٌ عليم غنيٌ كريم ، فقبل أن ينزل الإنسان إلى الأرض خلق الله له النعم وهيأ له ظروف الحياة وقسم لكل إنسان رزقه سواء إن كان مؤمنًا أو كافراً ، فالنعمة سبقت المُنعِم عليه ، فالله خلق الإنسان فوجد الكون مهيأ له من ربه ، الشمس تدفئه وتعطيه الحياة والأرض تطعمه وتعطيه الثمر والمطر ينزل عليه فيسقيه ، والهواء موجود أينما كان ليتنفسه بسهوله ، والنهار مسخرٌ له ليعمل وينتج والليل مسخرٌ له لينام ويستريح .

فكل هذه الأشياء خلقها الله ليجدها الإنسان في الكون في خدمته قد سبقته :﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾[لقمان:٢٠] .

وقال الله تعالى:﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾[يس:٧١-٧٣] .

فالحمد لله على نعمه التي لا تُعد ولا تحُصى ، اللهم أرنا الحق حقًا وارزقنا إتباعه ، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه :﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾[الجاثية:٣٦-٣٧] .

موسوعة خزائن العلوم الإسلامية

١٥ - خزائن الحمد والشكر

وتشتمل على ما يلي :

١ - الخزانة الأولى

٢ - الخزانة الثانية

٣ - الخزانة الثالثة

٤ - الخزانة الرابعة

٥ - الخزانة الخامسة

٦ - الخزانة السادسة

٧ - الخزانة السابعة

٨ - الخزانة الثامنة

٩ - الخزانة التاسعة

١٠ الخزانة العاشرة

١٥-خزائن الحمد والشكر

١- الخزانة الأولى

النعم كلها من الله ﷻ .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾[النحل:٥٣] .

وقال الله تعالى:﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[إبراهيم:٣٤]

والنعمة تكون كاملة بثلاثة أمور :

١-أن تكون منفعة .

٢-أن تكون خالية من شوائب الضرر .

٣-أن تكون آمنة من خوف الانقطاع .

والنعمة الكاملة لا تحصل إلا من الله ﷻ فوجب ألا يستحق الحمد الكامل ، والشكر الكامل إلا الله تعالى.

قال الله تعالى : ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾[الجاثية:٣٦-٣٧] .

وقال الله تعالى:﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾[الفاتحة: ٢ – ٧].

والشكر في القرآن يصدر من جهتين :

الأولى : شكرًا من الرب لعبده ، ومعناه أن يثيبه الثواب الجزيل على عمله القليل ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[فاطر:٣٤] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾[البقرة:١٥٨] .

الثانية : شكرًا من العبد لربه على عظمته وجلاله وجماله وعلى عظيم نعمه وإحسانه ، ومعناه أن يستعمل العبد جميع نعم الله فيما يرضي الله ﷻ كما قال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾[البقرة:١٧٢] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾[النحل:٧٨] .

وقال الله تعالى: ﴿ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾[سبأ: ١٣] .

والفرق بين الحمد والشكر :

أن الحمد يكون بالثناء على الله بصفات الجلال والجمال ، وصفات المجد والعظمة والقدرة والكبرياء والعلم والرحمة .

أما الشكر فيكون بالثناء على الله بالمعروف والإحسان الذي أسداه إلى العبد، كما قال سبحانه : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾[الفاتحة: ٢ – ٤]

وقال الله تعالى: ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾[الجاثية:٣٦-٣٧] .

وقال الله تعالى: ﴿ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾[التغابن:١٧] .

وأعظم الشكر هو شكر الله ﷻ على نعمة الإسلام ، فالإسلام أعظم نعمة : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحجرات:١٧] .

والشكر على نعمة الإسلام أعظم شكر : ﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الجاثية:٣٦] .

ولهذا طلب الله من جميع الأنبياء والرسل والمؤمنين أن يشكروا الله ﷻ على هذه النعمة ، كما قال سبحانه : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [البقرة:١٥٢] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الزمر:٦٥-٦٦] .

والشكر يكون بالقلب واللسان والجوارح ، والشاكر هو من شكر الله فأقام الدين في حياته ، وقام بجُهد الدين وإبلاغ غيره : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ۚ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ [سبأ: ١٣] .

والشكر لله هبة من الله فهو الذي أنعم بالنعم ، وهو الذي أعان على شكرها : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النحل:٥٣] .

فالحمد لله رب العالمين حمدًا كثيرًا طيبًا ملء السماء وملء الأرض ومليء ما شئت من شيء بعد أن خلقتنا من عدم وأمددتنا بالنعم فلك الحمد والشكر ، والحمد لله على ما أعطاني من الخير وصرف عني من الشر ، والحمد لله الذي أنعم علي بنعمٍ لا تعد ولا تُحصى ، وأنعم على غيري

بصنوف النعم ، والحمد لله على كمال أسمائه وصفاته وأفعاله وعظمة ملكه وسلطانه وجمال دينه وشرعه وحسن ثوابه وعقابه .

والحمد لله الذي خلق كل شيء : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾[الأنعام:١] .

والحمد لله على الفضائل التي خصني بها من الإيمان والهداية والخَلق الحسن : ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾[الإسراء:٧٠] .

وقال الله ﷻ : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ ﴾[التين:٤-٦] .

فأنت يا الله أهل أن تُعبد ، وأهل أن تحُمد ، وأهل أن تُشكر وأهل أن تُطاع : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾[الفاتحة: ٢ – ٧]

لك الحمد والشكر على جمال ذاتك وجمال أسمائك وصفاتك وجميل نعمك وإحسانك ، أردت منا أن نتصف بالصفات التي تحبها فأنزلت إلينا الدين الحق الذي من اتبعه تجمل بالصفات التي تحبها : ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾[البقرة:١٣٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّآئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾[التوبة:١١٢] .

والحمد لله مع أنه مُكلف لعباده بالأوامر دليل على عظمة نعمة الهداية والعبادة التي خص بها أولياءه ، وأما نعمة الربوبية فهي عامة لكل الخلق : ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾[الجاثية:٣٦-٣٧] .

وقال الله تعالى:﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾[الأحقاف:١٥] .

الله جل جلاله هو الملك الحق الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلا والأفعال الحميدة والمثل الأعلى ، فوجب على الخلق أن يشكروه لكماله وجلاله وجماله : ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾[الجاثية:٣٦-٣٧] .

هو المنعم بجميع النعم نعمٌ ظاهرة ونعمٌ باطنه ، ونعمٌ في الدنيا ونعمٌ في الآخرة ، ونعمٌ على من آمن به ونعمٌ على من كفر به ، ونعمٌ داخل الإنسان ونعمٌ محيطة بالإنسان : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾[لقمان:٢٠] .

وكما ملأ الله الكون بنعمه العظيمة وسخرها للإنسان فيجب على العباد أن يشكروه بقدرها ليزيدهم من فضله ، ولكنه كريمٌ يرضى بالقليل من الشكر ، ويعطي الجزيل من الثواب على العمل القليل : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾[إبراهيم:٧] .

قال الله تعالى: ﴿ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [التغابن: ١٨] .

ونعم الله على خلقه عظيمة لا تعد ولا تُحصى ، والبشر عاجزون عن شكر نعمة واحدة منها ، فكيف بشكرها كلها : ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم:٣٤]

فنعم الله كثيرة لا يمكن للعقل إحصاءُها وإذا لم يمكن إحصاءُها لم تمكن القدرة على حمد الله على الوجه اللائق بها ، سواءً كانت هذه النعم نعمٌ مادية أو نعمٌ روحية وهي الدين .

لهذا كل ما خلق الله في السماوات والأرض فهو نعمة مسخرة للإنسان فوجب عليه شكرها في كل حال ، وكل طاعة وكل عبادة فهي نعمة من الله على هذا الإنسان ؛ ليصير على الصراط المستقيم إلى ربه العظيم الذي أكرمه ، لهذا أمرنا الله ﷻ بالاستغفار بعد العبادات الكبار بعد الصلاة وبعد الصيام وبعد الحج ، وأمر النبي ﷺ بكثرة الاستغفار في كل حال ، لعظيم حق الله وعجز الخلق عن شكر نعمه التي لا تُعد ولا تُحصى : ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم:٣٤]

ثم إن الإنسان إنما يمكنه القيام بحمد الله وشكره ، إذا أعانه الله وأقدره على ذلك الحمد ، وإذا خلق في قلبه داعية إلى فعل ذلك الحمد ، وإذا أزال عنه العوائق والموانع وكل ذلك من إنعام الله عليه : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ

إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٨﴾ ﴾[الحجرات:٧-٨] .

فلا يمكن لأحدٍ من الخلق القيام بحمد الله وشكره على نعمه العظيمة إلا بواسطة نعم عظيمة من الله تعالى عليه ، وتلك النعم توجب الحمد والشكر للمُنعم : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾[النحل:٥٣] .

ولما كانت نعم الله على العبد لا تُحصى امتنع عليه الإتيان بحمد الله وشكره على ما يليق به ، ولكنه سبحانه كريمُ يقبل القليل من العمل ويعطي عليه الجزيل من الثواب ، فالعبد عاجزٌ عن الإتيان بحمد الله وشكره على ما يليق به وعاجزٌ عن حمد الله وشكره حمدًا يقابل نعم الله عليه ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[الفاتحة: ٢]

فحمد نفسه قبل أن يخلق الحامدين له .

فبين سبحانه أن كل الحمد مُلكه وحقه سواءً قدر الخلق على حمده أو لم يقدروا عليه ، ولم يقل احمدوا الله ولو قال احمدوا الله لكلفهم بما لا طاقة لهم به، إذ يجب عليهم إحصاء النعم ثم القيام بشكر كل نعمه، والبشر عاجزون عن ذلك قطعًا لهذا حمد نفسه وعلمنا كيف نحمده بقوله : ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾ [الفاتحة: ٢ – ٤]

فإذا قال العبد : ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[الفاتحة: ٢].

شمل ذلك كل حمدٍ أتى به أحد من العالمين وكل حمد سيأتون به ، وذلك يشمل جميع المحامد التي ذكرها ملائكة العرش وسكان السموات السبع ، وسكان الأراضين السبع وجميع الخلق وجميع الأنبياء من لدن آدم ﷺ إلى

محمد ﷺ ، وجميع المحامد التي سيذكرونها إلى وقت قولهم في الجنة : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾[يونس:٩-١٠] .

فكل حمدٍ أتى به هؤلاء العالمين فهو له وهو مستحقه ؛ لأنه لكماله وجلاله وجماله ، هو المستحق للحمد والعبادة وحده لا شريك له : ﴿ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾ ﴾[الإسراء:٤٣-٤٤] .

فسبحان من تسبح السماوات والأرض ومن فيهن بحمده : ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾ ﴾[الحج:١٨] .

الفرق بين المدح والحمد والفرق بين الحمد والشكر :

أما الفرق بين المدح والحمد

فالمدح قد يكون للإنسان وغيره من المخلوقات ، ولكن الحمد للإنسان دون غيره من المخلوقات .

فالمدح أعم من الحمد، فقد أمدح الإنسان وأمدح جمال الزهرة .

أما الحمد فلا يكون إلا للإنسان ، والمدح يكون قبل الإحسان وبعده ، فقد يمدح الإنسان من يرجو ثوابه قبل أن يناله ، أما الحمد فلا يكون إلا بعد الإحسان ، والمدح قد يكون منهيًا عنه كما لو مدح غيره كاذبًا .

أما الحمد فهو مأمور به مطلقًا وأعظم الحمد للمنعم بكل نعمة : ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾[الجاثية:٣٦] .

وأما الفرق بين الحمد والشكر فالحمد يعم ما إذا وصل الإنعام إليك وإلى غيرك ، والشكر مختصٌ بالإنعام الواصل إليك : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾[الأنعام:١] .

فهذا حمدٌ لنعمة وصلت إليك وإلى غيرك وقال ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾[البقرة:١٧٢] .

فهذا حمدٌ خاص على ما أنعم به عليك ربك ، فالحمد لله ثناء على الله على كل إنعام أنعم به على خلقه سواء وصل إلي أو وصل إلى غيري فالله مستحق للحمد في كل حال سواء أعطاني أم لم يعطني ؛ لأن إنعامه واصلٌ إلى كل العالمين : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾[الفاتحة: ٢ – ٤]

فالحمد لله على ما دفع من البلاء والشكر لله على ما أعطى من النعماء ، والله وحده هو المستحق لجميع أنواع الحمد بسبب كثرة أياديه ، وأنواع آلاءه وإحسانه إلى عباده: ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾[الجاثية:٣٦-٣٧] .

والحمد والشكر والثناء حق الله ومُلكه والله محمود قبل حمد الحامدين وقبل خلق الحامدين وقبل شكر الشاكرين، وحمد الخلق لله أجره عائد عليهم : ﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [العنكبوت:٦] .

وقال الله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ﴾ [الإسراء:٧] .

ومعنى الحمد أن تحميد الله ليس عبارة عن قولنا الحمد لله ؛ لأن هذا اللفظ إخبارًا عن حصول الحمد لكن حقيقة الحمد : كل فعلٍ يشعر بتعظيم المنعم بسبب كونه منعمًا عليك .

وذلك الفعل ثلاثة أقسام :

إما أن يكون فعل القلب .. أو فعل اللسان .. أو فعل الجوارح .

ففعل القلب : أن يتيقن القلب أن الله موصوفٌ بصفات الجلال والجمال فيحمده لذاته وجلاله وجماله بقلبه وعظيم إنعامه وإحسانه .

وأما فعل اللسان : فيذكر الله ويحمده ويشكره ويثني عليه بلسانه .

وأما فعل الجوارح : فيؤدي العبادات التي مدارها على تعظيم الله والثناء عليه ويستعمل ما أنعم الله به عليه في طاعته وعبادته وحده لا شريك له : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١ - ٢٢]

وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾ [الحج:٧٧] .

وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١] .

وقال الله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣] .

٢- الخزانة الثانية

فقه الحمد والشكر :

كان الله ولم يكن شيئًا قبله ثم خلق الخلق ، وقد أثنى على نفسه بأنه الخالق لكل شيء فقال سبحانه : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٦٣ ﴾[الزمر:٦٢-٦٣] .

وقد أنعم الله ﷻ علينا بنعمٍ لا تُعد ولا تُحصى ، أنعم علينا بنعمة الخلق والإيجاد ، ونعمة القوت والإمداد ، ونعمة الهداية والإسعاد ، فكل مخلوق وكل موجودٍ في العالم العلوي والعالم السفلي فإنما حصل بإيجاد الله وفضله وإحسانه ، فالإيجاد نعمة من الله وكل موجود وكل مخلوق في عالم الأرواح وفي عالم الأجسام والعالم العلوي والعالم السفلي لله عليه نعمة ورحمة وإحسان .

والنعمة والرحمة والإحسان موجبة للحمد والشكر لله ﷻ : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢ ﴾[الأنعام:١٠٢] .

فلله الحمد والشكر على نعمه التي لا تُعد ولا تُحصى : ﴿ فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٦ وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٧ ﴾[الجاثية:٣٦-٣٧] .

فإذا قال العبد ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[الفاتحة: ٢]

استحضر في قلبه عظمة من يحمد وهو الله ﷻ الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلى والأفعال الكبرى والمثل الأعلى ، وعظمة جلاله وجماله وعظمة ملكه وسلطانه وعظمة نعمه وإحسانه ، وعظمة دينه وشرعه ، وعظمة النعم الصادرة منه الواصلة إلى كل ما سواه من خلقه : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحشر: ٢٢ -٢٤] .

وتَذكر العبد كثرة الحامدين له في كل مكان وفي كل زمان ، فما من ذرة في الكون إلا وهي شاهدة بوحدانية الله ومسبحة بحمده وخاضعة لأمره ومستجيبة لمشيئته ومسرعة إلى إرادته : ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء:٤٣-٤٤] .

فليس الحمد لله على النعم الواصلة إلينا فقط ولا على النعم الواصلة إلى غيرنا فقط ، بل الحمد الكامل لله على كمال ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله ، وعلى عظيم عطائه وإحسانه ، وعلى جمال دينه وشرعه ، وعلى حسن ثوابه وعقابه : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾ [الفاتحة: ٢ – ٧]

له الحمد جل جلاله وحده على كل مخلوق خلقه وعلى كل نعمة أنعم بها وعلى كل حدثٍ أحدثه من خلقٍ ورزقٍ ومن نور وظلمة ومن سكونٍ وحركة ، ومن خلق العرش العظيم ، وخلق الكرسي الكريم وخلق السماوات السبع والأراضين السبع ومن فيهما وما عليهما وما بينهما من عظيم وأنواع المخلوقات التي لا يحصيها ولا يعلمها إلا هو : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾[الأنعام:١] .

وقال الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾[الكهف:١-٣] .

اللهم ربنا لك الحمد على عظيم نعمك التي لا تُعد ولا تُحصى والحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا ملء السماء وملء والأرض وملء ما شئت من شيء بعد أهل الثناء والمجد وأحق ما قال العبد وكلنا لك عبد لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد .

الحمد لله الذي أنعم علي وعلى غيري وأعطاني خيرًا وصرف عني شرًا ، وأكرمني وخلقني وسواني في بطن أمي وأنعم علي لما خرجت بنعمٍ لا تُعد ولا تُحصى ، وأعظمها نعمة الإسلام فالحمد لله الذي مَن علي بالهداية والأمن في الدنيا : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾[الأنعام:٨٢].

والحمد لله الذي مَن علي بهذا الدين العظيم الذي بسببه يفوز العبد بالجنة وينجو من النار يوم القيامة ويسعد برضوان ربه : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾ [التوبة:٧١-٧٢] .

وقال النبي ﷺ « اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَلَكَ الْحَمْدُ ، أَنْتَ الْحَقُّ ، وَوَعْدُكَ حَقٌّ ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ ، وَالنَّارُ حَقٌّ ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمحُمَّدٌ حَقٌّ ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ ، وَبِكَ آمَنْتُ ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ ، وَبِكَ خَاصَمْتُ ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ » . متفق عليه[1] .

فقه الحمد والشكر :

الحمد لله جملة اسمية مكونة من مبتدأ وخبر ، والجملة الاسمية تدل على الثبوت والاستمرار ، والدين كله مجموعٌ في هذه الكلمة فالحمد لله على نعمه التي لا تُعد ولا تُحصى: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾[النساء:١٤٧] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (١١٢٠) واللفظ له ، ومسلم برقم: (٢٠١/ ٧٧١).

وقال الله تعالى: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [البقرة:١٥٢] .

والحمد لله لها تعلقٌ بالماضي ولها تعلقٌ بالحاضر ولها تعلقٌ بالمستقبل ، أما تعلقها بالماضي فهو أن الحمد يقع شكرًا على النعم المتقدمة ، وأما تعلقها بالحاضر هو أن الحمد يقع شكرًا على النعم الحاضرة ، وأما تعلقها بالمستقبل فهو أن الحمد يوجب تجدد النعم وزيادتها في المستقبل : ﴿ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ﴿٧﴾ ﴾ [إبراهيم:٧] .

والنعم السابقة توجب حب الله وحب عبادته والقيام بطاعته ، فإذا حصل للعبد ذلك واشتغل بالشكر فتح الله له أبواب معرفته ، ومعرفة أنواع نعمه فأحبه وأطاعه: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴿١٩﴾ ﴾ [محمد: ١٩] .

وقال الله تعالى: ﴿ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الواقعة:٧٤] .

والتسبيح تنزيه الله عما لا يليق بجلاله من صفات النقص والعيب ومشابهة الخلق : ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى:١١] .

وقال الله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿١﴾ ﴾ [الجمعة: ١]

والتحميد يدل على التسبيح دلالة تضمن ؛ لأنه يدل مع حصول تلك الصفة على كون الله محسنًا إلى الخلق منعمًا عليهم رحيمًا بهم ، كما قال سبحانه : ﴿ سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ [الصافات:١٨٠-١٨٢] .

فالتسبيح تنزيه الخالق جل جلاله عما لا يليق به والتحميد وصف الخالق بما يليق به من الأسماء الحسنى والصفات العلى والأفعال الحميدة والمثل الأعلى : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ [طه:٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء:٤٣-٤٤] .

والله ﷻ هو الخالق الذي أحسن إلى خلقه بأنواع الإحسان ، الكريم الذي أحسن إلى خلقه بكل شيء الغني عن كل ما سواه ، فهو الغني عن كل أحد الذي يحتاج إليه كل أحد ، هو الحميد الذي يستحق الحمد من كل ما سواه لما له من الأسماء الحسنى والصفات العلا والأفعال الكبرى والمثل الأعلى .

فله الحمد وحده على كماله وإحسانه : ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الجاثية:٣٦-٣٧] .

واعلم أن الله ﷻ لا يكون محُسنًا إلى العباد إلا إذا كان عالمًا بجميع المعلومات ليعلم أصناف حاجات العباد : ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنعام:٥٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾ ﴾[الطلاق:١٢] .

ولا يكون محسنًا كذلك إلا إذا كان قادرًا على كل المقدورات ليقدر على تحصيل ما يحتاج إليه الخلق وإيصالها إليهم فهو القادر على كل شيء ، وغيره عاجزٌ عن كل شيء ، ولولا أن الله أقدره لما قدر: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾[آل عمران:٢٦-٢٧] .

وقال الله تعالى : ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[الملك: ١] .

ولا يكون محسنًا كذلك إلا إذا كان غنيًا عن كل الحاجات ، فلو لم يكن غنيًا لاشتغل سبحانه بدفع الحاجة عن نفسه عن دفع حاجة غيره ، فثبت أن كونه محسنًا لا يتم إلا بعد كونه منزهًا عن النقائص والآفات والعيوب ومشابهة الخلق: ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[يونس: ٦٨].

وإذا أحسن الرب إلى الخلق فيجب عليهم أن يحمدوه ويشكروه على إنعامه وإحسانه :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[البقرة: ٢١ - ٢٢]

٣- الخزانة الثالثة

المستحق للحمد :

المستحق للحمد على الإطلاق هو الله الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلا والأفعال الجميلة والمثل الأعلى : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ [طه:٨] .

وقال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [البقرة:٢٥٥] .

وقال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحشر: ٢٢ -٢٤] .

المستحق للحمد والشكر هو الله الذي له الأفعال الجميلة ، الأفعال الحميدة ، الأفعال الكبرى ، الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم:﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾: [الإنسان:٢-٣] .

وقال الله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [النحل:٤-٥] .

وقال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[النحل:١٠-٢٢]

المستحق للعبادة هو الذي له المثل الأعلى في السماوات والأرض :﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾[الروم: ٢٧] .

هو العزيز الحكيم الكريم الذي لا ظُلم في أحكامه ولا جَور في أقضيته ولا نقص في أفعاله ولا حاجة به إلى مخلوقاته :﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾[النساء:٤٠] .

وقال الله تعالى: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [البقرة:١٥٢] .

المستحق للعبادة هو الملك الحق الذي له ملك السماوات والأرض ، وله ما في السماوات والأرض ، وله جنود السماوات والأرض ، وله خزائن السماوات والأرض ، وله غيب السماوات والأرض ، وله ميراث السماوات والأرض ، المستحق للعبادة هو الله الذي له مُلك العالم العلوي ومُلك العالم السفلي وله مُلك عالم الغيب وعالم الشهادة ، وله مُلك الدنيا ومُلك الآخرة : ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾[الملك: ١] .

وقال الله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ۝١٤﴾[فاطر :١٣-١٤] .

وقال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ۝١٠٢﴾[الأنعام:١٠٢] .

لهذا كان الله ﷻ مستحقًا لأعظم المحامد لعظيم نعمه وإحسانه ولجلاله وجماله ، فهو المستحق لأعظم المحامد وجميل المدائح وعظيم الشكر وكثرة الذكر : ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٦ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣٧﴾[الجاثية:٣٦-٣٧] .

وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٤٢ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝٤٣﴾[الأحزاب:٤١-٤٣] .

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ۝٧﴾[إبراهيم:٧] .

وكل حمدٍ ومدحٍ وشكرٍ من الناس للناس فإنما هو حمدٍ لله الذي خلقهم وأعطاهم ما يشكرون عليه : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٦١﴾﴾[غافر:٦١] .

فكل شيء في الكون من نعمة من نعمه وفضله وإحسانه : ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴿٣٤﴾﴾[إبراهيم:٣٤]

فكما ملأ الله الكون بنعمه التي لا تُعد ولا تُحصى ، فيجب علينا أن نملأه بحمده وشكره وذكره وتسبيحه وعبادته آناء الليل وآناء النهار : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾[الأحزاب:٤١-٤٢] .

وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٧٧﴾﴾[الحج:٧٧] .

والله ﷻ أثبت الحمد لنفسه فقال : ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[الفاتحة: ٢]

ثم وصف نفسه بكونه ربًا للعالمين جميعًا رحمانًا رحيمًا بالعالمين جميعهم، مالكًا لهم ومالكًا لعاقبة أمرهم يوم القيامة فقال : ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾[الفاتحة: ٢ – ٤]

ثم بين كيفية الحمد بقوله سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴿٥﴾﴾[الفاتحة: ٥]

وهذا يدل على أن استحقاق الله للحمد لكونه تعالى مربيًا لعباده ، رحمانًا رحيمًا بهم مالكًا لهم في أخراهم كما هو مالكٌ لهم في دنياهم : ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ

وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾[الفاتحة: ٢ – ٧]

ليس في الكون إلا اثنان :

١-منِعم .

٢-ومُنَعم عليه بالخلق والإيجاد

وهم كل ما سوى الله ﷻ : ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۗ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [غافر:٦٥] .

وقال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾[الأنعام:١٠٢-١٠٣] .

وأعظم نعمة يُحمد الله عليها هي أنه رب العالمين الذي خلقهم ويربيهم بنعمه الظاهرة والباطنة : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الفاتحة: ٢]

والمربي على قسمين :

أحدهما : مربي يربي غيره ليربى عليه المربي .

الثاني : مربي يربي غيره ليربى عليه المربىَ .

فالأول : تربية الخلق لأنهم إنما يربون غيرهم من الناس ليربحوا عليهم ثوابًا أو ثناءً أو مالًا .

والثاني : هو الحق سبحانه الذي يربي خلقه ويحسن إليهم لمصلحتهم لا ليربى عليهم ؛ لأنه الغني عن كل ما سواه : ﴿۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾[فاطر: ١٥] .

وتربية الله تختلف عن تربية غيره من الناس من وجوه :

الأول : أن تربية الرب لعبيده لا لغرضه نفسه بل لمصلحتهم ، وغيره يربي لغرض نفسه لا لغرض غيره : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٢]

وقال الله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾ [الأنعام:١] .

وقال سبحانه : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ ﴾ [الكهف:١٣] .

فالله غنيٌ عن العالمين وعن عبادتهم ، فهو الذي سبح نفسه قبل أن يسبحه أحد : ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ [الصافات:١٨٠] .

وحمد نفسه قبل أن يحمده الحامدون : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٢]

وشهد لنفسه بالوحدانية قبل أن يخلق من يشهد له بالوحدانية : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران:١٨] .

الثاني : أن الله يربي ولا تنقص خزائنه ولو نقصت خزائنه لما صلح أن يكون إلهًا يُعبد ؛ لأن الناقص لا يُعبد إنما يُعبد الكامل في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله ، ووجود الناقص دليلًا على وجود الكامل فلابد للناقص أن يتوجه إلى الكامل جل جلاله ليكمله ويهديه سواء السبيل :﴿ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٠-٥١] .

فالله يربي ولا تنقص خزائنه وغيره يربي فتنقص خزائنه .

الثالث : أن الله يفرح بإلحاح الفقير بسؤاله ويحبه وغيره من المحسنين إذا ألح عليه الفقير أبغضه وحرمه ، والله سبحانه كريمٌ العطاء أحب إليه من المنع ، والرحمة أحب إليه من الانتقام.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾[البقرة:١٤٣] .

الرابع : أن الرب سبحانه يعطي عبده قبل السؤال وبعد السؤال ، فهو الذي رباك حين كنت جنينًا في رحم الأم ورزقك وأحسن إليك ، مع أنك ما سألته أما غيره من المحسنين فلا يعطيك إلا إذا طلبت منه .

الخامس : أن الله ﷻ وصل إحسانه إلى عموم خلقه في كل آن وفي كل مكان ، أما غيره من المحسنين فيخص إحسانه بقومٍ دون قوم .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[يونس:٦٠] .

السادس : أن إحسان الله ﷻ إلى خلقه لا ينقطع أبدًا .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾[النحل:٥٣] .

وقال الله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾[يونس::٣١-٣٢].

إلى عبادة غير الله وتتركون عبادة الذي خلقكم ورزقكم وأنعم عليكم بكل نعمة : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾[النحل: ١٧ - ١٨]

السابع : أن إحسان الله ﷻ إلى خلقه لا ينقطع أبدًا أما غيره من المحسنين فينقطع إحسانه ، إما بسبب الفقر أو الغيبة أو الموت ، فلهذا كله ثبت أن الله ﷻ رب العالمين وأن رب العالمين هو المستحق للحمد وحده لا شريك له فهو المحسن إلى الخلق أجمعين ، فلهذا استحق الحمد وحده، فقال : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ ﴾ [الفاتحة: ٢ – ٤]

جهات التعظيم والشكر الذي يحُمد ويُشكر ويُعظم ويُبجل من الخلق في الدنيا لأحد أربعة أمور :

١ – إما لكونه كاملًا في ذاته وصفاته منزهًا عن النقائص والآفات .

٢ –إما لكونه محسنًا إليك وإلى غيرك .

٣–إما لأنك ترجو وصول إحسانه إليك في المستقبل .

٤ – إما لأنك خائف من قهره وسطوته في المستقبل .

فهذه هي الجهات الموجبة للتعظيم وللشكر بين الخلق ، ولا يستحق التعظيم المطلق والحمد المطلق على وجه الكمال إلا الله وحده ، لما له من الأسماء الحسنى والصفات العلى والأفعال الحميدة والمثل الأعلى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٨٠ ﴾ [الأعراف:١٨٠] .

وقال سبحانه : ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦٥ ﴾ [غافر:٦٥] .

فكأن الله ﷻ يقول لعباده إن كنتم ممن يعظمون الكمال الذاتي فاحمدوني فإني إله العالمين : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ [الفاتحة: ٢]

وإن كنتم ممن يعظمون الإحسان فأنا رب العالمين : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الفاتحة: ٢]

وإن كنتم ممن يعظمون للطمع في المستقبل فأنا الرحمن الرحيم : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾[البقرة:١٦٣] .

وقال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ ﴾[الحشر: ٢٢] .

وإن كنتم تعظمون للخوف فأنا مالك يوم الدين : ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾[الحجر:٤٩-٥٠] .

ووجوه تربية الله لخلقه كثيرة غير متناهية ، فالله رب كل مخلوق يربيه ظاهرًا وباطنًا : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾[الأنعام:١٠٢] .

فالإنسان مثلًا خلقه الله من نطفة وقعت من صلب الأب إلى رحم الأم ، ثم كان علقة ثم مضغة ثم تَولد منها بإذن ربها أعضاء مختلفة من العظام والأعصاب والأوردة والشرايين والعروق ، ثم اتصل البعض بالبعض ثم حصل بكل واحد نوع خاص من أنواع القوى فحصلت القوى الباصرة في العين ، والقوة السامعة في الأذن ، والناطقة في اللسان ، وكل ذلك يدل على تربية الله تعالى للعبد :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾[الحج:٥] .

وقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ٨ ﴾[الانفطار:٦ -٨] .

ثانيًا : النبات مثلًا الحبة الواحدة منه إذا وقعت في الأرض وسُقيت بالماء انتفخت وانشقت من أعلاها وأسفلها .

أما الشق الأعلى فيخرج منه الجزء الصاعد من الشجرة فيحصل منه الساق ثم الأغصان ثم الأوراق ثم الأزهار ثم الثمار المختلفة الحجم واللون والطعم .

وأما الجزء الأسفل فيخرج منه العروق التي تغوص في الأرض ، والله يربيها في كل الأحوال من أجل الإنسان :﴿ أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٢٠ ﴾[لقمان:٢٠] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٥ ﴾[الحج: ٥]

ثم رتب الله على هذا وعلى خلق الإنسان خمسة أمور، فقال : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ٧ ﴾[الحج: ٦ – ٧]

لهذا اعبدوه واحمدوه واشكروه لأنه الذي خلقكم ورزقكم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢ ﴾[البقرة: ٢١ – ٢٢]

ثالثًا : خلق الله النجوم والأفلاك الشمس والقمر لحصول مصالح الخلق ، فخلق الليل والنهار، الليل للراحة والسكون والنهار للمعاش والحركة، كما قال سبحانه : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ﴿٤٨﴾ لِّنُحۡيِۦَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٥٠﴾ ﴾ [الفرقان:٤٧-٥٠] .

فلا إله إلا الله ما أجهل أكثر الخلق بربهم ، وما أكثر طاعتهم لعدوه وعدوهم وهو الشيطان .

قال الله تعالى : ﴿ ۞ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦١﴾ ﴾ [يس:٦٠:٦١].

٤- الخزانة الرابعة

فقه الحمد :

الحمد لله رب العالمين ثناءً أثنى الله به على نفسه وهو متضمن لأمر عباده أن يثنوا عليه به ، وحمد الله ﷻ له ظرفٌ يقع فيه ، فمن ظروفه المكانية السماوات والأرض، كما قال سبحانه : ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الروم:١٧-١٨] .

ومن ظروفه الزمانية الدنيا والآخرة، كما قال سبحانه : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [القصص: ٧٠]

وأعظم صيغة جامعة للحمد كله ما أثنى الله بها على نفسه وأمر النبي ﷺ بقراءتها في كل ركعة في كل صلاة فريضة كانت أو نافلة : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾ [الفاتحة: ٢ – ٧]

فهي شاملة لحمد الله على كل نعمة ظاهرة أو باطنة ، والله جل جلاله هو المنعم بكل نعمة ، لذا وجب أن يكون الحمد كله له ، ولما كانت : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٢]

فاتحة الشكر جعلها الله فاتحة كلامه في كتابه العظيم ، ولما كانت خاتمة الشكر جعلها الله خاتمة كلام أهل الجنة يوم القيامة ، كما قال سبحانه عن أهل الجنة : ﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [يونس: ١٠] .

فالحمد لله الذي كل نعمة من فضله وإحسانه ، والحمد لله على كمال أسمائه وصفاته ، والحمد لله على عظمة ملكه وسلطانه ، والحمد لله على كمال دينه وشرعه : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾[الأنعام:١] .

والحمد لله على نعمة الإسلام والقرآن : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ ﴾ [الكهف:١-٣] .

وكل من كانت نعم الله عليه أكثر ، فيجب أن يكون أحمد الحامدين وأكثرهم حمدًا .

ومحمدُ ﷺ أعظم الخلق نعمة فهو رسول رب العالمين ، أرسله الله رحمة للعالمين فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين ، فهو أحمد الناس لربه ولهذا سماه ربه محمد وأحمد فهو أحمد الخلق لربه .

وهو المحمود في السماوات والأرض من بين سائر الخلق ، وإذا كان كذلك لزم أن تكون رحمة الله في حقه أعظم من جميع العالمين:﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾[الإسراء:٧٩] .

الرحمن الرحيم أنزل كتابه العظيم على من أرسله رحمة للعالمين : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾[الأنبياء:١٠٧] .

وقال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا [التوبة:١٢٨] .

فلله الحمد والشكر على نعمة الإسلام والقرآن والهداية إلى الصراط المستقيم ، وله الحمد والشكر أن أرسل إلينا أفضل رسله وأنزل علينا أحسن كتبه : ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾[الجاثية:٣٦-٣٧] .

فقه الشكر :

الشكر هو :

القيام بطاعة المنعم في جنس ما أنعم عليك وأعم ، فإذا أنعم الله عليك بالمال فليرى الله أثره عليك في بيتك ولباسك ونفقاتك وصدقاتك ، ليرى عليك أثر نعمة الله عليك في هذا المال ؛ لأن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾[البقرة:١٧٢] .

وقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴾[البقرة:٢٦٧] .

وإذا أنعم الله عليك بنعمة العلم ؛ فليُرى عليك أثر هذا العلم من العمل به ونشره بين الناس وتعليمه الخلق والدعوة إلى الله : ﴿ كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾[آل عمران:٧٩] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾[النساء:١١٣] .

وإذا أنعم الله عليك بالصحة ، فبشكر هذه النعمة طاعة الله بها ومساعدة إخوانك ، والإحسان إلى الخلق : ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ

وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٤].

وقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الحج:٧٧] .

والشكر له فائدتان :

الأولى : الاعتراف بفضل الله وإحسانه ، كما قال سليمان حين وصل إليه عرش بلقيس : ﴿ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٞ كَرِيمٞ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النمل:٤٠] .

الثاني : أن الشكر سبب لزيادة النعمة: ﴿ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ﴿٧﴾ ﴾ [إبراهيم:٧] .

الشكر من حيث فاعله قسمان :

شكر العبد لربه .. وشكر الرب لعبده .

فشكر العبد لربه :

هو أن يستعين بنعمه على طاعته : ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل:٧٨] .

وشكر الرب لعبده :

هو أن يثيبه الثواب الجزيل على عمله القليل كما قال سُبْحَانَهُ : ﴿ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ﴿٧﴾ ﴾ [إبراهيم:٧] .

وقال الله تعالى: ﴿ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [التغابن:١٧] .

وقال الله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [البقرة:١٥٨] .

والله ﷻ هو المنعم بكل نعمة ، فيجب على الإنسان أن يشكر هذه النعمة بقلبه ولسانه وجوارحه .

وصفة التحدث بالنعمة أن التحدث بالنعمة التي أنعم الله بها على عباده نوعان :

تحديثٌ باللسان .. تحديثٌ بالأركان .

التحديث باللسان :

كأن يقول الإنسان الحمد لله الحمد لله الذي أنعم علي بنعم كثيرة ، كنت فقيرًا فأغناني الله ، وكنت جاهلًا فعلمني الله ، وكنت ضالًا فهداني الله ، وكنت جائعًا فأطعمني الله ، وكنت عاريًا فكساني الله ، وكنت معدومًا فأوجدني الله ، وهكذا : ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٣] .

الثانية التحديث بالأركان :

وهي أن ترى أثر نعمة الله عليك بين الناس ، فتلبس لباس الأغنياء لا لباس الفقراء وتركب كذلك وتسكن كذلك وتأكل كذلك وتنفق كذلك ، والله ﷻ يحب أن يرى أثر نعمته على عبده : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن

﴿ طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢ ﴾ [البقرة:١٧٢] .

وقال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٩ ﴾ [البقرة:٢٩] .

وإذا أعطاك الله علمًا تحدث به الناس وتنفعهم به وتعمل به ؛ لأن هذا من التحدث بنعم الله وشكرها ، كما قال سُبْحَانَهُ : ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ١١ ﴾ [الضحى:١-١١] .

فلله الحمد والشكر على نعمه التي لا تُعد ولا تُحصى : ﴿ فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٦ وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٧ ﴾ [الجاثية:٣٦-٣٧] .

٥- الخزانة الخامسة

الحمد هو وصف الله بالمحامد والكمالات وتنزيهه عن كل ما ينافي ذلك ، وأعظم حمدٍ لله هو ما جعله الله فاتحة لكتابه العظيم :﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾[الفاتحة: ٢ – ٧]

فهو سبحانه المنعم بكل نعمة ، المحمود على كل نعمة ، هو أهل الحمد والشكر ، أهلٌ أن يعبد ، وأهلٌ أن يطاع فلا يعصى ، وأن يُذكر فلا يُنسى ، وأن يُشكر فلا يُكفر ، يحمد سبحانه على جميع إحسانه وإنعامه ، وعلى كمال أسمائه وصفاته مع المحبة والتعظيم والذل له : ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾[الجاثية:٣٦-٣٧] .

والله سبحانه قد حمد نفسه في ابتداء خلقه المخلوقات، فقال سبحانه : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾[الأنعام:١] .

ثانياً : حمد نفسه عند انتهاء الخلق، فقال سبحانه عن أهل الجنة :﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾[الزمر:٧٤-٧٥] .

ثالثاً : حمد الله نفسه على كمال أسمائه وصفاته وتنزهه عن الشريك والند، فقال سبحانه : ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾ ﴾ [الإسراء:١١٠-١١١] .

رابعاً : حمد الله نفسه على ما أنزل على عبده من الدين الحق في كتابه العظيم، فقال سبحانه : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ ﴾ [الكهف: ١ - ٤]

خامساً : حمد الله نفسه على كمال أسمائه وصفاته وجلاله وجماله ، ونعمه المادية والروحية ، فهو المحمود الذي يستحق الحمد على كل حال، كما قال سبحانه : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾ [الفاتحة: ٢ – ٤]

هو جل جلاله المحمود في ابتداء الخلق ، وفي استمرار الخلق ، وفي انتهاء الخلق ، ومحمودٌ في كل حال ، ولهذا حمد الله نفسه وأمر بحمده، فقال سبحانه : ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ

ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [النمل:٥٩-٦٦] .

فهذا هو الرب الذي يستحق أن يُعبد، وأن يُشكر فلا يُكفر، وأن يُطاع فلا يُعصى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام:١٠٢-١٠٣] .

فحمد الله واجبٌ على كل إنسان لجلاله وجماله وإنعامه وإحسانه : ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [الجاثية:٣٦-٣٧] .

وأخبر سبحانه أن جميع المخلوقات تسبح بحمده.

قال الله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤] .

وأخر دعاء أهل الجنة حمد ربهم، كما قال سبحانه : ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يونس: ١٠] .

ومن فوائد الحمد :

١- أن الإنسان إذا ابتدأ الشيء بحمد الله إن الله يجعل فيه البركة ، فكل أمر لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أقطع منزوع منه البركة ، كما قال النبي ﷺ .

٢- أن الله يرضى عن العبد إذا أكل الأكلة ، أو شرب الشربة وحمد الله عليها ، كما قال النبي ﷺ : « إِنَّ اللهَّ لَيَرْضَى عَنْ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا » . أخرجه مسلم[1] .

اللهم لك الحمد حتى ترضى ، ولك الحمد إذا رضيت ، ولك الحمد بعد الرضا ، الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً ملء السماء وملء الأرض وملأ ما شئت من شيء بعده ، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد ، لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد ، لا إله إلا أنت .

فقه الحمد :

الله ﷻ محمودُ على كل حال ، يُحمد في حال السراء والضراء ، أما في السراء فيحمد الإنسان ربه حمد شكر على نعمته عليه ، وأما في الضراء فيحمد الإنسان ربه حمد تفويض لأنه لا يدري فلعل المصلحة فيما يكره ، فيحمد ربه على كل حال.

قال الله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ [البقرة:٢١٦] .

ولهذا كان النبي ﷺ : « إِذَا أَتَاهُ أَمْرٌ يَسُرُّهُ قال الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وإذا أتاه أمر يكرهه قال الحمد لله على كل حال » . أخرجه ابن ماجة[2] .

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٨٩/ ٢٧٣٤).

(٢) أخرجه ابن ماجة برقم: (٣٨٠٣) .

والحمد لله مبني على أمرين :

أحدهما : وجود الإله .

والثاني : كونه مستحقاً للحمد .

أما وجود الإله، فإن هذا العالم الكبير بما فيه من السماوات والأرض والجبال والبحار والشمس والقمر والجماد والنبات والحيوان والإنسان، محتاجاً إلى خالقًا يخلقه ومدبراً يدبره ومربي يربيه ، وذلك هو الله رب العالمين الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلا : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ٨ ﴾ [طه:٨] .

وقال الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣ ﴾ [الأنعام:١٠٢-١٠٣] .

الثاني : أن الله وحده هو المستحق للحمد دون سواه .

فكل إنسانٍ في الدنيا لا يخلو من أمرين :

١-إما أن يكون في السلامة والكرامة .

٢- أو يكون في الفقر والمكاره .

فإن كان في السلامة والكرامة :

فأسباب ذلك إن ما حصل له بخلق الله وتكوينه وإيجاده ورحمته : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ٥٣ ﴾ [النحل:٥٣] .

وإن كان في الفقر والمكاره :

فإن كان من الله فالله سبحانه وعد بالثواب الجزيل لمن نزل به البلاء وصبر : ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ

عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧] .

وإن كان البلاء من العباد ، فالله وعد المظلوم بأن ينتصف للمظلوم من الظالمين يوم القيامة، كما قال سبحانه : ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾ [الفاتحة: ٢ – ٤]

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [إبراهيم:٤٢] .

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾ [الغاشية:٢٥-٢٦] .

فثبت بذلك أن الذي يستحق الحمد الذي لا نهاية له هو الله وحده لا شريك له : ﴿ فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الجاثية:٣٦-٣٧] .

والحمد لله فاتحة الشكر وخاتمته ، ولما كانت هذه الكلمة فاتحة الشكر جعلها الله فاتحة كتابه العظيم : ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٢]

وكانت خاتمة كلام أهل الجنة فقال : ﴿ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [يونس: ١٠] .

والحمد لله أول كلام آدم ﷺ ؛ فإنه لما خلقه الله ونفخت فيه الروح ، عطس ، فقال : الحمد لله رب العالمين ، فأول كلمات الله : ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٢]

هي فاتحة كتابه العظيم ، وأخر أنبياء الله محمدٍ رسول ﷺ ، وبين الأول والأخر مناسبة ، فجعل سبحانه أول آية من كتاب محمد الذي أنزله عليه : ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٢]

كذلك وضع لمحمد ﷺ من كلمة الحمد اسمان أحمد ومحمد : ﴿ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾[الصف:٦] .

وقال الله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ ﴾[الفتح:٢٩] .

فهو أحمد الخلق لربه ، ومحمد يحمده أهل السماء والأرض ويصلي عليه الله وملائكته .

والنبي ﷺ أحمد الحامدين لربه؛ لأنه أعرف الخلق بربه وبنعم ربه، لأن نعم الله عليه أكثر وكثره الحمد بحسب كثره النعمة والرحمة ، والمرسل لمحمد ﷺ له اسمانٍ مشتقان من الرحمة هما الرحمن الرحيم : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ ﴾[الحشر: ٢٢] .

والرسول ﷺ له اسمانٍ مشتقان من الرحمة هما محمد وأحمد : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾[التوبة:١٢٨] .

وقال سبحانه : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾[الأنبياء:١٠٧] .

وكتاب الله ﷻ كله رحمة : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾[الإسراء:٨٢] .

ورسول الله ﷺ رحمة للخلق كلهم : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾[الأنبياء:١٠٧] .

ونحن علينا أن نحمد الرب على نعمه التي لا تُعد ولا تُحصى ، ونرحم الخلق بدعوتهم إلى دينه وعبادته وحده لا شريك له : ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾[إبراهيم:٥٢] .

وقال الله تعالى: ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾[الجاثية:٣٦-٣٧] .

الله ﷻ أنعم على عبادة بنعمًا لا تُعد ولا تحُصى، كما قال سبحانه : ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[إبراهيم:٣٤]

وهذه النعم نوعان :

نعمُ مادية .

ونعمُ روحية .

وكلها من الله ﷻ : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾[النحل:٥٣] .

فالنعم المادية : هي كل ما خلقه الله في هذا الكون من أجل الإنسان، كما قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾[لقمان:٢٠] .

والنعم الروحية : هي الدين الذي أرسل الله به رسله ، وأنزل به كتبه لإسعاد العباد في الدنيا والآخرة، كما قال سبحانه : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾[المائدة:٣] .

فله سبحانه الحمد على جميع نعمه المادية والروحية حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، ملء السماء وملء الأرض وملء ما شاء الله من شيءٍ بعد .

له الحمد سبحانه على نعمة الصحة والعافية ، وله الحمد على نعمة الأمن والرخاء ، وله الحمد على نعمة الطعام والشراب، وله الحمد على نعمة السكن واللباس ، وله الحمد على نعمة المراكب في البر والبحر والجو ، وله الحمد على خلق الليل والنهار .

وله الحمد على خلق الزروع والثمار ، وله الحمد على خلق ما يؤكل وما يُركب من الحيوان ، وله الحمد على نعمة الإسلام ، وعلى نعمة الهداية ، وعلى نعمة الاستقامة ، وعلى نعمة الطاعة والعبادة : ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾[الجاثية:٣٦-٣٧] .

والله سبحانه غنيٌّ كريم ، ويده سحاء بالليل والنهار لا تغيظها نفقة : ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾[الحجر:٢١] .

فموجب كل نعمة وكل طاعة لله شكرٌ للرب على نعمة الهداية ، وعلى نعمة العطاء الذي يعطيه الله ﷻ لعباده بغير حساب وبغير ثواب .

ومن العجيب أن الله يربى العباد كأنه ليس لهم عبيدٌ سواه، وأنت تخدمه كأن لك رباً غيره، ويفتح لك أبواب خزائنه وأنت واقفٌ بباب أضعف خلقه، فما أعظم وما أحسن هذه التربية من رب العباد لعباده، فالحمد لله رب العالمين .

أليس الله يطعمك ويسقيك كل يوم من غير عِوض ، أليس مولاك يمدك كل يوم بالصحة والعافية والنور والهواء من غير عِوض ، أليس الله يحفظك في النهار من الآفات من غير عِوض ، أليس الله يحفظك بالليل من المخافات من غير عِوض ، أليس الله الذي هداك إلى الصراط المستقيم وأعانك على سلوكه من غير عِوض: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾[إبراهيم:٣٤]

والعبد لجهله وظلمه قد زج نفسه بالليل والنهار في أنواع المحظورات ، وأقسام المحرمات والمنكرات ، والله يوالي عليه نعمه وإحسانه :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ٨ ﴾[الانفطار:٦ -٨] .

فما أعظم إحسان الله إلى عباده ، وما أحسن تربيته لهم ، وما أحبه لرحمتهم وإكرامهم ، وما أشد عنايته بهم:﴿ قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ ٤٢ ﴾[الأنبياء:٤٢] .

إنه الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر :﴿ فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٦ وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٧ ﴾[الجاثية:٣٦-٣٧] .

إن أعمار هذه الأمة ما بين الستين إلى السبعين سنة ، وقليلٌ منهم من يجاوز ذلك ، فإذا كان عمر الإنسان سبعين عاماً نصفها نهار ونصفها ليل ، فهو في نوم خمس وثلاثون سنة أو في اليقظة خمس وثلاثون سنة ، فإذا أخذنا منها خمس عشرة سنة قبل البلوغ فبقي عشرون سنة ، وفي هذه العشرين سنة أعذارٌ وأحوالٌ مختلفة ، لعب ولهو وسفر ومرض وغفلة وسهو وغير ذلك .

فيبقي عشر سنوات هي عمر الإنسان الديني ، وهذه العشر سنوات لا تعدل يوم واحد في الجنة ، وكان العدل أن يبقى في الجنة بقدر ما عمل ولكنه فضل الله وكرمه ورحمته التي وسعت كل شيء فله الخلود أبدًا والنعيم أبدًا : : ﴿ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٧ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ١٨ ﴾[الأنعام:١٧-١٨] .

فمن قيد نفسه بأوامر الله في هذه الحياة لساعات قصيرة في الدنيا فالعدل أن يأخذ ثواب هذه الساعات مثلاً بمثل يوم القيامة ، ولكن الكريم المنان أعطاه حياة أبدية وسعادة أبدية ، وطيبات أبدية ولذات أبدية وخدمة أبدية وقصور أبدية وفوق ذلك كله رضاه سبحانه ورؤيته : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[السجدة: ١٧] .

فسبحان العزيز الغني الكريم ، صاحب الجود والفوز والإنعام والإحسان ، وله الحمد والشكر على ما أنعم به علينا من نعمة الظاهرة والباطنة في الدنيا ، وله الحمد والثناء والشكر على ما أعد لأوليائه وأهل طاعته من النعيم المقيم يوم القيامة .

قال الله تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾[التوبة:٧٢] .

٦- الخزانة السادسة

الله ﷻ في هذه الحياة الدنيا يعطي المؤمنين والكافرين من نعمه التي لا تُعد ولا تُحصى :﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء:٧٠] .

وفي الكون من عطاء الله شيئان :

١-شيء من نعم الله خلقه الله ينفعل لك ولغيرك مؤمناً أو كافراً بدون جُهد كنعمة الشمس والهواء والمطر والحرارة والبرودة والليل والنهار ، ونحو ذلك من النعم التي لا تُعد ولا تُحصى .

٢-وشيء من نعم الله خلقه الله ينفعل بك مؤمناً أو كافراً إذا قام به العبد وفق الأسباب التي خلقها الله ، فمن زرع حصد ومن اكتسب ربح ومن تعلم علم ومن تزوج أنجب ، لكن المؤمن يزيد رزقه بحصول البركة في عمله ؛ لأنه يذكر الله ويستعين به فتحصل له البركة كما قال سبحانه : ﴿ تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِي ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الرحمن:٧٨] .

فالحمد كله والثناء كله والشكر كله لله رب العالمين : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾ [الفاتحة: ٢ – ٥]

فهو سبحانه المحمود لذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ [طه:٨] .

وهو المحمود سبحانه على ما خلقه في العالم العلوي والعالم السفلي من المخلوقات التي سخرها الله لنا : ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾[لقمان:٢٠] .

وهو المحمود على أوامره الكونية وأوامره الشرعية : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾[الأعراف:٥٤] .

وهو المحمود على طاعات العباد ومعاصيهم وإيمانهم وكفرهم ، وهو المحمود على خلق الأبرار والفجار والملائكة والشياطين ، وعلى خلق الرسل وأعدائهم .

وهو المحمود على عدله في أعدائه وعلى فضله وإنعامه على أولياءه ، وكل ذرة من ذرات الكون شاهدة بحمده وخاضعة لأمره ومستجيبة لمشيئته ومسرعة إلى إرادته: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤] .

والحمد هو الإخبار بمحاسن المحمود على وجه الحب له ، ومحاسن المحمود تعالى إما قائمة بذاته وهي أسمائه الحسنى وصفاته العلا ، وإما ظاهرة في مخلوقاته ، فأسماء الله كلها حسنى ليس فيها اسم سوء :: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾[الأعراف:١٨٠] .

وصفاته كلها كمال ليس فيها صفة نقص ، وأفعاله كلها حكمة ليس فيها فعل خالٍ عن الحكمة والمصلحة : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الروم: ٢٧] .

الله ﷻ هو المستحق للحمد كله فيستحيل أن يكون غير محمودٍ ، كما يستحيل أن يكون غير قادر ولا خالقًا ولا حي ، فهو المحمود على كل شيء وإن كان بعض خلقه يحُمد أيضاً كما يحُمد رسله وأنبيائه وأولياؤه فذلك من حمده تبارك وتعالى ، وما نالوه من الحمد فإنما نالوه بحمده ، فهو المحمود أولاً وأخرًا ، وله الحمد في الأولى والآخرة .

والله سبحانه له الملك ، وقد أتي من الملك بعض خلقه ، فله الحمد ، وقد أتى غيره من الحمد ما شاء ، وكما أن مُلك المخلوق داخلاً في ملكه فحمده أيضاً داخل في حمده ، فما من محمود يحُمد على شيء مما دق أو جل إلا والله المحمود عليه بالذات والأولوية .

والله سبحانه له الحمد التام كله ، فله عموم الحمد وكماله وهذا من خصائصه سبحانه فهو المحمود على كل حال وعلى كل شيء ، فله أكمل حمد وأعظمه ، كما أن له الملك التام العام فلا يملك كل شيء إلا هو : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾ [الملك: ١] .

فحمده سبحانه وحكمته في خلقه وأمره شاملًا لكل ما يحدثه من إحسانٍ ونعمه وامتحانٍ وبليه وما يقضيه الله من طاعة ومعصية ، والله سبحانه محمودٌ على كل ذلك ومشكور .

وله حمد المدح وحمد الشكر :

أما حمد المدح : فالله تعالى محمود على كمال ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله ، وهو المحمود على كل ما خلق وأمر فهو رب العالمين : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٢]

وأما حمد الشكر :

فلأن ذلك كله نعمة في حق المؤمن ، إذا اقترن بواجبه من الإحسان ، والنعمة إذا اقترنت بالشكر صارت نعمة ، والامتحان والابتلاء إذا اقترن بالصبر كان نعمة ، والطاعات من أجل نعمه سبحانه .

قال الله تعالى : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحجرات:١٧] .

وقال الله تعالى:﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾ [الجمعة: ٢]

والمعاصي إذا اقترنت بواجبها من التوبة والاستغفار والإنابة والذل والخضوع لله فقد ترتب عليها من الآثار المحمودة والغايات المطلوبة ما هو نعمة أيضًا ، وإن كان سببها مبغوضاً مسخوطاً للرب سبحانه لكنه يحب ما ترتب عليها من التوبة والاستغفار : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ [البقرة:٢٢٢] .

الله سبحانه توابًا يحب التوابين ، عفوًا يحب العافين عن الناس ، مؤمنٌ يحب المؤمنين ، محسنٌ يحب المحسنين .

الله سبحانه يفرح بتوبة عبده من فرح رجل أضل راحلته في أرض مهلكه ، ثم طلبها وآيس منها ، ثم وجدها .

قال النبي ﷺ : « للهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ مَنْزِلًا وَبِهِ مَهْلَكَةٌ وَمَعَهُ رَاحِلَتُهُ ، عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ نَوْمَةً ، فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ رَاحِلَتُهُ حَتَّى إِذَا اشْتَدَّ عَلَيْهِ الحَرُّ وَالْعَطَشُ أَوْ مَا شَاءَ اللهُ ، قَالَ : أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِي فَرَجَعَ فَنَامَ نَوْمَةً ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَه » . متفق عليهُ[1] .

وفي الحديث أنه قال : « اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ » أخرجه مسلم . [2] .

فهذا الفرح العظيم الذي لا يشبهه شيء أحب إليه سبحانه من عدمه ولوازم لابد منها ، وما يحصل لتقدير عدمه من الطاعات وإن كان محبوباً له فهذا الفرح أحب إليه بكثير ، فله سبحانه من الحكمة في تقدير أسبابه وموجباته حكمة بالغة ونعمة سابغة ، هذا بالإضافة إلى الرب سبحانه .

وأما بالإضافة إلى العبد فإنه قد يكون كمال عبوديته وخضوعه موقوفاً على أسبابٍ لا تحصل بدونها ، فتقدير الذنب عليه إذا اتصل به التوبة والإنابة والخضوع والذل والانكسار ودوام الافتقار إلى الله كان من النعم باعتبار غايته وما يعقبه ، وإن كان من الامتحان والابتلاء باعتبار صورته ونفسه .

والرب سبحانه محمودٌ على الأمرين ، فإذا اتصل بالذنب الآثار المحمودة للرب سبحانه من التوبة والإنابة فهو عين مصلحة العبد وإن لم يتصل به ذلك فهذا لا يكون إلا من خبث نفسه وشره وعدم استُعداده لمجاورة ربه بين الأرواح الذكية الطاهرة في الملأ الأعلى .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٦٣٠٩)واللفظ له، ومسلم برقم: (٢٧٤٧).

(٢) أخرجه مسلم برقم: (٧/ ٢٧٤٧).

والنفس فيها من الشر والخُبث ما فيها ، فلابد من خروج ذلك منها من القوة إلى الفعل ليترتب على ذلك الآثار المناسبة لها ، ومساكنة من تليق مساكنته ومجاورة الأرواح الخبيثة في المحل الأسفل ، فإن هذه النفوس إذا كانت مهيأة لذلك فمن الحكمة أن تستخرج منها الأسباب التي توصلها إلى ما هي مهيأة له ولا يليق بها سواه :﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ ﴾[التغابن:٢] .

وقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [النحل: ٣٦] .

والرب سبحانه محمودًا على ذلك أيضاً كما هو محمودٌ على إنعامه وإحسانه ، إلى أهل الإحسان والأنعام القابلين له فما كل أحدٍ قابلاً لنعمته تعالى : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾[النحل:٨٣] .

وحكمته وحمده تقتضي ألا يودع نعمه وإحسانه في محلٍ غير قابلًا لها ، فالله أعلم حيث يجعل رسالته وهدايته .

والحكمة في خلق هذه الأرواح التي هي غير قابلة لنعمته ، قد تقوم إن خلق الأضداد والمتقابلات وترتيب آثاره عليها موجب ربوبيته وحكمته وعلمه وعزته .

وإن تقدير عدم ذلك هضم لجانب الربوبية ، وأيضاً فإن هذه الحوادث نعمة في حق المؤمن فإنها إذ وقعت فهو مأمور أن يجاهد أربابها بحسب الإمكان ، فيترتب على الإنكار والجهاد من مصالح نفسه وبدنه ، ومصالح دنياه وأخرته ما لم يكن ينال بدون ذلك .

والمقصود الأول إتمام نعمته تعالى على أولياءه ورسله وخاصته ، فاستعمال أعدائه فيما تكمن به النعمة على أولياءه غاية الحكمة ، وكان في تمكين الكفار والفساق والعصاة من ذلك إيصالاً إلى الكمال الذي يحصل لهم بمعاداة هؤلاء وجهادهم والإنكار عليهم والمولاة فيه والمعادة فيه ، وبذل نفوسهم وأموالهم له: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾[الحجرات:١٥] .

وتمام العبودية لله لا يحصل إلا بالمحبة الصادقة ، والمحبة الصادقة علامتها أن يبذل المُحب ما يملكه من مالٍ ورياسة وقوه في مرضاة محبوبه والتقرب إليه ، فإن بذل روحه كان هذا أعلى درجات المحبة الصادقة ، ومن لوازم ذلك التي لا يحصل إلا بها أن يخلق ذواتًا وأسباباً وأعمالاً وأخلاقاً وطبائع تقتضي معادة من يحبه ، ويؤثر مرضاته لها ، وعند ذلك تتحقق المحبة الصادقة من غيرها .

وكل أحدٍ يحب الإحسان والراحة والدعة واللذة ويحب من يوصل إليه ذلك ، ولكن الشأن كل الشأن في محبته سبحانه ومحبة ما يحبه مما هو أكره شيء إلى النفوس وأشق شيئاً عليها مما لا يلائمها .

فعند حصول أسباب ذلك تبين ما يحب الله لذاته ومن يحب وما يحب ممن يحبه لأجل نعمته ومخلوقاته فإن أُعطي منها رضي وإن مُنع سخط ، وعتب على ربه وربما شكاه وربما ترك عبادته: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾[الحج:١١]

فلولا خلق الأضداد وتسليط أعدائه وامتحان أولياءه ، لم يستخرج خاص العبودية من عبيده الذين هم عبيده ، ولم يحصل لهم عبودية المولاة فيه والمعاداة فيه والحب فيه والبُغض فيه والعطاء له والمنع له ، ولا عبودية ذل الأحوال والأرواح والقوى في جهاد أعدائه ، ولا عبودية مفارقة الأهل والناس مع حاجته إليهم من أجل مرضاته سبحانه ، ولا يتحيز إليهم وهو يرى محاب نفسه وملاذها بأيديهم ، فيرضى بمفارقتهم ومولاة الحق عليهم .

فلولا الأسباب والأضداد التي توجب ذلك لم تحصل هذه الآثار النافعة ، وكذلك لولا تسليط الشهوة والغضب ودواعيهما على العبد لم تحصل له فضيلة الصبر وجهاد النفس ، ومنعها من حظوظها وشهواتها محبة لله ، وإيثارًا لمرضاته وطلب الزلفى لديه والقرب منه .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[الأنفال: ٢ - ٤].

٧- الخزانة السابعة

الله جل جلاله هو الخلاق العليم ، خلق خلقه أطواراً ، وكل مخلوقٍ يسبح بحمد ربه : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء: ٤٤] .

فخلق سبحانه للملائكة عقولاً لا شهوات لها وجبلها على طاعته ، وخلق للحيوانات شهوات لا عقول لها ، وخلق الثقلين الجن والإنس وركب فيهم العقول والشهوات والطبائع المختلفة ، وهؤلاء هم أهل الامتحان والابتلاء ، وهم المعرضون للثواب والعقاب :﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨] .

فخلق سبحانه الملائكة وطبعهم على الخير ، وخلق الشياطين وطبعهم على الشر ، وخلق الثقلين الإنس والجن وجعلهما محل الابتلاء والاختبار ، ولو شاء الله ﷻ لجعل خلقه على طبيعة واحده وخلقًا واحد ولم يفاوت بينهم ، ولكن ما فعله سبحانه هو محض الحكمة ، ولو كان الخلق كله على طبيعة واحده ونمط واحد لقيل هذه مقتدى الطبيعة ، ولقيل كذلك لو كان الله فاعلًا بالاختيار لتنوعت أفعاله ومفعولاته ، ولفعل الشيء وضده والشيء وخلافه .

فتنوع أفعاله سبحانه ومفعولاته من أعظم الأدلة على ربوبيته وحكمته وعلمه وقدرته : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الأنعام:١٠٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾[الأنعام:١] .

ولهذا خلق الله عز وجل النوع الإنساني أربعة أقسام :

أحدها : من خلقه الله لا من ذكرًا ولا أنثى وهو أبوهم آدم ﷺ .

الثاني : من خلقه من ذكرًا بلا أنثى وهو حواء ، خلقها الله ﷻ من ضلع آدم .

الثالث : من خلقه الله من أنثى بلا ذكر، كخلق المسيح عيسى ابن مريم ﷺ .

الرابع : من خلقه الله من ذكرٍا وأنثى وهم سائر النوع الإنساني .

وذلك كله ليدل عباده على كمال قدرته وكمال حكمته ونفوذ مشيئة ، وأن الأمر ليس كما يظنه الكافرون به الجاحدون له من أن ذلك أمرٌ طبيعي .

والله وحده هو الخلاق العليم ، الذي خلق المخلوقات بالعالم العلوي والعالم السفلي إظهاراً لكمال قدرته وتنبيهاً لبريته ، خلق السماوات والأرض وخلق الليل والنهار وخلق الذكور والإناث ، وخلق العالي والسافل وخلق الأبيض والأسود ، ليُعرف جل جلاله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾ ﴾[الطلاق:١٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ

﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم:٢٠-٢٧] .

والطبيعة مخلوقًا من مخلوقاته ، وعبدٌ من عبيده ، مسخره لأمره منقادة لمشيئته ، لا تخلق ولا تفعل ولا تتصرف في ذاتها ونفسها فضلاً عن إسناد الكائنات إليها ، فتنوع المخلوقات واختلافها من لوازم الحكمة والربوبية والإلوهية ، وهو أيضاً من موجبات الحمد لله ، فلله الحمد على ذلك كله أكمل حمدٍ وأتمه :﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [الجاثية:٣٦-٣٧] .

وأيضاً فإن مخلوقاته هي موجبات أسمائه وصفاته ، فلكل اسم وصفة أثرًا لابد من ظهوره فيه ، فالخلق كله من آثار اسمه الخلاق ، والرحمة كلها من آثار اسمه الرحيم ، والأرزاق كلها من آثار اسمه الرزاق وهكذا.

قال الله تعالى : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٤] .

وتنوع أسباب الحمد أمرٌ مطلوب للرب محبوباً له ، فكما تنوعت أسباب الحمد تنوع الحمد بتنوعها وكثر بكثرتها .

فاللهم لك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً ملء السماء وملأ الأرض وملء ما شئت من شيء بعده، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد، لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد .

الله ﷻ محمودٌ من جهتين :

١- محمودٌ لعظمة ذاته وعظمة أسمائه وصفاته وأفعاله .

٢- ومحمودٌ كذلك على عظيم نعمه وآلاءه وإحسانه ، فهو المحمود على انتقامه من أهل الإجرام والإساءة ، كما هو محمودٌ على إكرامه لأهل العدل والإحسان والإيمان ، فهو محمودٌ على هذا ومحمودٌ على ذلك .

وهو سبحانه المحمود على حلمه بعد علمه ، المحمود على عفوه ومغفرته ، المحمود على عفوه عن كثير من جنايات العبيد، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾ ﴾[الشورى:٣٠] .

فنبه سبحانه باليسير من عقابه وانتقامه على الكثير الذي عفا عنه ، وأنه لو عاجلهم بعقوبته وأخذ بحقه لقضي إليهم أجلهم ، ولما ترك على ظهرها من دابة ، كما قال سبحانه : ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ﴿٤٥﴾ ﴾[فاطر:٤٥] .

ولكنه سبحانه لكمال رحمته ، سبقت رحمته غضبه ، وعفوه انتقامه ، ومغفرته عقابه ، فلله الحمد على عفوه وانتقامه وله الحمد على عدله وإحسانه : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل:٩٠].

وقال الله تعالى: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾[الأنعام:١٦٠] .

والله ﷻ قادرٌ على هداية خلقه كلهم ولو شاء لفعل ذلك لكمال قدرته ونفوذ مشيئته ، فالملك ملكه والخلق خلقه والأمر أمره ، ولكن حكمته تأبى ذلك وعدله يأبى تعذيب أحدٍ وأخذه بلا حجة : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء:١٥] .

وقال الله تعالى: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ۖ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [الأنعام:١٤٩] .

فأقام سبحانه الحُجة وصَرف الآيات وضرب الأمثال ونوع الأدلة ؛ ليُعرف سبحانه وليقيم على عباده حجته البالغة: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ۖ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [الأنعام:١٤٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الطلاق:١٢] .

والله عز وجل هو الملك ، الذي كل ما في الكون مُلكه ، وحقيقة الملك إنما تتم بالعطاء والمنع والإكرام والإهانة والمثوبة والعقوبة والتولية والعزل ، وإعزاز من يليق به العزة ، وإذلال من يليق به الذل ، كما قال سبحانه : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ۖ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ [آل عمران:٢٦-٢٧] .

والله تبارك وتعالى هو المحمود على ذلك كله ، هو سبحانه المحمود على قضاء حاجات العباد ، وعلى إجابة دعائهم ، وعلى تصريف وتدبير ما في الكون كله : ﴿ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الرحمن:٢٩] .

فهو سبحانه كل يومٍ هو في شأن ، يغفر ذنبًا ويفرج كربًا ويكشف غمًا ويعطي سائلاً ويجيب داعياً وينصر مظلوماً ويأخذ ظالماً ويفك عانياً ويغني فقيراً ويشفي مريضاً ، ويجبر كثيراً ويعز ذليلاً ويرحم مسكيناً ويقيل عثرة ويستر عورة ويذهب بدولة ويأتي بأخرى ، ويرفع أقواماً ويضع آخرين فعالٌ لما يشاء ، فله الحمد على ذلك كله حمداً كثيراً طيباً مباركاً ملء السماء وملء الأرض وملء ما شاء من شيءٍ بعده .

وهو سبحانه مالك الملك لا ينازعه في ملكه منازع ، ولا يعارضه فيه معارض ، وتصرفه في الملك والممالك والمماليك دائرًا بين العدل والإحسان والحكمة والمصلحة والرحمة واللطف فلا يخرج تصرفه عن ذلك ، فلله الحمد كله على خلقه وأمره وتدبيره .

قال الله تعالى : ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾[الملك: ١] .

وقال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝١٣﴾[فاطر :١٣] .

والمُلك والحمد في حقه متلازمان ، فكل ما شمله مُلكه شمله حمده ، هو المحمود في مُلكه : ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ [التغابن:١]

وكما يستحيل خروج شيء من الموجودات عن ملكه وقدرته ، يستحيل خروجها عن حمده وحكمته : ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ۝١٠٢﴾[الأنعام:١٠٢] .

ولهذا يحمد الله سبحانه نفسه عند خلقه وأمره ، فهو المحمود على كل ما خلقه وأمر به حمد شكرٍ وعبودية ، وحمد ثناءٍ ومدح ، ويجمعها التبارك ، كما قال سبحانه: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأعراف:٥٤] .

والحمد أوسع الصفات وأعم المدائح لأن جميع أسمائه حمد ، وصفاته كلها حمد ، وأحكامه كلها حمد ، وأفعاله كلها حمد ، وعدله كله حمد ، وانتقامه من أعدائه كله حمد ، وفضله في إحسانه لأوليائه كله حمد : ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾[الجاثية:٣٦-٣٧] .

الله ﷻ هو الملك الحق الذي لا إله غيره ولا رب سواه هو رب العالمين قيوم السماوات والأراضين ولكمال مُلكه لا يشفع عنده أحدٍ إلا بإذنه : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾[البقرة:٢٥٥] .

هو سبحانه العليم العالم بكل شيء الذي لكمال علمه لا يعذب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ، ولا تسقط ورقة إلا يعلمها ولا تتحرك ذرة إلا بإذنه ، يعلم دبيب الخواطر في القلوب حيث لا يطلع عليها المَلك ، ويعلم ما سيكون منها حيث لا يطلع عليه القلب:﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾[الأنعام:٥٩] .

وقال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحشر: ٢٢] .

هو البصير الذي لكمال بصره يرى تفاصيل خلق الذرة الصغيرة ويرى جريان دمها في عروقها وعظامها النُحل ، ويسمع ويرى دبيب الذرة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء:١] .

السميع الذي يسمع كل شيء واستوي في سمعه سر القول وجهره الذي وسع سمعه الأصوات فلا يخفى عليه شيء ، ولا يشغله سمعٌ عن سمع ولا صوتٌ عن صوت ، ولا تختلف عليه اللغات ، ولا تشتبه عليه الطلبات والحاجات والسؤالات: ﴿ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك:١٣-١٤] .

هو القدير الذي لا يعُجزه شيء ولكمال قدرته يهدي من يشاء ويضل من يشاء ويجعل المؤمن مؤمنًا والكافر كافرًا والبر برًا والفاجر فاجرًا : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الزخرف:٨٤] .

وهو أعلم حيث يجعل رسالته وهدايته وهو الذي جعل إبراهيم وآله أئمة يدعون إليه ويهدون بأمره وجعل فرعون وآله وقومه أئمة يدعون إلى النار ، ولكمال قدرته لا يحيط أحدًا بشيء من علمه إلا بما شاء أن يُعلمه إياه .

ولكمال قدرته خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، ولكمال غناه استحال إضافة الولد والصاحبة والشريك إليه: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ [الإخلاص:١-٤] .

فلله الحمد على كمال وحدانيته وعلى عظمة ملكه وسلطانه وعلى عظيم أسمائه وصفاته ولكمال عظمته وعلوه وسع كرسيه السماوات والأرض وهو المحيط بكل شيء ، وهو لم يحط به أحد من مخلوقاته بل هو العالي على كل شيء القاهر فوق كل شيء :﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾[الأنعام: ١٨] .

لا تنفذ كلماته ولا تُبدل ولو كانت بحار الأرض مدادًا وأشجار الأرض أقلامًا وكُتب بذلك المداد وتلك الأقلام لنفذ ذلك المداد وفنيت تلك الأقلام ولم تنفذ كلمات الله، كما قال سُبْحَانَهُ : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾[لقمان:٢٧] .

فكل نعمة منه فضل وكل نقمة منه عدل ، لا يعاقب أحدًا بغير فعله ولا يعاقبه على فعل غيره ولا يعاقبه بترك مالا يقدر عليه ولا على فعل ما لا قدرة له على تركه : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾[النجم:٣٩-٤١] .

وقال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾[الإسراء:١٥] .

فالله شكورٌ يحب الشاكرين ، حميدٌ يحب الحامدين ، محسنٌ يحب المحسنين ، رحيمًا يحب الرحماء ، غفورًا يحب المستغفرين ، توابٌ يحب التوابين فلكل صفة عليا وكل اسم حسن وكل ثناء جميل وكل حمدًا ومدح وكل تسبيحًا وتنزيه وكل إجلال وإكرام هو لله ﷻ على أكمل الوجوه وأتمها وأدومها .

سبحانه وبحمده لا يحصي أحدًا ثناءً عليه بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثني عليه به خلقه فله الحمد أولًا وأخرًا حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾[الفاتحة: ٢ – ٤]

فهذا أحد نوعي حمده : وهو حمد الأسماء والصفات .

والنوع الثاني من حمده : حمد النعم والآلاء .

وهذا معلوم مشهود للخليقة برها وفاجرها ، مؤمنها وكافرها من جزيل مواهبه وسعة عطاياه وكريم أياديه وجميل صنائعه وحُسن معاملته لعباده وسعة رحمته لهم وبره ولطفه وحنانه وإجابته لدعوات المضطرين وكشف كربات المكروبين وإغاثة الملهوفين .

وابتدائه بالنعم قبل السؤال والتكرم بها من غير استحقاق بل ابتداءً منه بمجرد كرمه وفضله وإحسانه ودفع المحن والبلايا بعد انعقاد أسبابها وصرفها بعد وقوعها.

قال الله تعالى : ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ۝٣٤﴾[إبراهيم:٣٤]

وقال الله تعالى : ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٨﴾[النحل: ١٧ – ١٨]

وقال الله تعالى : ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢﴾[النمل:٦٢] .

وهو سبحانه الكريم الذي حبب إلى خواص خلقه الإيمان وزينه في قلوبهم ، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان وجعلهم من الراشدين فلله الحمد والشكر على جميع آلائه وإحسانه: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٨ ﴾[الحجرات:٧-٨] .

وكتب سبحانه في قلوب أوليائه الإيمان وأيدهم بروح منه وسماهم المسلمين قبل أن يخلقهم ، وذكرهم قبل أن يذكروه وأعطاهم قبل أن يسألوه ، فله الحمد كثيرًا كما يُنعم كثيرًا وكما يعطي جزيلًا : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣ ﴾ [الأنعام:١٠٢-١٠٣] .

وتحبب إلى عباده بنعمه مع غناه عنهم وتبغضهم إليه بالمعاصي وشدة فقرهم وحاجتهم إليه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥ ﴾[فاطر: ١٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢ ﴾ [البقرة:١٥٢] .

ومع هذا فأعد لهم إذا آمنوا به وأطاعوه دارًا حسنة ، وأعد لهم فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وجعل فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين : ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧ ﴾[السجدة: ١٧] .

وقال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗاۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥﴾ [البقرة:٢٥] .

ثم أرسل الرحمن الرحيم إليهم الرسل يدعونهم إلى تلك الجنة ثم يسر لهم الأسباب التي توصلهم إليها وأعانهم عليها ورضي منهم باليسير من العمل في هذه المدة القصيرة بالنسبة إلى البقاء في دار الخلود ، وضمن لهم إن أحسنوا أن يثيبهم بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف مضاعفة : ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ١٠﴾ [الزمر:١٠] .

وقال الله تعالى: ﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ١٧﴾ [التغابن:١٧] .

وإن أساءوا واستغفروه من ذنوبهم أن يغفر لهم : ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١١٠﴾ [النساء:١١٠] .

٨- الخزانة الثامنة

نعم الله على عباده لا تُعد ولا تُحصى : ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم:٣٤]

فهو سبحانه الذي خلق السماوات والأرض وسخرهما وما فيهما لهذا الإنسان : ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [لقمان:٢٠] .

ذكرهم الرحمن الرحيم بآلائه وتعرف إليهم بأسمائه وصفاته وأمرهم بما أمرهم به رحمةً منه وإحسانًا لا حاجة منه إليهم : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [العنكبوت:٦] .

ونهاهم سبحانه عن ما نهاهم عنه حمايةً وصيانةً لهم ، لا بخلًا منه عليهم فله الحمد والشكر حمدًا يوافي نعمه ويكافي مزيده :﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام:١] .

وقال الله تعالى : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجًا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾ [الكهف:١-٣] .

وفتح لهم الغني الكريم أبواب العلم والهداية ، وعرف لهم الأسباب التي تدنيهم من رضاه وتبعدهم عن غضبه ، فله الحمد والشكر عدد خلقه وزنة عرشه ورضا نفسه ومداد كلماته .

سبحان الله وبحمده عدد خلقه وزنة عرشه ورضا نفسه ومداد كلماته ، وأعلم عباده أنه لا يرضى لهم إلا أكرم الوسائل وأفضل المنازل وأجل العلوم والمعارف، فقال سبحانه : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾[المائدة:٣] .

ومن أراد مطالعة أصول النعم المادية الكبرى والنعم الروحية العظمى الظاهرة والباطنة فليتأمل القرآن من أوله إلى آخره وليتدبره ، وسيرى ما عدد الله فيه من نعمه وتعرف بها إلى عباده وتوفيقه لأوليائه وخذلانه لأعدائه ومنازل هؤلاء ومنازل هؤلاء: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾[النحل:٨٩] .

فقد خلق الله سبحانه البشر وابتلاهم بإبليس وحزبه وتسليط أعدائهم عليهم وامتحانهم بالشهوات والإرادات والهوى لتعظم النعمة عليهم بمخالفتها ومحاربتها ، فلله على أوليائه وعباده أتم نعمة وأكملها في كل ما خلقه من محبوبٍ ومكروه ونعمة ومحنة ، وفي كل ما أحدثه في الأرض من وقائعه بأعدائه وإكرامه لأوليائه وفي كل ما قضاه وقدره : ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾[الجاثية:٣٦-٣٧] .

والشكر معناه طاعة المُنعِم ويكون في ثلاث مواضع :

في القلب .. واللسان .. والجوارح .

ومعنى كونه في القلب :

أن يعترف اللسان والقلب أن هذه النعمة من الله ويرى لله فضلًا عليه ، وأن كل النعم في الكون من الله وأعظمها نعمة الإسلام .

وشكر اللسان :

أن يتحدث بنعم الله على وجه الثناء على الله بها والاعتراف بأنها منه سبحانه لا على سبيل الفخر والخُيلاء .

وشكر الجوارح :

أن تستعملها بطاعة المنعم سبحانه في كل حال : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤ ﴾[الأنفال: ٢ - ٤].

شكر الله على نعمة الإيمان أن تعمل بموجبه الطاعات وتعلم الناس الإيمان : ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٥٢ ﴾[إبراهيم:٥٢] .

وشكر الله على نعمة العلم أن تعمل به وتعلمه الناس : ﴿كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ۝٧٩ ﴾[آل عمران:٧٩] .

وشكر الله على نعمة العافية أن تستعمل البدن فيما يرضيه سبحانه ، وشكر الله على نعمة الطعام أن تستعمله فيما خُلق له وتستعين به على طاعة الله وتُطعم منه خلقه :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾[البقرة:١٧٢] .

وهكذا في بقية النعم حمدًا وشكر وثناءً ومدح للمنعم جل جلاله الذي أعم بنعمته عموم خلقه يعطي بلا سؤال وإذا أعطى أجزل في العطاء ؛ لأنه العظيم الذي لا يعطي إلا العظيم : ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾[التوبة:٧٢] .

هو الكريم الرحمن الرحيم الذي يأمر بالأمر لمصلحة العبد ويعينه على فعله ويقبله إذا فعله ويثيبه عليه بالثواب الجزيل الدائم الذي لا ينقطع: ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾[النحل:٩٧] .

حقيقة الحمد يجب أن تُوجه إلى الله وإن توجهت إلى غيره مجازًا ؛ لأنه سيؤول إليه فأنت لا تحمده فلاناً لأنه أعطاك بذاته وإنما أعطاك لأن الله أعطاه فأعطاك ، وأمره أن يعطيك فأعطاك وحبب إليه ذلك فوضعه في يدك ، فهو سبحانه المحمود علي ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله ، وهو المحمود على جماله وجلاله .

وهو المحمود على نعمه وآلائه وإحسانه ، وهو المحمود على حلمه ولطفه ، وهو المحمود على قضائه وقدره ، وهو المحمود على دينه وشرعه ، وهو المحمود على ثوابه وعقابه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ

جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾ [فاطر:١] .

وقال الله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾ [الأنعام:١] .

وقال الله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴿١﴾ ﴾ [الكهف:١] .

وقال سبحانه : ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ [الصافات:١٨٠-١٨٢] .

وأصول الشكر وقواعدها التي لا يكمل إلا بها ستة :

خضوع الشاكر للمشكور سبحانه ..وحبه له .. واعترافه بنعمه .. وثناؤه عليه بها .. واستعمالها فيما يحب الله .. وعدم استعمالها فيما يكره .

وما تناقص منها واحدة اختلت قاعدة من قواعد الشكر للرب .

وأسباب الشكر ومنابعه كثيرة :

فحياء العبد من تتابع نعم الله عليه شكر ، والمعرفة لعظيم حُلم الله شكر ، والمعرفة بأن النعم ابتداءً من الله بغير استحقاق شكر ، والعلم بأن الشكر نعمة من نعم الله شكر ، وقلة الاعتراض وحسن الأدب بين يدي المنعم شكر ، وتلقي النعم بحسن القبول شكر ، واستعظام صغيرها شكر ، ووضعها في مكانها شكر ، وصرفها في طاعة الله حسب أمر الله شكر .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [لقمان:١٢] .

والله ﷻ هو المنعم بجميع النعم والنعم كلها من آثار رحمته : ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾[لقمان:٢٠] .

وتربية الله لخلقه نوعان :

١-تربية عامة .

٢ - تربية خاصة .

فالتربية العامة : هي خلقه للمرزوقين وخلقه لأرزاقهم وهدايتهم لما فيه مصالحهم التي فيها بقاؤهم في الدنيا .

والخاصة : تربية الله ﷻ لأوليائه المؤمنين فيربيهم بالإيمان ويوفقهم له ويكمله لهم ، ويدفع عنهم الصوارف والعوائق الحائلة بينهم وبينه بالتوفيق لكل خير وعصمتهم من كل شر : ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾[الزمر:١٧-١٨].

فلله الحمد والشكر على كماله وجلاله وجماله ، وله الحمد والشكر على آلائه وإنعامه وإحسانه : ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۗ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾[غافر:٦٥] .

له الملك كله فلا يخرج مخلوق عن ملكه والحمد كله له حمدٌ على ماله من صفات الكمال ، وحمدٌ على ما خلقه من الأشياء والنعم ، وحمدٌ على ما أسداه من جزيل النعم ، وحمدٌ على ما شرعه من الأحكام الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾[التغابن:١]

وقال النبي ﷺ « اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ ، أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَلَكَ الحَمْدُ ، أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَلَكَ الحَمْدُ ، أَنْتَ الحَقُّ ، وَوَعْدُكَ حَقٌّ ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ ، حَقٌّ ، وَالنَّارُ حَقٌّ ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ ، وَمحُمَّدٌ حَقٌّ ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْت وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ ، وَبِكَ آمَنْتُ ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ ، وَبِكَ خَاصَمْتُ ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ أَنْتَ المُقَدِّمُ وَأَنْتَ المُؤَخِّرُ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ ، أَوْ قَالَ : لا إِلَهَ غَيْرُكَ » . متفق عليه[1] .

فكل ما خلقه الله فهو نعمة ودليل على قدرة الله وعلى حكمته ورحمته وإحسانه ، وكل مخلوقًا فيه نعمة تستوجب من الخلق الحمد والشكر لله ، والحمد لله على كل حال لأنه ما من حال يقضيها الله إلا وهي نعمة عباده ، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، هو المحمود على خلقه والمحمود على علمه والمحمود على رحمته وعلى حكمته ، وعلى حلمه وعلى نعمه وعلى قدرته وعلى كماله وجلاله وجماله .

والحمد لله حق ما قال العبد يقوله المسلم في كل صلاة وفي كل خطبة ، وفي كل أمر من ذي بال وفي كل حال فلله الحمد والشكر على كل حال ؛ لأنه لا يفعل إلا الخير والإحسان :﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الجاثية:٣٦-٣٧] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (١١٢٠) واللفظ له ، ومسلم برقم: (٢٠١/ ٧٧١).

٩- الخزانة التاسعة

الشكر هو الثناء على المُحسن بما أولاه من أنواع المعروف ، الشكر هو الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع له ، الشكر هو الثناء على المُحسن بذكر إحسانه ورؤية النعم والمنعم واستفراغ الطاقة في الطاعة وألا تعصي الله بنعمه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾[البقرة:١٧٢] .

والشكر والصبر في محل الاستواء ، فالشكر وظيفة السراء والصبر وظيفة الضراء ، والله يحب الشاكرين : ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [آل عمران:١٤٦] .

والشكر يتعلق بالقلب واللسان والجوارح ، فالقلب للمعرفة والمحبة ، واللسان للثناء والحمد ، والجوارح لاستعمالها في طاعة المشكور وكفها عن معاصيه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾[الحج:٧٧] .

وقال سبحانه : ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾[النحل:١١٤]

والشكر مبني على خمس قواعد :

وهي خضوع الشاكر للمشكور .. وحبه له .. واعترافه بنعمه .. وثناؤه عليه بها .

وأن يستعملها فيما يحب الرب لا فيما يكره: ﴿ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾[الأعراف:٣٢] .

وقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٥١﴾ ﴾[المؤمنون:٥١] .

وأقوى الشكر :

رؤية المنعم لا رؤية النعمة ، فالمؤمن يتجاوز ببصيرته الخلائق إلى الخالق ، والصور إلى المصور ، والنعم إلى المنعم : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿١٠٢﴾ ﴾[الأنعام:١٠٢] .

وأكمل الشكر

رؤية النعمة والمنعم وكل ما كان شهود النعمة أتم كان الشكر أكمل ، وحقيقة الشكر ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده ثناءً واعترافًا وعلى قلبه شهودًا ومحبة وعلى جوارحه انقيادًا وطاعة :﴿ إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[السجدة:١٥-١٦] .

والإيمان نصفان :

نصفٌ شكر .. ونصفٌ صبر .

وقد أمر الله بالشكر ونهى عن ضده ، وأثنى على أهل الشكر وجعله غاية خلقه وأمره ووعد أهله بأحسن جزائه ، وجعله سببًا للمزيد من فضله :﴿ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ﴿٧﴾ ﴾[إبراهيم:٧] .

وقال الله تعالى: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [البقرة:١٥٢] .

والشاكرون قسمان :

فشكر العامة : على المطعم والمشرب والملبس والمسكن والمركب ونحوها .

وشكر الخاصة : على ما سبق وعلى التوحيد والإيمان والهداية وهذا أكمل وأعلى وأتم وأشمل : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾[يونس:٥٨] .

وقال الله تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾[الحجرات:١٧] .

والشكر أخص بالأفعال ، والحمد أخص بالأقوال وما يُحمد الرب تعالى عليه أتم مما يُشكر عليه ؛ فإنه يحمد سبحانه على أسمائه وصفاته وأفعاله ونعمه ويشكر على نعمه وما يُحمد به أخص مما يشكر به ؛ لأنه يُشكر بالقلب واللسان والجوارح ويُحمد بالقلب واللسان .

وكلاً من الصبر والشكر داخلًا في حقيقة الآخر لا يمكن وجوده إلا به ؛ لأن الشكر هو العمل بطاعة الله وترك معصيته ، والصبر أصل ذلك فالصبر على الطاعة وعن المعصية هو عين الشكر ، وإذا كان الصبر مأمورًا به فأدائه هو الشكر ، وحقيقة الشكر إنما تلتئم من الصبر والإرادة والفعل ، وصبر الطاعة لا يأتي به إلا شاكر ، ولكن اندرج شكره في صبره فكان الحكم للصبر كما اندرج صبر الشكور في شكره فكان الحكم للشكر .

ومقامات الإيمان لا تَعدم ولا تزول بالتنقل فيها بل تندرج ويُطوى الأدنى في الأعلى كما يندرج الإيمان في الإحسان وكما يندرج الصبر في الرضا ويندرج الرضا في التفويض ؛ لا أن ذلك يزول والمقدور الواحد يتعلق به

الشكر والصبر سواءً كان محبوبا أو مكروهًا ، فالفقر مثلًا يتعلق به الصبر وهو خاص به لما فيه من الكراهة والغنى يتعلق به الشكر لما فيه من النعمة .

فمن غلب شهود نعمته في الفقر وتلذذ به عده نعمة يشكر الله عليها ، ومن غلب شهود ما فيه من الابتلاء والضيق عده بلية يصبر عليها وعكسه الغنى والله تبارك وتعالى ابتلى العباد بالنعم كما ابتلاهم بالمصائب وعد كل ذلك ابتلاء فقال : ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾[الأنبياء:٣٥] .

الله ﷻ خلق العالم العلوي والعالم السفلي ، وخلق ما على الأرض للابتلاء والاختبار : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾[الكهف:٧] .

وهذا الابتلاء إنما هو ابتلاء صبر العباد وشكرهم في الخير والشر والسراء والضراء والعافية والبلاء .

قال الله تعالى: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾[العنكبوت:٢-٣] .

والابتلاء بالنعم من الغنى والعافية والجاه والقدرة أعظم الابتلاءين ، والنعمة بالفقر والمرض وفيض الدنيا وأسبابها وهذا الخلق له قد يكون أعظم النعمتين ، وفرض الشكر عليها أوجب من الشكر على أضدادها :﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾[البقرة:١٥٥-١٥٧] .

فالرب تعالى يبتلي بنعمه ويُنعم بابتلائه ، غير أن الصبر والشكر حالتان لازمتان للعبد في أمر الرب ونهيه وقضائه وقدره لا يستغني عنهما طرفة عين ، والسؤال عن أيهما أفضل كالسؤال عن الطعام والشراب أيهما أفضل ، وكالسؤال عن خوف العبد ورجائه أيهما أفضل .

فالمأمور به شرعًا لا يؤده العبد إلا بصبر وشكر والمُحرم لا يترك إلا بصبر وشكر ، وأما المقدور الذي يقدر على العبد من مصائب فمتى صبر عليه اندرج شكره في صبره كما يندرج صبر الشاكر في شكره ، والله ﷻ امتحن كل عبد بنفسه وهواه وأوجب عليه جهادها في الله ، فهو في كل وقت في مجاهدة نفسه حتى تأتي بالشكر المأمور به وتصبر عن الهوى المنهي عنه فلا ينفك العبد عنه غنيًا أو فقيرًا معافى أو مبتلى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩ ﴾[العنكبوت: ٦٩] .

والله سبحانه لم يفضل أحدًا بالفقر والغنى كما لم يفضل أحدًا بالعافية والبلاء وإنما فضل بالتقوى، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ﴾[الحجرات:١٣] .

وقال النبي ﷺ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ ، إِلَّا بِالتَّقْوَى أَبَلَّغْتُ ، قَالُوا : بَلَّغَ رَسُولُ الله ، ثُمَّ قَالَ : أَيُّ يَوْمٍ هَذَا ؟ ، قَالُوا : يَوْمٌ حَرَامٌ ، ثُمَّ قَالَ : أَيُّ شَهْرٍ هَذَا ؟ ، قَالُوا : شَهْرٌ حَرَامٌ ، قَالَ : ثُمَّ قَالَ : أَيُّ بَلَدٍ هَذَا ؟ ، قَالُوا بَلَدٌ حَرَامٌ ، قَالَ : فَإِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ بَيْنَكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ . قَالَ : وَلَا أَدْرِي قَالَ : أَوْ أَعْرَاضَكُمْ ، أَمْ لَا .

كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا ، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا ، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا أَبَلَّغْتُ ، قَالُوا : بَلَّغَ رَسُولُ الله ، قَالَ : لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ » . أخرجه أحمد بسند صحيح[1] .

والناس من آدم وآدم خلق من تراب فلا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى .

والتقوى مبنية على أصلين :

الصبر .. والشكر .

وكل من الغني والفقير لابد له منهما فمن كان صبره وشكره أتم كان أفضل فأتقاهما لله في وظيفته ومقتضى حاله هو الأفضل ؛ فإن الغني قد يكون أتقى لله في شكره من الفقير في صبره ، وقد يكون الفقير أتقى لله في صبره من الغني في شكره :﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات:١٣] .

والفقراء وإن كانوا يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام هذا لا يدل على فضلهم على الأغنياء في الدرجة وعلو المنزلة وإن سبقوهم بالدخول إلى الجنة ، فقد يتأخر الغني والسلطان العادل في الدخول لحسابه فإذا دخل الجنة كانت درجته أعلى ومنزلته أرفع .

كما قال الرسول ﷺ: « إنَّ المُقْسِطِينَ عند الله على مَنَابِرَ من نُورٍ عن يَمينِ الرَّحْمنِ وكلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ الَّذينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِم وأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا » . أخرجه مسلم[2] .

---

(١) صحيح/ أخرجه أحمد برقم: (٢٣٥٣٦).

(٢) صحيح/ أخرجه مسلم برقم : (١٨٢٧).

وقد جمع الله سبحانه لرسوله بين المقامين الصبر والشكر على أتم الوجوه ، فكان سيد الأغنياء الشاكرين وسيد الفقراء الصابرين : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾[القلم:٤] .

فحصل له من الصبر على الفقر ما لم يحصل لأحد سواه ، وحصل له من الشكر على الغنى ما لم يحصل لغني سواه فكان ﷺ أصبر الخلق في مواطن الصبر وأشكر الخلق في مواطن الشكر ، وربه ﷻ كمل له مراتب الكمال فجعله في أعلى مراتب الأغنياء الشاكرين ، وفي أعلى مراتب الفقراء الصابرين .

فصلوات الله وسلامه عليه عدد المخلوقات والذرات والأنفاس وقد جعل الله نبيه غنيًا شاكرًا بعد أن كان فقيرًا صابرًا:﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾[الضحى:٦-١١] .

الشكر مبني على ثلاثة أركان :

الأول : معرفة النعمة وقدرها .

الثاني : الثناء على الله المنعم بها .

الثالث : استعمالها فيما يحبه موليها ومعطيها وهو الله سبحانه .

فمن كملت له هذه الثلاثة فقد استكمل الشكر ، وبمشاهدة النعمة يتولد في القلب الحب والتعظيم للمنعم ويُحبت العبد بطاعة من أنعم بها عليه ، وكلما ازداد العبد علمًا ومعرفة بحقيقة النعمة ومقدارها ازداد طاعةً ومحبةً وإنابةً واخباتًا وشكرًا وتوكلًا على ربه .

والشكر قيد النعم فإذا شُكرت قرت وإن كُفرت فرت، كما قال سبحانه : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾[إبراهيم:٧] .

وأعظم الشكر لله سبحانه هو توحيده والإيمان به وتقواه وعبادته وحده لا شريك له ، والله تبارك وتعالى غنيُ عن كل ما سواه فلا يزداد ملكه شيئًا بشكر الناس له ونسبتهم الفضل إليه ، كما أنه لا يتضرر بكفرهم ؛ لأنه الغني الحميد والمنتفع بالشكر هو الإنسان ، كما أنه المتضرر بالكفر : ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾[النمل:٤٠] .

وقال الله تعالى: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾[النحل:٨٣] .

ولكنه سبحانه يحب أن يحُمد ويُشكر ويكره أن يُكفر به بنعمته، كما قال سبحانه : ﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ ﴾[الزمر:٧] .

والكفر بنعم الله مؤذنًا بزوالها عمن كفر بها، كما قال سبحانه : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾[النحل:١١٢] .

فالله حكيمٌ في عطائه حكيمًا في منعه وله الحمد على هذا وهذا وهو الحكيم العليم : ﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾[الجاثية:٣٦-٣٧] .

ومن أسماء الله ﷻ الشاكر والشكور والحميد كما قال سبحانه : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾[النساء:١٤٧] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾[التغابن:١٧] .

وقال الله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾[فاطر: ١٥] .

وشكر الرب تعالى ليس كشكر الخلق ، بل له شأن آخر كشأن صبره سبحانه فهو أولى بصفة الشكر من كل شكور بل هو الشكور على الحقيقة ؛ فإنه يعطى العبد ويوفقه لما يشكره عليه ، ويشكر القليل من العمل والعطاء فلا يستقله أن يشكره : ﴿ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾[التغابن:١٧] .

يعطي على الحسنة عشر أمثالها ، فيشكر الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة إلى أضعافًا مضاعفة ، ويشكر عبده بأن يثني عليه في الملأ الأعلى وبين ملائكته ، ويلقى له الشكر بين عباده ويشكره بفعله إذا ترك شيئًا لله أعطاه الله أفضل منه ، وإذا بذل له شيئًا رده عليه أضعافًا مضاعفة : ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [سبأ:٣٩] .

فهو سبحانه الذي وفقه للترك والبذل وشكره على هذا وعلى هذا ، فهو سبحانه الغني الحميد الذي وفق العبد للترك والبذل ، وشكره على هذا وعلى هذا ، فسليمان ﷺ لما عقر الخيل التي أشغلته عن ذكر ربه أعاضه منها متن الريح ، ولما احتمل يوسف ﷺ السجن شكر الله له ذلك بأن مكن له في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء .

ولما بذل الرسل والمؤمنون أعراضهم في الله لأعدائهم فنالوا منهم وسبوهم أعاضهم من ذلك بأن صلى عليهم هو وملائكته : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ ﴾[الأحزاب: ٤٣] .

ولما ترك الصحابة رضي الله عنهم ديارهم وخرجوا منهم في مرضات ربهم أعاضهم عنها أن ملكهم الدنيا وفتحها عليهم : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحج:٤٠-٤١] .

ومن شكره سبحانه أن يجازي عدوه بما يفعله من الخير والمعروف في الدنيا بأن يخفف به عنه يوم القيامة ، فلا يُضيع الله عليه ما يعمله من الإحسان وهو من أبغض خلقه إليه ، فيجازى عليه في الدنيا ويخفف عنه العذاب يوم القيامة لكنه لا يدخل الجنة ، ومن شكره سبحانه أنه غفر للمرأة البغي بسقيها كلبًا قد جهده العطش حتى أكل الثرى ، وغفر لأخر بتنحيته غصن شوك عن طريق الناس ، وهو سبحانه يشكر العبد على إحسانه لنفسه ، والمخلوق لمَ يشكر من أحسن إليه ؟ .

وأعظم من ذلك أنه سبحانه هو الذي أعطى العبد ما يحسن به إلى نفسه وشكره على قليله بالأضعاف المضاعفة : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾[التغابن:١]

فهو سبحانه المحسن بإعطاء الإحسان وإعطاء الشكر فمن أحق باسم الشكور منه سبحانه : ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[فاطر:٣٤] .

وشكره سبحانه يأبى تعذيب عباده بغير جُرم كما يأبى إضاعة سعيهم باطلًا ، فالشكور لا يضيع أجر محسن ولا يعذب غير مسيء كما قال سبحانه : ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾[النساء:١٤٧] .

ومن شكره سبحانه أنه يخرج العبد من النار بأدنى مثقال ذرة من إيمان ولا يضيع عليه هذا القدر ، ومن شكره سبحانه أن العبد من عباده يقوم له مقامًا يرضيه بين الناس فيشكره وينوه بذكره كما شكر لصاحب يس مقامه والدعوة إليه ، ولما كان سبحانه هو الشكور على الحقيقة كان أحب خلقه إليه من اتصف بصفة الشكر كما أن أبغض خلقه إليه من عطلها واتصف بضدها وهذا شأن أسمائه الحسنى كلها .

قال الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾[الأعراف:١٨٠] .

أحب الخلق إليه من اتصف بموجبها وأبغضهم إليه من اتصف بأضدادها ، ولهذا يبغض سبحانه الكفور والظالم والجاهل والبخيل والجبان واللئيم ، وهو سبحانه جميلًا يحب الجمال ، رحيمًا يحب الراحمين ، محسنٌ يحب المحسنين ، شكورٌ يحب الشاكرين ، عفوٌ يحب العافين .

١٠ - الخزانة العاشرة

الله ﷻ هو المُنعِم بكل نعمة ، والنعمة على ثلاثة أقسام :

أحدها : نعمة تفرد الله بإيجادها نحو أن خلق ورزق .

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾[النحل:٥٣] .

الثانية : نعمة وصلت من جهة غير الله في ظاهر الأمر وهي في الحقيقة أنها وصلت من الله تعالى ، وذلك لأنه تعالى هو الخالق لتلك النعمة والخالق لذلك المُنعم ، والخالق لداعية الإنعام في قلب ذلك المُنعم ، إلا أنه لما أجرى تلك النعمة على يد ذلك العبد كان ذلك العبد مشكوراً ، ولكن المشكور في الحقيقة هو الله المُنعم بها.

ولهذا قال سبحانه : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾[لقمان:١٤] .

فبدأ بنفسه تنبيهًا إلى أن إنعام الخلق لا يتم إلا بإنعام الله .

الثالثة : نعمة وصلت إلينا بسبب طاعتنا وهي أيضًا من الله ، لأنه لولا أن الله سبحانه وفقنا للطاعات وأعاننا عليها وهدانا إليها وأزاح الأعذار عنا ، وإلا لما وصلنا إلى شيء منها.

قال الله تعالى : ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [البقرة:١٥٢] .

إن نعم الله على عباده لا يمكن أن يحصيها أحد وهي نعم لا يمكن لأحدٍ أن يحيط بها، كما قال سبحانه : ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾[إبراهيم:٣٤]

والنعم كثيرة علينا في ذواتنا ومن حولنا وفي هذا الكون العظيم ، إن الشمس التي تشرق كل صباح هي نعمة من نعم الله التي سخرها لعباده ، فيجب عليهم أن يشكروه على هذه النعمة وهي تشرق كل يوم بإذن ربها وأمره لتُذكر الإنسان بنعمة الله عليه وتسخينها له ، وكذلك القمر وكذلك النجوم وكذلك الأرض ، وكل ما تعطي من عطاء للبشر من ماء ونبات وحجر ومعدنًا وغاز ، وغير ذلك من الأنعام والنعم .

قال الله تعالى :﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾[النحل:٥٣] .

وكذلك الأنعام التي تدير الألبان ، والإبل والخيل التي يركبها الإنسان كلها مذللة ومسخرة للإنسان ومنقادة له ، فيجب على العباد شكر المنعم بهذه النعم العظيمة ، وهذه الطاعة من هذه الحيوانات ليست للبشر ، ولكن لأمر الله في التسخير للبشر فالجمل أو الحصان لا يخضع للطفل الصغير خوفًا منه ولا عن عدم قدرة .

ولكنه يخضع له لأن الله أمره أن يخضع له : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾[يس:٧١-٧٣] .

وحتى يذكرنا الله بهذه النعمة خلق الله بعض الحيوانات ولم يجعلها مذللة له ، بل تركها غير مسخرة له كالسباع والأسود والثعابين والعقارب ونحوها مما يخاف الناس منه ، وهذه الحيوانات ظلت وستظل لا تخضع لبشر فهو سبحانه وحده الذي سخر ما شاء من خلقه لبعض خلقه ، فهي مطيعة في كل زمان ومكان بأمر ربها في التسخير.

قال الله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [لقمان:٢٠] .

والله ﷻ غفورًا رحيم يفرح بتوبة العبد إذا تاب إليه أعظم فرح وأكمله ويكفر عنه ذنوبه ويوجب له محبته بالتوبة وهو الذي ألهمه إياها ووفقه لها وأعانه عليها : ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة:١٤٣] .

وملأ سبحانه سماواته من ملائكته واستعملهم في تسبيحه وتقديسه والاستغفار للمؤمنين في الأرض ، واستعمل حملة العرش منهم في الدعاء لعباده المؤمنين والاستغفار لذنوبهم وطلب وقايتهم من عذاب الجحيم ، والشفاعة إليه بإذنه أن يدخلهم الجنة ، فلله الحمد والشكر على نعمه التي لا تُعد ولا تُحصى : ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾ [غافر:٧-٩] .

فما أعظم هذه العناية من الرب جل جلاله ، وما أجمل هذا الإحسان وما أعظم نعمه على عباده ، وما أعظم هذه الرحمة وهذا التحنن والعطف والتحبب إلى العباد واللطف التام بهم.

قال الله تعالى : ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾[الجاثية:٣٦-٣٧] .

ومع هذا كله بعد أن أرسل إليهم رسله ، وأنزل عليهم كتبه وتعرف إليهم بأسمائه وصفاته وآلائه ونعمه ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا يسأل عنهم ويستعرض حوائجهم بنفسه ويدعوهم إلى سؤاله فيدعو مسيئهم إلى التوبة ومريضهم إلى أن يسأله الشفاء وفقيرهم إلى أن يسأله الغنى ومحتاجهم إلى أن يسأله قضاء حاجته .

وذلك كل ليلة كما قال النبي : « يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ يَقُولُ : مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ » . متفق عليه[1] .

فباب النعم والإحسان باب عظيم يدخل منه كل أحد إلى محبة الرب سبحانه ، فإن نعمه على عباده مشهودة لهم يتقلبون فيها على عدد الأنفاس واللحظات ، وهي لا تُحصى ولا تُستقصى .

قال الله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[فاطر:١] .

وقال الله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾[الأنعام:١] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٦٣٢١)واللفظ له، ومسلم برقم: (١٦٨/ ٧٥٨).

فهذه محبة للرب الرحيم الكريم تنشأ من مطالعة المنن والإحسان ورؤية النعم والآلاء ، وكلما سافر القلب فيها ازداد محبة لربه وتأكدت وازداد حمدًا له وشكرًا له ، ولا نهاية لها فيقف القلب عندها بل كل ما ازدد فيها نظرًا ازداد فيها اعتبارا وعجزًا عن ضبط القليل منها فيستدل بما عرفه على ما لم يعرفه .

والله تبارك وتعالى دعا عباده من هذا الباب حتى إذا دخلوا فيه دعوا من الباب الأخر ، وهو باب الأسماء والصفات الذي إنما يدخل في خواص خلقه وهو باب المحبين حقًا ، الذي لا يدخل منه غيرهم ولا يشبع من معرفته أحد منهم .

فإذا انضم داعي الإحسان والإنعام إلى داعي الكمال والجمال لم يتخلف عن محبة الله وطاعته وحمده وشكره ، من هذا شأنه إلا أردئ القلوب أخبثها وأشدها نقصًا وأبعدها من كل خير.

قال الله تعالى : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾[محمد: ١٩] .

الله سبحانه قد فطر القلوب على محبة المحسن الكامل في أسمائه وصفاته من خلقه ، ومعلوم أنه لا أحد أعظم إحسانًا من الله سُبْحَانَهُ ولاشيء أكمل منه ولا أجمل ، فكل كمالٍ وجمالٍ في المخلوق من آثار صنعه ، وهو الذي لا يُحد كماله ولا يحاط بوصف جلاله وجماله ولا يحصي أحدًا من خلقه ثناءً عليه سبحانك لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك.

قال الله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾[آل عمران:٨] .

ما عرفه الخلق كلهم من نعم الله تعالى بالإضافة إلى ما لم يعرفوه أقل من قطرة في بحر ، وأقل من ذرة في جبل، كما قال سبحانه : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨ ﴾[النحل: ١٨].

والخلق لم يقصروا في شكر النعمة إلا للجهل بها وبالمُنعم بها والغفلة عنها ، فإنهم مُنعوا بذلك عن معرفة النعم ولا يتصور شكر النعمة إلا بعد معرفتها : ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧ ﴾[البقرة:٤٧] .

ثم إن عرف العباد نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول أحدهم بلسانه الحمد لله أو الشكر لله فقط ، ولم يعرفوا أن معنى الشكر لله أن تُستعمل النعمة في إتمام الحكمة التي أريدت بها وهي طاعة الله وعبادته، كما قال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢ ﴾[البقرة:١٧٢] .

وقال الله تعالى:﴿ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣ ﴾[سبأ: ١٣] .

ولله تعالى في كل موجود حكمة ونعمة فليشكر العبد ربه عليها .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ٧ ﴾[إبراهيم:٧] .

والشكر على ثلاث درجات :

الأولى : الشكر على المحاب .

فكل الخلق في نعم الله ، وكل من أقر بالله ربا وعلم تفرده بالخلق والإحسان فإنه يضيف نعمته إليه لكن الشاهد في تمام حقيقة الشكر وهو الاستعانة بها على مرضاته : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١ ﴾[المؤمنون:٥١] .

ثانيًا : الشكر في المكاره .

وهو أشد وأصعب من الشكر على المحاب ، ولهذا كان فوقه في الدرجة فالمسلم لا يحب المكروه ولا يرضى بنزوله به ، فإذا نزل به مكروهًا شكر الله تعالى عليه ، فكان شكره كظمًا للغيظ الذي أصابه وسترًا للشكوى ، وهذا الشاكر قابل المكارة التي يقابلها أغلب الناس بالجزع والسخط وأوسطهم بالصبر وأقلهم بالرضا ، وأقلهم بالحمد قابلها هو بأعلى من ذلك كله وهو الشكر والحمد :﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٥١ ﴾[التوبة:٥١] .

الثالثة : أن لا يشهد العبد إلا المُنعم.

فهو مشغولًا بمراده منه عن غيره ، وواقف مع مراد الملك منه لا مع مجرد حظه من الملك ، وعبادة النفس أن يقف العبد مع مراده من الله لا مع مراد الله منه ، ودرجات الشكر وأنواعه كثيرة فحياء العبد من تتابع نعم الله عليه شكر، ومعرفته بتقصيره عن الشكر شكر، ومعرفته بعظيم حلم الله وستره شكر.

والمعرفة بأن النعم ابتداءً من الله بغير استحقاق شكر ، والعلم بأن شكر نعمة من نعم الله شكر ، وحسن التواضع في النعم والتذلل فيها شكر ، وشكر أهل الجود والإحسان من الخلق شكر ؛ فإن من لم يشكر الناس لم يشكر الله .

وقلة الاعتراض وحسن الأدب بين يدي المنعم شُكر ، وتلقي النعم بحسن القبول واستعظام صغيرها شكر واستعمال النعمة في طاعة الله شكر ، والثناء على الله بها شكر : ﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾[البقرة:١٥٢] .

والنعمة هي المنفعة المفعولة على جهة الإحسان إلى الغير ، وكل ما يصل إلى الخلق من النفع ودفع الضرر فهو من الله تعالى وهو نعمة .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾[النحل:٥٣] .

والمدح يحصل للعاقل وغير العاقل ، كمدح الإنسان العاقل على حُسن خلق ومدح اللؤلؤ لجماله ، أما الحمد فلا يحصل إلا للفاعل المختار على ما يصدر منه من المعاني والإحسان سواءً وصل إليك أو إلى غيرك ، فالحمد لله رب العالمين أنعم علي وأنعم على غيري وأعطاني خيرًا وصرف عني شرًا .

والشكر عبارة عن تعظيم المنعم وشكره على الإنعام الواصل إليك فالمدح أعم من الحمد والحمد أعم من الشكر ، فالله سبحانه هو الذي أنعم على البشر بالأعضاء والقوى الظاهرة والباطنة ، فهو الذي أعطاهم إياها وجعل ينميها إليهم شيئًا فشيئًا إلى أن يصل كل أحدٍ إلى الحالة اللائقة به .

وذلك لأجل أن يشكروا الله باستعمال ما أعطاه من هذه الجوارح في طاعة الله خاصةً السمع والبصر والعقل ، كما قال سبحانه : ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨ ﴾[النحل:٧٨] .

فلله الحمد والشكر على ما أعطانا من الخير ، وله الحمد على ما صرف عنا من الشر ، وله الحمد والشكر على ما أنعم به علينا وعلى غيرنا ، وله الحمد والشكر أن ابتدأنا بالنعم قبل أن نسأله ، وله الحمد والشكر على دوام النعم خاصةً نعمة الإسلام التي لا يعدلها نعمة .

« اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ مِلْءُ السَّمَاوَاتِ وَمِلْءُ الْأَرْضِ وَمِلْءُ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالمَجْدِ لَا مَانِعَ لِمَا مَا أَعْطَيْتَ ، وَلاَ مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ ، وَلاَ يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ منك الجَدِّ » . أخرجه مسلم[1] .

« اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ ، أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَلَكَ الحَمْدُ ، أَنْتَ الحَقُّ ، وَوَعْدُكَ حَقٌّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ ، حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ ، وَمحُمَّدٌ ﷺ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ حَقّ » . متفق عليه[2] .

اللهم لك الحمد كله ومنك الفضل كله وإليك يرجع الأمر كله أوله وأخره علانيته وسره كبيره وصغيره لك الحمد لا أحصي ثناءً عليك أنا الصغير الذي ربيته فلك الحمد .

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٢٠١/ ٧٧١).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (١١٢٠)واللفظ له ، ومسلم برقم: (٢٠١/)٧٧١.

وأنا الضعيف الذي قويته فلك الحمد ، وأنا الفقير الذي أغنيته فلك الحمد، وأنا العازب الذي زوجته فلك الحمد، وأنا الجائع الذي أطعمته فلك الحمد ، وأنا العاري الذي كسوته فلك الحمد .

وأنا المريض الذي شفيته فلك الحمد، وأنا الجاهل الذي علمته فلك الحمد ، وأنا الغائب الذي رددته فلك الحمد ، وأنا الراجل الذي حملته فلك الحمد :﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾[الفاتحة: ٢ – ٧]

وقال الله تعالى : ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٦ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣٧ ﴾[الجاثية:٣٦-٣٧] .

موسوعة خزائن العلوم الإسلامية

١٦ - خزائن الابتـــــلاء

القسم الأول

ويشتمل على ما يلي :

١ - الخزانة الأولى

٢ - الخزانة الثانية

٣- الخزانة الثالثة

٤ - الخزانة الرابعة

٥ - الخزانة الخامسة

٦ - الخزانة السادسة

٧- الخزانة السابعة

٨- الخزانة الثامنة

٩- الخزانة التاسعة

١٠ الخزانة العاشرة

١٦-خزائن الابتـلاء

القسم الأول

١- الخزانة الأولى

فقهُ الابتلاء :

الابتلاء الذي يُميز الخبيثُ من الطيب هو الطمعُ، والخوف ، فإن محِن الطمعُ والخوف هي التي تكشف المخبوءَ من الأخلاقِ عند الناس .

وقد ابتلي اللهُ أُمة موسي ﷺ بالخوف والطمع، وابتلي أُمة محُمد ﷺ بالخوفِ والطمع، فنجحت وفازت أُمة محُمد ﷺ، ولم تنجح أُمة موسي ﷺ.

فأولاً: أُمة موسي ﷺ ابتلاهم الله بالطمع ، حيثُ حرم الله علي بني إسرائيل صيد السمكِ يوم السبت، فلم يصمدوا أمام الطمع، فاحتالوا لصيدهِ يوم السبت، وأخذوه يوم الأحد ، فمسخهُم الله قردةً.

قال الله تعالى : ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ

ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ ﴾ [الأعراف:١٦٥-١٦٧] .

ثانياً: ابتلاهم الله بالخوف في جِهاد الجبارين فجبِنوا، فعاقبهُم الله بالتيه أربعين سنة.

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَـٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَـٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۗ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المائدة:٢٠-٢٦] .

فلم يثبت أهل الكتاب أمام عواطف الطمع، ولم يثبتوا أمام عواصف الخوف، فجاءَ الله بأُمة محُمد ﷺ بدلهُم .

وأُمة محُمد ﷺ ابتلاهم الله بالطمع بنفسِ الصيد في غزوةِ الحديبية سنة ست من الهجرة، وهُم في سفرٍ وشدةٍ جوعٍ وقرمٍ إلى اللحم بأن يسّر لهُم جميع أنواع الصيد وهُم محُرِمون ، فلم يمُد رجل يدهَ إلي شيئ منهُ ، وثبتوا أمام عواصف الطمع ، كما قال سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ

عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ ﴿٩٥﴾ ﴾ [المائدة:٩٤-٩٥] .

وابتلاهم بالخوفِ في غزوةِ بدر الكُبرى، لأنهُم خرجوا يريدون أخذ العِير، ففوجئوا بجيشٍ عظيم عرمرم مُسلح ، فثبتوا أمام هذا الخوف، وقال المِقدادُ بن الأسود حليف قُريش لا نقول لك كما قال قوم موسي لموسي:﴿ فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [المائدة:٢٤] .

بل نُقاتل عن يمينك، وعن شِمالك، وأمامك، وخلقك أو كما قال ﷺ فلما أعاد النبي ﷺ الكلام، قال سعد كأنك تعنينا معشر الأنصار يا رسول الله ، والله إنا لقومٍ صُبر في الحرب صُدقٍ عند اللقاء ، فثبتوا أمام هذا الخوف العظيم، وجاهد المهاجرون والأنصار مع رسول الله ﷺ ، فنصرهُم الله، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [آل عمران:١٢٣] .

واللهُ يبتلي عبادهِ بالحسناتِ والسيئات، ليعلم الشاكر والصابر، كما قال سبحانه: ﴿وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ ﴾ [الأعراف: ١٦٨] .

ومن حُسن الظن بالله أن يري العبد البلاء رحمةً ونِعمة : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [التوبة:٥١] .

وقال الله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ [البقرة:٢١٦] .

فكم من محِنة محصّت الذنوب، ونبهت مِن الغَفلة ، وذكرّت بالنعمة ، وكم من محِنة أعادت العبد إلي ربه ، وخلصتهُ من أسر الشيطان كما قال النبي ﷺ ، حين سألته عائشة عن الطاعون ، فقال : « عَذَابٌ يَبْعَثُهُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، وأَن اللهَ جَعَلَهَ رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، لَيْسَ مِنْ أَحدٍ يَقع الطَّاعُونِ فَيَمْكُثُ فِي بَلْدِهِ صَابِرًا محُتَسِبًا، يَعْلَمُ أَنَّهُ لَن يُصِبْهُ إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَهُ إِلَّا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ شَّهِيدِ » . أخرجه البخاري[1] .

وقال النبي ﷺ : « ما يُصيبُ المسلمَ من نَصبٍ ، وَلا وَصَبٍ ، وَلا هَمٍّ ولا حَزَنٍ ، ولا أذىً ، ولا غَمٍّ ، حتَّى الشوْكَةِ يُشَاكُها ؛ إلا كَفَّر اللهُ بِها من خَطاَياهُ » . متفق عليه[2] .

واللهُ ﷻ يبتلي عِبادهِ ببعض الأمور المكروهة لحِكمٍ عظيمة، منها تكفير السيئات، ورفعُ الدرجات، وكثرة الحسنات بالصبرِ والاحتساب.

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [الزمر:١٠] .

وليُبين ما في قلوبِهم من الإيمان بقضاء الله وقدرهِ :﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [التوبة:٥١] .

---

(١) أخرجه البخاري برقم: (٦٢٤٥).

(٢) متفق عليه ، أخرجه البخاري برقم: (٥٦٤٠)، واللفظ له ، ومسلم برقم: (٥١/ ٢٥٧٢).

وقال الله تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾[التغابن:١١]

ماذا يفعل الإنسان عند الكرب :

أعظمُ الكروب كُرب الأنبياء ، لأن الكُروب إنما تعظّم علي الأنبياء من جهة ضياع الدين ، لأن الدُنيا لا أهميةَ لها عندهُم، وأعظم كربٍ نزل بالنبي ﷺ يوم بدر، حين رأي قلة المُسلمين، وكثرةَ الكُفار، وضعفِ المُسلمين وذلتَهُم، وقوة الكُفار وعِزتهُم: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾[آل عمران:١٢٣] .

فالتجأ إلي الله، واستغاث به وناشدهُ حِفظُ الإسلام ، وعرض حالهَ وحال أصحابهَ علي ربهَ، وظل ليلهُ قائماً يهتفُ بربه ويدعوه ويقول : « اللَّهُمَّ إنْ تَهْلِكْ هَذِهِ العِصابَةُ لا تُعْبَدْ فِي الأرْضِ اللّهُمّ إنّهُمْ جِيَاعٌ فَأَطعْمهُمْ ، وحُفَاةٌ فاحْمِلْهُمْ ، وعُرَاةٌ فَاكْسُهُمْ » أخرجه أبو داود والحاكم.(١) .

فاستجاب اللهُ دعائهُ وأنزل الملائكة ونصره علي مشركي مكة، كما قال سبحانه : ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ

(١) صحيح/ أخرجه أبو داود برقم: (٢٧٤٧) ، والحاكم برقم: (٢/ ١٣٣).

فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾﴾ [الأنفال:٩-١٤] .

فعلي كُل مُسلم داهمتهُ الكروب وأحدقت به النوائب ، ونزلت به البلايا والمصائِب ، أن يلتجأ إلي ربهِ صادقاَ.

قال الله تعالى : ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥١﴾﴾ [الذاريات: ٥٠-٥١] .

ويستغيث بالقوي العزيز خالق السماوات والأرض كما فعل ﷺ فاستجاب اللهُ دعائهَ ، فالالتجاء إلي الله في ذلك الوقت الحرج من خصائص الرب سبحانه لا يجوز للعبد صرفهُ لغيرهُ لا إلي مَلك مُقرب ولا إلي نبي مُرسل ولا إلي أي مخلوقاً كائن من كان ، فلا يجوز صرف حق الله إلي غيرهِ، فلنستغيثُ بالله وحده في جميع الأحوال، خاصةَ عند شدة الحرج، وعِظّم الضنك ، وهولِ الكرب.

قال الله تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل:٦٢] .

فالاستغاثة بالله وحدهُ سبب للإجابة، وإزالة المكروه عن العبد كما دعا الأنبياء عَلَيْهِم الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بذلك، فأجابهم ربهم.

قال الله تعالى : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ

وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء:٨٣-٩٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧] .

٢- الخزانة الثانية

فقهُ ابتلاء الخلق بعضِهم ببعض :

جعل الله ﷻ بعض الناس فتنةٍ لبعض، كما قال سبحانه : ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ٥٣﴾ [الأنعام:٥٣] .

فكُل إنسانٍ مبتلى بصاحبه، من الذكور والإناث .

فالغني مُمتحن بالفقير، عليه أن يواسيه ولا يسخر منهَ، والفقير مُمتحن بالغني عليه ألا يحسده، ولا يأخُذ منه إلا ما أعطاهُ .

والمعافى مُبتلي بالمريض، عليهِ أن يُعينهُ ، ويُساعدهُ علي ما يشفي مرضهَ ، والمريض مُمتحن بالمعافى، عليه ألا يحسدهُ، ولا يتسبب في أذاه .

والسميع مُبتلي بالأصم، والأصم مُبتلي بالسميع، والبصير مُبتلي بالأعمى، والأعمى مُبتلي بالبصير .

والسيدُ مُمتحن بالعبد، والعبدُ مُمتحنُ بالسيد ، والمُطيع مُمتحن بالعاصي، والعاصي مُمتحن بالمطيع ، والأنبياء مُمتحنون بأُممهِم، والأُمم مُمتحنة بالأنبياء ، والعَالم مُمتحن بالجاهل، والجاهل، مُمتحن بالعَالم ، والإمام مُمتحن بالأُمة، والأُمة مُمتحنة بالإمام ، والفتنة أن يحسد المُبتلي المعافى ويحقر المعافى المُبتلي ، والنجاة لكُل مِنهما لزوم الصبر، المعافى عن الشماته، والمُبتلي عن الضجر، كما قال سبحانه : ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ٢٠﴾[الفرقان:٢٠] .

واللهُ ﷻ ابتلي عبادهِ بالمُحكم والمُتشابه، ليعلم من يقف حيثُ وقفهُ الله، ومن يقول علي الله بلا عِلم ، وليعلم الإنسان أنه لم يُؤتَ من العلم إلا قليلاً، كما قال سبحانه: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾[الإسراء:٨٥] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾[الإسراء:٣٦] .

فاللهُ يبتلي بالمُحكمِ والمُتشابه في القُرآن، ليعلم من يقف حيثُ وقفهُ الله، ومن يقول على الله بلا عِلم: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾ ﴾[آل عمران:٧-٩] .

وحكمة التكليف من الله ﷻ مترددةً بين الامتثال، والابتلاء .

فالابتلاء كما أمر الله إبراهيم ﷺ بذبح ابنه إسماعيل، فليس المقصود الامتثال والفعل ؛ لأن الله لم يُرد ذبح ابنه إسماعيل كوناً وقدراً ، وإنما الحِكمة مجُرد الابتلاء ، هل يُصمم علي تنفيذ الفعل ؟

كأنه فَعل أو لا ، كما قال سبحانه : ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾

وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ ﴾[الصافات:١٠٠-١١٣] .

والامتثال يُشترط لهُ التمكُن من الفعل، كما قال سبحانه : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ ﴾[البقرة:٢٨٦] .

وقال الله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ ﴾[التغابن: ١٦] .

أما الابتلاء فلا يُشترط له التمكُن من الفعل .

فقه استقبال البلاء :

الناسُ في البلاء أربعة أقسام :

الأول: التسخُط من المُصيبة:

وهذا الصنفُ من الناسَ يشكو اللهَ إلي خلقه ، ويشكو من يقدر إلي من لا يقدر، وهذا محُرم، لأن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم ، فمن رضيَ فلهُ الرضا، ومن سخط فلهُ السُخط.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ﴾[المعارج:١٩-٢٢] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحج:١١ -١٣] .

الثاني : الصبر علي المُصيبة ابتغاء وجه الله:

وهذه درجة عالية، لما فيها من الأجر العظيم، كما قال سبحانه : ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿١٠﴾﴾[الزمر:١٠] .

وتكفير السيئات، ولكون الصابر ممن يحبهم الله ﷻ : ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾[البقرة:١٥٥-١٥٧] .

واللهُ يُحب الصابرين واللهُ مع الصابرين.

قال الله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾[آل عمران:١٤٦].

الثالث : الرضا عن الله:

وهذه أعلي من الصبر ؛ لأن الصابر يصبر وهو كاره ، فهذا راض عن الله لما قضي عليه، لما يعرفهُ من حُسن العاقبة ، فمن رضي عن الله في قضائه، فلهُ الرضا من ربهَ:﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾[التوبة:٥١] .

فالمؤمن يرضي بقدر الله عليه محبوباً أو مكروهاً، لأنه يعلم أن ما أصابهُ لم يكن ليُخطئهِ ، وما أخطأه لم يكن ليُصيبهَ، ولأنه يرجو الثواب على رضاه.

قال الله تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾[الروم:٦٠].

الرابع: الحمد والشُكرُ علي قضاء ربه.

فهذه أعلي الدرجات ؛ وأحسن المقامات ، فهو يحمد ويفرح ، لأنهُ يري فعل ربهُ الرحيم بعبدهِ المؤمن، ويري حُسن العاقِبة .

قال الله تعالى : ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الجاثية:٣٦-٣٧] .

وقال الله تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ [التغابن:١١]

وقال الله تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحديد:٢٢-٢٣] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الحج:٣٤-٣٥] .

٣- الخزانة الثالثة

الفرقُ بين الكرامة والاستدراج :

من سأل اللهُ شيئاُ وأعطاه مرادهُ، لم يدُل ذلك علي كون ذلك العبد وجيهًا عند الله ﷻ ، سواءً كانت تلك العطية علي وِفق العادة، أو لم تكن علي وفق العادة كالكرامة ، بل قد يكون ذلك العطاء إكراماً للعبد علي الطاعة ، وقد يكون استدراجًا لهَ لزيادة المعاصي بسببِ كُفرهِ: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ ﴾[الأعراف:١٨٢] .

والاستدراج لهُ أسماء كثيرة منها :

المكر .. والكيد .. والمخادعة .. والإملاء .. والفتح .

والاستدراج : أن يعطي الله العبد كل ما يريده من الدنيا، ليزداد ضلاله وغيهُ، وجهله وعِناده، فيزداد كُل يوم بُعداً من الله درجةً فدرجة:﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾[المؤمنون:٥٥-٥٦].

وقال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ ﴾[الأعراف:١٨٢- ١٨٣] .

وقال الله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾[التوبة:٥٥] .

فإذا مال قلب العبد إلي الدُنيا ، ثم أعطاه الله مُرادهَ، وصل إلي مطلوبه، وذلك يوجب حدوث اللذة ، وحصول اللذة يزيد في الميلِ إلي الشهوات ، والبعُد عن الطاعات، وحدوث الميل يوجب مزيد السعي فيما يُشغل عن طاعة الله، ويصرف عن عبادته: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ

كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾[الأنعام:٤٤-٤٥] .

فالوصول إلي المُرادات لا يدل علي كمال الدرجات، بل هو مع الإيمان والطاعة إكرام للعبد، ومع الكُفر والمعاصي استدراج له: ﴿ فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ﴿٢٠﴾ ﴾[الفجر:١٥-٢٠] .

وصاحب الكرامة يخاف من العطاء، لأنهُ قد يكون استدراجًا ، أما صاحب الاستدراج فيستأنس بالعطاء، ويظُن أنه إنما أُعطي ذلك، لأنه كان مُستحقاً له ، وحينئذ يستحقر غيرهَ، ويتكبر عليه، ويستخف يه، ويحصل له أمن من مكر الله، ولا يخاف سوء العاقبة، فتحصل له العُقوبة: ﴿ فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾[التوبة:٥٥] .

وقال الله تعالى: ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ ﴾[آل عمران:١٩٦-١٩٧] .

والمؤمن الحق يخاف من العطاء والإكرام، كما يخاف من أنواع البلاء .

فالكرامة غالباً توجب الفرح ، والفرح بغير الحق والدين حجاب عن الحق، والمحجوب عن الحق كيف يليق به الفرح والسرور : ﴿ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾[يونس:٥٨] .

ومن اعتقد أن هذا العطاء بسبب عمله أعجب بعمله، ومن كان لعملهِ وقعُ عنده كان جاهلاً بمقام ربه ، ولو عرف ربه العظيم، لعلم أن كل طاعات الخلق في جنب جلال الله تقصير وهي من فضله، وتحتاج إلي استغفار.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [المؤمنون:٦٠-٦١] .

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

ومن أكرمه الله بكرامات، فإنما أكرمهُ الله، ليشكر ربه، ويظهر الذل والتواضع له ، فمن تجبر وتكبر مع هذا العطاء من ربه، فقد قطع ما به وصل إلي الكرامات ، ولهذا لما ذكر النبي ﷺ : « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلا فَخْرَ » أخرجه الترمذي وابن ماجة [1].

يقول لا أفتخر بهذه الكرامات، وإنما أفتخر بالمُكرم المُعطي جَلَّ جَلَالُهُ ، والكرامة غير المُكرم، والرزق غير الرزاق، وكل ما سوي الكريم والرزاق فهو محُدث فقير ضعيف عاجزًا محتاج .

ومن ابتهج بالكرامة دون المُكرم، سقط عن درجته، فالمؤمن لا يُشاهد في الكراماتِ إلا الكريم، ولا في المخلوقاتِ إلا الخالق، ولا في الصور إلا المُصور، فهذا الذي وصل : ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾ [النجم:٤٢] .

---

(١) صحيح/ أخرجه الترمذي برقم(٣١٤٨)، وابن ماجة برقم(٣٤٩٦).

وقال الله تعالى: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥١ ﴾ [الذاريات: ٥٠-٥١] .

والافتخار بالنفس وصفاتها، من صفات إبليس حين قال: ﴿ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ١٢ ﴾ [الأعراف:١٢].

ومن صِفات فرعون حين قال : ﴿ وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٥١ ﴾ [الزخرف:٥١] .

أما المؤمن فعزته بعبوديته لربه: ﴿ أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ١٦ ﴾ [الحديد:١٦] .

وقال الله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ٤٩ ﴾ [النساء:٤٩] .

وإذا أعطي الله عبدهِ كرامة فليشكر ربه، ويعبدهَ، ويستعين بها علي طاعتهِ : ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤ ﴾ [الأعراف:١٤٤] .

وقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢ ﴾ [البقرة:١٧٢] .

فلما أعطاه الله العطية الكُبرى أمره بالاشتغال بعبادة المُعطي، لا الفرح بالعطية ، والله ﷻ خير النبي ﷺ بأن يكون نبياً ملكًا ، أو نبياً عبدًا، فترك المُلك، واختار العبودية ، لأن العبد يفتخر بسيدهِ ومولاه، كما قال سبحانه: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ

ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ [البقرة:٢٥٨]

وإذا كان ملكًا، افتخر بأموالِهِ وعبيدِهِ ومُلكِهِ، كما قال فرعون : ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الزخرف:٥١] .

ولهذا أثني الله علي رسولِهِ ومدحهُ بعبوديتهُ لربهِ:﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء:١] .

وقال ﷻ في مقام التنزيل : ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ [النجم:١٠] .

وقال في مقام الرسالة: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ [الفرقان:١] .

وحُب المولى شيء، وحب مال المولى شيء ، فمن أحب المولى لن يفرح بغير المولى جَلَّ جَلَالُهُ، ولن يستأنس بغير المولى، فالفرح والأُنس بغير المولى جَلَّ جَلَالُهُ يدل علي أنه لم يكن محباً للمولى، بل كان محباً لنصيب نفسهِ من المولى، فهو ما أحب إلا نفسهَ، وجعل المولى وسيلةً لتحصيل مطلوبهِ منهَ ، وما كان محُباً للمولى، بل هو عابد ومُطيع للصنم الأكبر ، وهو الهوى : ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان:٤٣-٤٤] .

ومن أتقي الله فازَ برِضاه وكرامتهِ :﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾ [الطلاق:٢-٣] .

فقه الابتلاء:

اللهُ ﷻ حكيم عليم، ابتلى عِبادهُ بثلاثة ابتلاءات :

ابتلاهم بالشهوات الحيوانية .. وبالأوامر الإلهية .. وبالمصائب القدرية .

الأولي: ابتلاهم بالشهوات الحيوانية، كما قال سبحانه: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٤] .

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ ﴾ [الكهف:٧] .

الثانية : الأوامر الإلهية، كما قال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [البقرة: ٢١]

وقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الحج:٧٧] .

الثالثة : المصائب القدرية، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧] .

ومقصود الابتلاء هو التوجه إلي الله في كل حال، وعدم الالتفات لأحدٍ سواه : ﴿ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٠-٥١] .

فقه انشراح الصدور:

انشراح الصدر لا يكون أبداً إلا بالإسلام ، ومن أعظم ما يشرح صدر الإنسان ابتلاؤه بالعلم والإيمان والحكمة : ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٢﴾[الزمر: ٢٢] .

فصدر الإنسان لا ينشرح بكثرةِ المال؛ لأن صاحب المال عنده هم إما من زوال المال، أو نقصهِ، أو موت الإنسان، وترك المال .

ولا ينشرح الصدر بكثرة الأولاد ؛ لأن الإنسان يخاف عليهِم من الموت والمصائب في كل وقت ، ولا ينشرح الصدر بالمُلك والسلطان، لأنه يخشي من زوالهِ، فهو في قلق وخوف دائم، أن يموت، أو يزول ملكه .

لكن العلم بالله، والإيمان به، وعبادتهِ وحده لا شريك له، وطاعة الله سرور، وقُرة عين، وأُنسً وطمأنينة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ٢٩﴾ الرعد:٢٨ -٢٩] .

والصدر هو البحر الذي يسبح فيهِ القلب، فإذا انشرح الصدر، انشرح القلب من بابِ أولي : ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [الحج:٤٦]

وقال الله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢٥ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا

ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾[الأنعام:١٢٥-١٢٧] .

وانشراح صدر النبي ﷺ له صوراً كثيرة، منها الصبر علي أذي الكفار والمنافين ، والصبر علي أتباعه الذين قد لا يوافقونه، وثقته بالمستقبل من وعد الله، ومداومته ﷺ علي العبادةِ، والدعوة إلي الله، وتعليم شرع الله دون يأس أو مللٍ، وتحليه بالأخلاق الكريمة مع كافة الخَلق: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾[التوبة:١٢٨].

وعدم استعجاله ﷺ للنتائج، وقطف الثمار، والسكون والطمأنينة في كل حال إلي ربهِ، وعدم التفاته إلي زينة الدُنيا:﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾[الكهف: ٢٨]

وقال الله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[الروم:٦٠] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الطور:٤٨] .

٤- الخزانة الرابعة

أشد الناس بلاءً الأنبياء:

أعظم الخلق ابتلاءًا هم الأنبياء والرُسل

كما قَالَ النبي ﷺ : « أَشَدُّ النَّاسِ بَلاءً الأَنْبِيَاءُ ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ » .أخرجه ابن ماجه والترمذي(١) .

وأعظم ابتلاءات الأنبياء الابتلاءات التي أُبتلي بها إبراهيم ﷺ، وموسي ﷺ، ومحُمد ﷺ .

فإبراهيم ﷺ ابتلاه الله ﷻ فنجح في الابتلاء، فجعله الله إماماً، كما قال سبحانه: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾[البقرة:١٢٤] .

فاللهُ ﷻ ابتلي إبراهيم ﷺبدعوة قومهِ، ودعوة أبيه، ودعوة النمرود، وصبر علي هذه الابتلاءات فجعله الله ﷻ أُمه، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾[النحل:١٢٠-١٢٢] .

فهو أمة وإمام في التوحيد، والإيمان، والأخلاق، والصفات، والدعوة، والعبادة، فإبراهيم ﷺ من أجل لا إله إلا الله، أبتُلي بإلقائه في النار فصبر .

---

(١) صحيح/ أخرجه ابن ماجه برقم: (٤٠٢٣)، والترمذي برقم: (٢٥٦١).

فضحي بالحياة فوهب الله له الحياة، فحين قذفوه في النار جعلها اللهُ فوراً برداً وسلاماً، كما قال سبحانه : ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنبياء:٦٩] .

وضحي بالبلد في العراق، فالله ﷻأعطاهُ أحسن بلد، وهي مكة، وبني فيها بيته العتيق ، وضحي إبراهيم ﷺ بالولد، وهو إسماعيل حين أراد ذبحهِ، حين أمره الله ﷻ ، فالله أحيا الولد، وأخرج من نسلهِ أفضل ولد، وهو محُمد ﷺ، الذي بُعث من نسل إسماعيل، وابتلي بترك أُم الولد في مكة:﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[إبراهيم:٣٧] .

فالله حفظ أُم الولد، وحفظ الولد، وجعل خطوات هذه المرأة نسُكاً يتعبد به الناس إلى يوم القيامة، وهو السعي بين الصفا والمروة: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾[البقرة:١٢٤] .

وموسي ﷺ ابتُلي حين ولادته، لأن فرعون كان يُقتل كل الأولاد في كل سنة فولد تلك السنة، وابتُلي بقصر فرعون، وابتُلي حين قتل القبطي ، وابتُلي في مَدين برعي الغنم عشر سنين ، و ابتُلي حين عاد بأهله من مَدين، وابتُلي بدعوة أكبر طاغية وهو فرعون .

وابتُلي حين جمع له فرعون السحرة ، وابتُلي حين لحقه فرعون وجنوده مع بني إسرائيل، حتى أغرقهم الله في البحر ، وأبتُلي حين بقي في التيه مع بني

إسرائيل أربعين سنة، وابتُلي بطلب العِلم عند الخضر، فحياته ﷺ كلها ابتلاءات، وقد وردت قصته في القُرآن في ثمانية وعشرين جزءًا .

فأعظم منة علينا نعمة الإسلام : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾[المائدة:٣] .

فأسباب الحق تكون بالمُجاهدة ، وبذلِ الجُهد، لإعلاء كلمةِ الله ، ونشر دينه ، وأسباب الباطل تكون بالمشاهدة، ومُلك الأموال والسلاح، ونحو ذلك ، ففرعون عنده أسباب الباطل المشاهدة، كما قال لقومهِ : ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾[الزخرف:٥١-٥٦] .

فموسي، وأمهِ، وزوجتهِ، وأختهِ وزوج فرعون عندهم أسباب المُجاهدة وفرعون عنده أسبابه المشاهدة ، كم فرعون مُلكه عظيم، وأسبابه عظيمة ، وكم النساء ضعيفات ، وكم ضعف أسبابهِن، ولكن مجُاهدتِهن عظيمة ، فالله ذكر في القرآن أسباب إظهار الحق، وهي المُجاهدة ، وذكر أسباب إبطال الباطل، وكل ذلك يكون بالمُجاهدة: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾[الحج:٤٠-٤١].

فإيمان بني إسرائيل مُزج مع المعصية، والسبب؟

قال الله تعالى: ﴿ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾[المائدة: ٧٩] .

فلما تركوا الدعوة جاءت المعاصي، مع أنهم أبناء الأنبياء، فامتزج الإيمان مع المعاصي فجاءت المصائب نقداً .

ولكن الإيمان في حياة الصحابة كان كاملاً، مقروناً بالطاعة الكاملة ، مع أن آباءهم كانوا عباد الأصنام ، وآباء بني إسرائيل أنبياء ، ولكن ليس بين الله وبين الناس نسب إلا :﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾[الحجرات:١٣] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج: ٤٠] .

فبنو إسرائيل بسبب المعصية، وترك الدعوة، سلط الله عليهم أسوأ الخلق وشرهم فرعون، الذي ادعى لنفسه الربوبية والإلوهية، فأصبح يسومهُم سوء العذاب : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾[القصص:٤] .

فسبب عذاب بني إسرائيل ترك الدعوة، ورفع العذابِ لا يكون إلا بالدعوة إلي الله ، فأرسل الله موسي إلي فرعون وبني إسرائيل :﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾

[القصص:٥-٦] .

فكل حياة موسي بلايا ، لكن جاءت بعدها العطايا، وذكر الله عن فرعون وحالهِ، وأن الله ﷻ دمره، وأورث بني إسرائيل أرضه، ومشكلة فرعون طفل لم يولد، فلا إله إلا الله، موسي في بطن أمه يخاف منهُ فرعون، وهو لم يولد . فكم قوة في الحق، فأمر فرعون بقتل الأطفال ، والعام الذي يقتل فيه الأطفال موسي في بطن أمه، ولما ولد موسي، ولدت الرحمة معه ، فلم يُقتل الأطفال عند ولادتهِ .

والنبي ﷺ ولد عام الفيل ، ولا يمكن أن يأتي العذاب، وهو في بطن أمه، فكذلك مادام النبي ﷺ موجوداً في الأمة، لا يمكن أن يأتي العذاب، فأهلك الله أبرهة، والنبي ﷺ في بطن أمه: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[الأنفال:٣٣] .

واللهُ سبحانه اختار التضحية، واختار تضحية أم موسي بابنها ، والأم لو خُيرت وقت الولادة بين موتها، وحياة ابنها، اختارت موتِها، وحياة ابنها ، فكم في قلب الأم من الرحمة والشفقة، فالله اختار التضحية حتى يرفع العذاب عن بني إسرائيل ، عن طريق امرأة هي أم موسي .

وسُمية امرأة ضعيفة، وآمهَ، وكبيرة، ثلاث صفات ، ولكن الله اختارها أن تكون أول شهيدة في الإسلام ، والشهادة أن تمحو ذكرك من أجل ذكر الله ، فالله يحُيي ذكرك إلي الأبد ، فالله أحيا ذكرها مع أنها لم تصُم ولم تُصلي ولم تحُج، لأن ذلك لم يُفرض في ذلك الوقت .

وجميع الشهداء حتى يصلوا إلي هذه المرتبة، لابد أن يكونوا مصلين مخلصين أعمالهم لله ، فكل الشهداء مع أعمالهم في صحيفة سمية التي هي

أول شهيدة في الإسلام، وهي لم تُصلي بعد، ولم تستمع إلي القرآن، لأن أبا جهل لم يعطيها الفرصة .

فالله سبحانه في جميع الأمم اختار أعلي التضحيات في النساء ، وبعد ذلك يأتي الرجال بقدر تضحيات النساء، فالأنبياء والعلماء والشهداء هم أبناء النساء : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾[القصص:٧] .

فحل مشكلةِ بني إسرائيل موجودُ في حضن المرأة، في حجرِ أم موسي، في موسي ابنها ، فمن ضحي بالمحبوب أعطاه اللهُ منفعته، فأعظم المحبوب إليها موسي، فضحت بهِ، وألقته في النهر .

وأحب محبوب في قلب النبي ﷺ مكة، كما قال ﷺ: «أَمَا وَاللهِ إنك لأَحَبُّ البِقاعُ إِلَيَّ، وَلَوْلا أَنَّ أَهْلَكِ أَخْرَجُونِي منكِ مَا خَرَجْتُ» أخرجه الترمذي وابن ماجة [1].

فأمره الله أن يُضحي بها، وأن يخرج منها، ووعده أن يعيده إليها كما أعاد موسي إلي أمهِ، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾[القصص:٨٥] .

وكما قال اللهُ لأم موسي : ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [القصص:٧] .

وليس المقصود البيت، بل المقصود رب البيت، فنضحي بالبيت، لنصل إلي رب البيت: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾

(١) **صحيح**، أخرجه الترمذي برقم(٢٣٩٢٥)، والبيهقي برقم(٢/ ٥١٨) .

فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ ﴿٤﴾ ﴾[قريش:١-٤].

موسي ﷺ عاش مائة وعشرين سنة قضاها في قصر فرعون، ثم في دعوة فرعون ، ثم في التيه مع بني إسرائيل ، وفي آخر عمرهِ خطب في بني إسرائيل خطبة بليغة تأثروا منها، فقيل له يا موسي هل في الأرض أحدٌ أعلم منك؟ قال : لا ، فأوحي اللهُ إليه بلي، إن في الأرض من هو أعلم منك .

وموسي ﷺ عنده طلب الخير، والمعرفة، وزيادة المعرفة تحتاج إلي زيادة الجُهد ، فاستعد موسي للطلب ، فهل هذه الرحلةَ مفروضةً عليه ؟

لا ، بل هو الذي طلب ذلك لحبه للمعرفة .

وإبراهيم ﷺ طلب المعرفة، كما قال سبحانه : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾[البقرة:٢٦٠] .

وموسي قد طلب الرؤية بعد تكليم الله لهَ : ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ ﴾ [الأعراف:١٤٣] .

فالعلمُ ليس له نهاية، والصفات الحميدة ليس لها نهاية، والإيمان كذلك ليس له نهاية ، والمُجاهدة ليس لها نهاية : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾[العنكبوت: ٦٩] .

فموسي ﷺ استعد لطلب هذا العلم، لا شهراً ولا سنة، بل حقبًا ، والحقب سبعون سنة، حتى يصل إلي مقصدهِ : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ ﴾[الكهف:٦٠] .

إذا جاء الدين بسببك في الناس فهذا شيء طيب ، لكن الدين يأتي في حياتك، ويكمل الإيمان، وتكمل التقوى، هذا أطيب ، فالمقصود الأول النفس، ثم الناس: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾[العنكبوت: ٦٩] .

فالأنبياء طلبوا المعرفة لمصلحتِهم هم .

وخلاصة هذا الكون أنت مخلوق، واللهُ خالق، ويوم القيامة يسعد بلقاء المؤمن، ويشقي الكافر : ﴿ إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾ [الغاشية:٢٥-٢٦] .

وقال سبحانه: ﴿ يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا ﴿٨٦﴾ ﴾[مريم:٨٥- ٨٦] .

والصلاح يأتي في الإنسان بحسب الطلب، لذلك موسي ﷺ سأل الله أن يهديه لمن يعلمه، فموسي ﷺ كل حياتهِ مُعلِماً، والآن هو يريد أن يتعلم فقيل له: أُستاذك حيث تفقد زادكَ ، فخرج موسي ﷺ وفتاه إلي مجمع البحرين عند الصخرة ، ثم نام موسي، ويوشع عنده الخدمة سمكةٍ واحدة .

فلما نام موسي، يوشع كان في حراسة موسي ﷺ، فخرجت السمكةِ من المِكتل، ودخلت في البحر: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا ﴿٦١﴾ ﴾[الكهف:٦١] .

وموسي ﷺ أمامه المقصد، فقام من النوم، وقال ننطلق، ويوشع نسي أن يخبر موسي بقصة الحوت ، لكن موسي ﷺ لما انطلق أحس بالتعب، فقال يوشع لقد فقدنا الزاد فماذا قال موسى؟

قال الله تعالى: ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ ﴾ [الكهف:٦٤] .

والإنسان إذا تجاوز مقصوده يتعب، فما هو الحل؟

قال الله تعالى: ﴿ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾[الكهف:٦٤-٦٥] .

والآن الأمة الإسلامية كلها في التعب فما هو السبب ؟

فإذا تعبت ترجع إلي المقصد، وهو الدين، والدعوة إلي الله ، إذا جاوزت المقصد تتعب ، الحل العودة إلي الدين :﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾[طه:١٢٣-١٢٤] .

فلما رجع موسي، وجد الخِضر عند الصخرة فقال : السلام عليك ، وقد كشف موسي الغطاء عن وجه الخِضر، فقال لا سلام لك علي هذه الجزيرة ، ما أتيتنا للسلام، أتيت للجُهد، فقال الخِضر لموسي من أنت؟

قال موسى، قال موسي بني إسرائيل، قال: من أخبرك، قال: الذي أرسلك، فالآن موسي يبين أدب التعليم بأن يتبع الهدي لا الهوى: ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ ﴾[الكهف:٦٩] .

فالعلم جمال، ومن لم يعمل به فهو أقبح الناس ، فموسي كل حياتهِ الناس يسمعون منه، لأنه داعٍ إلي الله، وتتبعه الناس ، واليوم يتبع الخِضر متواضعاً.

والمشكلة في الدعوة أن أكثر الناس يريد أن يكون متبوعاً لا تابعًا ، وموسي من أولي العزم قال للخِضر : ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ ﴾[الكهف:٦٦] .

وفي تعليم الدعوة، الكبير يمشي إلى الصغير، كما فعل موسي مع الخِضر ، وفي تعليم المسائل الصغير يمشي إلي الكبير، لذلك سفينة الدعوة تحِمل الكل، الكبير والصغير، والعالم والجاهل ، فموسي قدم الطلب : ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ ﴾[الكهف:٦٦] .

فقال المُعلم بقوة : ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ ﴾[الكهف:٦٧]

والمعلم عادة يكون في مقام القوة والشِدة ، والمتعلم عادة يذل لمن يتعلم منهِ، ليستفيدَ منهِ: ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ ﴾[الكهف: ٦٨-٦٩] .

فما أعظم يقين الأنبياء، وما أعظم تضحياتهم، وما أجمل صبرهم، وما أحسن رحمتهم: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾[التوبة:١٢٨] .

وقال الله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[الروم:٦٠] .

٥- الخزانة الخامسة

فقهُ الفِتنة :

الفِتنة هي الابتلاء، والاختبار، والامتحان ، والفِتنة تكون من الأفعال الصادرة من الله ﷻ، وتكون من الأفعال الصادرة عن العبد .

فالمصائب والآلام والقتل والعذاب وغيرها من المكروهات، إن كانت من الله، فهي علي وجه الحكمةِ والرحمةِ، والعدل والإحسان، وكلها خير: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنبياء:٣٥] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧] .

وإن كانت الفتنة من الإنسان بغير أمر الله، فهي مذمومة، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ ﴾ [البروج:١٠] .

والفتنة تكون بالأموالِ والأولاد، والخير والشر، والدنيا والنِساء، والاختلاف والعذاب وغير ذلك:﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ ﴾ [النساء: ١١٠ – ١١٢]

وقال الله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٤] .

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ ﴾ [الكهف:٧] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنبياء:٣٥] .

فالدنيا دار الإيمان والعمل، ودار الابتلاء والامتحان، والآخرة دار الحساب والجزاء، والثواب والعقاب .

وحكمة الفتنة تمييز المؤمن من المنافق ، والصابر من الجازع ، والصادق من الكاذب ، والطيب من الخبيث:﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [العنكبوت:٢-٣] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾ [محمد:٣١] .

والابتلاء ليس عيباً، إنما العيب أن يسقط الإنسان في هذا الاختبار، أو ذاك الامتحان ، فاللهُ ﷻ ما ابتُلي إلا ليعافي، وما منع إلا ليعطي، وما قبض إلا ليبسط .

يبتلي الله ﷻ عبادهَ بالأمراض، ليتوجهوا إليه وحده بطلب الشِفاء: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الشعراء:٨٠] .

والأمراض التي تُصيب الناس نوعان :

الأول: مرض الأبدان:

وهو ما يصيبها من الآفات والأمراض بسبب مخُالفة قانون الصِحة، بزيادةٍ أو نقصٍ، أو تناول شيء فاسد .

الثاني: مرض القلوب:

وهو خروجها عن مقتضي الفِطرة بشكٍ، أو نفاقٍ، أو جَحدٍ، أو تكذيب ، فالقلوب المريضة هي الخالية عن العصمةٍ والتوفيق كحال الكفار والمنافقين .

والمرض كل ما خرج به الإنسان عن حد الصحة من علةٍ، أو نفاق، أو تقصيرٍ في أمر، فعلل القلوب من إتِباع الهوى، وعلل الجوارح من مرض البدن، وفي القرآن شفاء من هذا وهذا : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾[الإسراء:٨٢] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [النحل:٨٩] .

فقه الابتلاء:

اللهُ سبحانه يبتلي بالمصائب والأمراض والمكروهات، لصرف الأشرار إلي أعمال الأبرار ، وجذب النفوس إلي الملك القدوس ، وجر الناس من دار الفرار إلي دار القرار، ومن دار الغرور إلي دار السرور :﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الأنعام:١٠٢] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧].

أرسل الله رسوله محُمداً ﷺ إلي العالمين كلهم بعشرة أصول، كما قال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأحزاب: ٤٥ – ٤٨].

فبلغ ﷺ الرِسالة، وأدي الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جِهادهِ، حتى أتاه اليقين، فصلوات الله وسلامه عليه .

ورسالة النبي ﷺ جامعةِ بين البشارة والنذارة، متضمنةِ للتكليفِ بالأمرِ والنهي:﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾ [الحشر:٧] .

والحكمةِ في ذلك أن الابتلاء لا يتم إلا بتنويع التكليف ؛ لأن الإنسان قد يهون عليه فعل الأوامر، ويشق عليه ترك المنهيات وبالعكس، فلو كان الدين كله أوامر ما تبين الابتلاء في كف الإنسان نفسهِ عن المحرمات، ولو كان كله نواهي ما تبين ابتلاء الإنسان بحمل نفسهِ علي فعل الأوامر .

فالابتلاء بالأمر والنهي غاية الحكمة، وغاية الرحمة، وغاية العدل والإحسان وتنويع التكليف من تمام الابتلاء ، فالصلاةِ تكليف بدني، والزكاة تكليف مالي ببذل المحبوب، والصيام تركُ للمحبوب، والحج تكليف بدني ومالي، واجتناب الشرك والمعاصي والمحرمات، من ربا أو سرقة أو زنا تكليف شرعي:﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴿٢٤﴾ ﴾[فاطر:٢٤] .

وقال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾[الحشر: ٧] .

الكلمات التي ابتلى الله بها إبراهيم ﷺ:

الكلمات التي ابتلي الله بها إبراهيم ﷺ نوعان :

الأول : كلمات كونية :

كما ابتلاه الله بذبح ابنه إسماعيل فامتثل، وامتحنه بأن أوقدت له النار وألقي فيها فصبر وأمتثل لأمر ربه، وترك أهله بوادٍ غير ذي زرع فامتثل، فلما صبر علي ما قدره الله عليه، وأمره به، جعله الله للناس إمامًا، ونصره وأنجاه مما يضره: ﴿ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾[البقرة:١٢٤] .

فهو ﷺابتُلي بإلقائهِ في النار، فوهب له الله له الحياة ، وابتُلي بذبح إسماعيل، فوهب الله له الحياة، وأخرج من نسلهِ محُمدًا ﷺ، وترك أهله بوادٍ غير ذي زرع ليس فيهِ أحد، فالله ملأ هذا البلد بمن يعبده في حرمه إلي يوم القيامة : ﴿ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ ﴾[البقرة:١٢٥] .

الثاني: كلمات شرعية :

وهي أن الله ﷻ ابتلي إبراهيم بفعل الأوامر، واجتناب النواهي، وكل ما أمر الله بهِ شرعًا، فالابتلاء كما يكون بأحكام كونية قدرية من مرضٍ ومصائب، يكون بأحكام شرعية، من إيمان وتقوي، وأمرٍ ونهي، وقد فاز إبراهيم بهذه الابتلاءات، فجعله الله ﷻ أمةً في التوحيدِ، والإيمان، والعبادةِ، والدعوةِ، والأخلاق: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةًۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾[النحل:١٢٠-١٢٣] .

والله ﷻ يمتحن عبادهَ بالأحكام الكونية، والأحكام الشرعية ، فيمتحنهم بالأحكام الكونية القدرية من المصائب والأمراض، ليعلم من يصبر، ومن يتوجه إليهِ في حل مسائلهِ :﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾[البقرة:١٥٥-١٥٧] .

وليعلم كذلك جَلَّ جَلَاله الصادق من الكاذب : ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾[العنكبوت: ٢ – ٦]

ويمتحنهم كذلكِ بالأحكام الشرعية، ليعلم من يخافه بالغيب ، ومن يمتثل أمرهَ، ومن يصبر عن معصيتهِ، ومن يصبر علي طاعتهِ ، فيبتلي جَلَّ جَلَاله من شاء من عبادهِ بالمال، لينظر أيقوم بواجبهِ من كسبهِ من وجه شرعيٍ حلال، وإنفاقهِ في وجه شرعي حلال، أم لا يقوم بذلك ، وهذه محنة، لأن غالب من ابتُلي بالمال طغي من وجه، وشحَ من وجهٍ آخر : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧ ﴾[العلق:٦-٧] .

ثم اعتدي من جهة الكسبِ الحرام، وأساء من جهة الصرف .

وقد يبتلي الله بعض عبادهِ بالعلم، ليبلوهم أيعملون به ويعلمونه أم لا :﴿ كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ٧٩ ﴾[آل عمران:٧٩] .

٦- الخزانة السادسة

حكمه الابتلاء :

الابتلاء هو الامتحان والاختبار، والهدف منه استكمال التربية في أمرٍ من الأمور الدينيةِ والدنيوية .

والتربية هي أخذ المُربي من يربيه بالأساليب التي تؤهله إلي الكمال المطلوب منه ، فنربي الإنسان ليكون طبيباً، أو طياراً، أو مدرساً، أو قاضيًا، لنعلم هل نفعت فيه التربية أم لا ؟

فإذا نفعت أمكن استخدامه في العمل الذي رُبي من أجله .

والله ﷻ هو رب العالمين الذي يربي عباده بما يسعدهم في الدنيا والآخرة ، وقد ربي الله جميع أنبيائه ورسله، ثم أرسلهم إلي أممهم بالحق الذي أرسلهم به : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ ﴾[طه:٣٩] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾[النساء:١١٣] .

وبعد ذلك، وبعد تلك التربية لأنبيائه ورسله، يرسلهم الله لدعوه عباده إلي عباده الله وحده لا شريك له .

وقد ربي الله آدم وزوجه في الجنة، كما قال سبحانه : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾[البقرة:٣٤-٣٧] .

فالله ربي آدم ﷺ في الجنة بالأوامرِ والنواهي، حتى إذا اكتملت تربيته، أرسله الله ﷻ داعيًا إليه .

والله ﷻ يربي المؤمنين بالأوامر والنواهي، ليكونوا ربانيين: ﴿ كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾[آل عمران:٧٩] .

كما ربي الله إبراهيم ﷺ فابتلاه في أول حياته بالإلقاء في النار ، وفي آخر حياته بذبح ابنه إسماعيل ، والابتلاء بذبح ولده أشد من الابتلاءِ بإلقاء نفسه في النار، وبعد تلك الابتلاءات العظيمة جعله الله إمامًا للناس، وأبًا لجميع الأنبياء من بعده، كما قال سبحانه : ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [البقرة:١٢٤] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾[العنكبوت:٢٧] .

ولما وفى وقام بما أمره الله به، جعله الله ﷻ إمامًا للناس : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾[النحل:١٢٠-١٢٣] .

فالله يُربي رسله قبل أن يملكهم مصائر الناس ومصالحهم ، فلا نولي أحدًا قياده في عمل حتى ينجح في الاختبار، فإذا نجح في الاختبار استعملناه في ذلك العمل ، فالله ﷻ رءوفٌ بالعباد، عظيم العناية بهم، يربي لهم الأنبياء، ثم يرسلهم إليهم بالرحمةِ والدين الحق: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾[الأنبياء:١٠٧] .

والله حكيمًا عليم يبتلي من يحبه من عباده، لأنه يحب أن يسمع دعاءه ويري انكساره ، فأشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ، يُبتلي الرجل علي حسب دينه ، فالمؤمن مع ربه يحبه ويطيعه، ويعبده ويخشع له، سواءً بسط عليه نعمته أو قبضها عنه ؛ لأنه يعلم أن ربه يستحق أن يُحب ويعبد ويطاع لذاته: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام:١٠٢-١٠٣] .

وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١ - ٢٢] .

ومن يعبد ربه لِنعمه عليه، قد يُعرض عنه إذا صرفها عنه : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [الحج:١١] .

فالمؤمن حقًا من يعبد الله لذاته، وجلاله ، وجماله، وإحسانه، فإذا ابتلاه الله بسلب العافية عنه صبر، واستشعر معية الله معه، وهو وإن فقد نعمة، العافية فقد أنس بالمنعم بالعافية، فيستحي أن يتألم أو يتوجع، لأن الله عنده: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧] .

فهو يستحى أن يطلب منه العافية، لئلا يظن أن ذلك زُهداً في معية ربه .

فالله ﷻ مع الصابرين، والله يحب الصابرين : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [البقرة:١٥٣] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾[آل عمران:١٤٦] .

ولهذا الذين يدخلون الجنة بغير حساب، هم كما أخبر النبي ﷺ عنهم:« الَّذِينَ لا يَسْتَرْقُونَ وَلا يَكْتَوُونَ وَلا يَتَطَيَّرُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ».متفق عليه[1].

علي قدر المعرفة بالله يكون الحب لله، وتكون قوة العبودية لله: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾[محمد:١٩] .

ومن رحمة الله بالخلق أن ستر عنهم الغيب، حتى لا تفزعهم الأحداث المؤلمة : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ ﴾[الحج:٦٥] .

مدار تكليف الله لعباده بشرعة يقوم علي أمرين :

أحدهما : فعل ما ينبغي فعله، وهو الأمْر ، كما قال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾[الحج:٧٧] .

والثاني : ترك ما ينبغي تركه وهو النهي ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾[الإسراء:٣٢] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾[البقرة:١٨٨] .

---

(١) **متفق عليه**، أخرجه البخاري برقم(٦٤٧٢)، ومسلم برقم(٢٢٠).

وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ﴾[الأنعام:١٥٢] .

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل:٩٠] .

والأمر : هو المقصود بالذات، لأنه هو الغذاء للقلوب .

وأما الترك : فهو حمية ودواء، فالطاعات أغذية، والمعاصي سموم مهلكة .

ولابد للعبد حتى تصلح أحواله من طاعة الله في هذا وهذا :﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ [الحشر: ٧] .

وفعل ما ينبغي فعله إما أن يكون متعلقًا بالقلب، وهو العلوم والمعارف الإلهية النافعة، أو متعلقًا بالبدن، وهو أعمال الجوارح:﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾[الأنفال:٢- ٤]

وكتاب الله عز وجل:هو الذي يُتوسل به إلي فعل ما ينبغي من الأعمال القلبية .

والميزان هو : الذي يُتوسل به إلي فعل ما ينبغي من الأعمال البدنية ، والحديد فيه بأس شديد يتوسل به إلي دفع ما لا ينبغي، فهو زاجرًا للخلق عما لا ينبغي، فلهذا منْ الله بإنزال هذه الثلاثة علي خلقه : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾[الحديد:٢٥] .

معامله الخَلق قسمان :

إما مع الخالق، وطريقها الكتاب والسنة، وتسمى العبادة بين العبد وربه .

أو مع الخلق، وهم إما مؤمنون ومنصفون، فالمعاملة معهم بالعدل، وهو الميزان ، أو أعداء ظالمون فالمعاملة معهم بالحديد والسيف .

وأكثر مصالح العالم لا تتم إلا بالحديد في الصناعة ، والزراعة ، والتجارة ، والبناء ، والنقل وغيرها، فلو لم يوجد الحديد لاختلت جميع مصالح العالم في دنياهم، ولما كانت الحاجة إليه أشد جعل الله وجدانه أسهل من الذهب، فهو موجود في كثير من الجبال وغيرها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [يونس:٦٠].

الأفعال التي كلف الله المؤمنين بها قسمان :

الأول : وهو أكثرها، وهو ما نعرف وجه الحكمة فيه بعقولنا، وهو أكثر أحكام الشريعة كالصلاة ، والزكاةِ ، والصيام وغيرها ، كما قال سبحانه : ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [العنكبوت:٤٥] .

وقال الله تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [التوبة:١٠٣] .

وقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [البقرة:١٨٣] .

الثاني: ما لا نعرف وجه الحكمةِ فيه كرمي الجمرات، والوضوء من أكل لحم الإبل ونحو ذلك .

فكما يحسُن من الله أن يأمر عباده بالنوع الأول الذي تدرك وجه الحكمة فيه ، فكذا يحسُن منه سبحانه الأمر بالنوع الثاني، لأن الطاعة في النوع الأول لا تدل علي كمال الانقياد لله ، أما الطاعة في النوع الثاني فإنها تدل علي كمال الانقيادِ، ونهاية التسليم ، فهذا في الأفعال .

أما في الأقوال فكذلك الله ﷻ كلفنا بما نعرف معناه، وهو الأكثر ، وكلفنا بما لا نعرف معناه كالحروف في أوائل السور: ﴿الٓمٓ ۝١﴾ ،﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾، ونحو ذلك .

ويكون المقصود من ذلك ظهور الانقيادِ والتسليم من المأمور للآمر:﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ۝٦٥﴾[النساء: ٦٥]

وقال الله تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝١١٢﴾[البقرة:١١٢] .

والإنسان إذا وقف علي المعنين، وأحاط به، سقط وقعه من القلب ، وإذا لم يعرف المعني، مع قطْعه أن المتكلم به أحكم الحاكمين، فإنه يبقي قلبه ملتفتاً إليه أبدًا ، ومتفكرًا فيه أبدًا، وفي ذلك مصالح عظيمةٌ للعبد .

فمن آمن بالله فعليه أن يمتثل أوامره التي جاءت في كتابه وسنه رسوله ﷺ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾[الأنفال: ٢ – ٤].

٧- الخزانة السابعة

فقه الابتلاء:

بين الله في القرآن الكريم أنه لن يدخل الجنة أحدٌ دون أن يُبتلى بالشدائد والتكاليف، التي يحصل بها التمييز بين الصادق و الكاذب، وبين المؤمن والمنافق ، وبين الجازع والصابر، كما قال سبحانه للمؤمنين : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾[البقرة:٢١٤] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾[آل عمران:١٣٩-١٤٢] .

وقال الله تعالى: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾

[العنكبوت: ٢ – ٣]

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾[البقرة:١٥٥-١٥٧] .

فقه النصر:

الله ﷻ ينصر رسله، وأولياءه على من عاداهم، كما قال سبحانه: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[الروم:٤٧] .

وغلبة الأنبياء على قسمين :

الأولى : غلبة بالحُجة والبيان، وهذه ثابتة لجميع الأنبياء .

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾[غافر:٥١] .

الثانية : غلبة بالسيف والسِنان:

وهذه ثابتة لمن أُمر من الرسل بالقتال في سبيل الله ، لأن من لم يؤمر بالقتال ليس بغالبٍ ولا مغلوب، لأنه لم يغالب في شيء، فالله سبحانه غالب، ورسله غالبون من غلبهم بالسيف ، وغالبون لمن غالبهم بالحجةِ والبيان:﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾[المجادلة: ٢١] .

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾[غافر:٥١] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾[الصافات:١٧١-١٧٣] .

ولم يُقتل رسولٌ في جهاد ، وإنما قَتل بعض بني إسرائيل رُسلهم في غير الجهاد والمغالبة ، كما قال سبحانه عن بني إسرائيل :﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾: [البقرة:٦١] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾[البقرة:٨٧] .

فالله ﷻ أرسل رسله بالبينات ، وأنزل معهم الكتاب والميزان، كما قال سبحانه : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾[الحديد:٢٥] .

فقه الابتلاء:

الله ﷻ هو رب العالمين، الذي يبتلي عباده ليعافيهم ، ويدفعهم إلى ما يسعدهم في الدنيا والآخرة، يبتليهم بالسراء والضراء، والخير والشر، والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعات والمعاصي، والحسنات والسيئات، ليستخرج من قلوبهم العبودية لله في كل حال : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[الأنبياء:٣٥] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ ﴾ [الأعراف:١٦٨] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾[الأنعام:٤٢-٤٥] .

فالله ﷻ بصير بالعباد، إذا لم يستجب الكفار لدعوة الأنبياء والرسل ابتلاهم بالبأساء والضراء ، فإذا لم يتضرعوا ويؤمنوا، أفاض الله عليهم النعم، لعلهم يشكرون، وأمهلهم لزيادة الإثم عليهم، وشدة العذاب، ثم أخذهم بغتة :﴿ وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٧٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٧ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٧٨ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٧٩ ﴾ [آل عمران:١٧٦-١٧٩] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ٩٤ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩٥ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٩٦ ﴾ [الأعراف:٩٤-٩٦] .

وقال الله تعالى: ﴿ أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ٥٦ ﴾ [المؤمنون:٥٥-٥٦] .

وقال الله تعالى: ﴿ فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٤ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ٤٥ ﴾ [القلم:٤٤-٤٥] .

وقال الله تعالى: ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧ ﴾ [آل عمران:١٩٦-١٩٧] .

والحكمة التي خلق الله من أجلها الخلق، وخلق السموات والأرض، وخلق الحياة والموت، هي الابتلاء بحسن العمل :﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾[الملك:١-٢] .

وقال الله ﷻ : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾[الكهف:٧] .

فالابتلاء يكون بحسن العمل، من يطع الله، فيحسن عمله ، ومن يعص الله فيسيء عمله، والطريق إلى إحسان العمل هو معرفة الله بأسمائه، وصفاته وأفعاله ، ومعرفة دينه وشرعه، والاستعانة به على عبادته وحده لا شريك له، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه.

قال الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٦﴾[يونس:٢٦].

وذلك كله مذكور في القرآن ، فالطريق إلى إحسان العمل هو الواعظ الأعظم، والزاجر الأكبر ، وهو واعظ المراقبة، والعلم الذي لا تكاد تخلو منه صفحة من القرآن ، مراقبة خالق السموات والأرض ، والعلم بأنه محيط بكل شيء ؛ فيعبد الإنسان ربه كأنه يراه ، فإن قال لا أرى الله فهو عالم أن الله يراه، وهذه، وهذه هي أعظم مقامات الدين، وهو الإحسان.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ۝١٢٥﴾[النساء:١٢٥] .

فمقصود الابتلاء حسن العمل؛ لا كثرة العمل: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[الأنفال:٢- ٤] .

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [الملك:١٢] .

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[السجدة:١٥-١٧] .

فأعظم مقامات الدين هو الإحسان ، والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، ومقصود الابتلاء حسن العمل ؛ لا كثرة العمل : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ ﴾[المؤمنون:١-٢] .

٨- الخزانة الثامنة

أنواع الابتلاء:

الله ﷻ ابتلى عباده بثلاثة أمور :

بالشهوات الحيوانية .. وبالأوامر الإلهية .. وبالمصائب القدرية .

فواجبهم في الشهوات أن يأكلوا الطيبات ، ويشكروا الله عليها : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾[البقرة:١٧٢] .

وواجبهم في الأوامر الإلهية أن يقولوا سمعنا وأطعنا ، ويمتثلوا أوامر الله حسب الاستطاعة ، ويجتنبوا نواهيه مطلقًا :﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾[البقرة:٢٨٥].

وقال الله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾[الحشر: ٧] .

وواجبهم في المصائب القدرية الصبر ، ثم الرضا ، ثم الحمد:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾[آل عمران:٢٠٠] .

وقال الله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء:٦٥] .

وقال الله تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾[التوبة:٥١] .

فقه أحكام الشريعة:

الله ﷻ ابتلى عباده بما يسعدهم في الدنيا والآخرة، وأكرمهم بهذا الدين العظيم ، وأكمله لهم، ونوع لهم العبادات والطاعات؛ لئلا يملوا، وأكثر لهم من أنواع العبادات، وجعل لكل وقت عبادة تخصه، ليستكثروا من العبادات التي ينالون بها أعلى الدرجات: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٧٧ ﴾ [الحج:٧٧] .

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤ ﴾[الأنفال: ٢ - ٤].

وقال الله تعالى: ﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٩ ﴾ [الزمر:٩].

فمن وفقه الله لذلك فليحمد الله على ما آتاه الله من العلم ، والعمل : ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢١ ﴾[الحديد:٢١] .

وقال الله تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٧٣ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٧٤ ﴾[آل عمران:٧٣- ٧٤] .

وقال الله تعالى: ﴿ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٦٩ ﴾[البقرة:٢٦٩] .

لهذا فالواجب على المسلم أن يعرف من أحكام ربه ، من أحكام دين الله ﷻ الحسن والأحسن ، والواجب والسنة .

فأفضل العبادات في وقت الجهاد، الجهاد في سبيل الله، وإن آل إلى ترك الأوراد والسنن، كما قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [التوبة: ٣٨ - ٤١]

فلكل عبادة وقت، وفي كل وقت عبادة؛ وذلك من فضل الله ﷻ على هذه الأمة: ﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣] .

والأفضل في وقت الآذان ترك الأوراد ، والاشتغال بإجابة المؤذن ؛ لينال الأجر على إجابته، ويكون له مثل أجره .

والأفضل في أوقات الصلوات الخمس المبادرة إليها، وإيقاعها على أكمل الوجوه : ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ ﴾ [البقرة:٢٣٨] .

وقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الجمعة:٩] .

وقال الله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ ﴾ [الأعلى:١٤-١٥] .

وقال الله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [المؤمنون:١-٢] .

فالفقيه حقًا من وفقه الله للعمل الأفضل، والتمييز بين الفاضل والمفضول ، والأفضل في أوقات السحر الاشتغال بالصلاة، والقرآن ، والذكر، والدعاء ، والاستغفار، ومناجاة الله: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة:١٥-١٧] .

ففي الليل مناجاة الله ، وفي النهار دعوة خلق الله إلى دين الله ، وتعليم شرع الله ، والإحسان إلى خلق الله : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾ [الإسراء:٧٩] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الذاريات: ١٨] .

وقال الله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف:١٠٨] .

والأفضل في وقت قراءة القرآن جمع القلب على تدبره، وفهمه، ورؤية من تكلم به، حتى كأن الله يخاطبك: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [الأعراف:٢٠٤] .

والأفضل وقت حاجة المحتاج الاشتغال بمساعدته ، وإغاثة لهفته، فيحصل العبد على مغفرة الله، وجنته: ﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ

﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٤].

وقال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾ [البقرة:٢٧٤] .

والأفضل في وقت الوقوف بعرفة الاجتهاد والتضرع بالدعاء والذكر ، فيوم عرفة هو أفضل أيام العام .

والأفضل في أيام عشر ذي الحجة؛ الإكثار من أنواع التعبد، لاسيما التكبير، والتحميد، والتهليل والإحسان إلى الفقراء لقول النبي ﷺ: « مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهِنَّ أَحَبُّ إِلَى اللهَّ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّام ».أخرجه البخاري [1] .

والأفضل في العشر الأخرة من رمضان لزوم المسجد ، والخلوة ، وقراءة القرآن، والاعتكاف ، والصلاة، والصدقات والأذكار: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾﴾ [القدر:١-٣] .

ففي هذه الأيام يتحرى الناس ليلة القدر، فيشرع فيها الاعتكاف، والصلاة، والأذكار ، ولزوم المسجد ، والتعبد لله .

والأفضل وقت مرض أخيك المسلم أو موته عيادته، وحضور جنازته ، فللمسلم حق على المسلم من زيارته إذا مرض ، وتشييع جنازته إذا مات .

والأفضل وقت الجهل، وظهور البدع، تعليم الناس أمور دينهم : ﴿كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [آل عمران:٧٩] .

---

(١) أخرجه البخاري برقم: (٩٦٩).

والأفضل وقت انتشار المعاصي الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٤] .

وقال الله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِى أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف:١٠٨] .

والأفضل وقت حضور الضيف القيام بحقه وإكرامه كما قال النبي ﷺ : « وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ » . متفق عليه[1] .

والأفضل في كل وقت وحال إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت ، والقيام بواجب ذلك الوقت وتلك الحال : ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام:١٦١-١٦٣] .

والإنسان من حيث هو إنسان ظلوم جهول ، إذا ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه ، قال : إنني أهل للإكرام ؛ ولذلك أكرمني الله ﷻ، ولا يعترف بفضل الله عليه ، كما قال سبحانه : ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ ﴾ [الفجر:١٥] .

وإذا ضيق الله عليه الرزق قال: ظلمني ربي، وأهانني ولم يكرمني كما أكرم فلانًا ، كما قال سبحانه : ﴿ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم:(٦٠١٩ ، ٦١٣٥)، واللفظ له ، ومسلم برقم: (١٧٢٦).

﴿ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الفجر:١٦-٢٠] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ ﴾ [الحج:١١] .

فهذا الإنسان من حيث هو إنسان، لا يشكر عند الرخاء ، ولا يصبر عند البلاء .

أما المؤمن فإذا أكرمه الله شكر ربه ، ورأى ذلك فضلًا من الله عليه ، وإذا ابتلاه بالفقر أو المرض صبر واحتسب، وقال: هذا بذنبي، وربي لم يظلمني ولم يهني : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

وقال الله تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الحج:٣٤-٣٥] .

أحوال الناس بعد الدعوة:

الناس إذا دعتهم الأنبياء والرسل إلى الإيمان بالله بين أمرين :

إما أن يؤمنوا

وإما أن لا يؤمنوا .

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [النحل:٣٦] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ﴾ [الكهف: ٢٩] .

فمن قال آمنت امتحنه الرب ﷻ وابتلاه ، ليتبين الصادق من الكاذب، والمؤمن من المنافق: ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [العنكبوت:٢- ٣] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧] .

ومن لم يؤمن، فلا يحسب أنه يسبق الرب لينجو بنفسه: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [العنكبوت:٤] .

فمن آمن بالرسل ، عاداه الناس، وآذوه بما يؤلمه ، وإن لم يؤمن بهم عوقب بما هو أعظم وأدوم : ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [طه:١٢٣-١٢٤] .

فلابد من حصول الألم لكل نفس ، سواء آمنت أو كفرت ، ولكن المؤمن يحصل له الألم والتعب والشدة في الدنيا ابتداءً ، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة ، كما قال سبحانه : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ

عَمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [آل عمران:١٩٥] .

والكافر تحصل له النعمة ابتداءً في الدنيا ، ثم يصير إلى الألم في الدنيا والآخرة ، فلا خلاص لأحدٍ مما يؤذيه البتة : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ﴿١٢﴾ ﴾ [محمد:١٢] .

وقال الله تعالى: ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ﴿١٩٨﴾ ﴾ [آل عمران:١٩٦-١٩٨] .

فمن هداه الله، واستقام على هدى الله ، امتنع من فعل المحرم، وصبر على أذى الناس، وعداوتهم ، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة ، كما جرى في حياة الأنبياء والرسل وأتباعهم مع من آذاهم وعاداهم ، وكالمهاجرين والأنصار ، ومن ابتُلي من علماء الأمة ودعاتها : ﴿ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [هود:٤٩] .

ولابد للإنسان أن يبتلى بما يسره ويسوؤه ؛ لأن النفس لا تزكو حتى تمحص بالبلاء: ﴿ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [الشمس:٧-١٠] .

وقال الله تعالى: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ

ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾[العنكبوت: ٢ – ٦] .

وقال الله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾[البقرة:٢١٤] .

وقال الله ﷻ :﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾[يوسف:١١٠] .

وقال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾[النحل:١١٠] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ ﴾ [الأعراف:١٦٨] .

٩- الخزانة التاسعة

أنواع المصائب:

المصائب خمسة أنواع :

مصائب الكشف .. ومصائب الدفع .. ومصائب الرفع .. ومصائب الردع .. ومصائب القصم .

فمصائب الكشف للأنبياء والرسل ، يكشف الله بها للخلق جمال أخلاقهم، وصبرهم، وحلمهم، في قوة البلاء؛ لما لم يروه من أخلاقهم ، كما جرى للنبي ﷺ في الطائف، ومكة، وفي غزوة أحد وغير ذلك: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾[القلم:٤] .

والله ﷻ يأمره بالصبر: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[الروم:٦٠] .

وحزن على القتلى من أصحابه في أحد ، فقال الله ﷻ له: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾[النحل/ ١٢٧-١٢٨] .

فمصائب الكشف؛ لكشف أخلاق الأنبياء التي ظهروا بها للناس؛ ليزيد إيمانهم، وإيمان غيرهم ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾[آل عمران:١٥٩] .

والله يقول له كلما أشتد عليه الأذى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾[الأعراف:١٩٩] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الطور:٤٨] .

ومصائب الدفع للمؤمنين، تدفعهم للتوبة من الذنوب، والمسارعة إلى الطاعات ، ومصائب الرفع للمتقيين، الله يرفع بها درجاتهم.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧] .

وقال النبي ﷺ : « مَا يُصِيبُ المُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلا وَصَبٍ وَلا هَمٍ ، وَلا حَزَنٍ وَلا غَمٍّ ، وَلا أَذًى ، حَتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُهَا ، إِلا كَفَّرَ اللهُ تَعَالَى بِهَا خَطَايَاهُ » . متفق عليه[1] .

وقال النبي ﷺ حين سئل: أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاءً قَالَ: « الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ يُبْتَلِيَ العَبدُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صُلبًا اشتد بَلاؤه، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةً ابتُلي عَلَى حَسَبِ دِينِهِ ، فَما يَبرحُ البَلاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يتركه يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ وما عَلَيْهِ من خَطِيئَة ». أخرجه الترمذي وابن ماجة[2] .

وقَالَ النبي ﷺ : « مَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالمُؤْمِنِ وَالمُؤْمِنَةِ فِي نَفسه وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللهَّ وَمَا عليه خطيئة ». أخرجه الترمذي وأحمد[3].

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٥٦٤٠)واللفظ له، ومسلم برقم: (٥١/ ٢٥٧٢).

(٢) صحيح/ أخرجه الترمذي برقم: (٢٣٩٨)، وابن ماجة برقم: (٤٠٢٣).

(٣) صحيح/ أخرجه الترمذي برقم: (٢٣٩٩)، وأحمد برقم(٧٨٥٩).

ومصائب الردع للعصاة والمجرمين ، إن كان فيهم بقية خير تردعهم، لعلهم يتوبون إلى ربهم : ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ٣١ ﴾ [الرعد:٣١] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ١٦٨ ﴾ [الأعراف: ١٦٨] .

ومصائب القصم للكفار المعرضين ، كما قال سبحانه : ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٥٥ ﴾ [الزخرف:٥٥] .

وقال الله ﷻ عن المكذبين للرسل: ﴿ فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٠ ﴾ [العنكبوت:٤٠] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢ ﴾ [هود:١٠٢] .

والمصائب لا تأتي فجأة ، بل الله يمهل العصاة ويكرمهم، لعلهم يتوبون إليه ، فإذا شرد الإنسان عن ربه، وأصر على إعراضه ، نزلت المصيبة عليه، رحمة به ، وحفظًا للأمة من شره : ﴿ وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ٧٦ ﴾ [المؤمنون:٧٦] .

وقال الله تعالى: ﴿ فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٤٣ ﴾ [الأنعام:٤٣] .

فالنعم توجب محبة الله ، والمعاصي تجذب العقوبة ، فمن رأى الله يمده بالنعم وهو يعصيه فليحذر عقوبته ، ويتوب إلى ربه : ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾[النور:٦٣] .

ومن رأى الله يبتليه بالمصائب، وهو يتقيه، فإنما يريد أن يرفعه، ويكفر عنه سيئاته؛ فليحمده: وقال سبحانه :﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾[التوبة:٥١] .

فمصائب الكشف للأنبياء ، ومصائب الدفع والرفع للمؤمنين ، ومصائب الردع للكفار والعصاة، ومصائب القصم لمن علم الله أنه ليس فيهم بقية خير ، فلكل كل مصيبة حكمة، وفي كل مصيبة منفعة: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [التوبة:٥١] .

وقال الله تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾[التغابن:١١] .

فقه الوقاية من الفتن :

أهم ما يحفظ المؤمن من الفتن ستة أمور:

الأول : كمال اليقين على ربه ﷻ ، وحُسن التوكل عليه : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[التغابن:١٣] .

وقال سبحانه :﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾[الطلاق: ٣] .

الثاني : قراءة القرآن الكريم ، تلاوةً، وتدبرًا، وعملًا ، كما قال سبحانه : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾[الفرقان:٣٢] .

الثالث : قراءة قصص الأنبياء والمرسلين ، كما قال سبحانه : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾[هود:١٢٠ -١٢٢] .

الرابع : العمل بما علمناه من الكتاب والسنة: ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾[النساء:٦٦-٧٠] .

الخامس: الدعاء بطلب الهداية والثبات : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾[الفاتحة : ٢-٧] .

ومن دعاء النبي ﷺ :«اللهم يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ» أخرجه الترمذي واحمد.[1] .

(١) صحيح/ أخرجه الترمذي برقم(٢١٤٠)، وأحمد برقم(٢٨٣٤) .

السادس: لزوم بيئة الإيمان، و التقوى، والأعمال الصالحة والانقطاع عن بيئة الغفلة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾[التوبة:١١٩] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴿٢٨﴾ ﴾[الكهف: ٢٨] .

فمن آثر دنياه على آخرته خسرهما معًا ، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معًا: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ﴿١٨﴾ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ﴿١٩﴾ كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ﴿٢١﴾ ﴾[الإسراء:١٨-٢١] .

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ﴿٣٢﴾ ﴾[فصلت:٣٠-٣٢] .

وأبواب الخير مفتوحة لكل أحد ، وأبواب الشر مفتوحة لكل أحد : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴿١٩﴾ ﴾[المزمل:١٩] .

والإيمان بالله هو الذي يدفع الإنسان لأعمال الخير ، واجتناب أعمال الشر : ﴿ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ

ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [طه:١٢٣-١٢٦] .

وشتان بين هؤلاء وهؤلاء: ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٢-١٦٣] .

والله سبحانه حكيم عليم، أحيانا يغلق على عبده أبواب الرزق المشروعة التي ترضيه ، إلا بابًا واحدًا مفتوح، وهو غير مشروع، ابتلاءً لعباده ، وهذا هو الامتحان ، إذ كل الأبواب التي ترضيه مغلقة، وباب واحدٌ محرمٌ لا يرضيه مفتوح على مصراعيه ، فإن قلت لن أعصي الله أبدًا كان الله معك ، وأتتك الدنيا وهي راغمة ؛ لأنك أرضيت ربك ؛ فلم يتخلى عنك ، والله ورسوله أحق أن يرضوه : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾ [الطلاق:٢-٣] .

فمن وفقه الله ﷻ لهذه الأمور الستة ، فاز بالثبات على دينه ، وشرفه الله بمرافقة الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [النساء: ٦٩ -٧٠] .

وإبلاغ الدين إلى الناس حملٌ ثقيل جدًا؛ لما يتطلبه من البذل، والترك، والجهد، والصبر على البلاء والأذى؛ لهذا أمر الله رسوله ﷺ ووجهه إلى ما يعينه على هذا الأمر العظيم ، فأمره بالقيام بالقرآن، كما قال سبحانه : ﴿

يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٢﴾ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ ﴾[المزمل:١ -٥] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴿٧٩﴾ ﴾[الإسراء:٧٩] .

ولما في القرآن من قوة وزيادة الإيمان رغب النبي ﷺ أصحابه في قيام الليل بالقرآن ؛ لأن ذلك سبيل العزة والنصر والأمن والرحمة والقوة ، فقاموا حتى أثنى الله عليهم بقوله: ﴿ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴿٢٩﴾ ﴾[الفتح:٢٩] .

والله سبحانه جعل شر القرون خير القرون، ببركة القرآن ، تلاوةً وتدبرًا، وتصديقًا وتطبيقًا ، فصار شر الناس هم خير الناس ، وشر البرية هم خير البرية، بشهادة ربهم الذي مدحهم في كتابه، فقال: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [التوبة:١٠٠] .

١٠- الخزانة العاشرة

فقه الابتلاء :

الله ﷻ خلق الأشياء والأحوال للابتلاء، وأنزل القرآن للنجاة: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ ﴾[الكهف: ٧] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾[الأنعام:١٥٥] .

فالأحوال من فقرٍ وغنى، وعافية ومرض، وأمن وخوف، ظروف، والمظروف الأعمال الصالحة :﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[الأنبياء:٣٥] .

وقال سبحانه :﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾[الأعراف:٩٦] .

فلا يسعد الإنسان ولا يشقى بأحواله وأمواله ، وإنما يسعد الإنسان ويشقى بأعماله: ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾[البقرة: ٣٨-٣٩] .

وقال سبحانه :﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[الأنعام:٨٢].

فالله سبحانه أهلك فرعون مع مُلكه ، وشقي قارون مع ماله ، فليست رسالة المسلم في الدنيا الترقي بالأموال ، ولا التزين بالأحوال ، بل الترقي والتزين بالإيمان والأعمال الصالحة في كل حال .

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت:٣٠-٣٢] .

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار:١٣-١٤] .

فلا يتعلق الإنسان بالغنى ؛ لأن فيه عزة ، ولا يتخلص من الفقر ؛ لأن فيه ذلة ، الله ما أسعد قارون مع ماله، ولا أشقى محمدًا ﷺ مع فقره:﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

وقد خلق الله الأحوال في الدنيا ، لزيادة الإيمان، بامتثال أوامر الله في كل حال ، فواجب السراء الشكر للرب ، وواجب الضراء الصبر على القضاء ، فلكل حال عبودية تخصها : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة:١٧٢] .

وخلق الله الأحوال في الآخرة ثابتة ، جزاءًا وفاقًا ، فمن ثبت على الصراط المستقيم في الدنيا ، ثبت الله أحواله يوم القيامة، فأهل الجنة في نعيم ثابت، وشبابٍ ثابت، وعُمرًا ثابت، وأهل النار في عذاب ثابت، وشبابٍ ثابت، وعُمر ثابت: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا

ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾[التوبة: ٧٢].

وقال الله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾[التوبة: ٦٨].

فثبات الأحوال في الدنيا محال ، والترقي بالأحوال محال، إنما الترقي فقط بالإيمان والأعمال الصالحة:﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾[التوبة:٨٥].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ ﴾[محمد: ١٢].

وفي الآخرة تثبت الأحوال حسب الأعمال الصالحة الثابتة في الدنيا ، كما قال النبي ﷺ : « يُنَادِي مُنَادٍ : إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلا تَسْقَمُوا أَبَدًا ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلا تَمُوتُوا أَبَدًا ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلا تَهْرَمُوا أَبَدًا ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلا تَبْأَسُوا أَبَدًا، مذلك قول الله ﷻ: ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾[الأعراف:٤٣] ». أخرجه مسلم(١) .

والله سبحانه ابتلى كل إنسان في هذه الدنيا بأربعة أمور هي :

النفس .. والهوى .. والشيطان .. والدنيا .

لهذا لابد من الجُهد على النفس، لتستقيم على أوامر الله ، والجُهد على الضال، ليكون مهتديًا ، والجُهد على المهتدي، ليكون هاديًا ، والجُهد على الجاهل، ليكون متعلمًا ، والجُهد على المتعلم، ليكون معلمًا، والجهد على

(١) أخرجه مسلم برقم: (٢٨٣٧).

الجالس، ليكون متحركًا، لأن الله شرف هذه الأمة بالدعوة والعبادة كالأنبياء: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٥٢ ﴾[إبراهيم:٥٢] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤ ﴾[آل عمران: ١٠٤] .

وقد ابتلى الله بحكمته كل مسلم بثلاثة أمور :

بالشهوات الحيوانية .. والأوامر الشرعية .. والمصائب القدرية .

وواجبه في الشهوات الحيوانية أن يأكل من الطيبات ، ويستعين بها على طاعة الله .

وواجبه في الأوامر الشرعية أن يفعل الأوامر حسب استطاعته ، ويجتنب المنهيات مطلقًا .

وواجبه في المصائب القدرية، الصبر على ذلك، لينال عظيم الأجر من ربه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ١٠ ﴾[الزمر:١٠] .

فالله سبحانه ركب الشهوات في كل إنسان، وما ركب فيه الشهوات إلا ليرقى بها إلى ما يحبه الله ويرضاه ، ولهذا يحُسن ويسيء، ويطيع ويعصي، ويؤمن ويكفر .

وهذه الشهوات إن صاحبها نور الإيمان سارت بصاحبها على صراطِ مستقيم إلى الجنة، وإن تجردت من الإيمان سارت بصاحبها إلى الجحيم :﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا

رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[الأنفال: ٢ - ٤].

وإن تجردت من الإيمان سارت بصاحبها إلى الجحيم : ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ ﴾[آل عمران:١٩٦-١٩٧] .

وقال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ ﴾[محمد:١٢] .

والشهوات قوة محركة إلى كل خير، حسب قوة الإيمان وضعفه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾[المؤمنون:٥١].

والشهوات قوة مدمرة لكل خير، حسب الكفر وشدته: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [النحل:٨٨] .

فقه المصائب :

اللهﷻ هو الرحمن الرحيم، يبتليك ليعافيك ، يبتليك ليهذبك لا ليعذبك ، يمنعك ليعطيك ، ويقبض عنك ليبسط لك : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [التوبة:٥١] .

فما أصابك من مكروه، فاعلم أن سببه أن الله يحبك، فيختبرك ليرقيك ، ويرفع درجاتك، أو أنه يحبك فيبتليك ليطهرك من ذنوبك ، أو أن لك مقامًا عنده لا تصل إليه إلا بصبرك على بلائه ، والله رؤوف بالعباد :﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾

ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾[البقرة:١٥٥-١٥٧] .

وستعلم أن صبرك حماك من النار، وأدخلك الجنة ، ورفع مقامك عند ربك : ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿١٠﴾ ﴾[الزمر:١٠] .

وكما قال الله ﷻ عن أصحاب النبي ﷺ: ﴿ إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَابَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾[آل عمران:١٥٣ -١٥٤] .

فالنجاة والفلاح بامتثال أوامر الله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الحج:٧٧] .

وبسبب الغفلة ، والانهماك في الشهوات ، وحب الدنيا ، وإتباع الهوى ، وكثرة المعاصي ، وقلة الطاعات، توالت علينا أمهات المصائب، والنقم، والكوارث، والفتن، والمحن ، كما قال سبحانه: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدۡ

جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [النحل:١١٢-١١٣] .

ومن سنة الله أن القلوب إذا خلت من الإيمان والتقوى، جاء الشيطان فاحتل قلوبنا ، ثم جاء الكفار فاحتلوا ديارنا ، ثم أفسدوا ما بقي من ديننا ، ثم تحكموا في أنفسنا وأوقاتنا، وأموالنا وديارنا ، كما تحكم فرعون في بني إسرائيل لمّا تركوا أمر الله: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [القصص:٤] .

ومن سنة الله إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني ، لعله يتوب إلى ربه: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [المؤمنون:٧٦] .

وقال الله تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾[الأنعام:٤٣] .

وقال سبحانه: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الروم:٤١] .

ولن تزال بلاد المسلمين محتلة، ما دامت القلوب محتلة ، ولن يخرج العدو الخارجي من الأرض، حتى يخرج العدو الداخلي من القلب ، وستبقى الأمور مخُتلة، والبلاد محتلة، مادامت القلوب معتلة بالإعراض عن الدين ، مشغولة بحب الدنيا:﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ

حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾[طه:١٢٣-١٢٦] .

وقال الله تعالى: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ ﴾ [الشعراء:٢١٣] .

فالسلام والأمن، والطمأنينة والسعادة، في الدنيا والآخرة، في الإسلام فقط : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[الأنعام:٨٢].

وقال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ الرعد:٢٨ -٢٩] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾[آل عمران:٨٥] .

فالحمد لله الذي هدانا للإسلام، والحمد لله الذي منّ علينا بنور الإيمان، وأكمل لنا شريعة الإسلام : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾[المائدة:٣] .

فالحمد لله الذي جعلنا خير الأمم ، وأرسل إلينا أفضل الرسل ، وأنزل علينا أحسن الكتب : ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾[آل عمران/ ١٦٤] .

والحمد لله الذي أنعم علينا بنعمة الإسلام ، وأخرجنا برحمته من ظلمات الجاهلية الأربع :

- حكم الجاهلية
- وحمية الجاهلية
- وتبرج الجاهلية
- وظن الجاهلية .

قال الله تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾[المائدة:٤٩-٥٠] .

وقال الله تعالى::﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾ ﴾[المائدة:١٥-١٦] .

وقال الله تعالى: ﴿ فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾[الجاثية:٣٦-٣٧] .

موسوعة خزائن العلوم الإسلامية

١٦ - خزائن الابتـــــلاء

القسم الثاني

ويشتمل على ما يلي :

١ - الخزانة الأولى

٢ - الخزانة الثانية

٣- الخزانة الثالثة

٤ - الخزانة الرابعة

٥ - الخزانة الخامسة

٦ - الخزانة السادسة

٧- الخزانة السابعة

٨- الخزانة الثامنة

٩ - الخزانة التاسعة

١٠ - الخزانة العاشرة

١٦ - خزائن الابتـــــلاء

القسم الثاني

الخزانة الأولى

فقه الابتلاء:

الله ﷻ سنته في عباده المؤمنين أن يبتليهم على حسب إيمانهم ، فمن ازداد إيمانه، زيد في بلائه وزيد في ثوابه ، فإن كان في دينه صلابة ، شُدد عليه البلاء ، وإن كان في دينه رقة ، خُفف عنه البلاء .

وأشد الناس بلاءً الأنبياء ، ثم الأمثل ، ثم الأمثل ، يُبتلى الرجل على حسب دينه، كما سُئل الرسول ﷺ : « أيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاءً ؟ قَالَ : الأَنْبِيَاءُ ، ثُمَّ الأَمْثَلُ ، فَالأَمْثَلُ ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صَلْبًا اشْتَدَّ بَلاؤُهُ ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ، ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ » . أخرجه الترمذي وابن ماجة بسند صحيح[1] .

وعلى حسب إيمان العبد يكون ابتلاؤه، وذلك يتطلب الصبر .

والصبر يقوم على ثلاثة أركان :

صبرٌ على طاعة الله .

وصبرٌ عن معصية الله .

وصبرٌ على أقدار الله .

---

(١) صحيح/ أخرجه الترمذي برقم: (٢٥٦١)، وابن ماجة برقم: (٢٩٠٠).

ولا يتم ذلك للعبد إلا بمعرفة الجزاء، والثواب، والعقاب ، وذلك لا يكون إلا بعد معرفة الإيمان، واليقين على الله، وعلى أسمائه، وصفاته، وأفعاله ، وعدم الالتفات إلى ما سواه فهو وحده الكافي: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾ [الطلاق: ٣] .

فمن علم الله منه الصدق والعزيمة لإرضاء الله أعانه ووفقه واستخدمه ، وقبل ما بذل من نفس ومال ، وما قدم من عمل ، وعوضه بخير من ذلك في الدنيا والآخرة ، فالأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام لما بذلوا أعراضهم في الله لأعدائهم ، فنالوا منهم وسبوهم ، أعاضهم عن ذلك أن صلى الله عليهم وملائكته ، وجعل لهم أطيب الثناء في السماء والأرض، كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأحزاب:٥٦] .

ويوسف عليه السلام لما احتمل ضيق السجن لله عز وجل شكر الله له ذلك بأن مكن له في الأرض، يتبوأ منها حيث يشاء كما قال سبحانه وَتَعَالَى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [يوسف:٥٦] .

ونبي الله سليمان عليه السلام لما عقر الخيل ، غضبًا لله، حين شغلته عن ذكره ، أعاضه الله عنها متن الريح ، كما قال سبحانه : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [ص:٣٦] .

ولما بذل الشهداء أبدانهم لله في سبيل الله ، حتى مزقها الأعداء شكر الله لهم ذلك، بأن جعلهم أحياء عند ربهم يُرزقون، وأعاضهم عنها طيرًا خضرًا ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [آل عمران:١٦٩] .

ولما صبر الصحابة رضي الله عنهم على غضب أعداء الله، وشدة بطشهم، أعاضهم الله بأن رضي الله عنهم ورضوا عنه، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾[التوبة:١٠٠] .

ولما تحملوا الخوف والجوع والمرض، من أجل إعلاء كلمة الله، ونشر دينه ، أعاضهم الله بالأمن التام في الدنيا ، والآخرة ، فسارت الظعينة من العراق إلى اليمن لا تخاف إلا الله، وهداهم الله إلى ما ينفعهم، كما قال سبحانه : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾[الأنعام:٨٢].

وكل ما يجري في هذا الكون العظيم ، واقع بمشيئة الله وإرادته ، وإذنه ، فما شاء الله كان ، مهما كان ، وما لم يشأ ، لم يكن مهما يكن: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾[القمر:٤٩-٥٠] .

أقسام الإدارة:

إرادة الله تبارك وتعالى تنقسم إلى أربعة أقسام :

الأول : ما تعلقت به الإرادتان الكونية ، والشرعية .

وهو ما وقع في الوجود من الأعمال الصالحة ، فإن الله أراده إرادة دين وشرع، فأمر به وأحبه ورضيه وأثاب عليه ، وأراده إرادة كون موقع، ولولا ذلك لما كان: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾[الأعراف:٥٤].

الثاني : ما تعلقت به الإرادة الدينية فقط.

وهو ما أمر الله به من الإيمان والأعمال الصالحة، فأطاع ذلك الأمر المؤمنون، وعصى ذلك الأمر الكفار والفجار : ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ ﴾[الكهف: ٢٩] .

هذه الإرادة يحبها الله ويرضاها ، وقعت أو لم تقع ، وهذه قد يقع مرادها وقد لا يقع، لأن الله خلق الإنسان مختاراً: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٢ ﴾[التغابن:٢] .

الثالث : ما تعلقت به الإرادة الكونية فقط.

وهو ما قدره الله وشاءه من الحوادث ، والأحوال، التي لم يأمر بها كالمحرمات والمعاصي ، فإنه لم يأمر بالمعاصي ولم يحبها، ولولا مشيئة الله وقدرته وخلقه لها لما كانت، فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٦٣ ﴾ [الزمر:٦٢-٦٣] .

الرابع: ما لم تتعلق به هذه الإرادة، ولا هذه الإرادة.

هذا لم يكن ، ولم يقع من أنواع المحرمات والمعاصي ، والمؤمن يُبتلى على قدر ما يحمله إيمانه من وارد البلاء .

اقسام البلاء:

البلاء الذي يصيب المؤمن نوعان :

أحدهما: بلاءُ بمخالفة دواعي النفس والطبع.

كالصبر على الطاعات، والصبر عن المعاصي، وهذا أشد البلاء، فإنه لا يصبر عليه إلا الأنبياء والصديقون، والناس فيه درجات متفاوتة ، ولهذا أمر

الله المؤمنين بالصبر على ذلك فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [آل عمران:٢٠٠] .

الثانية : البلاء الذي يجري على العبد بغير اختياره.

كالمرض ، والجوع ، والعطش ، والخوف ، ونقص الأموال والأنفس والثمرات ، ونحو ذلك، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧] .

والصبر هنا لا يتوقف على الإيمان، بل يصبر عليه البَر ، والفاجر ، لاسيما إذا علم أنه لا مُعول له إلا الصبر ، فإن لم يصبر اختياراً صبر اضطراراً ، ولهذا كان بين ابتلاء نبي الله يوسف الصديق ﷺ بما فعل به إخوته من الأذى، والإلقاء في الجُب، وبيع العبيد، والتفريق بينه وبين أبيه، وبين ابتلائه بمراودة المرأة له، وهو شاب، أعزب، غريب، بمنزلة العبد لها ، وهي الداعية إلى ذلك، فرق عظيم لا يعرفه إلا من عرف مراتب البلاء : ﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [يوسف:٢٣]

فإن يوسف ﷺ كان شاباً، جميلاً ، عزبًا ، غريباً ، وكانت المرأة جميلة، وذات منصب، في دارها، وتحت حكمها، وغلقت الأبواب، وهي الطالبة ، وكانت شديدة العشق والمحبة للرجل، قد امتلأ قلبها بحبه، فهذا الابتلاء الذي صبر معه يوسف ، ولا ريب أن هذا الابتلاء أعظم من الابتلاء الأول ، إذ هو من جنس ابتلاء الخليل إبراهيم ﷺ بذبح ولده إسماعيل ، إذ كلاهما

ابتلاءٌ بمخالفة الطبع ، ودواعي النفس والشهوة ، ومفارقة حكم طبعه : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الصافات:١٠٦] .

وهذا بخلاف البلوى التي أصابت يونس ﷺ في البحر، والمرض الذي أصاب أيوب، فمن له داعية وشهوة وهو يحُبسها لله، ولا يطيع نفسه حباً له، وحياءً منه، وخوفًا منه، وتوقيرًا له، فهو أفضل ممن لا داعية له ولا شهوة، ولهذا كان صالح البشر أفضل من الملائكة، وعبادتهم أكمل، وانقيادهم أتم ، ودرجاتهم أعلى .

والله تعالى يمتحن كل إنسان في ثلاثة مواطن :

في الدنيا .. وفي القبر .. وفي المحشر .

ففي الدنيا يكون الابتلاء والامتحان بشيئين :

بالسراء .. والضراء .. والأمر والنهي .. والحلال والحرام .. بالخير والشر.

وذلك ليعلم الله الصادق من الكاذب، والجازع من الصابر، والمؤمن من المنافق: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [العنكبوت:٢-٣].

وقال الله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنبياء:٣٥] .

فمن صبر، وأطاع الله فاز، ومن جزع، وعصى ربه خسر .

وفي القبر يكون الامتحان بثلاثة أشياء:

- من ربك؟ .
- ما دينك؟ .
- ما نبيك؟ .

فمن عرف ربه في الدنيا ، وعرف رسوله ، وعمل بدينه، أجاب بقول: ربي الله ، و ديني الإسلام ، ونبيي محمد ﷺ ، فهذا قد فاز بالجنة ، ومن لم يعرف ذلك أجاب بقوله : ها ها لا أدري ، فله النار .

أما في المحشر فيكون الامتحان والسؤال عن سبعة أشياء :

عن عمره فيما أفناه . . وعن شبابه فيما أبلاه . . وعن ماله من أين اكتسبه .. وفيما أنفقه .. وعن علمه ماذا عمل به ..

ويُسأل الناس جميعا يوم القيامة عن أمرين، ماذا كنتم تعبدون؟ و ماذا أجبتم المرسلين ؟ .

قال الله تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الحجر:٩٢-٩٣] .

والله ﷻ بعباده خبيرٌ بصير ، وهو أرحم الراحمين ، ورحمته وسعت كل شيء ، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة:١٤٣] .

فإذا أصيب الإنسان بمصيبة ، فالله يعلم أن مصلحة العبد تتحقق هنا ، ولو علم العبد ذلك لحمد الله على ذلك ، ولكنه لجهله يشكو ويتسخط ، والواجب واللائق بالعبد أن يمشي مع أقدار ربه سواءً سرته أو ساءته ، فالله أعلم بمصلحته ، وسيوفيه أجره إن صبر أو شكر :﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ [البقرة:٢١٦] .

أليس الإنسان إذا أصيب بمرض في بدنه، ذهب إلى الطبيب ليجري له عملية، ويستخرج من بدنه الأشياء الفاسدة، لتزول العلة، ويحصل له

الشفاء، ويدفع للطبيب مقابل ذلك مبلغًا من المال، مع أن الجراحة تؤلمه ، ولكنه يتحملها لحسن عاقبتها .

كذلك المصائب تطهير للعبد من الذنوب، تستحق من العبد الحمد والشكر لله، ويدرك هذا من حقق معنى لا إله إلا الله:﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾[التوبة:٥١] .

وفي المصائب تمييز للمؤمنين من المنافقين، والصادقين من الكاذبين، وأهل الخير من أهل الشر، وبالصبر عليها يرفع الله درجات العبد ، ويضاعف حسناته ، ويكفر سيئاته ، هذه فائدة المحن والمصائب والابتلاءات ، لا إزالة ما من المؤمنين مع الإيمان ، ولا ردهم عن دينهم، فما كان الله ليضيع إيمان المؤمنين، والمحن تمحص ولا تهلك.

قال الله تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾[التوبة:٥١] .

وليس الخير للإنسان أن يكثر ماله وولده، ويعظم جاهه، ولكن الخير أن يزيد إيمانه، ويصلح عمله، ويزداد عمله، ويعظم حُلمه، وإن أحسن حمد الله، وإن أساء استغفر الله، وإن أعطي شكر ، وإن ابتُلي صبر:﴿ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[الحج:٣٤ – ٣٥] .

٢- الخزانة الثانية

فقه الحياة الدنيا:

لا خير في الدنيا إلا لأحد رجلين :

الأول: رجل أذنب ذنباً، فهو يتدارك ذلك بتوبة نصوح : ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجرات:١١] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء: ١١٠]

الثاني : رجل يسارع في الخيرات، والأعمال الصالحة: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٦] .

والمؤمن يموت بين حسنتين :

حسنة قدمها

وحسنة أخرها .

والزينة في كل شيء ليست هي المقصد ، فقد جعل الله كل ما على الأرض زينة لها ، ولكن المقصود منه الابتلاء، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ [الكهف:٧] .

فالثياب تستر العورة، والألوان زينة، ولباس الجنود ليس فيه زينة، لأنها ليست مقصودة ، بل المقصود الخشونة والعمل ، وزينة النبات والأشجار من الأوراق والأزهار ليست مقصودة، إنما المقصود الحبوب والثمار ، وكذلك الدنيا ليست مقصودة لذاتها، إنما المقصود الآخرة: ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾[العنكبوت:٦٤] .

وقد خلق الله الأسباب للابتلاء، وهى زينة، وليس بها نجاة ولا فلاح .

وإنما يميل إلى الدنيا الغافلون من الأطفال و الرجال والنساء، ومن لم يعرف مقصد حياته : ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾[الروم: ٦-٧] .

فالزينة شيء، والمقصد شيء، والمطلوب لباس التقوى : ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾[الأعراف:٢٦] .

وقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾[البقرة:١٨٣] .

فإذا بذل الإنسان الأسباب لأجل طاعة الله فاز، ومن نسي الطاعة، وتعلق بالأسباب خسر : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾[الكهف:١٠٣- ١٠٤] .

لذلك مست الحاجة للدعوة إلى الله ، وبيان المقصد الأعلى، فالأنبياء يرشدون أممهم إلى المقصد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، فكل نبي قال لقومه اعبدوا الله كما قال نوح: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[المؤمنون:٢٣] .

فالله مقصود، وأوامره مقصودة، فيُقدم الله على كل مطلوب، وتقدم أوامره على كل شيء : ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥١ ﴾ [الذاريات: ٥٠-٥١] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ ٤٢ ﴾ [النجم:٤٢] .

ولكن الكفار يجرون الناس إلى التعلق بالزينات والشهوات، وترك المقصد، فكل من نسيَ المقصد تعلق بالزينة، فقارون خرج على قومه في زينته، وهذه فتنة وشر، فقد خسف الله بقارون وبداره الأرض ، وفتن أهل الدنيا بما يغضب الله: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٧٩ ﴾ [القصص:٧٩] .

وقال الله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤ ﴾ [آل عمران:١٤] .

أسباب المصائب:

الأحوال والمصائب تأتى على الأمة بسببين :

الأول: بسبب المعاصي والذنوب التي تصدر من العباد: ﴿ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٢٣ ﴾ [النساء:١٢٣] .

الثاني: بسبب ضعف الإيمان الذي يؤدى إلى التقصير في الأعمال والأوامر، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠ ﴾ [الشورى:٣٠] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٩٦ ﴾ [الأعراف:٩٦] .

وقال الله تعالى: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٢٣﴾ [النساء:١٢٣] .

والله سبحانه يبتلي عباده بالسراء والضراء، والشدة والرخاء، ويتلقى العباد ذلك كلًا حسب طبيعته واستعداده وعزمه، فالابتلاء واحد ، ولكن آثاره في النفوس تختلف بحسب اختلاف الرؤية والمعرفة : ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩﴾ [محمد: ١٩] .

فالشدة مثلاً تُسلط على شتى النفوس .

فأما المؤمن الواثق بالله وحكمته ورحمته، فتزيده الشدة التجاء إلى الله، وتضرعًا وخشية، وأما الفاسق أو المنافق فتُزلزله الشدائد، وتزيده من الله بعدًا، وتُخرجه من الصف إخراجًا: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١﴾ [الحج:١١] .

وكذا الرخاء يُسلط على شتى النفوس، فأما المؤمن التقى فيزيده الرخاء يقظة وحمدًا وشكرًا، وأما الفاسق أو المنافق فتبطره النعمة، ويُتلفه الرخاء، ويضله الابتلاء، فالفاسق أو المنافق كشجرة انفصلت من شجرة الحياة، فتعفنت وفسدت، وهكذا المثل يضربه الله للناس، يضل به كثيرًا ممن لا يحسنون استقبال ما يجيء من الله، ويهدى به كثيرًا ممن يدركون حكمة الله في تدبيره، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦﴾ [البقرة:٢٦] .

وقد خلق الله الإنسان واختاره من بين سائر البرية ، وجعل قلبه محل كنوزه من الإيمان والتوحيد، والمحبة والتعظيم، والحياء، والإخلاص، والافتقار وجعل بدنه محل وظهور العبودية، وظهور السنن، والآداب، والأخلاق التي أمر الله بها ﷻ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الأنفال:٢- ٤] .

وجعل قلبه محل نظره سبحانه، وجعل ثوابه إذا قدم عليه أكمل الثواب وأعظمه وأفضله، وهو النظر إلى وجهه سبحانه ورضاءه عنهم والفوز بالجنة والخلود في النعيم المقيم :﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[الأنفال: ٢ - ٤].

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [البينة:٧- ٨] .

ولكنه سبحانه مع ذلك ابتلاه بالشهوة والغضب، والغفلة وابتلاه بعدوه إبليس يدخل عليه من هذا الأبواب الثلاثة : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾[سبأ:٢٠] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ ﴾[النساء:٣٨] .

فيتفق الشيطان، ونفس الإنسان، وهوى الإنسان، على العبد، ثلاثة مسلطون آمرون ، فيبعثون الجوارح في قضاء وطرهم ، والجوارح آلة مُنقادة، فلا تزال الجوارح في طاعتهم ، ولكن اقتضت رحمة الله ﷻ أن أعانه بجندً أخر يقاوم هذا الجند الذي يريد إهلاكه .

فأرسل إليه الرُسل، وأنزل عليه الكتب، وأيده بملك كريم يقابل عدو الشيطان ، وجعل له مقابل نفسه الأمَّارة بالسوء، نفسًا مطمئنة تأمره بالخير، وجعل له مقابل الهوى الحامل له على طاعة الشيطان والنفس الأمَّارة نورًا وهدى، وبصيرة وعقلاً، يَرده عن الذهاب إلى الهوى المُهلك، والمحفوظ من حفظه الله ﷻ : ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨ ﴾[النحل:٧٨] .

وقال الله تعالى: ﴿ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ٦٢ ﴾[يس:٦٠-٦٢].

٣- الخزانة الثالثة

حكمة المصائب :

المصائب التي تحصل للعباد قسمان :

فهي إما ابتلاء وتربية .. وإما عقوبة وعذاب .

فإذا غضب الله على أحد أهلكه بعذاب الغرق، أو الخسف، أو الصعق ونحو ذلك من العقوبات، كما قال سبحانه عن الأمم التي كذبت رُسل الله، ولم تؤمن به:﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وإذا رضي الله على أحدِ ابتلاه بما يشاء، ثم إن صبر اجتباه وهداه، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧] .

وكل من عَمِل عملًا فإنه يستحسنه، ويدافع عنه، فالذي يعمل الصالحات يستحسنها، ويدافع عنها، ويرجو الثواب عليها، والذي يعمل السيئات يستحسنها، ويدفع عنها، وإن كان على الهدى رآه حسنًا، وإن كان على الضلال رآه حسنًا كذلك، وكل يدعو إلى ما يستحسنه، ويعكف عليه : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف:١٠٨] .

وقال الله تعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾ [الإسراء:٨٤] .

والذين يقفون بالعداوة لكل نبي من الأنبياء، ويقفون بالأذى لأتباع الأنبياء، هم شياطين الإنس والجن، في كل زمانٍ ومكان، إن هؤلاء الشياطين لا يفعلون شيئاً من هذا كله بقدرة ذاتية فيهم، إنما هم في قبضة الله : ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ﴾ [هود:٥٦] .

وسبحانه يبتلى بهم أولياءه، لأمر يريده من تمحيص هؤلاء الأولياء، وتطهير قلوبهم، وامتحان صبرهم على الحق الذي هم عليه أمناء، فإذا اختاروا الامتحان كف الله عنهم الابتلاء، وكف عنهم هؤلاء الأعداء : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [الأنعام: ١١٢] .

وحكمة الله تبارك تعالى اقتضت أن يترك لشياطين الإنس والجن أن يتشيطنوا، ليبتليهم في القدر الذي تركه لهم من الاختيار، والقدرة، بعد سماعهم الحق .

فالله ﷻ خير الجن والإنس بين أن يؤمنوا أو يكفروا، وبين أن يطيعوا أو يعصوا: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [الكهف: ٢٩- ٣٠] .

وهؤلاء الشياطين خليقٌ بالمؤمن أن يستهين بهم، مهما بلغت قوتهم الظاهرة وسلطانهم المُدعى؛ لأن المؤمن عبد القوى، عبد العزيز، عبد الجبار، عبد القادر على كل شيء، فجميع الخلائق في قبضة الله وتحت قهره وأمره وعلى بساط ملكه، لكنه الابتلاء: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾[الملك:١- ٢] .

فقه الابتلاء:

الناس في هذه الحياة في ابتلاء: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾[العنكبوت:٢-٣] .

وقال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٣٥﴾[الأنبياء:٣٥] .

فالابتلاء ليس عيبًا، إنما العيب في أن يسقط الإنسان عند الابتلاء ولا ينجح، والابتلاء ضروري لكل من يحملون دعوة الله، ويُؤهلون لأمانة الخلافة في الأرض، وقد كان اختبار الإرادة والاستعلاء على الإغراء، هو أول اختبار وجهه الله من قبل إلى آدم وحواء، فلم يصمد إليه، وغلبتهم الشهوة، كما قال سبحانه : ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ۝١١٥﴾[طه: ١١٥].

فالناس لابد لهم من التذكير، ولتحصل العزيمة لابد من البيئة الإيمانية : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١١٩﴾[التوبة:١١٩] .

وآدم ليس عنده من يذكره، وليست عنده العزيمة لقلة المُعين، فأغراه الشيطان، ووسوس له، واستمع آدم وحواء لإغراء الشيطان بشجرة الخلد، ومُلك لا يبلى، كما قال سبحانه: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾[البقرة:٣٥-٣٦] .

وكذلك بنو إسرائيل حين طلبوا من موسى ﷺ أن يجعل لهم يوم راحة يتخذوه عيدًا للعبادة، ولا يشتغلون فيه بالكسب، فجعل لهم يوم السبت ، ثم كان الابتلاء، ليربيهم الله، ويُعلمهم كيف تقوى إرادتهم على المغريات والأطماع والشهوات ؟ وكيف ينهضون بعهودهم حين تصطدم بهذه المغريات والأطماع ؟ .

فكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت شرعًا، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم ، وذلك ابتلاء من الله، ولم يصمد فريق من بني إسرائيل لهذا الابتلاء، فاحتالوا، كما قال سبحانه: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ۘ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾[الأعراف:١٦٣].

فمسخهم الله قردة خاسئين، كما قال سبحانه: ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾[الأعراف:١٦٦] .

العقبات التي تواجه الإنسان :

تواجه الإنسان في حياته عقبتان :

عقبة داخلية

وعقبة خارجية .

ومواجهة العقبة الداخلية، والانتصار عليها، أهم من اقتحام المعارك: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [الشمس:٧-١٠] .

ويكون الانتصار عليها ومواجهتها، بالانتصار علي هوى النفس، والشح والبخل، والرياء والنفاق، ومن انتصر علي العدو الداخلي سهل عليه الانتصار علي العدو الخارجي، كما قال سبحانه : ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ ﴾ [البلد:١١-١٨] .

فلا يمكن الانتصار علي العدو الخارجي إلا بعد الانتصار علي العدو الداخلي، وهو هوى النفس، وأعظم صنم معبود من دون الله، هو هوى النفس : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [القصص:٥٠] .

سنة الله:

من سنة الله ﷻ أن كل من ترك ما ينفعه مع الإمكان، ابتُلي بالاشتغال بما يضره ، وحُرم الأول : ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ ﴾ [النساء:١٢٣] .

فالمشركون لما زهدوا في عبادة الرحمن، ابتُلوا بعبادة الأوثان ، ولما استكبروا عن الانقياد للرسل، ابتُلوا بالانقياد لكل مارج العقل والدين من شياطين الإنس والجن ، ولما استكبروا عن الانقياد للحق أذلهم الله بالانقياد لكل مبطل .

ولما تركوا إتباع كتب الله المنزلة لهداية العباد، ابتُلوا بإتباع أرذلها ، وأخسها، وأضرها للعقول من الكتب التي تحمل السفاهات والجهالات .

ولما ترك المحاربون لله ورسوله إنفاق أموالهم في طاعة الرحمن ابتلاهم بإنفاقها في طاعة الشيطان : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾[سبأ:٢٠] .

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾[الأنفال:٣٦] .

ولما أهانوا آيات الله ورسله أهانهم الله بمن يذلهم من أعدائهم ، وفي الآخرة بالعذاب المهين : ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ ﴾ [الشعراء:٢١٣] .

وقال سبحانه عن الكفار:﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ﴾[الرعد:٣٤] .

ومن ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، فالمهاجرون الأولون الذين هجروا أوطانهم ، وتركوا أموالهم، وأهلهم، من أجل إعلاء كلمة الله، ونصرة رسول الله عوضهم الله الرزق الواسع في الدنيا، والعزة والتمكين في الأرض، والجنة في الآخرة : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾[التوبة:١٠٠] .

وإبراهيم ﷺ لما اعتزل قومه وما يعبدون من دون الله ، وهب له الله إسماعيل وإسحاق ويعقوب، ولم يبعث نبي من بعده إلا من نسله .

وأرادوا له الهلاك بالإحراق بالنار فالله ﷻ أحياه، كما قال سبحانه : ﴿ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾[الصافات:٩٨] .

وقال سبحانه: ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأنبياء:٦٩ -٧٠] .

ويوسف ﷺ لما ابتُلي بامرأة العزيز، وصبر وعصم نفسه وحفظها من الوقوع علي امرأة العزيز، وطلب السجن، ليبعد عن الفتنة، عوضه الله بأن مكن له في الأرض، واستمتع بما أحل الله له من الأموال والنساء والسلطان: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾[يوسف:٥٦] .

وأهل الكهف لما اعتزلوا قومهم، وما يعبدون من دون الله، نشر لهم من رحمته، وجعلهم سببًا للهداية : ﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ [الكهف:١٦] .

ومريم ابنه عمران لما أحصنت فرجها، أكرمها الله ، ونفخ فيه من روحه ، واصطفاها، وطهرها، وجعلها وابنها آية للعالمين: ﴿ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[الأنبياء: ٩١] .

ومن ترك ما تهواه نفسه من الشهوات لله تعالي، عوضه الله من محبته وعبادته والإنابة إليه، ومحبه أوامره، ما يفوق لذات الدنيا كلها :﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

[السجدة:١٥-١٧] .

٤ - الخزانة الرابعة

فقه الابتلاء :

الله ﷻ خلق العالم العلوي، والعالم السفلي، وخلق الموت والحياة، وزين الأرض بما عليها للابتلاء والامتحان، ليختبر خلقه أيهم أحسن عملًا، من يكون عمله موافقًا لمحاب الرب تعالي، فيوافق الغاية التي خلق هو لها، وخلق لأجلها الله ﷻ العالم، وهي عبوديته سبحانه المتضمنة لمحبته وطاعته وعبادته وحده لا شريك له: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾[الذاريات:٥٦] .

وامتحن الله خلقه بأمره الشرعي، وقدره الكوني، ليبلوهم أيهم أحسن عملًا، كما قال سبحانه : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾ [هود:٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾[الملك:١-٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ ﴾[الكهف:٧] .

وهذا الابتلاء هو ابتلاء صبر العباد وشكرهم في حال السراء والضراء، وفي حال الخير والشر :﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[الأنبياء:٣٥] .

والابتلاء بالنعم من الغني، والعافية، والجاه، والقدرة، أعظم الابتلاءين، والصبر علي طاعة الله أشق الصبرين، والنعمة بالفقر والمرض، وقفر الدنيا، وهذا الخلق للإنسان قد يكون أعظم النعمتين، وفرض الشكر عليها أوجب من الشكر علي أضدادها .

فالرب ﷻ يبتلي بنعمة ، وينعم ببلائه، غير أن الشكر والصبر حالتان لازمتان للعبد في أمر الرب ونهيه، وقضائه وقدره، لا يستغني العبد عنهما طرفة عين : ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ٦٠ ﴾ [الروم:٦٠]

وقال الله تعالى : ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ٤٠ ﴾[النمل:٤٠] .

فالمأمور لا يؤديه العبد إلا بصبرً وشكر ، والمحظور لا يتركه إلا بصبر وشكر ، وأما المقدور فمتى صبر العبد عليه اندرج شكره في صبره كما يندرج صبر الشاكر في شكره، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ٥ ﴾[إبراهيم:٥] .

والله سبحانه خلق السموات والأرض، ليبتلي عباده بأمره ونهيه ، وخلق الموت والحياة ليبتليهم، فأحياهم ليبتليهم بأمره ونهيه، وقدر عليهم الموت الذين ينالون به عاقبة ذلك الابتلاء من الثواب والعقاب، والجنة والنار .

وزين لهم ما علي الأرض، ليبتليهم أيهم يقدم شهوات نفسه، علي محبوبات ربه وأوامره : ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ٧ ﴾[الكهف:٧] .

وابتلى بعضهم ببعض، وابتلاهم بالنعم والمصائب، فأظهر هذا الابتلاء أن علمه السابق فيهم موجود عيانًا بعد أن كان غيبًا في علمه، فابتلي سبحانه أبوي الإنس والجن كل منهم بعد الآخر، وأظهر ابتلاء آدم ﷺ ما علمه منه من التوبة إلي ربه، كما قال سبحانه : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾[الأعراف:٢٣] .

وأظهر ابتلاء إبليس ما علمه منه من الكفر والاستكبار ، واستمر هذا الابتلاء إلى يوم القيامة : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾[البقرة:٣٤] .

فهذا الابتلاء مستمر إلي يوم القيامة : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[الأنبياء:٣٥] .

والله ﷻ ابتلي كل إنسان بأمرين :

أمرٍا فيه حيلة .. وأمرً لا حيلة فيه .

فما فيه حيلة لا يعجز عنه، وما لا حيلة فيه لا يجزع منه : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾[الحديد: ٢٢ -٢٣] .

ونعم الله في البلاء الذي يصيب الناس مستورة، لا يراها إلا أولوا الألباب : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾[التوبة:٥١] .

فإذا أصيب الإنسان بمصيبة فليحمد الله إذ لم تكن في دينه، وإذ لم تكن أعظم منها، وإذ كانت في الدنيا، ولم تكن في الآخرة، وإذ لم يحرم الرضا

بها ، وإذ يرجو الثواب عليها، و بها تكمل عبودية الصبر لديه، وينال ثوابها، كما قال سبحانه : ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر:١٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [التغابن:١١]

والله ﷻ خلق هذا الإنسان ليبتليه : ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان:٢-٣] .

وقد ابتلي الله ﷻ الإنسان بعدو لا يفارقه طرفة عين، وهو الشيطان، وعساكرً من شياطين الإنس والجن ، فالحرب سجال بينه وبين القلب الذي هو محل معرفه الله ومحبته وعبوديته .

فولاه الله ﷻ أمر هذه الحرب مع النفس والشيطان ، وأمده بجندٍ من الملائكة لا يفارقونه: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ﴾ [الرعد:١١] .

ثم أيده سبحانه بجند آخر من وحيه وكلامه، فأرسل إليه رسوله ﷺ، وأنزل عليه كتابه، فازداد قوة إلي قوة ، وعدة إلي عُدته : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة: ٢]

وقال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد:٢٥] .

وأمده سبحانه بالعقل وزيرًا له مدبرًا، وبالمعرفة مشيرة عليه وناصحة له، وبالإيمان مثبتًا له، وناصرًا، ومؤيدًا، وباليقين حتى كأنه يعاين ما وعد الله تعالي أولياءه : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾[النحل:٧٨] .

ثم أمده الكريم سبحانه بالقوة الظاهرة، والباطنة ، لخوض هذه الحرب، فجعل العين طليعته، والأذن صاحبة خبره، واللسان ترجمانه، واليدين والرجلين أعوانه، وأقام ملائكته وحملة عرشه يستغفرون له، ويسألون الله أن يقيه السيئات ويدخله الجنات، وتولي سبحانه الدفاع عنه.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ ﴾[الحج: ٣٨] .

وحسب قوة إيمان العبد، تكون قوة الابتلاء، فالأنبياء كانوا جبال الإيمان، وجبال اليقين، وجبال الصبر، وجبال التقوى، ثم يليهم الصحابة .

وابتلاؤنا اليوم لا يكون كابتلاء الصحابة، فضلًا عن الأنبياء؛ ولكن لا بد من الابتلاء: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾[العنكبوت:٢-٣].

فللأنبياء ابتلاء، وللصحابة ابتلاء، ولمن بعدهم ابتلاء، حسب قوة الإيمان وضعفه، والله سبحانه « حِجَابُهُ النُّورُ ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ » . أخرجه مسلم[1] .

(١) أخرجه مسلم برقم: (١٧٩).

وكل جمال في العالم العلوي، و في العلم السفلي، من جماله سبحانه، وكل جمال ونور في المخلوقات لا يساوى ذرة من جمال الخالق ونوره وجلاله، وإذا كانت سُبحات وجهه الأعلى لا يقف لها شيء من خلقه، ولو كشف حجاب النور عن تلك السُبحات لأحرق العالم العلوي والسفلي فما الظن بجلال وجه الكريم، وعظمته، وكبريائه وكماله، وجلاله وجماله.

قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾[غافر:٦٥] .

فالرب سبحانه قد يحتجب عن مخلوقاته بحجابٍ من نورٍ مخلوق، إذ جعله سبحانه يحجب نور وجه الكريم ، وجلاله، وجماله، عن وصوله إلى المخلوقات، حيث لا تحتمله .

فنعيم الجنة المخلوق بالنسبة إلى نعيم معرفة المعبود ومحبته سبحانه، كنسبة نعيم الدنيا إلي نعيم الجنة المخلوق ، وأكبر نعيم أهل الجنة النظر إلي وجهه سبحانه ، والفوز برضوانه : ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ﴿٢٣﴾ ﴾ [القيامة:٢٢ -٢٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ ﴾[البينة:٧- ٨] .

وقد احتجب سبحانه عن خلقه في الدنيا، ليبلوا بذلك إيمانهم، أيهم يؤمن به، ويعرفه بالغيب ولم يره .

والله ﷻ الله سبحانه يجزى العباد علي إيمانهم بالغيب ؛ لأن الله ﷻ لو تبدى لخلقه ، وتجلي لهم في الدنيا، لم يكن للإيمان بالغيب هناك معني،

كما أنه لن يكفر به عندها كافر، ولا يعصيه عاص، لما يرون من عظمة جلاله، وكبريائه، وعظمه ملكة ، وسلطانه .

ولكنه تبارك وتعالي احتجب عنهم في الدنيا ، ودعاهم للإيمان به بالغيب، وإلي معرفته والإقرار بربوبيته، ليؤمن به من سبقت له منه السعادة، ويحق القول علي الكافرين، ولو تجلي لخلقه سبحانه لآمن به من في الأرض جميعًا بغير رسل، ولا كتب، ولا دعاه، ولم يعصوه طرفة عين: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام:١٠٢-١٠٣] .

فإذا كان يوم القيامة تجلي سبحانه لمن آمن به، وصدق رسله وكتبه، وآمن برؤيته، وأقر بصفاته التي وصف بها نفسه، حتى يروه عيانًا مثوبة منه لهم، وإكرامًا، ليزدادوا بالنظر لمن عبدوه بالغيب، ولم يروه، نعيمًا، وأنسًا، وطمأنينة، ويزدادوا برؤيته فرحًا وسرورًا .

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر:٢٧ -٣٠] .

وحجب نفسه عن الكفار يومئذ، لأنهم لم يؤمنوا به في الدنيا، فحرموا رؤيته في الآخرة، كما حُرموها في الدنيا، ليزدادوا حسره، وثبورًا.

قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾ [المطففين:١٥ -١٦] .

٥- الخزانة الخامسة

حركات العالم العلوي والعالم السفلي، وما فيهما، موافقة للأمر :

إما الأمر الديني الذي يحبه الله ويرضاه، وإما الأمر الكوني القدري الذي قدره الله وقضاه، وهو سبحانه قدره لحكمة، وغاية حميدة : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ [التغابن:١١]

فهو سبحانه يحب المغفرة، وإن كره معاصي العباد، ويحب التوابين، وإن كره معاصيهم التي يأتون منها، ويحب المقاتلين في سبيله، وإن كره أفعال من يجاهدونه، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ ﴾[الصف:٤] .

وهو سبحانه الكامل في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وهو يحب أسماءه، وصفاته، ويحب ظهور آثارها في خلقه، فهو سبحانه رحيم يحب الرحمة ، ويحب الرحماء ، وهو عفو عن المذنبين ، ويحب العفو، ويحب العافين عن الناس وهكذا: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ [طه:٨] .

حكمة الابتلاء:

إذا ابتلي الله ﷻ عبده ببلاء، فإن رد ذلك الابتلاء العبد إلي ربه، وجمعه عليه، وطرحه في بابه، فهو علامة سعادته ، وإرادة الخير به : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۟ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾[البقرة:١٥٥-١٥٧] .

وشدة البلاء بتراء لا دوام لها، وإن طالت ، فتُقلع عنه، وقد عوض عنها خيرًا وكثيرًا، وأفضله، رجوعه إلي الله، بعد أن كان شاردًا عنه: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [التوبة:٥١] .

فهذه البلية لهذا العبد عين النعمة، وإن ساءته وكرهها طبعه، ونفرت منها نفسه : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ [البقرة:٢١٦] .

وإن لم يرده ذلك البلاء إليه سبحانه، بل شرد قلبه عنه ، ورده إلي الخلق، وأنساه ذكر ربه، والضراعة إليه، فهو علامة شقاوته، وإرادة الشر به .

فهذا إذا أقلع عنه البلاء رده إلي حكم طبيعته، وسلطان شهوته، ومرحه وفرحه، وجاءت طبيعته عند القدرة بالأشر والبطر، والإعراض عن شكر الله، وعدم التوجه إليه : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ ﴾ [الحج:١١] .

فبلية هذا وبال عليه، وعقوبة له، ونقص في حقه، وبلية الأول تطهير له، ورحمه به، ورفعة له، كما قال سبحانه: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧] .

والله تبارك وتعالي عليمٌ بخلقه، خلق النفوس وفيها خبأ يعلمه سبحانه منها، فلا بد أن يقيم أسبابًا يظهر بها خبأ النفوس الذي كان كامنًا فيها، فإذا ظهر للعيان، ترتب عليه أثره من السعادة والشقاوة .

وخلق سبحانه السموات والأرض، ليعلم العباد كمال عظمته ، وكمال قدرته وعلمه، كما قال سبحانه : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾ ﴾[الطلاق:١٢] .

وخلق سبحانه العالم السفلي، ليبلوا عباده، فيظهر من يطيعه ويحبه ويجله ويعظمه ممن يعصيه ويخالفه .

وهذا الابتلاء والامتحان يستلزم أسبابًا يحصل بها، فلا بد من خلق أسبابه ، ولهذا لما كان من أسباب خلق الشهوات، وما يدعو إليها، وتزيينها، فعل ذلك كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾[الكهف:٧-٨] .

والله عليم حكيم، خلق الإنسان وجعله قابلًا للإيمان والكفر، وللحق والباطل، وللخير والشر، وللطاعات والمعاصي، وبحسب البيئة التي يعيش فيها ، وبحسب المذكر له، وبحسب العلم والأوامر التي تصل إليه يميل إلى هذا أو ذاك : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ ﴾[التغابن:٢] .

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾[الإنسان:١٢-٣] .

القلوب والجوارح لها مصرفان :

- مصرفٌ محمود
- ومصرفٌ مذموم .

فالمحبة مثلًا من أعمال القلوب ولها مصرفان :

الأول : مصرفٌ محمود، وهو محبة الله ورسوله، ومحبة أوامر الله، ومحبة ما يحبه الله .

الثاني : مصرفٌ مذموم، وهو محبة ما يبغضه الله من الأعمال ، والأقوال ، والأشخاص ، والأماكن ، والأخلاق ، والأحوال .

وكذلك الجوارح لها مصرفٌ محمود، ومصرفٌ مذموم .

فالمحمود استعمالها في طاعة الله ، والمذموم استعمالها في معصية الله: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٤﴾ ﴾[النساء:١٣- ١٤] .

وقال الله تعالى : ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴿١٩﴾ ﴾ [المزمل:١٩] .

فقلوب الناس وجوارحهم تعمل إما في المصرف المحمود، الذي يرضي الله ﷻ، وإما في المصرف المذموم، الذى يغضب الله ﷻ، فالمحمود لله، وصاحبه رابح، والمذموم للشيطان، وصاحبه خاسر: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ﴿١١٩﴾ ﴾[النساء: ١١٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴿٣﴾ ﴾[العصر:١-٣].

والدين كله يتمثل في الإيمان بالله، والكفر بالطاغوت ، وتقديم الأوامر على الشهوات ، وتقديم الحقوق على كل محبوب ، وتقديم مراد الله على مراد النفس ، وربط العواطف بأوامر الله : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ

ٱلْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ [البقرة:٢٥٦] .

وقال الله تعالى:﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [التوبة:٦٢] .

والإنسان ظلوم كفار، وقد ذمه الله باليأس والكفر عند الامتحان بالبلاء، وبالفرح والفخر عند الابتلاء بالنعماء، كما قال سبحانه:﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [هود: ٩-١٠].

وإذا علم الله سبحانه هذا من قلب عبد، فذلك من أعظم أسباب خذلانه، وتخليه عنه، فإن محله لا تناسبه النعمة المطلقة التامة، وهي نعمة الإسلام التي يعقبها نعمة السعادة الأبدية .

والله ﷻ عليم بكل شيء، لا يخفى عليه شيء: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الحج:٧٠] .

علم سبحانه قبل أن يُوجد عباده أحوالهم، وما هم عاملون، وما هم إليه صائرون، ثم أخرجهم إلى هذه الدار، ليظهر معلومه الذي علمه فيهم كما علمه، وابتلاهم بالأمر والنهي، والخير والشر، بما أظهر معلومه منهم، فاستحقوا المدح والذم، والثواب والعقاب، بما قام فيهم من الأفعال والصفات المطابقة للعلم الإلهي السابق : ﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ﴾ [السجدة:٦] .

وقال الله تعالى :﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [التغابن: ١٨] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك:١٣-١٤] .

ولم يكونوا يستحقون ذلك، وهي في علمه قبل أن يعملوها، فأرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وشرع لهم شرائعه؛ إعذاراً إليهم، وإقامة للحجة عليهم، لئلا يقولوا : كيف تعاقبنا على علمك فينا ، وهو لا يدخل تحت كسبنا وقدرتنا ؟ .

فلما ظهر علمه فيهم بأفعالهم، حصل الثواب أو العقاب على معلومة الذي أظهره الابتلاء والاختبار، فهو سبحانه عليمٌ بكل شيء، وكما ابتلاهم بأمره ونهيه ابتلاهم بما زين لهم من الدنيا، وبما ركب فيهم من الشهوات ، فذلك ابتلاء بشرعه وأمره ، وهذا ابتلاء بقضائه وقدره : ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾ [مريم:٥٩] .

وقد اقتضت حكمة العزيز الحكيم أن يأكل الظالم الباغي ويتمتع، في خفارة ذنوب المظلوم المبغى عليه، فذنوبه من أعظم أسباب الرحمة في حق ظالمه .

كما أن المسئول إذا رد السائل، فهو في خفارة كذبه، ولو صدق السائل، لما أفلح مَن رده، وكذلك السارق ، وقاطع الطريق ، والغاصب والناصب، والمنتهك، والمختلس، في خفارة منع أصحاب الأموال حقوق الله فيها، ولو أدوا ما لله عليهم فيها لحفظها الله عليهم .

وكذلك تسليط العالم بعضهم على بعض، وتمكين الجناة والبغاة، حتى أن الحيوان العادي على الناس في أموالهم وأرزاقهم وأبدانهم، يعيش في خفارة ما كسبت أيديهم، ولولا ذلك لم يسلط عليهم منها شيء، كما قال

سبحانه : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾[الشورى:٣٠] .

والله بصير بالعباد ، يصرف الهدى والإيمان عن قلوب الذين يصرفون الناس عنه ، وصدهم عنه، كما صدوا عباده عنه، ويحبس الغيث عن عباده ويبتليهم بالقحط، إذا منعوا الزكاة وحرموا المساكين ، فلما منعوا المساكين حقهم منع الله عنهم مادة القوت والرزق وهو الغيث : ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ ﴾[النساء:١٢٣] .

ويمحق الله أموال المرابين ويتلفها، كما فعلوا بأموال الناس، وأكلوها بالباطل، ومحقوها عليهم، وأتلفوها بالربا، فعوقبوا إتلافاً بإتلاف كما جوزي المتصدقون بأضعاف ما تصدقوا به، كما قال سبحانه : ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ ﴾[البقرة: ٢٧٦] .

ويسلط الله سبحانه العدو على العباد، إذا جار قويهم على ضعيفهم، ولم يؤخذ للمظلوم حقه من ظالمه، فيسلط الله عليهم من يفعل بهم كفعلهم برعاياهم وضعفائهم سواء بسواء : ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾[الكهف:٤٩] .

هذه سنة الله تعالى منذ قامت الدنيا إلى أن يطوي الله الأرض ويعيدها كما بدأها، كما قال سبحانه : ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ ﴾[النساء:١٢٣] .

٦- الخزانة السادسة

فقه الابتلاء:

الله ﷻ هو رب العالمين، الذي يربي عباده بما يسعدهم ويصلحهم في الدنيا والآخرة؛ ولهذا أمرنا الله ﷻ بحمده في كل ركعةٍ من الصلاة، سواءً كانت فرضًا أو نفلًا فقال سبحانه : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ ﴾[الفاتحة : ٢-٤] .

والتربيةُ الإلهية للعباد :

أولها : ابتلاءٌ وامتحان .

وأوسطها : صبرٌ ويقين وتوكل .

وآخرها : هدايةٌ ونصرٌ وتمكين .

وعاقبتها : الجنة، ورضوان رب العالمين، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣ ﴾[الطلاق:٢-٣] .

وقال الله ﷻ : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝١١ ﴾[التغابن:١١] .

وقال الله ﷻ : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٧٢ ﴾[التوبة: ٧٢]

والله ﷻ ابتلى الأنبياء بما شاء من أذى الكفار لهم؛ ليستوجبوا كمال كرامته، ويتوجهوا إلى ربهم في كشف ما بهم من ضُّر إذا نزل، ويتأسى بهم من ءامن بهم من أممهم إذا أوذوا من الناس فرأوا ما جرى على الرسل والأنبياء، فإذا

رأوا ما جرى على الأنبياء والرسل صبروا، ورضوا، وتأسوا بهم: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾[الأحزاب:٢١] .

ولتمتلئ صاع الكفار فينالون ما أعدَّ الله لهم من النكال العاجل، والعقوبة الآجلة، فيمحقهم الله بسبب بغيهم، وعداوتهم، ويعجل تطهير الأرض منهم، كما قال سبحانه: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾[الزخرف:٥٥] .

فهذه بعض حِكمة الله في ابتلاء أنبيائه ورسله بإيذاء قومهم لهم : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾[الأنعام:١٧-١٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾[الأنعام:١١٢] .

وأشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرجل على حسب دينه كما ابتلى الله جميع الأنبياء ، بمعارضة قومهم لهم، وكما ابتلى الله إبراهيم ﷺ بقومه الذين كذبوه، وألقوه في النار، وكما ابتلاه الله بذبح ولده إسماعيل ، وترك أهله بوادٍ غير ذي زرع .

وكما ابتلى الله موسى ﷺ بفرعون وقومه الذين كذبوه، والسحرة الذين بارزوه، وبني إسرائيل الذين اختلفوا عليه .

وكما ابتلى الله أيوب ﷺ بالمرض، وذهاب الأهل .

وكما ابتلى الله ﷻ عيسى ﷺ باليهود الذين كذبوه ، وأرادوا قتله وصلبه .

وكما ابتلى الله محمداً ﷺ بأذى الكفار له، وتكذيبهم له، ومطاردتهم له، وإرادتهم قتله، وإخراجه من مكة، وجمع الناس والأموال لقتاله والقضاء عليه، وعلى دينه وأتباعه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأنفال:٣٦-٣٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال:٣٠] .

وكما ابتلى الله ﷻ نبيه محمدًا ﷺ باليهود الذين قاتلوه، وكادوا له، ونقضوا عهودهم معه، وجمعوا الأحزاب لحربه، وسحروه، ووضعوا السم في اللحم له، فصبر حتى أظهر الله دينه، وخذل أعداءه، ودخل الناسُ في دين الله أفواجاً، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأنعام:٣٤] .

أقسام البلاء:

البلاء الذي يصيب العبد من الله لا يخرج عن أربعة أقسام :

إما أن يكون في نفس العبد .. أو في ماله .. أو في عرضه .. أو في أهله ومن يحب : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧] .

والذي في نفسه، إما أن يكون بتلفها تارة، أو بتألمها بدون التلف، فهذا مجموع ما يُبتلى العبد به في الله، وأشد هذه الأقسام المصيبة في النفس .

والمؤمن كلما نقص شيء من بدنه جعله الله عمارة لقلبه وروحه، وكلما نقص شيء من دنياه جعله الله زيادة في آخرته، فنقصان بدنه ودنياه، ولذته وسروره، وجاهه ورياسته، إن زاد في حصول ذلك، وتوفيره عليه، في معاده كان رحمة به، وخيرًا له، وذخرًا له : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾[التوبة:٥١] .

وإن كان حرمانًا وعقوبة على ذنوب ظاهرة أو باطنة أو ترك واجب ظاهر أو باطن؛ فإن حرمان خير الدنيا والآخرة مرتب على هذه الأربعة : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ ﴾[الحج:١١] .

والله تبارك وتعالى حكيم عليم، يبتلي عباده تارة بالنعم وتارة بالمصائب، فمن وسع الله عليه، وإن كان إكرامًا له في الدنيا، فلا يدل على أنه كريم عند الله، من أهل كرامته ومحبته، ومن قتّر الله عليه فلا يدل على إهانته له، وسقوط منزلته عنده، قد يوسع الله سبحانه ابتلاءًا وامتحانًا، وقد يقتر ابتلاءًا وامتحانًا، ويبتلي بالنعم كما يبتلي بالمصائب ، والمدار على كمال الإيمان والتقوى : ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ ﴾[الفجر:١٥-٢٠] .

وقال الله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾[الحجرات:١٣] .

وهو سبحانه الحكيم الذي يبتلي عبده بنعمة تجلب له نقمة ، وبنعمة تجلب له نعمة أخرى ، ويبتليه كذلك بنقمة تجلب له نعمة ، وبنقمة تجلب له نقمة أخرى ، هذا شأن نعمه ونقمه سبحانه، وهو الرؤوف اللطيف بعباده: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾[البقرة:١٤٣].

فالحمد لله على نعمه الظاهرة والباطنة : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾[لقمان:٢٠] .

والكرامات امتحان وابتلاءً كالملك والسلطان والمال ، كما قال سليمان ﷺ : ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾[النمل:٤٠] .

فالنعم ابتلاءً من الله يظهر بها شكر الشكور ، وكفر الكفور ، كما أن المحن بلوى منه سبحانه ، فهو يبتلي بالنعم كما يبتلي بالمصائب ، فمن شكر زاده، ومن كفر سلبه إياه : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾[إبراهيم:٧] .

وإذا ابتلى الله الإنسان بالفقر، فإن صبر أُعطي أضعاف ما فاته من الرزق ، وإن سخط فله السخط ، فالصبر والذكر، والشكر، من أجل مقامات الدين وأعظمها: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾[الزمر:١٠].

وقال النبي ﷺ: « مَا مِنْ عَبْدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ : إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، اللَّهُمَّ أْجِرْنِي فِي مُصِيبَتِي ، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا ، إِلَّا أَجَرَهُ اللهُ فِي مُصِيبَتِهِ ، وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا » . أخرجه مسلم[1] .

(١) أخرجه مسلم برقم:(٤/ ٩١٨).

وهذا الحديث يتضمن أصلين عظيمين :

أحدهما : أن العبد وأهله وماله ملك لله ﷻ: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [المائدة:١٢٠] .

والملك يتصرف في ملكه كما شاء ، أما العبد فلا يتصرف إلا بإذن مالكه ، ووفق أمره .

الثاني : مصير العبد ومرجعه إلى الله مولاه الحق، فليفكر بما يقدُم به على ربه من الإيمان والأعمال الصالحة :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الحشر:١٨] .

ولينظر العبد إلى مقدار الأجر على المصيبة إن صبر، وأنها أخف مما هو أعظم منها، وليعلم علم اليقين أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، ومعرفة هذا أبلغ علاج للمصاب، وأنفعه له في عاجلته وآجلته، وبه يتسلى عما أصابه:﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد: ٢٢ -٢٣] .

فقه العبودية:

الله ﷻ له على كل أحدٍ عبودية بحسب مرتبته ، سوى العبودية العامة التي سوى بين عباده، فجميع الخلائق عبيد لله، خاضعون لعظمته ، مستجيبون لمشيئته ، مسرعون إلى إرادته: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ [مريم:٩٣-٩٤] .

وهذه العبودية الخاصة تختلف من شخص إلى شخص .

فعلى العالم من عبودية الله نشر السنة، والعلم الذي بعث الله به رسوله ﷺ ، ما ليس على الجاهل، وعليه من عبودية الصبر على ذلك، ما ليس على غيره: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾[الزمر:٩].

وعلى الحاكم من عبودية إقامة العدل والحق، وتنفيذه وحمل الناس عليه ، والصبر على ذلك ما ليس على المفتي .

وعلى القادر على الأمر المعروف، والنهي عن المنكر بيده ولسانه ، ما ليس على العاجز عنه .

وعلى الغني من عبودية الإنفاق في سبيل الله، وأداء الحقوق التي في ماله، ما ليس على الفقير .

وقد غر الشيطان أكثر الخلق بأن حسن لهم القيام بنوع من الذكر، والقراءة، والصلاة، والصيام، والزهد في الدنيا، والانقطاع، وعطلوا هذه العبوديات النافعة، فلم يحدثوا أنفسهم بالقيام بها: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾[يس:٦٠-٦٢] .

فما أعظم غرور الشيطان لبني آدم، حتى اتبعوه وأطاعوه: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾[سبأ:٢٠] .

وهؤلاء الذين غرهم الشيطان عند ورثة الأنبياء، من أقل الناس ديناً، فإن الدين هو القيام لله بما أمر به، وتارك حقوق الله التي تجب عليه أسوأ حالاً عند الله من مرتكب المعاصي ، ومن له دراية ومعرفة بما بعث الله به رسوله ﷺ، وبما كان عليه هو وأصحابه، رأى أن أكثر من يشار إليهم بالدين، هم أقل الناس ديناً، لتعطيلهم الحقوق الواجبة عليهم: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ

ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابٖۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾[البقرة:٨٥] .

وأي دين، وأي خير، فيمن يرى محارم الله تنتهك، وحدوده تضاع، ودينه يترك، وسنن رسوله يرغب عنها، وهو بارد القلب، ساكت اللسان، لا ينكر ولا يبدل ولا يغير: ﴿ أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[الحديد:١٦-١٧] .

وهؤلاء مع سقوطهم من عين الله، قد بلوا في الدنيا بأعظم بلية، وهي موت القلوب، فالقلب كلما كانت حياته أتم، كان غضبه لله ورسوله أقوى، وانتصاره للدين أكمل: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ﴾[المائدة:٧٨-٨١] .

٧- الخزانة السابعة

فقه التربية الربانية:

الله ﷻ رب العالمين، يربي عباده بما يسعدهم في الدنيا والآخرة : ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾[الجاثية:٣٦-٣٧] .

وتربية الله ﷻ لعباده هي أحسن تربية ، ولابد للناس من تربية النفوس بالبلاء ، وامتحانها بالمخاوف، والشدائد، والجوع ، ونقص من الأموال والأنفس، والثمرات ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾[البقرة:١٥٥-١٥٧] .

فلابد من هذا الابتلاء الظاهر المكشوف لكل الناس ؛ كي يعز الدين على النفوس بمقدار ما أدوا في سبيله من تكاليف وصبر ، فكلما تألموا في سبيله كلما بذلوا من أجله ، وكلما بذلوا من أجله، كان أعز عليهم من كل شيء ، وكذلك لن يدرك الآخرون قيمة الدين وعظمته إلا حين يرون ابتلاء أهله ، وصبرهم على البلاء العظيم من أجله: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾[البقرة:٢١٤] .

وحينئذ سيقولون : لو لم يكن عند هؤلاء من الخير أكبر و أعظم مما ابتُلوا به، ما قبلوا هذا البلاء، ولا صبروا عليه: ﴿ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾[الحج:٣٤-٣٥] .

وبسبب صبر المؤمنين على البلاء من أجل الدين ، وبذل كل ما يملكون من أجل ظهوره ، فحينئذ سيقول الكفار: لو لم يكن عند هؤلاء من الخير ما هو أكبر وأعظم مما ابتُلوا به ، ما قبلوا هذا البلاء، وما صبروا عليه، وعندئذ تحصل أعظم الثمرات ، وينقلب المعارضون للدين باحثين عنه، مقدرين له، مندفعين إليه ، عندما يرون فعل أهله وصبرهم على أوامره .

وعندئذ يجيء نصر الله، ويدخل الناس في دين الله أفواجًا ، ولابد من البلاء ليصلب عود أهل الحق، ويقوى ويشتد: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾[العنكبوت:٢-٣] .

فبحصول الشدائد والمحن، يحصل التوجه و الالتجاء إلى الله وحده لا شريك له ، فحين تهتز الأسناد كلها يتوجه القلب إلى الله وحده ، فلا يرى قوة إلا قوة الله ، ولا يرى حولًا إلا حوله ، ولا ملجأ إلا إليه ، وهذه هي العبودية التي يريدها الله من عباده : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾[الأنفال: ٢ - ٤].

فهؤلاء الصابرون، هؤلاء المخبتون، هؤلاء الصابرون على الأذى في سبيل الله، وعلى أقدار الله ﷻ، لهؤلاء صلوات ورحمة وهداية، جزاءً على التضحية بالأموال والأنفس والثمرات، وجزاءً على الخوف والجوع

والشدة، وجزاءً على القتل والشهادة : ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر:١٠] .

وقال الله تعالى:﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧] .

فهذا العطاء من الله أثقل في الميزان من كل عطاء، وأرجح من النصر، وأرجح من التمكين، وأرجح من شفاء غيظ الصدور .

فهذا هو الطريق المستقيم لمن يريد الله استخلاصهم لنفسه ودعوته ودينه من بين البشر أجمعين : ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الحج:٧٥] .

وقال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى: ١٣] .

وسنة الله جارية وفق ما يشاء ، ومن سنة الله في المكذبين لرسله أن يأخذهم بالبأساء والضراء، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [الأعراف:٩٤-٩٥] .

ذلك لأن من طبيعة الابتلاء بالشدة أن يوقظ الفطرة ، التي ما يزال فيها خير يرجى ، وأن يرقق القلوب التي طال عليها الأمد ، وأن يتجه بالبشر الضعاف الغافلين إلى خالقهم الواحد القهار؛ ليتضرعوا إليه، ويطلبوا رحمته وعفوه ، ويعنون بهذا التضرع، بإخلاص عبوديتهم لله ﷻ: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ

سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ [الزمر:٩].

وليس لله حاجة بعبادة العباد ، وهو الغني، وهم الفقراء ، وهو القوي، وهم الضعفاء ، ولكن تضرع العباد وإعلان عبوديتهم لله إنما يصلحهم هم ، ويصلح حياتهم ومعاشهم كذلك : ﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦] .

وقال سبحانه:﴿ إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ ﴾ [الإسراء: ٧].

فمتى أعلن الناس عبوديتهم لله تحرروا من العبودية لسواه ، تحرروا من العبودية للشيطان الذي يريد أن يغويهم ، وتحرروا من شهواتهم وأهوائهم التي تقعدهم عن طاعة الله، وامتثال أوامر الله ، وتحرروا من العبودية للعبيد أمثالهم ، وتوجهوا إلى ربهم في قضاء حوائجهم : ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥١﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٠-٥١] .

وقال الله تعالى:﴿ فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [القصص:٥٠] .

وقال الله تعالى:﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [المائدة:٢٣] .

لذلك استحيوا أن يطيعوا الشيطان، ويتبعوا خطوات الشيطان ، واستحيوا أن يغصبوا الله بنية أو عملٍ، وهم يتجهون إليه في الشدة، ويتضرعون إليه ؛ لذلك اقتضت سنة الله ومشيئته أن يأخذ أهل كل قرية يرسل إليها نبيًا فتكذبه بالبأساء والضراء ، استحياءً لقلوبهم بالألم ، والألم خير مهذب ، وخير مفجر لينابيع الخير المستكنة في القلوب ، وخير موجه إلى ظلال الرحمة

لعلهم يضرعون: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ٩٤ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩٥ ﴾[الأعراف:٩٤-٩٥].

فإذا الرخاء مكان الشدة ، واليسر مكان العسر، والعافية مكان الضر، والأمن مكان الخوف ، وإذا هو متاع ورخاء ، وكثرة وامتلاء ، إنما هو في الحقيقة اختبارٌ وابتلاء، والابتلاء بالشدة قد يصبر عليه الكثيرون، فإنه يذكر صاحبه بالله، فيتجه إليه، ويتضرع بين يديه؛ فيجد في رحابه فسحة وأنسًا، أما الابتلاء بالرخاء، فالذين يصبرون عليه قليلون، فالرخاء يُنسي، والمتاع يلهي، والثراء يطغي: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧ ﴾[العلق:٦-٧] .

والله ﷻ رءوف بالعباد ، يبتليهم بما يسعدهم في الدنيا والآخرة ، فيبتلي بالشدة، ولكن الشدة يصبر عليها الكثير ؛ لأنها تذكر الخلق بالله ﷻ ، أما الابتلاء بالرخاء فالذي يصبر عليه قليل ؛ لأن الرخاء يُنسي ، ويلهي ويطغي ، فالثراء والغنى يولد حالة قلة المبالاة، وحالة الاستخفاف والاستهتار ، فلا يجدون في أنفسهم حرجًا من شيء يعملونه ، ولا تخوفًا من أمر يصنعونه ، خاصة حين يطول بأهل الثرى العهد في اليسار والنعمة : ﴿ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٣٥ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٦ ﴾[سبأ:٣٥-٣٦] .

فهم يتنعمون في يسر، ويسرفون في استهتار ، ويقترفون كل كبيرة تقشعر لها الأبدان ، وهم لا يتقون غضب الله، ولا لوم الناس ، فكل شيء يصدر من أهل الغنى والثرى بلا تخوف ولا مبالاة ولا تحرج ، وهم بفعلهم ذلك لا يفطنون لسنة الله في الكون ، ومن ثم يحسبونها تمضي هكذا جزافًا بلا

سبب معلوم : ﴿ وَقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾[الأعراف: ٩٥] .

وقد أخذنا دورنا في الضراء، وجاء دورنا في السراء، هكذا يظنون عندئذ في ساعة الغفلة السادرة ، وثمرة النسيان واللهو والطغيان، تجيء العاقبة وفق السنة الجارية : ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾[الأعراف: ٩٥] .

وقال الله تعالى:﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ ﴾[النساء:١٢٣] .

هكذا تجري سنة الله أبدًا وفق مشيئته في عباده، فتنة الاختبار والابتلاء بالضراء والسراء: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾[إبراهيم:٧] .

أما الطرف الآخر لسنة الله الجارية، فكما قال سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾[الأعراف:٩٦] .

فأهل القرى لو آمنوا بدل التكذيب، واتقوا بدل الاستهتار والفجور؛ لفتح الله عليهم بركات السماء والأرض ، هكذا مفتوحة بلا حساب ، من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، فيض غامرُ من كل مكان : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ ﴾[ص:٥٤] .

وقد ينظر بعض الناس، فيرى من يقول: إن المسلمين مضيق عليهم في الرزق ، لا يجدون إلا الجدب والمحق ، ويرى في المقابل أممًا لا يؤمنون بالله ولا يتقونه مفتوحًا عليهم في الرزق والقوة والنفوذ ، فيسأل : أين هي السنة الجارية التي لا تتخلف ؟

ولكن هذا وذاك وهو من تخيله ظواهر الأحوال .

إن هؤلاء الذين يقولون أنهم مسلمون، لا مؤمنون ولا متقون، إنهم لا يخلصون عبوديتهم لله ، ولا يحققونها في واقعهم ، ولا يحققون الإسلام في واقعهم ، ولا يحققون في حياتهم شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨ ﴾[البقرة:٢٠٨] .

إنهم في الواقع يسلمون رقابهم لعبيد منهم، يتألهون عليهم، ويشرعون لهم ، وما أولئك بالمؤمنين : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٢١ ﴾[لقمان: ٢١] .

وقال الله تعالى:﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥١ ﴾[الذاريات: ٥٠-٥١] .

فالمؤمن حقًا لا يدع عبدًا من العبيد يتأله عليه ، ولا يجعل عبدًا من العبيد ربه الذي يصّرف حياته بشرعه وأمره .

ويوم كان المسلمون مؤمنين حقًا، دانت لهم الدنيا ، وفاضت عليهم بركات السموات والأرض ، وتحقق لهم وعد الله بالنصر والتمكين في الأرض ، فقد كانوا شر القرون فصاروا بالإسلام خير القرون ، وكانوا شر أمة فصاروا بالإسلام خير أمة أخرجت للناس ، وكانوا شر البرية فصاروا بالإيمان والتقوى خير البرية : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧ ﴾[البينة:٧] .

وأما أولئك المفتوح عليهم في الرزق، فهذه هي السنة ، والابتلاء بالرزق والنعمة أخطر من الابتلاء بالشدة ، وفرق بينه وبين البركات التي يعدها الله من يؤمنون ويتقون ، فالبركة تكون مع القليل إذا أُحسن الانتفاع به ، وكان

معه الصلاح والأمن والإيمان ، والرضا: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ الرعد:٢٨] .

إن البركات الحاصلة مع الإيمان والتقوى بركات في الأشياء ، بركات في النفوس ، بركات في المشاعر ، بركات في طيبات الحياة ، بركات تنمي الحياة وترفعها وليست مجرد وفرة المال مع الشقوة والتردي والانحلال ، فكم من أمة غنية ولكنها تعيش في شقوة : ﴿ فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [التوبة:٥٥] .

فهي في حاضر نراه ، يترقبه مستقبل نكد وابتلاء يعقبه نكال : ﴿ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يونس:١٠١] .

وقال الله تعالى:﴿ وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الرعد:٣١-٣٢] .

فالعطاء من الله ليس دائمًا دليل رضا ، فقد يكون مقدمة للعقوبة ، كما قال سبحانه : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأنعام:٤٤-٤٥] .

٨- الخزانة الثامنة

فقه الابتلاء:

المؤمن لإيمانه بربه، ومعرفته بأسمائه وصفاته وافعاله، ينظر عند الابتلاء لا إلى البلاء ولكن ينظر إلى جمال المبتلي؛ لأنه يعلم أن ربه أرحم به من نفسه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾[البقرة:١٤٣] .

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾[الأنفال: ٢].

وشعور الإنسان بأنه مبتلى وممتحن بأيامه التي يقضيها في هذه الحياة ، ومبتلى بكل شيء يملكه ، ومبتلى بكل متاع يتاح له، يمنحه مناعة قوية ضد الاغترار والانخداع، والغفلة والطغيان ، ويعطيه وقاية من الاستغراق في متاع الحياة الدنيا ، ومن التكالب على هذا المتاع الذي هو مسئول عنه وممتحن به .

هل يمتثل فيه أمر ربه، أم يعبد هوى نفسه ؟

وهي لمسة قوية للقلب البشري، إذ يدرك أنه مستخلف في ملك أزيل من مالكيه الأوائل ، وأجلي عنه أهله الذين سبق لهم أن مكنوا فيه ، وأنه هو بدوره زائل عن هذا الملك، ومحاسب على ما كسب فيه :﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾[يونس:١٣ -١٤] .

إن شعور الإنسان بالرقابة الإلهية التي تحيط به، تجعله شديد التوقي، شديد الحذر، شديد الرغبة في الإحسان، شديد الرغبة في النجاة من هذا الامتحان: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾[الملك: ١٢] .

إن الحياة في الإسلام حياة متكاملة القواعد والأركان ، عقيدة وعبادة، وأخلاق وطريقة حياة ، فالذي خلق البشر سبحانه أعلم بما يصلحهم، وما يصلح لهم ، وما يسعدهم وينجيهم، وما ينفعهم وما يضرهم ، فأكرمهم به ، كما قال سبحانه : ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ٤٩ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٥٠﴾[المائدة:٤٩-٥٠] .

وقال الله تعالى : ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠﴾ [الأنبياء:١٠] .

والقرآن يقول لمن يطعمون الحياة الإسلامية، والنظام الإسلامي، والأوامر الشرعية ، بمنتجات أخرى، ونظام آخر من صنع البشر .

قال الله تعالى: ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٨٥﴾[البقرة:٨٥] .

إن هذا الإنسان الذي خلقه الله ﷻ له في حياته حالتان :

الأولى : أحوال هو مقهور مجبور أن يسلم فيها لله :

كوجوده، ويوم ولادته، ولونه وشكله، وطوله وعرضه، ومرضه وصحته، وحركة قلبه ومعدته ، وروحه ونحو ذلك ، وكل ذلك وأمثاله لا تستطيع

أنت أيها الإنسان أن تفعله ، بل أنت مكره فيه، ومجبور عليه ، فعليك أن تسلم لله في ذلك ، واعلم أنه يجري عليك قدر الله في جميع ذلك، سواء أردت ذلك أم لم ترد :﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾[الأنعام:١٠٢] .

وقال الله تعالى :﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾[الزمر:٦٢-٦٣] .

وقال الله تعالى :﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾[الأعراف:٥٤] .

الثانية : أحوال هو فيها مختار :

وهي ما أعطاه الله تعالى فيها إرادة أن يفعل، أو لا يفعل ، يسلم أو لا يسلم ، يطيع أو لا يطيع ، فهو مختار أن يؤمن أو يكفر ، أو يطيع أو يعصي ، أو يعدل أو يظلم ، أو ينفع أو يضر ، وهو محاسب على اختياره :﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان:١-٣] .

والله ﷻ جعل في حياة بعض مخلوقاته كالإنس والجن مناطق الاختيار ، يعطيهم فيها الحرية في أن يختاروا فيها ما شاءوا ، ومناطق هم مكرهون فيها ، مقهورون عليها ، لا اختيار لهم فيها، بل اختارها الله لهم، وتكفل بها، وأنفذها فيهم ، فقد يحدث للإنسان شيء ، أو يقع له ما يكرهه، ولو كان

لُلإنسان هنا إرادة حرة تمنع حدوثها مادام يكرهه ، ولكنه مقهور لأمر الله فيه، لا يستطيع دفعه .

وما دام يكره شيئًا لا يستطيع دفعه ، فهو مكره ومجبور أن يسلم لله سبحانه فيما أراد ، ففي مثل هذه الأمور الإنسان يسلم لله ، كرهًا بلا اختيار ، بينما في أمور الدين، الإنسان مسلم لله طوعًا باختياره ، يستطيع أن يصلي ويصوم، ويزكي ويذكر الله ، ويستطيع ألا يفعل ذلك:﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ ﴾[الكهف:٢٩] .

وكل ما في السماوات وما في الأرض خاضع لله ﷻ، مقهور بأمره، مسلم له ، عبد له، كما قال سبحانه : ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ٨٣﴾[آل عمران:٨٣] .

فكل من فى السماوات، ومن فى الأرض، أسلم لله جَلَّ جَلَالُهُ والمطلوب من الإنسان أن ينسجم مع هذه الخلائق فى الكون فى التسليم لله سبحانه، والتسبيح بحمده ، ويسلم حركته الاختيارية فيه لله سبحانه، وهى طاعة أمره وشرعه، كما أسلم له فيما يكرهه، ولا يقدر عليه: ﴿ بَلَىٰ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١١٢﴾ [البقرة:١١٢] .

فالمؤمن أسلم لله في كل الأمور، فهو أسلم لله في الأمور التي له اختيار فيها ، وهي طاعة الله ورسوله، وأسلم لله في الأمور التي ليس له فيها اختيار مما قدره الله عليه، فأسلم قيادته لله طوعًا وكرهًا فيما يقدر عليه، وفيما لا يقدر عليه : ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا

رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾[الأنفال: ٢ - ٤].

أما الكافر الذي رفض أن يسلم قيادته لله في الأمور التي له فيها اختيار ، فهو يكفر بالله باختياره الذي منحه الله له ، ولكنه يسلم لله قهرًا أو كرهًا فيما ليس له فيه اختيار ، فهو مجبور مقهورًا على الاستسلام لله كباقي المخلوقات ، فهو والكون كله في قبضة الله : ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾[هود:٥٦] .

فقه العبودية:

وكل من في السماوات ومن في الأرض عبيد لملك الملوك، كما قال سبحانه : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾[مريم:٩٣-٩٥] .

فليس للعبد إلا أن يسلم ويذعن لمالكه ، وهو أعلم بما ينفعه ويصلحه .

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾﴾[الحج:٧٧] .

وكل الكون خلقه الله وسخره وقهره على تنفيذ ما يريد:﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾[فصلت:٩-١١] .

أطاعت إجلالًا لربها، ولو أنها لم تأت طائعة، لجاءت مكرهة مقهورة لأمر ربها ، وكل الخلق راجعون إلى الله ، فمن استغل الاختيار الذي أعطاه الله له في الدنيا، وخان الأمانة، وخرج عن الدين، وترك منهج ربه، فلن يفلت، ولن يدفع عن نفسه الموت، ولن يعطي لنفسه الخلود ، وستنتهي فترة الاختيار، ويحاسب على ما اختار :﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾ [الغاشية:٢٥-٢٦] .

وقال الله تعالى:﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩].

إن مجامع المؤمنين تختلف عن مجامع الكافرين ماديًا ومعنويًا، في الدنيا والآخرة، كما قال سبحانه : ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [القلم:٣٥ -٣٦] .

وقال الله تعالى: ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٢-١٦٣] .

وقال الله تعالى:﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الملك:٢٢] .

مجامع المؤمنين، مجامع الإيمان والتقوى والأعمال الصالحة، والأخلاق الحسنة، ومجامع الكفار مجامع الظلمات والفجور، والفساد والظلام، مجامع الكفار تقف في هذه الدنيا بمغرياتها الفخمة الضخمة، تقف بمالها وجمالها، وسلطانها وجاهها، تحقق المصالح، وتوفر المغانم، وتقف

باللذائذ والمتاع، والكبر والإسراف :﴿ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾[سبأ:٣٥-٣٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [القصص:٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾[العلق:٦-٧] .

أما مجامع المؤمنين، فتقف بمظهرها الفقير المتواضع، تهزأ بالمال والمتاع ، وتسخر من الجاه والسلطان ، وتدعو الناس إليها لا باسم لذة تحققها ، ولا مصلحة توفرها ، ولا قربة من ذي سلطان ؛ ولكن باسم العقيدة تقدمها إليهم مجردة من كل زخرف ، عاطلة من كل زينة ، معتزة بعزة الله دون سواه : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [التغابن:١٣] .

لا، بل تقدمها إليهم ومعها المشقة، والجهد، والجهاد ، لا تملك أن تأجرهم على ذلك كله شيئًا في هذه الأرض، وإنما هو القرب من الله ﷻ، وجزاؤه الأوفى يوم الحساب :﴿ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ ﴾[مريم:٧٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[الأنعام:٨١-٨٢] .

الكبراء الذين لا يؤمنون بمحمد ﷺ، أم الفقراء الذين يلتفون حوله : ﴿ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ ﴾[مريم:٧٣] .

إنها لحكمة الله ، إنه الابتلاء ، إنه الامتحان ، إنه الاختبار ، أن تقف العقيدة الإسلامية مجردة من الزينة والطلاء ، عاطلة من عوامل الإغراء ، لا أُبهة ولا زينة، ولا زخرف ولا فخامة ، ليقبل عليها من يريدها خالصة لله من دون الناس ، ومن دون ما تواضعوا عليه، وما تعارفوا عليه، من قيم ومغريات، وأموال وشهوات ، وينصرف عنها من يبتغي المطامع والمنافع ، ومن يشتهي الزينة و الزخارف ، ومن يطلب المال والمتاع ، ومن يركض وراء المنصب والجاه:﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ ﴾[مريم:٧٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾[سبأ:٣٥-٣٦] .

وإذا غفل الناس عما جاء به الأنبياء والرسل من الحق ، وأعرضوا عنه إلى غيره ، استدرجهم الله من النعم إلى النقم: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾[الأنعام:٤٤-٤٥] .

فهؤلاء الغافلون يحسبون أن الإملاء لهم بعض الوقت، وإمدادهم بالأموال والبنين في فترة الاختبار، مقصود به المسارعة لهم في الخيرات ، وإيثارهم بالنعمة والعطاء، كلا: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾[المؤمنون:٥٥-٥٦] .

إنما هي الفتنة والابتلاء : ﴿ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[القلم:٤٤] .

ولكنهم لا يشعرون لشدة سكرهم وغفلتهم، بما وراء المال والبنين ، من مصير قادم، وشر مستطير ، وعقاب ينتظرهم في النار :﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ٥٥﴾[التوبة:٥٥] .

والمشركون الذين لا يؤمنون بالآخرة والذين يتنكبون الطريق ، لا يفيدهم الابتلاء بالنعمة، ولا الابتلاء بالنقمة ، حين أصابتهم النعمة حسبوها إكرامًا لهم على حسن أعمالهم ، كما قال سبحانه : ﴿ أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ٥٦﴾[المؤمنون:٥٥-٥٦] .

وإن أصابتهم النقمة لم تلن قلوبهم، ولم تستيقظ ضمائرهم، ولم يرجعوا إلى الله، يتضرعون له، ليكشف عنهم الضر، ويظلون كذلك حتى يأتيهم العذاب الشديد يوم القيامة ، فإذا هم حائرون بائسون:﴿وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ لَّلَجُّواْ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ٧٥ وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ٧٦﴾[المؤمنون:٧٥-٧٦] .

٩- الخزانة التاسعة

أشد الناس بلاءً:

الإيمان درجات، والرسل درجات، والأعمال درجات، والثواب درجات، والعقاب درجات، فكذلك الابتلاء درجات، وأشد أنواع الابتلاء ما خص الله به أنبياءه ورسله، فهم أعظم الناس ابتلاءً، وأكملهم صبرًا، وأوفرهم أجرًا ، كَمَا قَالَ النَبِيُ ﷺ: « أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الْأَمْثَلُ، فَالْأَمْثَلُ فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ » .أخرجه أحمد والترمذي. (١)

وأعظم الأنبياء والرسل ابتلاءً سيد الخلق محمد ﷺ، وإبراهيم ﷺ، وموسى ﷺ.

فالإيمان ليس كلمة تقال باللسان ، إنما هو الاستسلام لله بالطاعة والعبودية، وبذل كل شيء من أجل الدين، وترك كل شيء من أجل الدين : ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨٨ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٨٩ ﴾ [التوبة:٨٨-٨٩] .

وإبراهيم ﷺ خليل الرحمن، ابتُلى بذبح ابنه إسماعيل ، فما كاد يأنس به حتى ابتُلي بذبحه ، كما قال سبحانه عن إبراهيم أنه قال :﴿ رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠٠ فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ١٠١ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ

(١) صحيح/ أخرجه أحمد برقم: (٢٧١٢٤)، والترمذي برقم: (٢٣٩٨) .

عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ ﴾ [الصافات:١٠٠-١١٣] .

إنها إشارة، وليست وحيا صريحًا ، ولا أمرا مباشرًا من ربه، ولكنها إشارة من ربه ، وهذا يكفي ، فلبى إبراهيم ﷺ دون أن يعتذر أو يسأل ، ولم يلبي أمر ربه في انزعاج ولا جزع ، بل استجاب مطمئنًا راضيًا واثقًا أنه يؤدي واجبه ، والذي لا يهمه الأمر يؤديه في اندفاع وعجلة ليخلص منه .

بل أداه مطمئنًا لقضاء ربه جَلَّ جَلَالُهُ .

إن الأمر حقًا شاقُ على النفس جدًا ، إن الله لا يطلب منه أن يرسل ابنه الوحيد إلى المعركة ، ولا يطلب إليه أن يكلفه أمرًا تنتهي به حياته ، إنما يطلب إليه أن يذبحه بيده ، وهو مع هذا يتلقى الأمر هذا التلقي ، ويعرض على ابنه هذا العرض ، ويطلب إليه أن يرى فيه رأيه .

إنه لا يأخذ ابنه على غرة، لينفذ إشارة ربه وينتهي، إنما يعرض الأمر عليه ، كالذي يعرض المألوف من الأمر ، فالأمر في الحس هكذا ، ربه يريد ، فليكن ما يريد، وابنه ينبغي أن يعرف ذلك .

وأن يأخذ الأمر طاعة واستسلامًا، لا قهرًا ولا اضطرارًا ؛ لينال هو الآخر أجر الطاعة ، وليسلم هو الآخر، وليتذوق حلاوة التسليم لأمر ربه العظيم .

إن إبراهيم ﷺ يحب لابنه إسماعيل أن يتذوق حلاوة الإيمان ، ولذة الطاعة التي ذاقها ، فماذا كان من أمر الغلام الذي يُعرض عليه الذبح تصديقا لرؤية رآها أبوه ؟ .

قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الصافات:١٠٢] .

لقد تلقى الأمر لا في طاعة فحسب، ولكن في رضا كذلك ويقين ، ثم هو الأدب مع الله بالاستعانة به على ضعفه ، ونسبة الفضل إليه في إعانته على التضحية ، ومساعدته على الطاعة ، فلم يأخذها بطولة، ولم يأخذها شجاعة ، إنما أرجع الفضل كله لله ، إنه هو أعانه على ما يطلب منه، وصبره على ما يراد به ، ثم يزيد البلاء بدفعه إلى التنفيذ : ﴿ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ ﴾[الصافات:١٠٣] .

ألا ما أعظم هذا الابتلاء ، لقد كب إبراهيم ﷺ ابنه إسماعيل على جبينه؛ ليذبحه، والغلام استسلم للذبح ، فلا يتحرك اقتناعًا ، وقد وصل الأمر إلى أن يكون عيانًا ، لقد أسلم واستسلم لهذا الأمر العظيم، فهذا هو الإسلام في حقيقته، ثقة وطاعة للآمر، وطمأنينة ورضا بأمره، وتسليم وتنفيذ لرب العالمين .

حقًا إنه الإسلام والاستسلام المطلق لرب العالمين : ﴿ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾[البقرة:١٣١] .

فهنا كان إبراهيم وإسماعيل عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قد أسلما ولم يبق إلا أن يذبَحْ إبراهيم ابنه إسماعيل، ويسيل دمه، وتزهق روحه ، وهذا أمر لا يعني شيئاً في ميزان الله، بعدما وضع الأب والابن في هذا الميزان من روحهما ، وعزمهما كل ما أراد الله منهما ، من الإسلام والتسليم والاستسلام لله .

فالابتلاء قد تم، ولم يبق إلا الألم البدني، وإلا الدم المسفوح، والجسد الذبيح من الأب لابنه .

والله ﷻ لا يريد أن يعذب عباده بالابتلاء ، ولا يريد دماءهم وأجسادهم في شيء ، فلما علم الله من إبراهيم وإسماعيل صدقهما فاعتبرهما قد أديا ، فأثمر الصدق والنجاة : ﴿ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥ ﴾[الصافات:١٠٤ -١٠٥] .

فالله ﷻ لا يريد إلا الإسلام والاستسلام لله، بحيث لا يبقى في النفس ما تكنه عن الله، أو تعزه عن أمره، أو تحتفظ به دونه ، ولو كان هو الابن، فلذة الكبد ، ولو كانت هي النفس والحياة ، فقد ضحى إبراهيم من قبل بنفسه، فاستسلم لربه، بإلقائه في النار ، فضحى بالحياة فوراً فوهب الله له الحياة ، وها هو يضحى بابنه فيحي الله الابن، ويخرج من نسله سيد الخلق محمدً ﷺ ، ويجعل الأنبياء من ذرية إبراهيم ﷺ: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَۖ فَمِنۡهُم مُّهۡتَدٖۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ٢٦ ﴾[الحديد:٢٦] .

فلما استسلم إبراهيم وإسماعيل لذلك الأمر، ولم يبق إلا اللحم والدم، فهذا ينوب عنه ذبح آخر ، ذبح من لحم ودم ، ويفدي الله هذه النفس الزكية التي أسلمت وأدت، بذبح عظيم يُذبح بدل إسماعيل ، وهذا جزاء المحسنين .

ومضت بذلك سنة النحر في عيد الأضحى؛ تذكيرًا بهذا الحادث العظيم الذي تجلت فيه حقيقة الإيمان ، وجمال الطاعة ، وجمال التسليم ، وجمال الرحمة ، وجمال البذل ، وجمال التضحية ، وليعرف العباد أن الله لا يريد أن يعذبهم بالبلاء ، إنما يريد أن تأتيه نفوسهم طائعة، ملبية، وافية ، مؤدية، مستسلمة ، لا تقدم بين يديه، ولا تتأله عليه ، بل تستسلم لأمره جَلَّ جَلَالُهُ .

فإذا علم الله ﷻ منها الصدق في هذا الأمر أعفاها من التضحيات والألآم ، واحتسبها لها وفاءًا وأداءً، وقبلها منها، وفداها، وأكرمها ، فهي تذكر بالخير

على توالي الأجيال والقرون : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ ﴾ [الصافات:١٠٦ -١١١] .

أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل ، يُبتلى الرجل على قدر دينه .

وقد ابتلى الله ﷻ نبيه أيوب ﷺ ليمتحن صبره، فكان يعيش في نعمة من المال، والأهل، والصحة .

فسلبه الله المال حتى لم يبق لديه شيء ، وسلبه الأهل والأولاد حتى لم يبق له إلا زوجه ، ثم سلبه الله الصحة ، وابتلاه بالمرض، حتى أصبح لا يخدم نفسه ، ونفخ الشيطان في جسده، حتى تقرح ثم تقيح: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٣-٨٤] .

والشيطان يأتي لأيوب ﷺ في كل حال ، ويذكره بالمال والأهل والعافية ، ولكنه لا يبالي به صابراً لله ﷻ، فلما جاءت فيه الصفة التي يحبها الله وهي الصبر رفع الله عنه البلاء كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [ص: ٤٤] .

ثم جاء الشيطان إلى زوجة أيوب ، وذكرها بحالها الأولى ، فاعترضت مرة على أيوب ، فعلم أن الشيطان سوَّل لها ، وحلف ليضربنها مائة سوط ، فلما شفاه الله ، وكانت امرأة صالحة محسنة إليه، أفتاه الله أن يضربها بضغث فيه مئة شمراخ ضربة واحدة، ليبر بيمينه، كما قال سبحانه : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [ص:٤٤] .

فكان ما أصاب أيوب ﷺ بسبب الشيطان ، فشكاه إلى ربه، وصبر على هذا البلاء كله ، فشفاه الله، لأنه كمل مراتب العبودية لربه ، فأمره أن يضرب الأرض برجله، لينبع منها ماء يغتسل منه، ويشرب منه ، فيذهب عنه الضر ، ففعل وذهب عنه الضر ، وشفاه الله ﷻ .

ووهب له أهله، ومثلهم معهم ، وأغناه وأعطاه مالاً عظيماً ، وعافاه في بدنه، لكمال صبره على البلاء ، وقوة يقينه على ربه، كما قال سبحانه : ﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [ص: ٤١ - ٤٣] .

فليتذكر أولو العقول حالة أيوب ﷺ ويعتبروا ، فيعلموا أن من صبر على الضر، أن الله تعالى يثيبه عاجلاً وآجلاً ، ويستجيب دعاءه إذا دعاه ، كما صبر أيوب ﷺ على البلاء، لوجه الله تعالى، وشكى حاله إلى ربه، وأناب إليه ، فاستجاب له، وشفاه، وأغناه، فنعم العبد، ونعم الصابر، ونعم الرسول : ﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿٤٤﴾ ﴾[ص: ٤٤] .

والأنبياء فعلوا الأسباب، وأكلوا الطعام، وتزوجوا النساء؛ لأنهم قدوة للناس، وأكثر الأمة تركوا سنن العادة ، وقاموا بسنن العبادة ، وقد جعل الله لكل شيءٍ سبباً .

مراتب الدعوة إلى الله:

جهد الدعوة إلى الله له ثلاث مراتب :

البداية .. ثم التربية .. ثم الثمرة .

- **فالبداية** أولًا بالدعوة إلى الله ﷻ
- **والتربية** بالأحوال والابتلاء

○ **والثمرة** بالنصرة ونزول الهداية .

وكل بلاءٍ يصيب العباد لا كاشف له إلا الله الكافي الشافي : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنعام:١٧-١٨] .

وكل بلاءٍ يصيب العبد يحتاج إلى صبر ، وبحسب قوة البلاء، تكون قوة الصبر ، وبحسب قوة الصبر، تكون كثرة الأجر كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [الزمر:١٠] .

قوة الصبر على البلاء تنشأ من عدة أسباب :

أحدها : شهود جزاء المصيبة وثوابها .

الثاني : شهود تكفيرها للسيئات ومحوها لها .

الثالث : شهود القدر السابق الجاري بها ، وأنها مقدرة مسطورة في أم الكتاب قبل أن يُخلق الإنسان ، فجزعه لا يزيده إلا عذاباً .

الرابع : شهوده حق الله عليه في تلك البلوى وهو الصبر ، أو الصبر والرضا وهذا الأكمل ، أو الصبر والرضا، والشكر والحمد وهذا أعلى .

قال الله تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [التوبة:٥١] .

الخامس : علمه أن المصيبة أصابته بسبب ذنبه ، فشغله شهود هذا السبب بالاستغفار الذي هو أعظم الأسباب في دفع تلك المصيبة .

السادس : أن يعلم أن الله قد ارتضاها له ، واختارها وقسمها ، وأن العبودية تقتضي رضاه بما رضي له به سيده ومولاه فعليه أن يرضيه : ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [التوبة:٦٢] .

السابع : أن يعلم أن هذه المصيبة هي دواءٌ نافعٌ له ، ساقه إليه العليم بمصلحته ، الحكيم الذي يضع الشيء في موضعه ، الرحيم به ، فليصبر على تجرعه .

الثامن : أن يعلم أن في عقبى هذا الدواء من الشفاء والعافية، والصحة وزوال الألم، ما لم تحصل بدونه ، فلا ينظر إلى مرارة الدواء ، بل ينظر إلى عاقبة امره وحسن تأثيره .

التاسع : أن يعلم أن المصيبة ما جاءت لتهلكه وتقتله ، وإنما جاءت لتمتحن صبره وتبتليه ، فيتبين حينئذ هل يصلح لاستخدامه، وجعله من أولياء الله وحزبه أم لا ؟ .

فإن ثبت اصطفاه الله واجتباه ، وخلع عليه خلع الإكرام ، وألبسه لباس الفضل ، والتقوى ، وجعل أولياءه وحزبه خدماً له، وعونًا له .

وإن انقلب على وجهه، ونكص على عقبيه طُرد ، وصُفع قفاه ، وتضاعفت عليه المصيبة وهو لا يشعر .

العاشر : أن يعلم أن الله يربي عبده على السراء والضراء ، والنعمة والبلاء ، فيستخرج منه عبوديته في جميع الأحوال ، فإن العبد حقاً من قام بواجب عبودية الله على اختلاف الأحوال: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣] .

وأما عبد السراء والعافية ، فهو أخسر الخاسرين: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ ﴾ [الحج:١١] .

فليس هذا من عبيده الذين اختارهم الله لعبوديته ، ولو علم العبد أن نعمة الله عليه في البلاء، ليست بدون نعمة الله عليه في العافية، لشغل قلبه ولسانه بشكره وحمده: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾[البقرة:٢٤٣] .

فهذه الأسباب ونحوها تثمر الصبر العظيم على البلاء، مهما كانت قوته ، فإن قويت، أثمرت الرضا والشكر : ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾[الجمعة:٤] .

والله ﷻ على كل شيء قدير ، وبكل شيء عليم ، لا يقضي لعبده إلا ما هو خيرٌ له، سواء كان حلوًا أو مرًا : ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾[البقرة:٢١٦] .

فقه الإيمان بالقدر:

الله ﷻ هو الملك الحق، الذي بيده الملك، وهو على كل شيءٍ قدير ، وبكل شيءٍ عليم، قدر جميع ما يجري في الكون من الأرزاق والآجال ، والأقوال والأعمال ، والنعم والمصائب ، والأحوال كما قال سبحانه : ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾[الحديد: ٢٢ -٢٣] .

وقال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ﴿٥٤﴾ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ﴿٥٥﴾﴾[القمر:٥٤-٥٥] .

فالله سبحانه له الأسماء الحسنى، والصفات العلا ، والأفعال الحميدة ، والمثل الأعلى، قدَّر ما يصيب العباد من المصائب قبل أن يخلق ويبرأ

الأنفس ، والمصائب ، والأرض، كما قال النبي ﷺ : « كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المُاءِ ».أخرجه مسلم(١) .

وأخبر جلَّ جَلَالَه أن مصدر ذلك كله قدرته عليه، وأنه يسير عليه، وحكمته البالغة التي منها ألا يحزن عباده على ما فاتهم إذا علموا أن المصيبة فيه بقدره وكتابته، وقد كتب ذلك قبل خلقهم: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ ﴾[القمر:٤٩-٥٠] .

فإذا علموا ذلك هان عليهم الفائت، فلم يأسوا عليه ، ولم يفرحوا بالحاصل منه، لعلمهم أن المصيبة مقدَّرةٌ في كل ما يقع على الأرض ، فكيف يفرح بشيءٍ قد قُدرت المصيبة فيه قبل خلقه : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾[التغابن:١١]

ولما كانت المصيبة تتضمن فوات محبوب، أو خوف فواته، أو حصول مكروه، أو خوف حصوله ، نبَّه بالأسى على الفائت على مفارقة المحبوب بعد حصوله ، وعلى فوته حيث لم يحصل ، ونبَّه بعدم الفرح به إذا وجد على توطين النفس لمفارقته قبل وقوعه، وعلى الصبر على مرارتها بعد الوقوع لها .

وهذه هي أنواع المصائب ، فإذا تيقن العبد أنها مكتوبةٌ مقدرة ، وأن ما أصابه منها لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه منها لم يكن ليصيبه، هانت عليه ، وخف حكمها عليه ، وأنزلها منزلة الحر والبرد، يأتي هذا، ثم يأتي هذا .

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (١٦/ ٢٦٥٣).

والجزع ضعفٌ في النفس، وخوفٌ في القلب، يمده شدة الطمع والحرص ، ويتولد من ضعف الإيمان بالقدر .

ومتى آمن العبد بالقدر، علم أن المقدر كائن ولا بدَّ، وعلم أن المصيبة مقدرةٌ في الحاضر والغائب والمستقبل كميةً، ونوعيةً، ومكانًا وزمانًا، فلم يجزع، ولم يفرح، وإلا فالجزع عناءٌ محض، ومصيبةٌ ثانيةٌ فوق المصيبةِ الأولى .

أما رقة القلب، فإنها ناشئة من صفة الرحمة التي هي الكمال ، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء .

وكان رسول الله ﷺ أرق الناس قلبًا ، وأغزرهم دمعًا ، وأبعدهم من الجزع؛ لكمال معرفته ورحمته، وأقرب الخلق إلى الله أعظمهم رأفةً ورحمة : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران :١٥٩] .

فالقلب إذا أشرق فيه نور الإيمان ، واليقين بالوعد والوعيد، وامتلأ من محبة الله وإجلاله، رق، وسكنت فيه الرحمة والرأفة، فتراه رقيق القلب، رحيمًا بكل مخلوق: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٨] .

ولا يجوز للعباد أن يرضوا بكل مقضيٌ مقدرٍ من أفعال العباد كالكفر والمعاصي ، ولكن على الناس أن يرضوا بكل ما أمر الله به وشرعه ، فليس لأحدٍ أن يسخط ما أمر الله به وشرعه؛ فإن الله ﷻ لا يرضى لعباده الكفر، ولا يحب المعاصي، فضلًا أن يأمر بها: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ

ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[الأعراف:٢٨] .

ويجب على الإنسان أن يرضى بما قدره الله عليه من المصائب التي ليست ذنوبًا ، مثل أن يبتليه الله بفقرٍ أو مرض، أو ذلٍ أو أذى الخلق له، فإن الصبر على المصائب واجب، والرضا بها مشروع، والحمد عليها درجته فوق ذلك كله: ﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ ﴾[المعارج:٥] .

وقال الله تعالى:﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[الروم:٦٠] .

وقال الله تعالى:﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾[يوسف:٩٠] .

وعلى المسلم في جميع الأحوال في السراء والضراء، لزوم الأوامر الشرعية، وعدم التأثر بالأحوال، وبسبب الأوامر نتحمل الأحوال، وبسبب الأحوال لا نغير الأوامر، ليكون الله معنا، ويكشف ما حل بنا.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾[آل عمران:١٢٠] .

وقال الله تعالى:﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[الحج:٣٤-٣٥] .

وكل ما قدره الله وقضاه من أنواع الابتلاء، والامتحان ، والآلام للأطفال والحيوانات ، ومن هو خارج عن التكليف ، ومن لا ثواب ولا عقاب عليه ، كله جارٍ على مقتضى الحكمة الربانية: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن

يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾ [آل عمران:٧٣-٧٤] .

وقال الله تعالى:﴿ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾[البقرة:٢٦٩] .

فالرب سبحانه أسماؤه حسنى ، وصفاته كاملة ، وأفعاله كلها حكمةٌ ومصلحةٌ ، ورحمةٌ وإحسان ، وله على ذلك كل حمدٍ ومدحٍ وثناء ، وكل خيرٍ فمنه، وله، وبيده ، وهو أحكم الحاكمين ، وأرحم الراحمين : ﴿ فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾[الجاثية:٣٦-٣٧] .

والشر ليس إليه بوجهٍ من الوجوه ، وإن كان في مفعولاته، فهو خيرٌ بإضافته إليه ، وشرٌ بإضافته إلى من صدر منه، أو وقع منه: ﴿ أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴿٧٩﴾ ﴾[النساء:٧٨-٧٩].

فاللهم فقهنا في الدين، واجعلنا هداة مهتدين، يا رب العالمين .

١٠ - الخزانة العاشرة

فقه الابتلاء:

الأمر قسمة بين فضل الله وعدله ، فيختص برحمته من يشاء ، ويقصد بعذابه من يشاء ، وهو المحمود على هذا وهذا، لأنه أرسل الرسل، وأنزل الكتب، وأقام الحُجة على العباد:﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾[النحل:٧٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾[الحديد:٢٥] .

فالطيبون من خلق الله ﷻ مخصوصون بفضله ورحمته ، والخبيثون مقصودون بعذابه وعقوبته ، ولكل واحدٍ قسطه من الحكمة والابتلاء والامتحان ، وكلٌّ مستعمل فيما هو مهيأ له ، وله مخلوق ، وكل ذلك خيرٌ ونفعٌ ورحمةٌ للمؤمنين ، فإنه تعالى خلقهم للخيرات فهم لها عاملون .

فإذا وقعوا في معصية عاد ذلك عليهم رحمة ، وانقلب في حقهم دواء، وبُدِّل حسنة بالتوبة النصوح، والحسنات الماحية، كما قال سبحانه : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾[الفرقان: ٦٨ - ٧٠] .

لأنه سبحانه عرفهم بنفسه وبفضله، وأن قلوبهم بيده، وعصمتهم إليه، وأراهم عزته في قضائه، وبره وإحسانه في عفوه ومغفرته، وأشهدهم نفوسهم، وما فيها من النقص والظلم والجهل .

وأشهدهم حاجتهم إليه، وافتقارهم وذلهم بين يديه، وأنه إن لم يغفر لهم، ويعفو عنهم ، فليس لهم سبيل إلى النجاة أبداً : ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾[الأعراف:٢٣] .

فإنهم لما عزموا ألا يعصوه، ثم عصوه بمشيئته وقدرته، عرفوا بذلك عظيم قدرته، وجميل ستره إياهم، وكريم حلمه عليهم، وسعة مغفرته لهم ، فدعوه فأجابهم، وتاب عليهم:﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾[الزمر:٥٣] .

وقال الله تعالى:﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾[النساء:١٢٣] .

فلما تابوا إليه واستغفروه، عرفهم رحمته، وسعة مغفرته، وأشهدهم حمده العظيم، وبِره العميم، وكرمه في أن خلى بينهم وبين المعصية، فنالوها بنعمته وإعانته ، ثم لم يخل بينهم وبين ما توجبه من الهلاك والفساد ، بل تداركهم بالدواء الثاني الشافي فرحمهم ، وجعل تلك الآثار التي توجبها المعصية من المحن والبلاء والشدائد، رحمة لهم ، وسبباً إلى علو درجاتهم ، ونيل الزلفى والكرامة عنده سبحانه:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾[البقرة:٢٤٣] .

فأشهدهم العزيز الحكيم بالجناية عز ربوبيته، وذل عبوديتهم له ، ورقاهم بآثارها إلى منازل قربه، ونيل كرامته :﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ

تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [فصلت:٣٠-٣٢] .

والمؤمن كلما اتسع علمه بالله ودينه، اتسعت رحمته، وقد وسع ربنا كل شيءٍ رحمةً وعلمًا:﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾[غافر:٧] .

هو سبحانه أرحم بالعبد من نفسه ، وأعلم بمصلحة العبد من نفسه ، ومن تمام رحمة أرحم الراحمين تسليط أنواع البلاء على العبد ، فإنه أعلم بمصلحته، فابتلاؤه له وامتحانه، ومنعه من كثير من أغراضه وشهواته من رحمته به، ولكن العبد لجهله وظلمه يتهم ربه بابتلائه، ولا يعلم إحسانه إليه بابتلائه وامتحانه :﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾[البقرة:٢١٦] .

الله ﷻ حكيمٌ عليم يضع الشيء في موضعه، ويختار لعباده ما يسعدهم في الدنيا والآخرة، فهو أرحم بعباده من أنفسهم، وأعلم بما يصلحهم ، وهو الذي يربيهم بما ينفعهم، فمتى مال قلب العبد إلى ما سوى الله، جعل الله ذلك الشيء منشأ للآفات، فحينئذٍ ينصرف وجه القلب عن المخلوق إلى الخالق، وفي ذلك سعادته ونجاته وفلاحه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [فصلت:٣٠-٣٢] .

فآدم ﷺ لما تعلق قلبه بالجنة، جعلها الله محنة عليه، حتى زالت الجنة ، فبقي آدم مع ذكر الله سبحانه .

ولما استأنس يعقوب ﷺ بيوسف ﷺ، أوقع الفراق بينهما، حتى بقي يعقوب مع ذكر الحق سبحانه .

ولما طمع محمد ﷺ من أهل مكة في النصرة والإعانة، صاروا من أشد الناس عليه ، فما أوذي نبي مثل ما أوذي ، حتى صار اعتماده وتوكله باليقين على ربه وحده ، ولم يلتفت إلى ما سواه ، والله يُصبره بقوله: ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ٦٠ ﴾[الروم:٦٠] .

والله تبارك وتعالى خلق السموات والأرض، ليبتلي عباده بأمره ونهيه، وهو الحق الذي خلق به خلقه: ﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٤ ﴾[العنكبوت:٤٤] .

وخلق الموت والحياة، ليبتليهم أيضاً، فأحياهم، ليبتليهم بأمره ونهيه، وقدر عليهم الموت الذي ينالون به عاقبة ذلك الابتلاء من الثواب والعقاب :﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ٢ ﴾[الملك:١-٢] .

وزين لهم ما على الأرض من أشياء وشهوات، ليبتليهم به ، أيهم يؤثر ذلك عليه سبحانه وعلى أوامره :﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ٧ ﴾[الكهف:٧] .

وابتلى بعض الناس ببعض، وابتلاهم بالنعم والمصائب، فأظهر هذا الابتلاء علمه السابق فيهم موجوداً عياناً، بعد أن كان غيباً في علمه لا يعلمه إلا هو .

فابتلى سبحانه أبوي الإنس والجن كلاً منهما بالآخر ، فأظهر ابتلاء آدم ما علمه منه من التوبة بعد الذنب ، وأظهر ابتلاء إبليس ما علمه الله منه من

الاستكبار والإباء، فلهذا قال سبحانه للملائكة : ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠﴾[البقرة:٣٠] .

وقال الله تعالى:﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٤﴾[البقرة:٣٤] .

قال عن أدم وزوجه: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾[الأعراف:٢٣] .

وقال الله تعالى : ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ١٢٢﴾[طه:١٢١-١٢٢] .

واستمر هذا الابتلاء في الذرية ، ولا زال ماضياً إلى يوم القيامة .

فابتلى الأنبياء والرسل بأممهم ، وابتلى أممهم بهم ، وبهذا الابتلاء والامتحان تظهر الحقائق ، ويظهر ما كان كامناً في النفوس، ولذا قال سبحانه : ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ٢٠﴾[الفرقان:٢٠] .

وقال الله تعالى:﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٣٥﴾[الأنبياء:٣٥] .

وأكثر الناس لا يعترف بما كان عليه أولاً من نقصٍ، وجهلٍ، وفقرٍ، وذنوب ، وأن الله سبحانه نقله من ذلك إلى ضد ما كان عليه ، وأنعم عليه بذلك ظاهراً وباطناً: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ٥٣﴾[النحل: ٥٣] .

ولذا ينبه الله سبحانه الإنسان على مبدأ خلقه الضعيف، من الماء المهين ، ثم نقله في أطباق خلقه وأطواره من حالٍ إلى حال، حتى جعله بشراً سوياً يسمع ويبصر، ويفعل ويفكر، وينطق ويبطش، ويعلم ويتحرك، ويأمر

وينهى، ويصول ويجول، كما قال سبحانه : ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا ۖ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾ [المعارج: ٣٨ - ٤١] .

فهو سبحانه الرب الإله الذي خلقهم مما يعلمون، لا يحسن به مع ذلك أن يتركهم سدى، ولا يرسل إليهم رسولاً، ولا ينزل عليهم كتاباً :﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون:١١٥] .

فكيف يطمع هؤلاء الكفار في دخول الجنة، وهم يُكذبون الله ، ويُكذبون رسله ، ويعدلون به خلقه ، وهم يعلمون من أي شيء خلقهم ؟ .

قال الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ۖ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام: ١] .

وسبب الخذلان لهم عدم صلاحية المحل وأهليته ، وعدم قبوله للنعمة ، بحيث لو وافته النعم لقال : هذا لي، وإنما أوتيته، لأني أهله ومستحقه، كما قال سبحانه عن قارون حين : ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [القصص: ٧٨] .

وسليمان ﷺ رأى ما أوتيه من الملك من فضل الله عليه ومنته، كما قال سبحانه عنه: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل:٤٠] .

أما قارون فرأى ذلك من نفسه واستحقاقه، وأنه أهله وحقيق به ، وإذا علم الله هذا من قلب العبد، فذلك من أعظم أسباب خذلانه، وتخليه عنه، فإن محله لا تناسبه النعمة المطلقة التامة، والله أعلم حيث يجعل رسالته

وهدايته: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾[آل عمران:٧٣-٧٤] .

وقال الله تعالى:﴿ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ﴾[البقرة:١٠٥] .

أسباب التوفيق من الله، وأسباب الخذلان من النفس، وأسباب التوفيق من جعل الله للنفس قابلةٌ للنعمة ، فأسباب التوفيق منه ومن فضله سبحانه ، وهو الخالق لهذه وهذه ، كما خلق أجزاء الأرض هذه قابلةٌ للنبات ، وهذه غير قابلة ، وخلق الشجر هذه قابلةٌ للثمرة ، وهذه لا تقبلها .

وخلق الأرواح الطيبة كذلك قابلة لذكره وشكره ، وإجلاله وتعظيمه ، وتوحيده، ونصح عباده .

وخلق الأرواح الخبيثة غير قابلة لذلك، بل لضده، وهو الحكيم العليم: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ ﴾[التغابن: ٢]

فقه ابتلاء الأنبياء والرسل:

الإنسان لا يصل إلى أسمى الغايات، وأكمل النهايات، إلا على جسرٍ من الابتلاء والامتحان، وهذا الجسر لكماله يشبه الجسر الذي لا سبيل إلى دخول الجنة إلا بعبوره :﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام:١٥٣] .

وكم لله من نعمة ورحمة ومنحة فيما يبتلي به عباده ، فصورته صورة ابتلاء وامتحان ، وباطنه فيه رحمة ونعمة ، فكم لله من نعمة جسيمة، ومنَّة عظيمة، تجنى من قطوف الابتلاء والامتحان: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[الأنبياء:٣٥] .

وقال الله تعالى:﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾[البقرة:١٥٥-١٥٧] .

فتأمل حال أبينا آدم ﷺ، وما آلت إليه محنته من الاصطفاء والاجتباء، والتوبة والهداية، ورفعة المنزلة ، فلولا تلك المحنة التي جرت عليه ، وهي إخراجه من الجنة وتوابع ذلك ، لما وصل إلى ما وصل إليه من التكريم ، وبعث الأنبياء والرسل، والمؤمنين والمجاهدين، من نسله:﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾[الإسراء: ٧٠] .

وقال الله تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[البقرة:٣٠] .

ثم تأمل حال أبينا الثاني نوح ﷺ ، وما آلت إليه محنته وصبره على قومه تلك القرون كلها ، حتى أقر الله عينه ، وأغرق أهل الأرض من الكفار بدعوته ، وجعل العالم من بعده كله من ذريته ، وجعله من أولي العزم الذين هم أفضل الرسل: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾[الحديد:٢٦] .

ثم تأمل حال أبينا الثالث إبراهيم ﷺ إمام الحنفاء ، وأبو الأنبياء ، وخليل رب العالمين، لما بذل نفسه وما يملك لله، ونصرة دينه، اتخذه الله خليلاً لنفسه ، وأمر سيد الأنبياء والرسل محمداً ﷺ أن يتبع ملته: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾[النحل: ١٢٣] .

وقال الله تعالى:﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾[الحديد:٢٦] .

وجازى الله إبراهيم على تسليمه ولده لأمر الله، أن بارك في نسله ، وكثَّره حتى ملأ السهل والجبل، كما قال سبحانه عن إبراهيم: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾[العنكبوت:٢٧] .

فالله سبحانه جواد كريم، من ترك لأجله أمراً، أو فعله لأجله، بذل الله له أضعاف ما تركه من ذلك الأمر أضعافاً مضاعفة ، وجازاه بأضعاف ما فعله لأجله أضعافاً مضاعفة .

فلما أمر الله إبراهيم ﷺ بذبح ولده، فبادر لأمر الله ، ووافق عليه الولد أباه ، وكلاهما رضي وسلم لأمر لله ، وعلم الله منهما الصدق والوفاء ، فداه بذبح عظيم ، وأعطاهما الملك والنبوة ، وبارك في نسلهما حتى ملئوا الأرض .

وجعل الله من نسلهما هاتين الأمتين العظيمتين :

بنو إسرائيل .. و بنو إسماعيل .

مع ما أكرمه الله به من رفع ذكره، والثناء الجميل عليه، على ألسنة جميع الرسل والأمم من بعده، وفي السموات بين الملائكة: عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ ﴾[الصافات:١٠٩-١١١].

وقال الله تعالى:﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾[النحل:١٢٠- ١٢٢] .

ثم تأمل حال الكليم موسى ﷺ ، وما آلت إليه محنته وفتونه من أول ولادته إلى منتهى أمره ، حتى كلمه الله تكليماً ، وقربه منه ، واصطنعه لنفسه ، وكتب له التوراة بيده ، ورفعه إلى أعلى السموات، واحتمل له ما لا يحتمل لغيره ، لتحمله الشدائد والمحن العظام في الله، ومقاساة الأمر الشديد مع فرعون وقومه ، ثم مع بني إسرائيل:﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾[الصافات:١١٤-١٢٢] .

ثم تأمل حال المسيح ﷺ وصبره على قومه، واحتماله في الله ما تحمله منهم، حتى رفعه الله إليه، وطهره من الذين كفروا، وانتقم من أعدائه، وقطعهم في الأرض أممًا، ومزقهم كل ممزق ، وسلب ملكهم وفخرهم إلى أخر الدهر .

ثم تأمل حال نبينا محمد ﷺ وسيرته مع قومه، وصبره في الله، واحتماله ما لم يحتمله نبي قبله، وتلون الأحوال عليه، من سلم وحرب، وغنى وفقر ، وإقامة وظعن، وخوف وأمن، وتركه من أجل الله كل شيء، وبذله من أجل الله كل شيء ، وقتل أحبابه وأوليائه وأصحابه بين يديه كما حصل في أُحُد وغيرها، فصبر على كل ذلك والله يقول له: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾[النحل:١٢٧-١٢٨] .

وآذاه الكفار له بسائر أنواع الأذى من القول والفعل ، والسحر والكذب ، والافتراء عليه ، والاستهزاء به ، والسخرية منه ومن دينه وأتباعه ، وهو في ذلك كله صابر على أمر الله، يدعو إلى الله ، ويرحم عباد الله ، ويستعطفهم ليؤمنوا بالله:﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾[الأنبياء:١٠٧] .

واوذي ﷺ غاية الأذى قولاً وفعلاً: ﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠ ﴾[الأنفال: ٣٠] فلم يؤذَ نبي ما أوذي كما قال ﷺ : « لَقَدْ أُخِفْتُ فِي الله وَمَا يخَافُ أَحَدٌ ، وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي الله وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلِبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلاَّ شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبْطُ بِلَالٍ » . أخرجه الترمذي وابن ماجة بسند صحيح[1] .

فرفع الله ذكره ، وقرن اسمه باسمه ، وجعله سيد الناس كلهم في الدنيا والآخرة ، وجعله أقرب الخلق وسيلة ، وأعظمهم جاهاً ، وكانت تلك المحن والابتلاء عين كرامته، هي مما زاده الله بها شرفاً وفضلاً ، وساقه بها إلى أعلى المقامات : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤ ﴾[القلم:٤] .

وهذا حال ورثته من بعده الأمثل فالأمثل ، كل له نصيب من المحنة والابتلاء ، يسوقه الله بها إلى كمالٍ بحسب متابعته له: ﴿ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ

(١) صحيح/ أخرجه الترمذي برقم: (٢٤٧٢)، وابن ماجة برقم:(١٥١).

ٱلْكُفَّارُ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح:٢٩].

فكم لله من الحكم في ابتلائه أنبيائه ورسله، وعباده المؤمنين ، ما تتقاصر عقول العالمين عن معرفته ، وهل وصل من وصل إلى المقامات المحمودة، والنهايات الفاضلة، إلا على جسر المحن والابتلاء:﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [العنكبوت:٢- ٣] .

ونصيب كل عبدٍ من الرحمة، على قدر نصيبه من الهدى ، وأكمل المؤمنين إيماناً أعظمهم رحمة، كما قال سبحانه : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ ﴾[الفتح:٢٩] .

وقال الله تعالى:﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران:١٥٩] .

وقال الله تعالى:﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾[الأنبياء:١٠٧] .

﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [آل عمران: ٥٣] .

موسوعة خزائن العلوم الإسلامية

١٧ - خزائن الصـــبر

وتشمل على ما يلي:

١ - الخزانة الأولى

٢ - الخزانة الثانية

٣ - الخزانة الثالثة

٤ - الخزانة الرابعة

٥ - الخزانة الخامسة

٦ - الخزانة السادسة

١٧-خزائن الصبر

١- الخزانة الأولى

فقه الصبر:

الصبر: حبس النفس عن الجزع والتسخط ، وحبس اللسان عن الشكوى ، وحبس الجوارح عن إساءة الأدب .

والصبر تجرع المرارة من غير تعبس، والرضا بالمكتوب من دون تسخط .

الصبر لزوم التقوى، والبعد عن مخالفة المولى ، والوقوف مع البلاء بحسن الأدب، وترك الشكوى ، وإظهار الغنى مع حلول الفقر .

والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ولا إيمان لمن لا صبر له.

قال الله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ۝٥﴾[المعارج: ٥] .

والصبر من خواص الإنسان ، ولا يُتصور ذلك في البهائم ، والملائكة .

أما البهائم؛ فلنقصانها ، وأما الملائكة؛ فلكمالها، فالبهائم سلطت عليها الشهوات، وليس لشهواتها عقلٌ يعارضها .

والملائكة عقولٌ مجردة ، للشوق إلى حضرة الربوبية ، والتسبيح ، والتقديس ، والابتهاج بالقرب من الرب ، ولم يسلط عليهم ربهم شهوات تصرفهم عن ذلك:﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ۝٢٠﴾[الأنبياء:١٩-٢٠].

وأما الإنسان فقد خلقه الله ناقصًا في الصبا كالبهيمة ، ولم يخلق فيه إلا شهوة الغذاء لحاجته إليه .

فإذا بلغ ظهرت فيه شهوات، تدعوه إلى طلب اللذات العاجلة، والإعراض عن الدار الآخرة، وعقلًا يدعوه إلى طلب اللذات الروحانية، والإعراض عن الشهوات العاجلة ؛ لهذا احتاج إلى مذكر مكرر ؛ ليقدم العمل للباقية ، ويعرض عن الفانية.

قال الله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ [آل عمران:١٤-١٦] .

وما من طاعة إلا وأجرها مقدر، إلا الصبر، كما قال سُبْحَانَهُ: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [الزمر:١٠] .

وقال الله تعالى:﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [النحل:٩٦] .

والصبر من أعظم ثمرات الهداية.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧] .

والدين ركنان :

- نصف صبر
- ونصف شكر .

والناس اثنان :

- غنيٌّ شاكر
- وفقيرٌ صابر .

فإذا ادلهمت الأمور، واسودت الحياة، وأظلمت الدنيا، فالصبر ضياء ، وإذا انسدت المطالب، وعظمت المصائب، فالصبر دواء ، وإذا عظم الجزع، واشتد الخوف، فالصبر جلاء ، وإذا نزل المكروه، وحل الأمر المخوف، فالصبر النجاء ، وإذا أصبح الدين في غربة، والإسلام في كربة، وغلبت الشهوات، وعظمت الشبهات، فالصبر عزاء.

قال الله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣ ﴾[البقرة:١٥٣] .

وقال الله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٢٠٠ ﴾[آل عمران:٢٠٠] .

واعلم أن النصر مع الصبر ، والفرج مع الكرب ، واليسر مع العسر ، ومن يتصبر يصبره الله ، والصبر دليلٌ على عظمة الإرادة ، وبرهان على قوة العزيمة : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ٤٣ ﴾ [الشورى:٤٣] .

وقال الله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣ ﴾[البقرة:١٥٣] .

جزاء الصابرين:

الأول: الصابرون تُفتح لهم الأبواب ، ويوفون أجرهم بغير حساب ، إذا استكملوا معاني الصبر الثلاثة :

- صبرٌ على الطاعات ، حتى يؤديها .
- وصبرٌ عن المعاصي ، حتى يتركها .
- صبرٌ على الأقدار المؤلمة، حتى يرضى بها، ثم يحمد الله عليها .

قال الله تعالى : ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ١٠﴾[الزمر:١٠] .

الثاني: الصابرون يعطون جزاءهم، بأحسن أعمالهم .

قال الله تعالى: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٦﴾[النحل:٩٦] .

الثالث: الصابرون تُزف لهم أعظم البشارات .

قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾[البقرة:١٥٥-١٥٧] .

الرابع: الصابرون لهم الفوز بالجنة ، والنجاة من النار ، وتمام المنة ، كل ذلك ينالونه بالصبر .

قال الله تعالى:﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾[الرعد: ٢٣ -٢٤] .

الخامس: أن أهل الصبر يرثون الإمامة في الدين.

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ٢٤﴾[السجدة:٢٤] .

السادس : الحفاظة .

قال الله تعالى: ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [آل عمران:١٢٠] .

السابع : الفلاح في الدنيا ، والآخرة .

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [آل عمران:٢٠٠] .

أقسام الصبر:

الصبر : حبس النفس عن التسخط ؛ لرؤية حكمة القادر العليم الخبير .

والصبر نوعان :

الأول: صبرٌ لا غريم لك فيه ، كمن مرض ، فلا غريم له .

الثاني: صبرٌ لك فيه غريم ، كمن جرحك ، أو سرقك ، فالنفس تطلب الانتقام ممن ظلمها:﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشورى: ٤٣] .

والصبرُ له أسباب ، وأبواب :

١- صبرٌ على الطاعات .

٢- صبرٌ عن المعاصي .

٣- صبرٌ على المكروه .

٤- صبرٌ على ما يصيب المسلم من الأذى ؛ في سبيل الدعوة إلى الله .

٥- صبرٌ على البلاء في النفس .

٦- صبرٌ على الكيد والمكر من القريب والبعيد .

قال الله تعالى:﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣ ﴾[العصر:١- ٣] .

وقال الله تعالى:﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠ ﴾[الروم:٦٠] .

والصبر المحمود :

هو الذي لا يشغلك عن الطاعات ، فمن أقعده الصبر عن العمل ، فقد أباح الله له أن يأخذ حقه ، فلا يكون صبرك على من أذاك ، شاغلًا لك عن طاعة مولاك ، وسببًا لملء قلبك بالغل والحقد والعدوان ، ولئلا يشغلك هذا ، فقد أباح الله لك الانتقام .

قال الله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝١٩٤ ﴾[البقرة: ١٩٤] .

وقال الله تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ۝٣٩ ﴾[الشورى:٣٩] .

فالصبر من أجل رؤية حكمة القادر الذي قدر ، ومن أجل امتثال أمر الله في الصبر ، ومن أجل الحصول على عظيم الثواب ، وتسليم القلب لكل ذلك من أعظم مقامات الدين .

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٢٠٠ ﴾[آل عمران:٢٠٠] .

والصبر من أعظم المقامات، إذا استكمل أنواعه .

والأخلاق درجات، الانتقام، وأعلى منه الصبر ، وأعلى منه كظم الغيظ ، وأعلى منه العفو حتى لا يبقى منه آثرٌ في القلب ، وأعلى منه الإحسان إلى المعتدي.

قال الله تعالى: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ ﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٤].

والإحسان هو:

بذل الندى، وكف الأذى، وأعقل الناس من أحسن إلى من أساء إليه؛ لأنه يحسن إلى من جعل الله بجانبه.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨ ﴾ [النحل:١٢٨] .

ومن أحسن في عبادة ربه، وأحسن إلى خلقه، وأحسن إلى من أساء إليه، كان في أعلى مقامات الدين، وفاز بحب الله، والناس أجمعين.

قال الله تعالى: ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِۛ وَأَحۡسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥ ﴾ [البقرة:١٩٥] .

٢- الخزانة الثانية

أنواع الصبر أربعة :

الأول: صبرٌ على المصائب والبلايا ، سواء كانت في الجسد ، أو الأهل ، أو الولد ، أو المال.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧] .

الثاني: صبرٌ على أداء الطاعات، فالطاعات في أدائها نحتاج إلى صبر النفس، وصبرٌ في مجاهدة الشيطان والهوى.

قال الله تعالى:﴿ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾[هود: ٤٩] .

الثالث: صبرٌ عن المعاصي والشهوات التي ترغبها النفوس ، وتُشغل عن الطاعات.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾[يوسف:٩٠] .

الرابع : الصبر على الأذى في سبيل الله ، فالمؤمن الحق المستقيم على أوامر الله، لابد أن يناله الأذى ، ويصيبه المكروه ، ويعاديه أهل الباطل.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾[العصر:١-٣].

وقال الله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾[آل عمران:٢٠٠] .

وقال الله تعالى:﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾[يوسف:٩٠] .

وقال الله تعالى:﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾[الزمر:١٠] .

والإيمان نصفان :

نصفٌ صبر .. ونصفٌ شكر .

قال الله تعالى:﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿٥﴾ ﴾[إبراهيم : ٥] .

أنواع الصبر:

الصبر ثلاثة أقسام :

الأول : صبرٌ على الطاعة ، حتى يفعلها العبد .

الثاني : صبرٌ على المنهي عنه ، حتى لا يفعله .

الثالث : صبرٌ على ما يصيبه بغير اختياره من المصائب ، **وهي نوعان** :

الأول : نوعٌ لا اختيار للخلق فيه ، كالأمراض ، وغيرها من المصائب السماوية ، فهذه يسهل الصبر فيها ؛ لأن العبد يشهد فيها قضاء الله ، وقدره الحكيم ، فيصبر اضطرارًا ، أو اختيارًا ، بحسب إيمانه ، ومعرفته .

قال الله تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١١﴾ ﴾[التغابن:١١]

الثاني : ما يحصل له بفعل الناس ، في ماله ، أو عرضه ، أو نفسه .

فهذا النوع يصعب الصبر عليه ؛ لأن النفس تكره الغلبة ، وتطلب الانتقام ، وأكمل الناس في هذا الأنبياء ، والصديقون .

وعاقبة هذا الصبر، النصر، والهدى ، والأمن ، والسرور ، ومحبة الله والناس له : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشورى:٤٣] .

وقال الله تعالى:﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[الروم:٦٠] .

الأسباب المعينة على الصبر:

يعين العبد على هذا الصبر أمور :

أحدها: أن يشهد أن الله خالق العباد، وأفعالهم ، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، والعباد آلة في قبضته، فانظر إلى من سلطهم عليك فارضه يكفهم عنك.

الثاني: أن يشهد ذنوبه، وأن الله إنما سلطتهم عليه بذنبه، فليشتغل بالتوبة، والاستغفار، عن ذمهم، والوقيعة بهم.

قال الله تعالى: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ ﴾[النساء:١٢٣] .

الثالث : أن يشهد حسن الثواب ، الذي وعده الله من عفا وصبر .

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾[الزمر:١٠] .

الرابع : أن يشهد أنه إذا عفا ، وأحسن ، أورثه ذلك سلامة القلب لإخوانه ، ونقائه من الغش ، والغل ، وذاق حلاوة العفو .

قال الله تعالى:﴿ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾[فصلت:٣٤- ٣٥].

الخامس: أن يعلم أنه ما انتقم أحدٌ لنفسه، إلا أورثه ذلك ذلًا ، وما عفا إلا زاده الله بعفوه عزًا ، أعظم من العز الحاصل بالانتقام .

السادس : أن يعلم أن الجزاء من جنس العمل ، فمن عفا عن الناس ، عفا الله عنه ، وإن غفر لهم ، غفر الله له.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾[التغابن:١٤] .

السابع: أن يعلم أنه إذا أشغل نفسه بالانتقام، ضاع عليه زمانه، فإذا عفا فرغ قلبه، وجسمه؛ لمصالحه، ولعل فيما حصل له تكفيرٌ لسيئاته، ورفعةٌ لدرجاته .

الثامن : أن يعلم أنه إن أُوذي في الله ، فأجره على الله ، فليوطن نفسه على الصبر ، ولوم نفسه .

قال الله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَاۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الطور:٤٨] .

التاسع : أن يشهد معية الله معه، فإن الله مع الصابرين، ويحب الصابرين.

قال الله تعالى:﴿ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾[الأنفال/ ٤٦].

وقال الله تعالى:﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾[آل عمران:١٤٦] .

العاشر: أن يعلم أن صبره، يوجب له على خصمه أن يرجع عن ظلمه، ويندم، ويعتذر.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾[فصلت:٣٤-٣٥] .

الحادي عشر: أن يعلم أن انتقامه سيزيد في شر خصمه ، وربما إذا انتقم ظلم ، وصبره من أكبر الجند على خصمه.

قال الله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[الروم:٦٠] .

وقال الله تعالى:﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾[يوسف:٩٠] .

وقال الله تعالى:﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾[الكهف: ٢٨] .

٢- الخزانة الثالثة

بداية الفتن :

عن زينب بنت جحش رضي الله عنها أنها قالت : اسْتَيْقَظَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ النَوْمِ ، مُحْمَرٌّ وَجْهُهُ ، يَقُولُ : « لا إِلَهَ إِلا اللهُ ، لا إِلَهَ إِلا اللهُ ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ ، وَعَقَدَ سُفْيَانُ تِسْعِينَ ، أَوْ مِائَة ، قِيلَ : أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ » متفق عليه[١] .

وعن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَأْمِنَا وفِي يَمَنِنَا ، قَالَ : قَالُوا : وَفِي نَجْدِنَا ؟ قَالَ : اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَامِنَا وفِي يَمَنِنَا ، قَالَ : قَالُوا : وَفِي نَجْدِنَا ؟ قَالَ : هُنَاكَ الزَّلاَزِلُ وَالْفِتَنُ ، وَبِهَا يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ » أخرجه البخاري[٢] .

شرارة الفتن :

مجالس الغيبة والنميمة ، ومجالس القيل والقال، شر المجالس ، إذ فيها تولد الفتن والشرور ، وتشتعل نارها رويدًا ، رويدًا ، حتى يصعب إطفاؤها، حتى على الذين أوقدوا شرارتها .

ورب قولٍ يسيل منه الدم ، وذكر مساوئ الرجال ، عونٌ على إراقة دمائهم ، وخرابُ ديارهم ، وسوء الظن بالمسلم ، أو تكفيره بغير حق ، مفتاح استباحة دمه، والتعدي على حرماته.

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٣٣٤٦)، واللفظ له، ومسلم برقم: (١/ ٢٨٨٠).

(٢) أخرجه البخاري برقم: (١٠٣٧).

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾ ﴾[الحجرات:١١-١٣] .

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « سِبَابُ المُسْلِم فُسُوقٌ ، وَقِتالُهُ كُفْرٌ »متفق عليه(١) .

نعوذ بالله من جميع الفتن ، ما ظهر منها ، وما بطن .

قال الله تعالى: ﴿ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾[النور:٦٣] .

وقال الله تعالى:﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [النساء:١١٥] .

فليتق العبد ربه ، عند حصول الفتن ، وينظر إليها بالميزان الشرعي : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾[آل عمران:١٠٢-١٠٣] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٦٠٤٤)، واللفظ له، وأخرجه مسلم برقم: (٦٤).

فقه الصبر:

الصبر حبسُ النفس على أمورًا ثلاثة :

صبرٌ على طاعة الله .. وصبرٌ عن معصية الله .. وصبرٌ على أقدار الله المؤلمة .

فهذه درجات الصبر ، وأركانه المأمور بها شرعًا، فمن صبر على تلك الأمور الثلاثة فجزاؤه، كما قال سُبْحَانَهُ: ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [النحل:٩٦] .

وقال الله ﷻ: ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾ ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ ﴾ [الإنسان:١٢-١٣] .

وأقدار الله عز وجل على الإنسان نوعان :

ملائمة .. مؤلمة .

فالملائمة :

كحصول النعم، التي توجب الشكر للرب، والشكر من الطاعات: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [البقرة:١٧٢] .

والمؤلمة :

كالمصائب التي تصيب العبد في نفسه ، وماله ، وأهله ، ونحو ذلك، مما يوجب الصبر.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ

﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾[البقرة:١٥٥-١٥٧] .

أحوال الناس عند المصائب:

الإنسان إذا أصابته مصيبة فله أربع حالات :

الأولى : أن يتسخط القدر إما بقلبه ، أو بلسانه ، أو بجوارحه .

وهذه مذمومة، كما قال سُبْحَانَهُ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١١﴾ ﴾[الحج:١١] .

فهذا يُحرم الثواب ، ويكسب الإثم ، فصار عنده مصيبتان ، مصيبة في الدين ، في السخط على ما قدر الله ، ومصيبة في الدنيا بما حل به .

الثانية : الصبر على المصيبة ، امتثالًا لأمر الله.

قال الله تعالى:﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الطور:٤٨] .

الثالثة: الرضا.

لأنها من ربه الرحمن الرحيم، والله لا يختار لعبده الا ما ينفعه: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١١﴾ ﴾[التغابن:١١] .

الرابعة : الشكر عليها.

فنشكر الله، لأن الله يعطينا من الثواب عليها اكتر مما أصابنا، وهذه أعلى الدرجات الثلاث، والأولى مذمومة.

قال الله تعالى:﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾[التوبة:٥١] .

فقه الصبر على أذى الناس:

الصبر على أذى الناس له أسباب متعددة :

فإذا كان السبب طاعة الله ، والجهاد في سبيله ، والدعوة إليه ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، فإن الإنسان يُثاب على ذلك من وجهين :

الوجه الأول : من الأذى الذي يحصل له: ﴿ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٥] .

الوجه الثاني : ومن صبره على الطاعة التي أوذي في الله من أجلها : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشورى:٤٣] .

فعلى الإنسان أن يصبر ، ويعفو ، ويغفر، لمن أساء إليه ، إن كان في ذلك إصلاح ؛ لأن الأجر من الله، خير من أخذك مُعاوضةً من أعمال من أذاك : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾[الشورى:٤٠] .

وقال الله تعالى:﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٤].

فقه الصبر:

الصبر ثلاثة أقسام :

صبرٌ على طاعة الله .

وصبرٌ عن معصية الله .

وصبرٌ على أقدار الله .

والذي أشق على النفوس من أنواع الصبر ، يختلف باختلاف الناس ، فبعض الناس يشق عليه القيام بالطاعة ، وتكون ثقيلةٍ عليه جدًا .

وبعض الناس يشق عليه الصبر عن المعصية ، وتكون الطاعة سهلةٌ عليه .

وبعض الناس يسهل عليه الصبر على الطاعة ، والصبر عن المعصية ، لكن يشق عليه الصبر على أقدار الله المؤلمة من المصائب ونحوها ، وقد تصل به الحال إلى أن يرتد.

قال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١١﴾ ﴾[الحج:١١] .

أما وقت الصبر ، فالصبر الذي يثاب عليه الإنسان عندما تحل به مصيبة ، وقته عند الصدمة الأولى عند أول المصيبة .

قال الله تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾[النحل:١٢٧] .

وعن أنس بن مالك ﷺ قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرٍ فَقَالَ: « اتَّقِيْ اللهَ وَاصْبِرِي، قَالَتْ : إِلَيْكَ عَنِّي ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبْ بِمُصِيْبَتِي وَلَمْ تَعْرِفْهُ ، فَقِيْلَ لَهَا : إِنَّهُ النَّبِيُّ ﷺ ، فَأَتَتْ بَابَ النَّبِيِّ ﷺ ؛ فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابِيْنَ ، فَقَالَتْ : لَمْ أَعْرِفْكَ، فَقَالَ: « إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُوْلَى » متفق عليه[1] .

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (١٢٢٣) واللفظ له، ومسلم برقم: (١٥/ ٩٢٦).

الصبر : هو تحمل المكروه، ابتغاء مرضاة الله .

قال الله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧] .

والصبر من حيث أنواعه ثلاثة :

١- صبر على طاعة الله .

٢- صبر عن معصية الله .

٣- صبر على أقدار الله .

والصبر على الأذى إما أن يكون في أمرٍ ديني ، أو أمرٍ دنيوي ، فإذا كان الأذى من أجل الدين ، فالواجب على المسلم الصبر في ذات الله ﷻ ؛ لأن في هذا الصبر على الأذى أسوة بالرسل عَلَيْهِم الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، ويعقب هذا الصبرُ النصر .

قال الله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ ﴾ [الأحقاف:٣٥] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأنعام:٣٤-٣٦] .

وإن كان الأذى فيما يتعلق بأمور الدنيا، ومعاملة الناس ، فالإنسان بالخيار إن شاء صبر، وأخذ أجر الصابرين: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [النحل:٩٦] .

وإن شاء أخذ بحقه ، والصبر أفضل ؛ لأن الصبر يعقبه الفرج ، والله يجعل للصابر نصيرًا على من ظلمه ، وأجرًا وثوابًا على الصبر ، كما قال سُبْحَانَهُ : ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى:٤٣] .

وقال النبي ﷺ لرجل من أصحابه: يَا رَسُولَ اللهَّ ، إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونَنِي ، وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ ، وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ ، وَيجَهْلُونَ عَلَيَّ ، فَقَالَ ﷺ:« لَئِنْ كَنتَ كَمَا قُلت ، فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ المِلَّ ، وَلا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللهَّ ظَهِيرٌ ، مَا زِلْتَ عَلَى ذَلِكَ »أخرجه مسلم(١) .

فإن كان في الصبر على الأذى عدوان ، واستمرارًا في الأذى ، فالأفضل أن يأخذ بحقه ؛ ليردعه عن ظلمه ، كما قال سُبْحَانَهُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾[الشورى:٣٧-٤٣] .

والملائكة في الجنة ينادون الصابرين : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾[الرعد:٢٤] .

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٢٢/ ٢٥٥٨).

وجزاء الصابرين الجنة، كما قال سبحانه: ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الإنسان:١٢] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [آل عمران:١٨٦] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [آل عمران:١٢٠] .

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [يوسف:٩٠] .

وقال الله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ [المعارج:٥] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الطور:٤٨] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف: ٢٨] .

٣- الخزانة الرابعة

سُبل السلامة من الفتن :

الفتن إذا أصابت الأمة لم ينجو منها أحد إلا من شاء الله، وهي شرٌ مستطيرًا لا يستثنى أحدًا .

وتسلم الأمة من غوائل الفتن وشرورها بأمور :

الأول : تجفيف منابع الفتن، وسد ذرائعها، وحسم أوائلها، والأخذ على أيدي سفهائها، وكم من مخلصٍ جاهلٍ حسن النية، يفسد بجهله ما لا يخطر على باله، ويغرق الأمة في الفتنه، وهو يظن أنه أشدهم رحمة، وأعظمهم غَيرة، وكم من منافق يأكل بلسانه، ويشعل نار الفتنه بكلامه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾[البقرة:٢٠٤-٢٠٥] .

وقال الله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ﴿١٠﴾ ﴾[البروج:١٠] .

وعن النعمان بن بشير ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِّ وَالوَاقِعِ فِيهَا ، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا سَفِينَةٍ ، فصار بَعْضُهُمْ في أَسْفَلَهَا ، وصار بَعْضُهُمْ في أَعْلاَهَا ، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا يمرون بالمَاءِ على الذين في أَعْلاَهَا ، فتأذوا به فَأَخَذَ فَأْسًا فَجَعَلَ يَنْقُرُ أَسْفَلَ السَّفِينَةِ فَأَتَوْهُ فَقَالُوا مَا لَكَ قَالَ تَأَذَّيْتُمْ بي ، وَلَا بُدَّ لي مِنْ المُاءِ فَإِنْ أَخَذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَنْجَوْهُ ، وَنَجَّوْا أَنْفُسَهُمْ ، وَإِنْ تَرَكُوهُ أَهْلَكُوهُ ، وَأَهْلَكُوا أَنْفُسَهُمْ »أخرجه البخاري[1] .

---

(١) أخرجه البخاري برقم: (٢٦٨٦).

الثاني : الحذر من الشر باب من أبواب الخير، كما قال سُبْحَانَهُ : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام:١٥٣] .

وقال الله ﷻ : ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور:٦٣] .

وعن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: كَان النَّاس يَسْأَلُوْن رَسُوْل اللهَّ ﷺ عَن الخَيْر ، وَكُنْت أَسْأَلُه عَن الشَّر مخَافَة أَن يُدْرِكَنِي ، فَقُلْت : يَا رَسُوْل اللهَّ ، إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّة ، وَشَر فَجَاءَنَا اللهَّ بِهَذَا الخَيْر فَهَل بَعْد الخَيْر شَر ؟قَال: « نَعَم »، فَقُلْت : فَهَل بَعْد هَذَا الشَّر مِن خَيْر؟ قَال: « نَعَم ، وَفِيْه دَخَن»، قَال قُلْت: وَمَا دَخَنُه؟ قَال: « قَوْم يَسْتَنُّون بِغَيْر سُنَّتِي ، وَّيَهْدُوْن بِغَيْر هَدْيِي تَعْرِف مِنْهُم ، وَتُنْكِر»، فَقُلْت هَل بَعْد ذَلِك الخَيْر مِن شَر؟ قَال: « نَعَم فِتْنَة عَمْيَاء دُعَاة عَلَى أَبْوَاب جَهَنَّم ، مَن أَجَابَهُم إِلَيْهَا قَذَفُوْه فِيْهَا »، فَقُلْت: يَا رَسُوْل اللهَّ ، صِفْهُم لَنَا، قَال: « نَعَم، قَوْم مِن جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُوْن بِأَلْسِنَتِنَا»، فَقُلْت : يَا رَسُوْل اللهَّ ، وَمَا تَأْمُرُنِي إِن أَدْرَكْت ذَلِك، قَال: « تَلْزَم جمَاعَة المُسْلِمِيْن، وَإِمَامَهُم » قُلْت: فَإِن لَم يَكُن لهَُم جمَاعَة، وَلَا إِمَام؟ قَال: « فَاعْتَزِل تِلْك الْفِرَق كُلَّهَا ، وَلَو أَن تَعَض عَلَى أَصْل الشَّجَرَة حَتَّى يُدْرِكَك المَوْت ، وَأَنْت عَلَى ذَلِك » متفق عليه[1] .

الثالث: لزوم العلماء الربانيين عند الفتن.

فالفتن كقطع الليل المظلم، الساري فيه على شفى هلكه، إن لم يكن معه نور الإيمان، والعلم الذي يكشف أهلها، ويبين سبل النجاة منها، وهو القرآن

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٧٠٨٤)، واللفظ له، ومسلم برقم: (٥١/ ١٨٤٧).

الكريم: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنعام:١٠٤] .

وقال الله تعالى:﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة:١٥-١٦] .

والعلماء الربانيون كسفينة نوح من فارقهم، وخالفهم، كان من المغرقين ، والعلماء مصابيح الأمة، فهم الذين يعلمون الناس دينهم ، ويبينون لهم كيف يؤدون الفرائض ، وكيف يجتنبون المحرمات ، ويأمرونهم بالتعاون على البر والتقوى، ويحذرونهم من التعاون على الإثم والعدوان ، ويبينون لهم الحسن من الأحسن: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر:٢٨] .

وإذا مات العلماء تحير الناس ، وزاغوا عن الحق ، ودرس العلم ، وظهر الجهل ، وكثرت الفتن .

ورواج الفتن مقرونٌ بذهاب العلم والعلماء بلا ريب .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ اللهَّ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتخَّذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا ، فَسُئِلُوا ، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا ، وَأَضَلُّوا » متفق عليه[1] .

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (١٠٠)، وأخرجه مسلم برقم: (١٣/ ٢٦٧٣)، واللفظ له.

وقد جعل الله العلماء عصمةً للأمة من الهلاك ، فالفتنة إذا أقبلت عرفها كل عالم، وإذا أدبرت، ودمرت، عرفها كل جاهل: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ ﴾[النساء:٨٣] .

وأهم سُبل الوقاية من شر الفتن، والعصمة من الزيغ، والضلال، والنجاة من الهلاك، هو الاعتصام بكتاب الله، وسنة رسوله ﷺ والالتحام بالعلماء الربانين ، والصدور عن رأيهم السديد ، كما اعز الله دينه، وحفظه، بأبي بكر الصديق رضي الله عنه يوم الردة ، وغيره من أئمة الهدى، فالعلماء ورثة الأنبياء .

والبيئة الإيمانية يقودها العلماء الربانيون ، الذين جعلهم الله منارة للعلم والهدى ، والبيئة الجاهلية توفر المناخ المناسب للفوضى، والدجل، فهي التي احتضنت الأسود العنسي في اليمن ، ومسيلمة الكذاب في اليمامة فأهلكت هذا ، وهذا :﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[النحل:٤٣-٤٤] .

الرابع: لزوم الجماعة.

والجماعة هم أهل الإيمان والتقوى ، و يد الله مع الجماعة ، والأمة لا تجتمع على ضلالة أبدًا ، والحق فيها مادامت أمة واحدة.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾[الأنبياء:٩٢] .

وقد أمر الله عز وجل بالاجتماع على الحق ، وحذرنا من الفرقة .

فالجماعة رحمة، والفرقة عذاب ، ونتيجة الجماعة رحمة الله ، ورضوانه ، وصلواته، وسعادة الدنيا، والآخرة: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [التوبة:٧١] .

ونتيجة الفرقة عذاب الله ، ولعنته ، وسخطه ، وشقاوة الدنيا والآخرة : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [آل عمران:١٠٣-١٠٥] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [النساء:١١٥] .

وعن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: كَان النَّاس يَسْأَلُوْن رَسُوْل اللهَّ ﷺ عَن الخَيْر ، وَكُنْت أَسْأَلُه عَن الشَّر مخَافَة أَن يُدْرِكَنِي ، فَقُلْت ، وفيه : فَقُلْت : يَا رَسُوْل اللهَّ ، وَمَا تَأْمُرُنِي إِن أَدْرَكْت ذَلِك، قَال:« تَلْزَم جمَاعَة المُسْلِمِيْن ، وَإِمَامَهُم»، قُلْت : فَإِن لمَ يَكُن لهَُم جمَاعَة ، وَلَا إِمَام ؟ قَال: « فَاعْتَزِل تِلْك

الْفِرَق كُلَّهَا، وَلَو أَن تَعَض عَلَى أَصْل الْشَّجَرَة حَتَّى يُدْرِكَك المَوْت ، وَأَنْت عَلَى ذَلِك » متفق عليه[1] .

والمواظبة على صلاة الجماعة من أقوي أسباب الاجتماع، وحصول الأمن والخير، وهي إن لم تستأصل الفتنة، فإنها تطفئ نارها، وتحجم أضرارها، كما قال سُبْحَانَهُ : ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾[العنكبوت:٤٥] .

الخامس: التثبت من الأخبار.

فالفتن تنتشر بالقيل والقال، وتكبر وتزداد بالإشاعات والأباطيل، وأسرع الناس سقوطًا في حريق الفتن، هم أهل الجهل، وأهل الكبر، والغرور، الذين يجرون الأمة إلى كل بلاء، وفتنة، بمجرد قولٍ قيل، لا يدرى من أي رأسٍ خرج ، ولا على أي أرض درج .

فيجب التثبت والتبيين في الأخبار المتعلقة بعموم الأمة، أو برأس من رؤوسها ، أو بأمر من أمورها، ومجرد الثقة في النقل، لا تكفى بمفردها، فيجب التثبت، وذلك لما يعتلى النفوس من العصبية، والهوى، والشهوة ، وتزيين الشيطان، والحرص، والطمع: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾[الحجرات:٦] .

وقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٧٠٨٤) ، واللفظ له، ومسلم برقم: (٥١/ ١٨٤٧).

فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾[النساء:٩٤] .

وعن ابن عباس رضي الله عنه في قوله: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾[النساء:٩٤] ، قال : أن المسلمين لحقوا رجلاً في غُنَيْمَةٍ له فقال : السَّلام عليكم، فقتلوه ، وأخذوا غنيمتَه ، فنزلت : ﴿ تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[النساء:٩٤] . » أخرجه البخاري [١] .

وإذا تأكد المسلم من صحة الخبر ، فلا تحسن إشاعته بين العامة ، فليس كل ما يُعلم يُقال ، وكفى بالمرء إثمًا أن يحُدث بكل ما سمع ، وإذا أردنا أن نقول فلا نقول إلا للعلماء والأتقياء الذين يعلمون ما لا نعلم :﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾[النساء:٨٣] .

وقد أمر الله بالستر، والنصح، والصلح، والإصلاح لمن زلت به القدم، فلا يجوز لأحد هتك الأستار ، وفضح الأسرار ، والتشهير بالأشخاص ، ورحمة الله للفاسق توجب إصلاح فساده ، ولو كان جبارًا عنيدًا ، ومن هتك ستر غيره فضحه الله ، ولو كان في جوف داره : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾[النور:١٩] .

وقال النبي ﷺ : « إِنَّ اللهَّ كَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا : قِيلَ وَقَالَ ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ ، وَإِضَاعَةَ المُالِ » متفق عليه[٢] .

---

(١) أخرجه البخاري برقم: (٤٥٩١).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٥٩٧٥)، ومسلم برقم: (١٣ / ٥٩٣)واللفظ له.

فيجب على المسلم أن يتبين الأمور ، ولا يصدق الإشاعات ؛ ليسلم هو ، وغيره من إثم الفتن ، والتهم:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦ ﴾[الحجرات:٦] .

وعن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ ، يَأْتُونَكُمْ مِنَ الْأَحَادِيثِ بِمَا لَمْ تَسْمَعُوا أَنْتُمْ ، وَلَا آبَاؤُكُمْ ، فَإِيَّاكُمْ وَإِيَّاهُمْ ، لَا يُضِلُّونَكُمْ ، وَلَا يَفْتِنُونَكُمْ »أخرجه مسلم(١) .

وعن ابن عَبَّاسٍﷺ قَالَ : حدثنا عُمَرَ بن الْخَطَّابِ قَالَ: لمَّا اعْتَزَلَ نَبِيُّ الله ﷺ نِسَاءَهُ ، قال : دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا النَّاسُ يَنْكُتُونَ بِالْحَصَىٰ ، وَيَقُولُونَ : طَلَّقَ رَسُولُ الله ﷺ نِسَاءَهُ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ الله أَطَلَّقْتَهُنَّ ، قَالَ : لَا قُلْتُ : يَا رَسُولَ الله إِنِّي دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ وَالْمُسْلِمُونَ يَنْكُتُونَ بِالْحَصَىٰ ، يَقُولُونَ : طَلَّقَ رَسُولُ الله ﷺ نِسَاءَهُ ، أَفَأَنْزِلُ فَأُخْبِرَهُمْ أَنَّكَ لَمْ تُطَلِّقْهُنَّ ؟ قَال : نَعَمْ إِنْ شِئْت » أخرجه مسلم(٢) .

وليس كل ما يعلمه الإنسان يقوله ، بل يجب عليه أن يسكت ، إذا كانت الحكمة والمصلحة في السكوت درأ للمفسدة، خاصة وقت الفتن التي تلطم البر والفاجر إلا من رحم الله .

عن أبى هريرة ﷺ قال: حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللهَّ ﷺ وِعَاءَيْنِ: فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَبَثَثْتُهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَلَوْ بَثَثْتُهُ قُطِعَ هَذَا البُلْعُومُ »أخرجه البخاري(٣) .

---

(١) أخرجه مسلم برقم:(٧).

(٢) أخرجه مسلم برقم: (٣٠ / ١٤٧٩).

(٣) أخرجه البخاري برقم: (٧٠٥٨).

٥- الخزانة الخامسة

ومن سُبل السلامة من الفتن :

السادس : حفظ اللسان .

يجب على كل مسلم أن يكف لسانه ، ويحفظه عن كل باطل في جميع الأوقات ، والأحوال ، ويتأكد ذلك حفظه وقت الفتنة التي تكثر فيها الأقاويل ، وتزداد شهوة الكلام ، والسماع ، وتستعد الآذان لاستقبال كل ما يقال ، ويشاع، مما يفتن ، ويفرى ، ويدمى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾[الإسراء:٣٦] .

فيجب كف اللسان عن كل كلمةٍ تزيد وهج الفتنة ، وتشعل نارها ، فالعاقل من أشغل لسانه بما يحبه الله ويرضاه، من الذكر ، والدعاء ، والدعوة : ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ ﴾[الإسراء:٥٣] .

واللسان أيسر الجوارح حركة ، وهو أضرها على العبد، فكم يحصل من الشر والفساد إذا أطلق الإنسان لسانه ؛ ليفرى في أعراض الأحياء والأموات ، ويمزق شمل الأمة بالقيل والقال ، وإثارة النعرات .

فحفظ اللسان وكفه ، وحبسه هو أصل الخير كله ، وإطلاقه أصل الشر كله ، وما طار منه لا يمكن رده: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الحجرات:١١] .

وعن عبد الله بن عمرو ﷺ قال: قال النبي ﷺ : « المُسْلِمُ مَنْ سَلَمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ ، وَيَدِهِ ، وَالمُهَاجِرُ مِنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ » متفق عليه[1] .

وعن سهل بن سعيد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « منْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لحَيْيَهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ ؛ أَضْمَنْ لَهُ الجَنَّةَ »أخرجه البخاري[2] .

فالصمت عن اللغو فيه السلامة ، والصمت مفتاح العبادة ، وما ندم حليم ، ولا ساكت ، ومن كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه ، ومن كثرت ذنوبه، كانت وقوده في النار ، والعاقل لا يتكلم فيما لا يعنيه ويرجو ثوابه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١] .

وعن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهَّ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهَّ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَه، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهَّ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا، أَوْ لِيَصْمُت »أخرجه البخاري[3].

واللسان سبعٌ ضار، من أرسله أكله، فيجب الحذر منه ، وأدنى نفع السكوت السلامة، وكفى به عافيه ، وأدنى ضرر النطق الشهرة، وكفى به بلية ، والكلام أسير الإنسان، فإذا خرج من فيه صار أسيره ، والله عند لسان كل قائل : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [ق:١٨] .

---

(١)**متفق عليه**، أخرجه البخاري برقم: (٦٤٨٤)، ومسلم برقم(٤٠).

(٢) أخرجه البخاري برقم: (٦٤٧٤).

(٣) **متفق عليه**، أخرجه البخاري برقم: (٦٤٧٥)، ومسلم برقم(٤٧) .

وقال الله تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الزخرف:٨٠] .

وكلام اللسان في الفتن أشد من وقع السيف في الحرب ، والنفس أمارة بالسوء إلا ما رحم ربى ، وهي التي تأمر الإنسان بالقيل والقال ، والغيبة والنميمة ، والجدل والمراء ، والكذب والرياء ، والخوض في الفتن ، وغير ذلك مما يشعل نار الفتن ما ظهر منها ، وما بطن فاحذر ذلك أيها المسلم ، ولا تقفو ما ليس لك به علم : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء:٣٦] .

واصحب الناس أيام الفتن، كما تصحب النار، خذ منفعتها ، واحذر منها أن تحرقك ، وإذا أقبلت الفتن فواجهها بحصن الحكمة ، وصدق الإيمان ، وقوة الدعاء ، وتوكل على الله في دفعها ، واتقاء شرها، فإنها إذا عمت وطمت ، وزاد غبارها، فاعتزل ذلك بكف لسانك عن إخوانك : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنعام:٦٨] .

وعَنْ أَبِي سَعِيد الخدريِ ﷺ أن رَجُلاً أَتى النبي ﷺ فقال : أي النَّاسِ أَفْضَلُ ؟ فقَالَ رسول الله ﷺ « مُؤْمِنٌ يجُاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهَّ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ » قَالَ ثُمَّ مَنْ قَالَ: « ثُمَّ مؤمنٌ فِي شِعْبٍ مِنَ الشِّعَابِ يَتقىُ الله، وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ » متفق عليه[1] .

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٢٧٨٦)واللفظ له، ومسلم برقم: (١٢٢/ ١٨٨٨).

السابع : الصبر والرفق والحلم في جميع الأحوال .

فالصبر محمود في كل حال خاصةً عند المصائب والفتن : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ [التغابن:١١]

والصبر أعظم عطاء يكرم الله به من شاء من عباده ، والصبر مفتاح الفرج واليسر : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾ ﴾ [الشرح:١-٨] .

وقال الله تعالى:﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الروم:٦٠]

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ: أَنَّ نَاسًا مِنَ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَلم يسأله أحدٌ منهم إلا أَعْطَاهُ، حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ ، فَقَالَ لهم حين نفذ كل شيء أنفق بيديه ما يكن عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ ، وإنه من يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا ، وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ » متفق عليه[1] .

وإذا هاجت الفتن، وكثرت المعاصي، وانتشر الفسق ، فلابد للمسلم من صبرٍ شديد يواجه به تلك الشدائد والفتن : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [آل عمران:٢٠٠] .

وقال الله تعالى:﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [يوسف:٩٠] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٦٤٧٠)، واللفظ له ، ومسلم برقم: (١٢٤/ ١٠٥٣).

وإذا كانت دعامة العقل الحلم ، فإن جماع الأمر الصبر ، ولا يبلغ الإنسان ذروة العقل ، حتى يغلب حلمه جهله ، وصبره شهوته ، وأشجع الناس من رد جهله بحلمه ، وأكرمهم من بذل نفسه ودنياه من أجل دينه : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾ [فصلت:٣٣-٣٦] .

وقال الله تعالى:﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحجرات:١٥] .

والرفق، والحلم، والحياء من أحسن الأخلاق التي يتجمل بها المرء ، ومن يُحرم الرفق يُحرم الخير كله ، والحلم سيد الأخلاق ، والحياء شعبة من شعب الإيمان : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [الأعراف:١٩٩] .

وقال الله تعالى:﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٤].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: استأذن رهط من اليهود على النبي ﷺ ، فقالوا : السامُ عليكِ ، فقلت : بل عليكم السام ، واللعنة ، فقال: « يا عائشة إن الله رفيقٌ يحب الرفق في الأمر كله »، قلت: ألا تسمع ما قالوا ؟قال: « قلت وعليكم » متفق عليه[1] .

و عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ: « إِنَّ الرِّفْقَ لا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلا زَانَهُ ، وَلا نُزِعَ مِنْ شَيْءٍ إِلا شَانَهُ » أخرجه مسلم[2] .

واعلم أن التأني من الله ، والعجلة من الشيطان ، والعجلة والطيش من أعظم الأدواء ، التي تعقبها الحسرة ، والندامة، فتبين الأمور ، وتفكر في العواقب ، واصبر على ما أصابك ، يحبك الله ، ويكن في معيتك : ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ٦٠ ﴾[الروم:٦٠]

وقال الله تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣ ﴾[البقرة:١٥٣] .

وعن خبابٍ بن الأرت ﷺ قال: شَكَوْنَا إِلَى رسولِ اللهَّ ﷺ ، وَهُو مُتَوسِّدٌ بُردةً لَهُ في ظِلِّ الْكَعْبةِ ، فقلنا: ألا تستنصرُ لنا، ألا تدعو لنَا؟، فقال: « كانَ الرجُلُ فيمَنْ قبلَكُم يحُفَرُ لهُ في الأرضِ ، فيُجْعَلُ فيه ، فيُجاءُ بالمنشارِ فيوضعُ على [مَفْرِق] رأسهِ ، فيُشَقُّ باثنتينِ ، وما يصُدُّهُ ذلك عن دينِهِ ، ويُمْشَطُ بأمْشاطِ الحَديدِ ما دُونَ لحَمِهِ مِن عَظْم أوْ عَصَبٍ ، وما يَصُدُّهُ ذلك عنْ دِينِهِ ، والله لَيُتِمَّنَّ اللهُ هذا الأمرَ ، حتى يسيرَ الراكِبُ مِن صنعاءَ إلى حَضْرَموتَ ؛ لا يخافُ إلا اللهَ أو الذئبَ على غنمهِ ، ولكنَّكُم تستعجلونَ »أخرجه البخاري[3] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٦٤٠١)، واللفظ له، ومسلم برقم: (١٠/ ٢١٦٥).

(٢) أخرجه مسلم برقم: (٢٥٩٤).

(٣) أخرجه البخاري برقم: (٦٩٤٣).

الثامن : مواجهة الفتن بالأعمال الصالحة ، فهدي النبي ﷺ في أيام الفتن، المبادرة إلى الأعمال الصالحة ؛ لأنها أعظم وسيلة للثبات على الحق ، والهدى ، والنفسُ إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل ، كما قال سبحانه: ﴿ وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ٦٦ وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٦٧ وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ٦٨ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ٧٠ ﴾ [النساء:٦٦-٧٠] .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رَسُولَ اللهَّ ﷺ قال : « بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا ، وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا ، وَيُصْبِحُ كَافِرًا يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنْ الدُّنْيَا » أخرجه مسلم[1] .

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: استيقظ النبي ﷺ ذات ليلة فقال: « سبحان الله! مَاذَا فُتِحَ اللَّيْلَةَ مِنْ الْخَزَائِنِ؟ مَاذَا أَنْزَلَ اللهُّ تَعَالَى مِنْ الْفِتَنِ؟ أَيْقِظُوا صَوَاحِبَ الْحُجَرِ، رُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَّةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»أخرجه البخاري[2] .

(١) أخرجه مسلم برقم: (١١٨).

(٢) أخرجه البخاري برقم: (١١٢٦).

وعنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سِتًّا، طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، أَوْ الدُّخَانَ ، أَوْ الدَّجَّالَ ، أَوْ الدَّابَّةَ ، أَوْ خَاصَّةَ أَحَدِكُمْ ، أَوْ أَمْرَ الْعَامَّةِ »أخرجه مسلم(١) .

والصلاة من أعظم العبادات ، التي يدفع بها كل بلاء ، فإذا فزع المؤمن ، أو حلت به مصيبة ، أو اشتدت عليه كربة، توجه إلى ربه ، وفزع إليه قائما يصلى بين يديه: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾[العنكبوت:٤٥] .

وكان ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾[البقرة:١٥٣] .

وصاحب الأعمال الصالحة ، عزيز عند ربه، يرفع مقامه وذكره في الدنيا ، والآخرة ، ولا يخزيه أبدًا ، وينصره على من عاداه: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحج:٤٠-٤١] .

وجميع صنائع المعروف ، تقي مصارع السوء ، والمنقطع للعبادة في الفتنة ، فر من الناس إلى عبادة ربه ، الذي هو ارحم به من نفسه ، وأجره كالمهاجر الذي فر بدينه ممن يصدونه عنه .

عن معقل بن يسار ﷺ أن الرسول ﷺ قال : « العِبَادَةُ في الهرج كهجرة إليَّ »أخرجه مسلم(٢) .

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (١٢٨/ ٢٩٤٧).

(٢) أخرجه مسلم برقم: (١٣٠/ ٢٩٤٨).

٦- الخزانة السادسة

ومن سُبل السلامة من الفتن :

التاسع : الدعاء والرغبة إلى الله ﷻ في دفع الفتن .

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال:٢٤-٢٥] .

فدعاء الله ﷻ ، والتضرع إليه ، من أعظم الأسلحة التي يستنزل بها النصر ، ويُدفع بها البلاء .

والفتن من عذاب الله في الأرض ، ولا يدفع عذابه بمثل الاستكانة ، والتضرع إليه في دفعها .

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [المؤمنون: ٧٦] .

وعند الفتن تطيش العقول، وتحتار النفوس، وتشتد الكربة ، وعند ذلك لا ملجأ ولا منجى للمؤمن إلا إلى ربه .

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأنعام:٤٢-٤٣] .

والفتن كثيرًا ما تشتبه فيها الأمور ، ويخفى فيها وجه الحق ، ويختلط فيها الحابل بالنابل ، وسبيل النجاة منها ، الاعتصام بالله القادر على كل شيء ، والاستعانة به، ودعائه واستغفاره .

قال الله تعالى: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥١﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٠-٥١] .

وقال الله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الروم:٦٠]

وقال الله تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة:١٨٦] .

وعن أبي ذر ﷺ ، عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أنه قال : « إِنِّى حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِى وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ محُرَّمًا فَلاَ تَظَالمُوا ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُوني أَهْدِكُمْ ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُوني أُطْعِمْكُمْ ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ ، وَالنَّهَارِ ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي ، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي .

يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ ، وَآخِرَكُمْ ، وَإِنْسَكُمْ ، وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ ، وَآخِرَكُمْ ، وَإِنْسَكُمْ ، وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ ، وَآخِرَكُمْ ، وَإِنْسَكُمْ ،

وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي ، إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ »أخرجه مسلم [1] .

وصلاح المؤمنين على مر الدهور والقرون، هو الدعاء، والشكوى إلى الله في كل حال: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[السجدة:١٥- ١٧] .

دعا به نوح ﷺ ، فنصره الله على من كفر به، وسخر منه.

قال الله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَـٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾[القمر:٩-١٤] .

ودعاه به إبراهيم ﷺ ، فأنجاه الله من النار : ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾[الأنبياء:٦٨-٧١] .

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٤/ ١٩٩٤).

ودعاه به يونس ﷺ ، فأنجاه الله من الغرق.

قال الله تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٧-٨٨] .

ودعاه به موسى ﷺ، فأنجاه الله من فرعون وقومه، كما قال سُبْحَانَهُ : ﴿ فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الشعراء:٦٠-٦٨] .

والفتن بلاء عظيم ، لا ينجو منها إلا من دعا ربه بدعاء كدعاء الغريق، كما قال سُبْحَانَهُ : ﴿ إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾[الأنفال:٩-١٠] .

والهداية إلى الحق وقت الفتن منحة ربانية ، وهداية إلهية، يخص الله بها أولياءه المؤمنين، كما قال سُبْحَانَهُ : ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ

بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ ﴾ [البقرة:٢١٣] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ ، إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ افْتَتَحَ صَلاَتَهُ : اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِى لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تَهْدِى مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »أخرجه مسلم[1] .

فإذا سألت فأسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، ومن سأل الله أعطاه ، ومن دعاه أجابه ، ومن توكل عليه كفاه : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [التغابن:١٣] .

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن الرسول ﷺ قال : « لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ ، لِيَعْزِمْ المَسْأَلَةَ ، فَإِنَّهُ لا مُكْرِهَ لَهُ »متفق عليه[2] .

فسبل السلامة من الفتن :

الأول : تجفيف منابع الفتن ، وسد أبوابها .

الثاني : الحذر من الشر ، باب من أبواب الخير .

الثالث : لزوم العلماء الربانيين عند الفتن .

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (١٨٤٧).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٦٣٣٩)، واللفظ له، ومسلم برقم: (٢٦٧٩).

الرابع : لزوم جماعة المسلمين عند الفتن .

الخامس : التثبت من الأخبار الشائعة .

السادس : حفظ اللسان وقت الفتن وغيرها .

السابع : الصبر والرفق والحلم في جميع الأحوال .

الثامن : مواجهة الفتن بالأعمال الصالحة .

التاسع : الدعاء والرغبة إلى الله في دفع الفتن ، وقد مرت هذه معنا .

العاشر : التعوذ بالله من شر الفتن .

فالله ﷻ هو الملك الحق الذي بيده الخلق والأمر ، والفتن بلاء عظيم، وعلى المؤمن أن يستعيذ بالله من شرها .

عن زيد بن ثابت ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « تَعوَّذُوا باللهِ مِن الفِتَن مَا ظَهرَ مِنها ، وَمَا بَطَنَ ، قُلنا : نَعوذُ باللهِ مِن الفِتنِ مَا ظهرَ مِنها ، وَما بَطنَ »أخرجه مسلم[1] .

وعن أبي هريرة ﷺ أن الرسول ﷺ قال : « إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ أَرْبَعٍ ، يَقُولُ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ »أخرجه مسلم[2] .

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٤/ ٢٢٠٠).

(٢) أخرجه مسلم برقم: (١٢٨/ ٥٨٨).

الحادي عشر : اعتزال الفتن .

إذا وقعت الأمة في الفتن المهلكة التي تأكل الأخضر واليابس ، وتلطم البر والفاجر ، فلا يجوز للمسلم المشاركة فيها ، بل يتجنبها، ويكف لسانه ويده عنها، بالفرار منها، ما لم يتبين الحق فيتبعه.

قال الله تعالى:﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾[العنكبوت: ٥٦ – ٥٧]

وقال النبي ﷺ : « مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ » أخرجه الترمذي وابن ماجة[١] .

وقال النبي ﷺ: « المُسْلِم ؟ مَنْ سَلِمَ المُسلمون مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ » أخرجه البخاري[٢] .

وعن أبي بكرة ﷺ ، أن الرسول ﷺ قال : « إِذَا تَوَاجَهَ المُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَكِلاَهُمَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، قِيلَ : فَهَذَا الْقَاتِلُ فَمَا بَالُ المَقْتُولِ، قَالَ : إِنَّهُ أَرَادَ قَتْلَ صَاحِبِهِ »متفق عليه[٣] .

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ المُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ ، وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ ، يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنْ الْفِتَنِ »أخرجه البخاري[٤] .

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي برقم(٢٣١٧)، وابن ماجة برقم (٣٩٧٦).

(٢) أخرجه البخاري برقم: (١٠).

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٦٨٧٥)، واللفظ له، ومسلم برقم: (١٤/ ٢٨٨٨).

(٤) أخرجه البخاري برقم: (٣١٢٤).

وعن أبي هريرة ﷺ ، أن الرسول ﷺ قال : « سَتَكُونُ فِتَنٌ ، الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنْ الْقَائِمِ ، وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنْ الْمَاشِي ، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنْ السَّاعِي ، وَمَنْ يُشْرِفْ لَهَا تَسْتَشْرِفْهُ ، وَمَنْ وَجَدَ مَلْجَأً فَلْيَعُذْ بِهِ »أخرجه مسلم[1] .

وعن عامر بن سعد ﷺ « أَنَّ أَبَاهُ سَعْدًا كَانَ فِي إِبِلٍ لَهُ فَجَاءَ ابْنُهُ عُمَرُ فَلَمَّا رَآهُ ، قَالَ : أَعُوذُ بِاللهَّ مِنْ شَرِّ هَذَا الرَّاكِبِ ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِ قَالَ : يَا أَبَهْ أَرَضِيتَ أَنْ تَكُونَ أَعْرَابِيًّا فِي إِبِلِكَ ، وَغَنَمِكَ ، وَالنَّاسُ فِي الْمَدِينَةِ يَتَنَازَعُونَ الْمُلْكَ ، قَالَ : فَضَرَبَ صَدْرَهُ بِيَدِهِ ، وَقَالَ : يَا بُنَيَّ اسْكُتْ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهَّ ﷺ يَقُولُ: « إِنَّ اللهَّ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ ، الْغَنِيَّ ، الْخَفِيَّ »أخرجه مسلم[2] .

وتتأكد العزلة في الفتنة على اثنين :

أحدهما : من خشي أن يُفتن في دينه ، ويُكره على التحول عنه .

الثاني : صاحب الرأي ، والدهاء، الذي يُخشى على الناس من رأيه ، وذو البأس الشديد الذي يُخشى على الناس منه ، ومن بأسه .

والفتنة أسرع الابتلاء .

وإنكار المنكر واجبٌ على كل من قدر عليه ، فمن أعان أهل الحق ، فهو مصيبٌ ومأجور، ومن أعان المخطئ فهو مخطئ وآثم، وإن أشكل عليه الأمر، اعتزل حتى يستبين له الأمر .

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٢٨٨٦).

(٢) أخرجه مسلم برقم: (٢٩٦٥).

وفى العزلة وقت الفتنة صيانةُ للدين عن النقص ، وصيانةُ للنفس عن التلف ، وصيانةُ للعرض عن الانتهاك ، وصيانةُ للمال عن الضياع، وسلامة الصدر لكل مؤمن، وإطفاء الفتنة ، وإخماد نارها .

فالناس كلما اعتزلوا الفتن، قل أهلها، فقل شرها، فانطفأت نارها ، وكلما قام الناس في الفتن ، وشاركوا في إضرام نارها، كثر أهلها ، وزاد شرها ، وعظم خطبها: ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾[النساء:١١٤-١١٥] .

وقال الله تعالى:﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾ ﴾[المائدة:٢] .

الثاني عشر : عدم تمنى الموت عند الفتن .

فخير الناس المؤمن الذي طال عمره ، وحسن عمله ؛ لأنه في كل يوم يزداد من الأعمال الصالحة ، التي تقربه من ربه، وترتفع بها درجته، وتُغفر له ذنوبه .

عن أَبي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قال : « لا يَتَمَنَّى أَحَدُكُمْ المَوْتَ ، إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ يَزْدَادُ ، وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ يَسْتَعْتِبُ »متفق عليه[1] .

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٧٢٣٣)، واللفظ له، ومسلم برقم: (٢٦٨٠).

وعن أَبي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قال : « لا يَتَمَنَّى أَحَدُكُمْ المَوْتَ ، ولا يَدْعُ بِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُ ، إِنَّهُ إِذَا مَاتَ أَحَدُكُم ٱنْقَطَعَ عَمَلُه ، وَإِنَّهُ لا يَزِيدُ المُؤْمِنَ عُمْرُهُ إِلا خَيْرًا »أخرجه مسلم(١) .

وعن عبد الله بن بشر ﷺ قال : جاء أعرابيان إلى رسول الله ﷺ فقال : أحدهما يا رسول الله أي الناس خير في خير ؟ قال : « مَنْ طَالَ عُمْرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ »أخرجه أحمد والترمذي بسند صحيح(٢) .

ويجوز للمسلم إذا خاف على دينه من الفتنة، أن يفوض أمره الى ربه .

عن أنس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمُ المَوْتَ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ مُتَمَنِّيًا لِلْمَوْتِ فَلْيَقُلِ : اللَّهُمَّ أَحْيِنِى مَا كَانَتِ الحَيَاةُ خَيْرًا لِي ، وَتَوَفَّنِى إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي »متفق عليه(٣) .

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (١٣/ ٢٦٨٢).

(٢) صحيح/ أخرجه الترمذي برقم: (٢٣٣٠)، وأحمد برقم: (٢٠٥١٨).

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم:(٦٣٥١)، واللفظ له، ومسلم برقم: (١٠/ ٢٦٨٠).

١٨-خزائن الفضائل

وتشتمل على ما يلي : فقه الفضائل

أولًا : فضائل التوحيد .

ثانيًا : فضائل الإيمان .

ثالثًا : فضائل العبادات وتشمل :

١- فضائل الوضوء .

٢- فضائل الآذان .

٣- فضائل الصلاة .

٤- فضائل الزكاة .

٥- فضائل الصيام .

٦- فضائل الحج والعمرة .

٧- فضائل الجهاد .

٨- فضائل الذكر .

٩- فضائل الدعاء .

رابعًا : فضائل المعاملات .

خامسًا : فضائل المعاشرات .

سادسًا : فضائل الأخلاق .

سابعًا : فضائل القرآن الكريم .

ثامنًا : فضائل النبي ﷺ.

تاسعًا : فضائل أصحاب النبي ﷺ وغير ذلك من الفضائل .

موسوعة خزائن العلوم الإسلامية

١٨ - خزائن الفضـــــائل

القسم الأول

وتشتمل على ما يلي :

١ - الخزانة الأولى

٢ - الخزانة الثانية

٣- الخزانة الثالثة

٤ - الخزانة الرابعة

٥ - الخزانة الخامسة

٦ - الخزانة السادسة

٧- الخزانة السابعة

٨- الخزانة الثامنة

٩- الخزانة التاسعة

١٠ الخزانة العاشرة

١٨ - خزائن الفضائل

القسم الأول

١ - الخزانة الأولى

فقه الفضائل :

أوردنا في هذه الخزائن بعض الآيات الكريمة ، والأحاديث الصحيحة الواردة في فضائل الأعمال التي تُقرب إلى الله ، وتكون مع الإيمان سببًا للرغبة في العمل الصالح ، وإحسانه ، والحرص عليه ، والإكثار منه ، والتنافس فيه ، والتلذذ به ، والمسارعة إليه .

فذكر كل عمل مع بيان فضيلته يُولد في النفس الرغبة والشوق للعمل الصالح ، ويبعث النشاط في الروح والبدن ، ويطرد العجز والكسل ، ويحرك الجوارح للطاعة وأنواع العبادة.

قال الله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [البقرة:٢٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾[النحل:٩٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [الانفطار:١٣-١٤] .

فضل الإخلاص، وحسن النية :

قال الله تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾ [البينة:٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [فصلت:٣٠-٣٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف: ١١٠] .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ وَإِنَّمَا لِامْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى الله وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى الله وَرَسُولِهِ وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْه » . متفق عليه[1] .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ » . أخرجه مسلم[2] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (١)، واللفظ له، ومسلم برقم: (١٥٥/ ١٩٠٧) .

(٢) أخرجه مسلم برقم: (٤٨/ ٢٠٨٧).

فضل من هم بحسنة :

عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى : « إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً ، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ عز وجل عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إلى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ ، وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً ، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا ، كَتَبَهَا اللهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً » . متفق عليه[1] .

فلله الحمد والمنة على هذا العطاء الجزيل من رب عظيم ذو الرحمة الواسعة ، والنعمة السابغة: ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الجاثية:٣٦-٣٧].

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٦٤٩١)، واللفظ له، و مسلم برقم: (٢٠٧ / ١٣١).

فضائل التوحيد :

قال الله تعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾[الأنبياء:٨٣-٨٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾[الأنبياء:٨٧-٨٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾[غافر:٦٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[الأنفال: ٢ - ٤].

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾[فصلت:٣٠-٣٢] .

وعن عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهّ ﷺ: « مَنْ قَالَ : أَشْهَدُ أَنَّ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ الله وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَأَنَّ عِيسَىٰ عَبْدُ اللهّ وَابْنُ أَمَتِهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ، وَأَنَّ الجَنَّةَ حَقٌّ ، وَأَنَّ النَّارَ حَقٌّ ، أَدْخَلَهُ الله على مَا كَان مِن العملِ » . متفق عليه[1] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ ، قال رسول الله ﷺ: « قَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لَا يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الحَدِيثِ أَحَدٌ أَوْلَى مِنْكَ ؛ لِمَا أَرَى مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الحَدِيثِ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مخْلِصًا مِنْ نَفْسِهِ » . أخرجه البخاري[2] .

وغير ذلك من الآيات والأحاديث في فضائل التوحيد .

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٣٤٣٥)، واللفظ له، ومسلم برقم: (٤٦/ ٢٨).

(٢) أخرجه البخاري برقم: (٦٥٧٠).

فضائل الإيمان :

قال الله تعالى:﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾[الحديد:٢١] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾[التوبة:٧٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ﴿٢٩﴾ ﴾الرعد:٢٨ -٢٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ﴿١٠٨﴾ ﴾[الكهف:١٠٧-١٠٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾[النحل:٩٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٤﴾ ﴾[الأنفال:٢- ٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[الأنعام:٨٢].

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[السجدة:١٥-١٧] .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهَّ ﷺ: سُئِلَ أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ ؟ فَقَالَ : إِيمَانٌ بِاللهَّ وَرَسُولِهِ، قِيلَ ثُمَّ مَاذَا، قَالَ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهَّ قِيلَ ثُمَّ مَاذَا قَالَ حَجٌّ مَبْرُورٌ » . متفق عليه[1] .

وعن عثمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: « مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُّ دَخَلَ الْجَنَّةَ » . أخرجه مسلم[2] .

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٢٦)، واللفظ له، ومسلم برقم: (١٣٥/ ٨٣).
(٢) أخرجه مسلم برقم: (٤٣/ ٢٦).

٢- الخزانة الثانية

فضائل العبادات :

أولًا : فضائل الوضوء .

فضل الوضوء

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ [البقرة:٢٢٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [المائدة:٦] .

وعن عن عثمانَ بن عفَّان ﷺ قال : قال رسولُ الله ﷺ:« مَن توضَّأ فأحسن الوضوءَ ، خرجتْ خطاياه من جسده، حتَّى تخرُجَ من تحت أظفاره » . أخرجه مسلم[١] .

فضل التيمن بالوضوء وغيره :

عنْ عائشةَ رضي الله عنها قَالت : « كانَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ يُعْجِبُهُ التَّيَمُّنُ في تَنَعُّلِهِ ، وَتَرَجُّلِهِ ، وَطُهُورِهِ ، وَفي شَأْنِهِ كُلِّهِ ».متفق عليه[٢] .

فضل الصلاة بعد الوضوء :

عن عُقبةَ بن عامر ﷺأنه سمع رسولَ الله ﷺ يقول : « ما من مسلمٍ يتوضَّأ فيُحسن وضوءَه ، ثم يقوم فيصلِّي ركعتين ، مقبلٌ عليهما بقلبه ووجهه ، إلَّا وجبتْ له الجنَّة » . أخرجه مسلم[٣] .

---

(١)أخرجه مسلم برقم: (٣٣/ ٢٤٥).

(٢) **متفق عليه**، أخرجه البخاري برقم(١٦٨)، ومسلم برقم(٦٧/ ٢٦٨).

(٣) أخرجه مسلم برقم: (١٧/ ٢٣٤).

فضل الذكر بعد الوضوء :

عن عُمَر ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولَ اللهَّ ﷺ: « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُبْلِغُ أَوْ فَيُسْبِغُ الْوَضُوءَ ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُّ وَأَنَّ محُمَّدًا عَبْدُ اللهَّ وَرَسُولُهُ إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاء» أخرجه مسلم(١) .

ثانيًا : فضائل الآذان .

عن عبد الله بن عبد الرحمن أَنَّ أَبَا سَعِيدٍ الخُدْرِيَّ ، قَالَ لَهُ : إِنِّي أَرَاكَ تحُبُّ الغَنَمَ وَالبَادِيَةَ ، فَإِذَا كُنْتَ فِي غَنَمِكَ ، أَوْ بَادِيَتِكَ ، فَأَذَّنْتَ بِالصَّلاَةِ فَارْفَعْ صَوْتَكَ بِالنِّدَاءِ ، فَإِنَّهُ لاَ يَسْمَعُ مَدَى صَوْتِ المُؤَذِّنِ ، جِنٌّ وَلاَ إِنْسٌ وَلاَ شَيْءٌ ، إِلَّا شَهِدَ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ » . أخرجه البخاري(٢) .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهَّ ﷺ قَالَ : « لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الْأَوَّلِ ثُمَّ لمَْ يجَِدُوا إِلَّا أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لَاسْتَهَمُوا » . متفقٌ عليه(٣) .

وعن معاوية رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « المؤَذنون أطَولِ الناس أعناقًا يوم القيامة » . أخرجه مسلم(٤) .

فضل إجابة المؤذن :

عن عبد الله ابن عمرو ﷺ أنه سمع النبي ﷺ يقول : « إذا سمعتُمُ المؤذِّنَ فقولوا مثلَ ما يقولُ ثمَّ صلُّوا عليَّ فإنَّهُ مَن صلَّى عليَّ صلاةً صلَّى اللهُّ عليه بِها عشْرًا ثمَّ سلوا اللهَّ ليَ الوسيلَةَ فإنَّها منزِلةٌ في الجنَّةِ لا تنبغي إلَّا لعبدٍ من

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (١٧/ ٢٣٤).

(٢) أخرجه البخاري برقم: (٣١٢٢).

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٦١٥)، واللفظ له، ومسلم برقم: (٤٣٧).

(٤) أخرجه مسلم برقم: (١٤) .

عبادِ اللهَّ وأرجو أن أكونَ أنا هو فمن سأل ليَ الوسيلةَ حلَّتْ لهُ الشَّفَاعةُ » .
أخرجه مسلم[1] .

وعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللهَّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:« مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ المُؤَذِّنَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُّ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ رَضِيتُ بِاللهَّ رَبًّا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ » .
أخرجه مسلم[2] .

وعَنْ جابر بن عبد الله ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ: « مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ : اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ وَالصَّلاةِ الْقَائِمَةِ ، آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ ، إِلا حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . أخرجه البخاري[3] .

ثالثاً: فضائل الصلاة :

فضل المشي إلى الصلاة ، وصلاة الجماعة في المسجد :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عن الرَسُولَ اللهَّ ﷺ قَال: « صَلاَةُ الجَمِيعِ تَزِيدُ عَلَى صَلاَتِهِ فِي بَيْتِهِ، وَصَلاَتِهِ فِي سُوقِهِ، خَمْسًا وَعِشْرِينَ دَرَجَةً، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ، وَأَتَى المَسْجِدَ، لاَ يُرِيدُ إِلَّا الصَّلاَةَ، لَمْ يَخْطُ خَطْوَةً إِلَّا رَفَعَهُ اللهُّ بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْهُ خَطِيئَةً، حَتَّى يَدْخُلَ المَسْجِدَ، وَإِذَا دَخَلَ المَسْجِدَ، كَانَ فِي صَلاَةٍ مَا كَانَتْ تَحْبِسُهُ، وَتُصَلِّي- يَعْنِي عَلَيْهِ المَلاَئِكَةُ- مَا دَامَ فِي مَجْلِسِهِ الَّذِي يُصَلِّي فِيهِ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ، مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ». متفقٌ عليه[4].

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (١١).
(٢) أخرجه مسلم برقم: (١٣/ ٣٨٦).
(٣) أخرجه البخاري برقم: (٦١٤).
(٤)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٤٧٧)، واللفظ له، ومسلم برقم: (٢٧٢/ ٦٤٩).

وعَنْ عبدِ اللهّ بْن عُمَر رضي الله عنه أنَّ رَسُولَ اللهّ ﷺ قال : « صلاةُ الجَمَاعَةِ أَفْضَلُ من صَلاَةِ الفَذِّ بِسَبْعٍ وعِشرين دَرَجَة » . متفق عليه(١) .

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ غَدَا إِلَى المَسْجِدِ وَرَاحَ أَعَدَّ الله لَهُ نُزُلَهُ مِنَ الجَنَّةِ كُلَّمَا غَدَا أَوْ رَاحَ » . متفق عليه(٢) .

فضل إتيان الصلاة بوقار وسكينة :

عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: « إِذَا ثُوِّبَ لِلصَّلَاةِ فَلَا تَأْتُوهَا وَأَنْتُمْ تَسْعَوْنَ، وَأْتُوهَا وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا كَانَ يَعْمَدُ إِلَى الصَّلَاةِ ، فَهُوَ فِي صَلَاةٍ » . متفقٌ عليه(٣) .

فضل التأمين :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهَّ ﷺ قَالَ : « إِذَا قَالَ أحدكم آمِينَ وقالت الملائكة في السماء آمين، ووافقت إحداهما الآخري آمين غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » . متفقٌ عليه(٤) .

فضل الصلاة على وقتها :

عَنْ عَبْدِ اللهَّ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللهَّ ؟ قَالَ : « الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا قَالَ : ثُمَّ أَيٌّ قَالَ : بِرُّ الْوَالِدَيْنِ قَالَ : ثُمَّ أَيٌّ قَالَ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهَّ قَالَ حَدَّثَنِي بِهِنَّ وَلَوْ اسْتَزَدْتُهُ لَزَادَنِي». متفق عليه(٥).

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٦٤٥)، ومسلم برقم:(٢٤٩/ ٦٥٠) واللفظ له.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٦٦٢)، ومسلم برقم: (٢٨٥/ ٦٦٩)واللفظ له.

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٧٨١)، ومسلم برقم: (١٥٢/ ٦٠٢) واللفظ له .

(٤) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٧٨١)، واللفظ له، ومسلم برقم: (٧٤/ ٤١٠).

(٥) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٥٩٧٠)، واللفظ له، ومسلم برقم: (١٣٨/ ٨٥).

فضل صلاة الفجر والعصر :

عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِي ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ » . متفق عليه[1] .

والبردان : الفجر والعصر .

وعن أَبِي بَصْرَةَ الغفاري ﷺ قال: صلى بِنَا رسول اللهِ ﷺ في وَادٍ من أَوْدِيَتِهِمْ يُقَالُ له : المُخَمَّصُ صَلاَةَ الْعَصْرِ، فقال: « إن هذه الصَّلاَةَ صَلاَةَ الْعَصْرِ عُرِضَتْ على الَّذِينَ قَبْلِكُمْ فَضَيَّعُوهَا ، ألا وَمَنْ صَلاَّهَا ضُعِّفَ له أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ » . أخرجه مسلم[2] .

فصل صلاة العشاء والصبح :

عن عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: « مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ وَمَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا صَلَّى اللَّيْلَ كُلَّهُ » . أخرجه مسلم[3] .

فضل انتظار الصلاة بعد الصلاة :

عَنْ أبي هريرة ﷺ أَنّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « أَلا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا ، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ ؟ " ، قَالَوا : بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ : إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ ، وَانْتِظَارُ الصَّلاةِ بَعْدَ الصَّلاةِ ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ » . أخرجه مسلم[4] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٥٤٨)، ومسلم برقم: (٢١٥/ ٦٣٥)واللفظ له.

(٢) أخرجه مسلم برقم: (٢١٥).

(٣) أخرجه مسلم برقم: (٢٦٠/ ٦٥٦).

(٤) أخرجه مسلم برقم: (٤١/ ٢٥١).

فضل الجلوس في المصلى بعد صلاة الصبح :

عَنْ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ ﷺ قَالَ : قُلْتُ لِجَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ: أَكُنْتَ تجَالِسُ رَسُولَ اللهَّ ﷺ؟ قَالَ : نَعَمْ كَثِيرًا ، كَانَ لَا يَقُومُ مِنْ مُصَلَّاهُ الَّذِي يُصَلِّي فِيهِ الصُّبْحَ - أَوْ الْغَدَاةَ - حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ ، فَإِذَا طَلَعَتْ الشَّمْسُ قَامَ ، وَكَانُوا يَتَحَدَّثُونَ ، فَيَأْخُذُونَ فِي أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ ، فَيَضْحَكُونَ وَيَتَبَسَّمُ. أخرجه مسلم[1] .

فضل يوم الجمعة :

وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ: « خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة » . أخرجه مسلم[2] .

فضل من اغتسل واستمع لخطبة الجمعة وصلى :

عَنْ أبي هريرة ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: مَنِ اغْتَسَلَ ثُمَّ أَتَى الْجُمُعَةَ فَصَلَّى مَا قُدِّرَ لَهُ ، ثُمَّ أَنْصَتَ حَتَّى يَفْرُغَ مِنْ خُطْبَتِهِ ، ثُمَّ يُصَلِّي مَعَهُ غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الْأُخْرَى ، وَفَضْلُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ . أخرجه مسلم[3] .

فضل الساعة التي في يوم الجمعة وهي بعد العصر :

عَنْ أبي هريرة ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنه ذكر يوم الجمعة فقَالَ : « فِيهِ سَاعَةٌ ، لاَ يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ ، وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي ، يَسْأَلُ اللهَّ تَعَالَى شَيْئًا ، إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ وَأَشَارَ بِيَدِهِ يُقَلِّلُهَا» . متفقٌ عليه[4] .

---

(١) أخرجه مسلم برقم:(٢٨٦/ ٦٧٠).

(٢) أخرجه مسلم برقم: (١٨/ ٨٥٤).

(٣) أخرجه مسلم برقم: (٢٦/ ٨٥٧).

(٤) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٩٣٥)، ومسلم برقم: (١٣/ ٨٥٢) واللفظ له.

فضل قيام الليل :

قال الله تعالى يصف المؤمنين : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[السجدة:١٥-١٧] .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ: « أَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ رَمَضَانَ شَهْرُ اللهَّ المُحَرَّمُ وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل » . أخرجه مسلم[١] .

فضل الوتر أخر الليل :

عن جابر ﷺقال : قال رسول الله ﷺ: « مَنْ خافَ ألا يقومَ آخرَ الليل فليُوترْ أوله ، ومنْ طَمع أنْ يقوم آخره ، فليوترْ آخرَ الليل ، فإنّ صلاةَ آخرِ الليل مشهودةٌ ، وذلك أفضل » . أخرجه مسلم[٢] .

فضل الدعاء والصلاة آخر الليل :

عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال : « ينزل رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ يَقُولُ : مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ » . متفقٌ عليه[٣] .

فضل الدعاء في الليل :

عَنْ جابر ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ: « إِنَّ فِي اللَّيْلِ لَسَاعَةً لا يُوَافِقُهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللهَّ عز وجل فِيهَا خَيْرًا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ إِلا أَعْطَاهُ ، وَذَلِكَ كُلَّ لَيْلَةٍ » . أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ[١] .

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٢٠٢/ ١١٦٣) .

(٢) أخرجه مسلم برقم: (١٦٢/ ٧٥٥).

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٧٤٩٤)، ومسلم برقم: (٢/)١٧٥واللفظ له.

فضل السنن الراتبة :

عن أم حبيبة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أنها قالت : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يُصَلِّي للهَّ كُلَّ يَوْمٍ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً تَطَوُّعًا غَيْرَ فَرِيضَةٍ ، إِلَّا بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ قالَت أم حبيبة : فما برحت أصليهن بعد » . أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ[٢] .

وعن عائشةَ رضي الله عنها أنَّ النبيَّ ﷺ قال : « ركعتَا الفجرِ خيرٌ من الدُّنيا وما فيها » . أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ[٣] .

فضل صلاة الضحى وأفضل أوقاتها :

عن أبي ذر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ ، وَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ ، وَتَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ ، وَتَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ ، وَتَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ ، وَأَمْرٌ بِالمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ ، وَنَهْيٌ عَنِ المُنْكَرِ صَدَقَةٌ ، وَيُجْزِئُ أَحَدَكُمْ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى» أخرجه مسلم.[٤]

وعن زيد بن أرْقم ﷺ قَال: خرجَ رسولُ الله ﷺ على أهل قُباء وهم يصلون، فقال:« صلاة الأَوَّابين إذا رَمِضَتِ الْفِصَالُ ». أخرجه مسلم[٥] .

فضل كثرة السجود :

عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ كَعْبٍ الْأَسْلَمِيِّ ﷺ قَالَ: كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ اللهَّ ﷺ فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ ، فَقَالَ لِي: « سَلْ ، فَقُلْتُ : أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ ،

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٣٥).

(٢) أخرجه مسلم برقم: (١٠٣/ ٧٢٨).

(٣) أخرجه مسلم برقم: (٩٦/ ٧٢٥).

(٤) أخرجه مسلم برقم: (٨٤/ ٧٢٠).

(٥) أخرجه مسلم برقم: (١٤٤/ ٧٤٨) .

قَالَ : أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ ، قُلْتُ : هُوَ ذَاكَ ، قَالَ : فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ » . أخرجه مسلم[1] .

وعن ثُوبان ﷺ مَوْلى رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: « عَلَيْكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ ، فَإِنَّكَ لَنْ تَسْجُدَ لله سَجْدَةً إِلَّا رَفَعَكَ اللهُ بِهَا دَرَجَةً ، وَحَطَّ عَنْكَ بِهَا خَطِيئَةً » . أخرجه مسلم[2] .

فضل صلاة النوافل في البيوت :

عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ ﷺ قَالَ : رَسُولُ اللهِ ﷺ: « مَا زَالَ بِكُمْ صَنِيعُكُمْ ، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُكْتَبُ عَلَيْكُمْ ، فَعَلَيْكُمْ بِالصَّلَاةِ فِي بُيُوتِكُمْ ، فَإِنَّ خَيْرَ صَلَاةِ الْمَرْءِ فِي بَيْتِهِ ، إِلَّا الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ » . متفق عليه[3] .

فضل صلاة الفرائض والنوافل :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنَّ اللهَ قَالَ : « مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَ » . أخرجه البخاري[4] .

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٤٨٩).

(٢) أخرجه مسلم برقم: (٢٢٥ / ٤٨٨).

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٧٣١)، ومسلم برقم: (٢١٣/ ٧٨١) واللفظ له.

(٤) أخرجه البخاري برقم: (٦٥٠٢).

فضل الأذكار بعد السلام من الصلاة المكتوبة :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ ﷺ انه قال: « مَنْ سَبَّحَ اللهَّ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ ، وَحمِدَ اللهَّ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ ، وَكَبَّرَ اللهَّ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ ، فَتِلْكَ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ ، وَقَالَ تمَامَ المِائَةِ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُّ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، غُفِرَتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ » . أخرجه مسلم(١) .

فضل الصلاة على الجنازة وإتباعها :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهَّ ﷺ قَالَ : « مَنْ اتَّبَعَ جَنَازَةَ مُسْلِمٍ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا وَكَانَ مَعَهُ حَتَّى يُصَلَّى عَلَيْهَا وَيَفْرُغَ مِنْ دَفْنِهَا فَإِنَّه يَرْجِعُ مِنْ الْأَجْرِ بِقِيرَاطَيْنِ كُلُّ قِيرَاطٍ مِثْلُ أُحُدٍ ، وَمَنْ صَلَّى عَلَيْهَا ثُمَّ رَجَعَ قَبْلَ أَنْ تُدْفَنَ فَإِنَّهُ يَرْجِعُ بِقِيرَاطٍ » . متفقٌ عليه(٢) .

فضل من كَثُر المصلون عليه :

عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ: « مَا مِنْ مَيِّتٍ يُصَلِّي عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ مِنَ المُسْلِمِينَ، يَبْلُغُونَ أَنْ يَكُونُوا مِائَةً ، فَيَشْفَعُونَ لَهُ، إِلَّا شُفِّعُوا فِيهِ » . أخرجه مسلم(٣) .

وعَنْ عَبْدِ اللهَّ بْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهَّ ﷺ يَقُولُ «مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا لَا يُشْرِكُونَ بِاللهَّ شَيْئًا إِلاَّ شَفَّعَهُمُ اللهُّ فِيهِ » . أخرجه مُسْلِمٌ(٤) .

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (١٤٦/ ٥٩٧) .

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٤٧)، واللفظ له ومسلم برقم: (٥٢/ ٩٤٥).

(٣) أخرجه مسلم برقم: (٩٤٧).

(٤) أخرجه مسلم برقم: (٥٩/ ٩٤٨).

فضل من مات صفيه واحتسبه عند الله عز وجل :

عن أبي هريرة ﷺ: أنَّ رسولَ الله ﷺ، قَالَ : « يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : مَا لعَبدِي المُؤْمِنِ عِنْدِي جَزَاءٌ إِذَا قَبَضْتُ صَفِيَّهُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ثُمَّ احْتَسَبَهُ إلاَّ الجَنَّةَ » . أخرجه البخاري .[١]

فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة :

عَنْ أبي هريرة أَنَّ رَسُولَ اللهَّ ﷺ قَالَ : « صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ إِلَّا المَسْجِدَ الحَرَامَ » . متفق عليه[٢] .

عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهَّ ﷺ قَالَ : « صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ إِلَّا المَسْجِدَ الحَرَامَ ، وَصَلَاةٌ فِي المَسْجِدِ الحَرَامِ أَفْضَلُ مِنْ مِائَةِ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ » . أخرجه أحمد وابن ماجة بسند صحيح[٣] .

فضل الصلاة في بيت المقدس :

عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ، قال:« تَذَاكَرْنَا وَنَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهَّ ﷺ، أَيُّهُمَا أَفْضَلُ: أَمَسْجِدُ رَسُولِ اللهَّ ﷺ أَمْ بَيْتُ المَقْدِسِ ؟، فَقَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ: صَلاةٌ فِي مَسْجِدِي أَفْضَلُ مِنْ أَرْبَعِ صَلَوَاتٍ فِيهِ وَلَنِعْمَ المُصَلَّى». أخرجه الحاكم بسند صحيح[٤] .

فضل الصلاة في مسجد قباء :

عن سهل بن حنيف ﷺ قال رَسُولَ اللهَّ ﷺ: «مَنْ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِهِ، ثُمَّ أَتَى مَسْجِدَ قُبَاءَ، فَصَلَّى فِيهِ صَلاةً كَانَ لَهُ كَأَجْرِ عُمْرَةٍ». أخرجه النسائي وابن ماجة بسند صحيح[٥].

---

(١) أخرجه البخاري برقم: (٦٠٦٠).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (١١٩٠)، واللفظ له، ومسلم برقم: (١٣٩٤).

(٣) صحيح/ أخرجه ابن ماجة برقم: (١٤٠٦)، واحمد برقم: (١٤٧٣٥) .

(٤) صحيح/ أخرجه الحاكم برقم: (٨٥٥٣).

(٥) صحيح/ أخرجه ابن ماجة برقم: (١٤١٢)، والنسائي برقم: (٦٩٩).

٣- الخزانة الثالثة

فضائل العبادات :

٤- فضائل الزكاة :

فضائل الزكاة:

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ ﴾ [البقرة:٢٧٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الروم:٣٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ﴾ البقرة: [البقرة:٢٧٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [التوبة:١٠٣] .

وعن أبي هريرة ﷺ أن عربياً قال: يَا رَسُولَ اللهَّ ، دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمِلْتُهُ دَخَلْتُ الجَنَّةَ، قَالَ: « تَعْبُدُ اللهَّ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ المَكْتُوبَةَ ، وَتُؤَدِّي الزَّكَاةَ المَفْرُوضَةَ ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ » قَالَ: وَالَّذِي نَفْسُ محُمَّدٍ بِيَدِهِ ،

لَا أَزِيدُ عَلَى هَذَا شَيْئًا أَبَدًا ، وَلَا أَنْقُصُ مِنْهُ ، فَلَمَّا وَلَّى ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا » . متفق عليه[1] .

فضل الصدقة من الكسب الطيب :

قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ ﴾[البقرة:٢٦٧ - ٢٦٨]

وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ: « مَن تصدَّقَ بعَدلِ تمَرةٍ مِنْ كَسبٍ طيِّبٍ ، ولا يَقبَلُ الله إلا الطيِّبَ ، وإنَّ الله يتقبَّلُها بيمينِه ، ثم يُرَبِّيها لصاحِبِه، كما يرَبِّي أَحدكُم فَلُوَّهُ، حتى تكُونَ مثلَ الجَبَلِ » . متفق عليه[2] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (١٣٩٧)، واللفظ له، ومسلم برقم: (١٤/ ١٣).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٧٤٣٠)، واللفظ له، ومسلم برقم: (٦٣/ ١٠١٤).

٥- فضائل الصيام:

فضل شهر رمضان :

قال الله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [البقرة:١٨٥] .

وعن أبي هُرَيْرَة ﷺ قَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ: « إِذَا دَخَلَ شَهْرُ رَمَضَانَ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ ، وَسُلْسِلَتْ الشَّيَاطِينُ ، وفي رواية : فُتِّحَتْ أَبْوَابُ جنة » . متفق عليه[١] .

فضل الصيام :

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [البقرة:١٨٣] .

وعن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قال : « قَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ قَالَ اللهُّ : كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصِّيَامَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ وَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلَا يَرْفُثْ وَلَا يَصْخَبْ فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهَّ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ » . متفق عليه[٢] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٣٢٧٧) ، واللفظ له، ومسلم برقم: (٢/ ١٠٧٩).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (١٩٠٤)، واللفظ له، ومسلم برقم: (١١٥١).

فضل أهل الصيام :

قَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ: « إنَّ في الجنَّةِ ثمانيةَ أَبوابٍ ، فيها بابٌ يقال لَه : الرَّيَّانُ ، لا يدخُلُه إلا الصَّائمونَ » . متفق عليه[١] .

فضل من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا :

عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ: « مَنْ صامَ شهر رمضان إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » . متفق عليه[٢] .

فضل من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا :

عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ: « مَنْ قَامَ شهر رمضان إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » . متفق عليه[٣] .

فضل من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا :

عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ: « مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » . متفق عليه[٤] .

فضل من صيام رمضان وأتبعه ستةً من شوال :

عن أبي أيوب الأنصاري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ صَامَ رَمَضَانَ ، ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ ، فَذَلِكَ صِيَامُ الدَّهْرِ » . رواه مسلم . [٥]

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٣٢٥٧)، واللفظ له، ومسلم برقم: (١٦٦/ ١١٥٢).
(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٣٨)، ومسلم برقم: (١٧٥/ ٧٦٠) واللفظ له.
(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ١٩٠١، ومسلم برقم: ١٧٤/ ٧٥٩ واللفظ له.
(٤) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (١٨٠٢)، واللفظ له، ومسلم برقم: (١٧٥/ ٧٦٠).
(٥)أخرجه مسلم : (٢٠٤/ ١١٦٤).

فضل صيام ثلاثة أيام من كل شهر :

عَنْ عَبْدِ اللهَّ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما قَالَ: أُخْبِرَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ أَنِّي أَقُولُ : وَاَللهَّ لأَصُو مَنَّ النَّهَارَ، وَلأَقُومَنَّ اللَّيْلَ مَا عِشْتُ ، فَقَالَ له رَسُولُ اللهَّ ﷺ: « أنت الذي تقول ذلك ؟ فَقُلْتُ لَهُ : قَدْ قُلْتُهُ ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ، فَقَالَ: فَإِنَّكَ لا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ، فَصُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ، وَصُمْ مِنْ الشَّهْرِ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ، فَإِنَّ الحَسَنَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَذَلِكَ مِثْلُ صِيَامِ الدَّهْر » . متفق عليه[1] .

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٣٤١٨)، ومسلم برقم: (١٨١/ ١١٥٩)، واللفظ له.

٦- فضائل الحج والعمرة:

فضائل عشر ذي الحجة :

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « مَا الْعَمَلُ فِي أَيَّامٍ أَفْضَلَ مِنْهَا فِي هَذِهِ . قَالُوا : وَلَا الجِهَادُ ، قَالَ : وَلَا الجِهَادُ ، إِلَا رَجُلٌ خَرَجَ يخَاطِرُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ بِشَيْءٍ » . أخرجه البخاري(١) .

فضل الحج المبرور :

عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ: « مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ » . متفق عليه(٢) .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهَّ ﷺ: سُئِلَ أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ فَقَالَ: « إِيمَانٌ بِاللهَّ وَرَسُولِهِ، قِيلَ ثُمَّ مَاذَا قَالَ الَجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهَّ، قِيلَ ثُمَّ مَاذَا قَالَ حَجٌّ مَبْرُورٌ » . متفق عليه(٣) .

أفضل جهاد النساء :

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهَّ، نَرَى الْجِهَادَ أَفْضَلَ الْعَمَلِ، أَفَلَا نُجَاهِدُ؟، قَالَ: «لَا، لَكِنَّ أَفْضَلَ الْجِهَادِ حَجٌّ مَبْرُورٌ ». متفق عليه(٤) .

فضل العمرة :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال : « العُمْرَةُ إِلَى العُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لمِا بَيْنَهُمَا ، وَالحَجُّ المَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الجَنَّةَ » . مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١) .

---

(١) أخرجه البخاري برقم: (٩٦٩).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (١٥٢١)، واللفظ له، ومسلم برقم: (١٣٥٠).

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٢٦)، واللفظ له، ومسلم برقم:(١٣٥/ ٨٣).

(٤) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (١٥٢٠)، ومسلم برقم: (١٣٥/ ٨٣).

٧- فضائل الجهاد في سبيل الله :

فضل الجهاد في سبيل الله :

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة:١١١].

فضل الغدوة والروحة في سبيل الله :

عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال : « غَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ روحة خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا » . متفق عليه(٢) .

وعن أبي أيوب الأنصاري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : « غَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ رَوْحَةٌ، خَيْرٌ مِمّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشّمْسُ وَغَرَبَتْ» . أخرجه مسلم(٣).

فضل من خرج في سبيل الله ثم مات أو قُتل :

قال الله تعالى : ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ [النساء:١٠٠] .

وقال الله تعالى : ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [آل عمران:١٥٧-١٥٨] .

وقال الله تعالى : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (١٧٧٣)، ومسلم برقم: (٤٣٧/ ١٣٤٩) واللفظ له.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٦٥٦٧)، ومسلم برقم: (١١٥/ ١٨٨٣)، واللفظ له.

(٣) أخرجه مسلم برقم: (١١٥/ ١٨٨٣).

خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [آل عمران:١٦٩ -١٧١] .

وقال الله تعالى : ﴿ ۞ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [النساء:٧٤] .

وعن أبي قتادة ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال رجل: أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللهَّ أَتُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ ؟ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ: « نَعَمْ ، وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ، إِلَّا الدَّيْنَ فَإِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَام قَالَ لِي ذَلِك». أخرجه مسلم(١) .

فضل من أراد الجهاد وحبسه مرض أو عذر :

عن أنسٍ ﷺ أن النَّبِيِّ ﷺ كان في غزاة فقال : « إنَّ أقْوامًا خَلْفَنَا بالمُدِينَةِ ما سَلَكْنَا شِعْبًا وَلاَ وَادِيًا ، إلاّ وَهُمْ مَعَنَا فيه ؛ حَبَسَهُمُ العُذْرُ » . أخرجه البخاري(٢) .

فضل من جهز غازيًا في سبيل الله :

عن زيد بن خالد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « من جهز غازيًا في سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازيًا في سبيل الله بخير فقد غزا». متفق عليه(٣).

فضل من بذل نفسه وماله في سبيل الله :

قال الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (١١٧/ ١٨٨٥).

(٢) أخرجه البخاري برقم: (٤١٦١) .

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٢٦٨٨) ، ومسلم برقم: (١٣٥/ ١٨٩٥).

مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢١﴾ وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾[التوبة:١٢٠-١٢١].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحجرات:١٥].

وعن أبي عبس ﷺأنه سمع رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: « مَنِ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ الله حَرَّمَهُمَا اللهُ عَلَى النَّارِ » . أخرجه البخاري[1] .

فضل النفقة في سبيل الله :

قال الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ [البقرة:٢٦١].

وعن أبي مسعود الأنصاري ﷺ قال: جاء رجلٌ بناقةٍ مخطومةٍ فقال: هذه في سبيلِ الله، فقال رسولُ الله ﷺ: « لكَ بها يومَ القيامةِ سبعُمائةِ ناقةٍ كُلُّها مخطومة » . أخرجه مسلم[2] .

---

(١) أخرجه البخاري برقم: (٨٦٥).

(٢) أخرجه مسلم برقم: (١٨٩٢).

٤- الخزانة الرابعة

٨- فضائل الذكر:

فضل الذكر :

قال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ الرعد:٢٨ -٢٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [البقرة:١٥٢] .

وعَنْ أبي هريرة ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ، وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي ، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي ، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي ملأ ذَكَرْتُهُ فِي ملأ خَيْرٍ مِنْهُمْ ، وَإِنِ اقْتَرَبَ إِلَيَّ شِبْرًا اقْتَرَبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا ، وَإِنِ اقْتَرَبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا اقْتَرَبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا ، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً » . متفقٌ عليه[١] .

وعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « مَثَلُ الذيَ يذْكُر رَبَّهُ وَالَّذِي لا يَذْكُرُ رَبَّهُ ، مَثَلُ الحَيِّ وَالميِّتِ » . أخرجه البخاري[٢] .

فضل دوام الذكر لله وفي أمور الآخرة :

قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٦٩٧٠)، ومسلم برقم: (٢/ ٢٦٧٥)، واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري برقم: (٦٤٠٧).

وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾

[الأحزاب:٤١-٤٤] .

وعن حنظلة الأسيدي ﷺ، قَالَ: « إِنْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللهَّ ﷺ، قُلْتُ : نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللهَّ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ: وَمَا ذَاكَ ؟ ، قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهَّ نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ فنَسِينَا كَثِيرًا . فَقَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي ، وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً ثَلَاثَ مَرَّاتٍ » . أخرجه مسلم[1] .

(١) أخرجه مسلم برقم:(٢٢/ ٢١٤٤).

٩- فضائل الدعاء :

فضل الدعاء:

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾[البقرة:١٨٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾[غافر:٦٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[السجدة:١٥-١٧] .

وعَنْ أبي هريرة ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ، وَأَنَا مَعَهُ إذا ذَكَرَنِي » . متفقٌ عليه[(١)] .

فضل الدعاء بمغفرة الذنوب والثبات والنصر على الأعداء :

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾[آل عمران:١٤٧-١٤٨] .

وعَنْ طارق بن هشيم ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ وَأَتَاهُ رَجُلٌ ، فَقَالَ : يا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ أَقُولُ حِينَ أَسْأَلُ رَبِّي ؟ قَالَ : « قُلْ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي ، وَارْحَمْنِي، وَعَافِنِي، وَارْزُقْنِي، ويجمع أصابعه إلا الإبهام ، فَإِنَّ هَؤُلاءِ تَجْمَعُ لَكَ دُنْيَاكَ وَآخِرَتَكَ » أخرجه مسلم[(٢)] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٤/ ٣٨٤)، ومسلم برقم: (٤/ ٢٠٦١).

(٢) أخرجه مسلم برقم: (٣٦/ ٢٦٩٧).

٤- فضائل المعاملات :

فضل الدعوة إلى الله :

قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [فصلت:٣٣-٣٥] .

وعن سهل بن سعد ﷺ أن النبي ﷺ قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه يوم خيبر : « انْفُذ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلامِ ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ الله فِيهِ ، فَوَالله لأَنْ يَهْدِيَ الله بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَم » . متفق عليه[١] .

فضل الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر :

قال الله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [آل عمران:١١٠] .

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَان » . أخرجه مسلم[٢] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٣٧٠٢)، ومسلم برقم: (٣٥/ ٢٤٠٧).

(٢) أخرجه مسلم برقم: (٧٨/ ٤٩).

فضل النصيحة :

عن تميم الداري ﷺأن النبي ﷺ قال: « الدِّينُ النَّصِيحَةُ قُلْنَا لمِنْ؟ قَالَ: لله، وَلِكِتَابِه، وَلِرَسُولِهِ، وَلأَئِمَّةِ المسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِ ».أخرجه مسلم(١).

فضل التواصي بالحق :

قال الله تعالى : ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣ ﴾[العصر:١-٣].

وقال الله تعالى: ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ۝٧١ ﴾[التوبة: ٧١] .

فضل مَنْ سَنَّ في الإسلام سنة حسنة :

عن جرير بن عبد الله ﷺ قال قال رسول الله ﷺ : « مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا ، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ » . أخرجه مسلم .(٢)

فضل الإصلاح بين الناس :

قال الله تعالى: ﴿ لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ۝١١٤ ﴾[النساء:١١٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝١٠ ﴾[الحجرات:١٠] .

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٩٥/ ٥٥).

(٢) أخرجه مسلم برقم: (٦٩/ ١٠١٧).

وعن أبي الدرداء ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ: « أَلا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلاةِ وَالصَّدَقَةِ ؟ قَالُوا بَلَى، قَال : إِصْلاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ ، وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ الحَالِقَةُ » . أخرجه أبو داود والترمذي[1] .

فضل التعاون على البر والتقوى :

قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٢﴾ [المائدة:٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ۝٧٤﴾[الأنفال:٧٤].

وعن أبي موسى ﷺ عن النبي ﷺ قال: « إِنَّ المُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا» وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ » . متفق عليه[2] .

فضل مواساة المؤمنين بعضهم بعضًا :

قال الله تعالى : ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ۝٢٩﴾[الفتح:٢٩] .

وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ: « مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ الله عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ القِيَامَة، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِر ،

---

(١) صحيح/ أخرجه الترمذي برقم: (٢٥٠٩) ، وأبو داود برقم: (٤٩١٩).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٤٨١)، واللفظ له، ومسلم برقم: (٦٥/ ٢٥٨٥).

يَسَّرَ الله عَلَيهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا ، سَتَرَهُ الله فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَالله فِي عَوْنِ العَبْدِ مَا كَانَ العَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيْهِ ». أخرجه مسلم(١) .

فضل عيادة المريض :

عن ثوبان ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: « مَنْ عَادَ مَرِيضًا لَمْ يَزَلْ فِي خُرْفَةِ الجَنَّةِ قِيلَ: يَا رَسُولَ الله وَمَا خُرْفَةُ الجَنَّةِ؟ قَالَ: جَنَاهَا» . أخرجه مسلم(٢) .

فضل الصدقة :

قال الله تعالى: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ ﴾[آل عمران:١٣٣-١٣٤].

وقال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٤ ﴾ [البقرة:٢٧٤] .

فضل السماحة في البيع والشراء والاقتضاء :

عن جابر بن عبد الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « رَحِمَ الله رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ ، وَإِذَا اشْتَرَى، وَإِذَا اقْتَضَى » . أخرجه البخاري(٣) .

فضل الجهاد، والهجرة والنصرة، في سبيل الله عز وجل :

قال الله تعالى : ﴿ لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٩٥ دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٩٦ ﴾[النساء:٩٥-٩٦] .

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٣٨/ ٢٦٩٩).

(٢) أخرجه مسلم برقم: (٤/ ١٩٨٩).

(٣) أخرجه البخاري برقم: (٢٠٧٦).

قال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾[الأنفال:٧٤].

وقال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾[التوبة:٢٠-٢٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾[التوبة:١٠٠] .

فضل الزيارة في الله :

عَنْ أبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: أنَّ رَجُلًا زَارَ أخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى ، فَأرْصَدَ الله لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا ، فَلَمَّا أتَى عَلَيْهِ قال : أيْنَ تُرِيدُ ؟ قال : أرِيدُ أخًا لِي فِي هَذِهِ القَرْيَةِ ، قال : هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا ؟ قال : لا ، غَيْرَ أنِّي أحْبَبْتُهُ فِي الله عز وجل ، قال : فَإنِّي رَسُولُ الله إلَيْكَ بِأنَّ الله قَدْ أحَبَّكَ كَمَا أحْبَبْتَهُ فِيهِ » . أخرجه مسلم .[1]

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قَالَ الله تَبارَكَ وَتَعالَى : وَجَبَتْ محَبَّتِي لِلْمُتَحابِّينَ فِيَّ ، وَالمُتَجالِسِينَ فِيَّ ، وَالمُتَزاوِرِينَ فِيَّ ، وَالمُتَباذِلِينَ فِيَّ » . أخرجه مالك وأحمد[2] .

---

(١)أخرجه مسلم برقم: (٣٨/ ٢٥٦٧).

(٢) صحيح/ أخرجه أحمد برقم: (٥/ ٢٣٣)، وأخرجه مالك في الجامع برقم: (١٧٧٩).

٥- الخزانة الخامسة

٥- فضائل المعاشرات :

فضل صلة الرحم :

قال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنفال:٧٤-٧٥] .

وعن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ » . متفق عليه[١] .

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : « إِنَّ الرَّحِمَ شَجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَقَالَ اللهُ : مَنْ وَصَلَكِ وَصَلْتُهُ ، وَمَنْ قَطَعَكِ قَطَعْتُهُ » . متفق عليه[٢] .

وعن عبد الله بن عمرو ﷺ عن النبي ﷺ قال : « لَيْسَ الوَاصِلُ بالمكَافِئِ وَلَكِنِ الوَاصِلُ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا ». أخرجه البخاري .[٣]

فضل بر الوالدين :

قال الله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم:(٥٩٨٦)، واللفظ له، ومسلم برقم: (٢٠/ ٢٥٥٧).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٧٩١٨)، واللفظ له، ومسلم برقم: (١٦/ ٢٥٥٤).

(٣) أخرجه البخاري برقم: (٥٩٩١).

صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾[الإسراء:٢٣ -٢٥] .

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ العَمَلِ أَحَبُّ إِلَى الله ؟ قَال: « الصَّلاةُ عَلَى وَقْتِهَا ، قَال : ثُمَّ أَيٌّ ؟ قَال : بِرُّ الوَالِدَينِ قَالَ : ثُمَّ أَيٌّ ؟ قَالَ : الجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله ». متفق عليه(١) .

فضل حسن صحبة الوالدين :

عن أبي هريرة ﷺ قال : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله مَنْ أَحَقُّ بِحُسْنِ صَحَابَتِي ؟ قَالَ: أُمُّك ، قَالَ : ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ : أُمُّك ، قَالَ : ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ : أُمُّك ، قَالَ ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ ثُمَّ أَبُوكَ ». متفق عليه(٢) .

فضل صلة أصدقاء الوالدين :

عن ابن عمر ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ مِنْ أَبَرِّ البِرِّ صِلَةَ الرَّجُلِ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ بَعْد أَنْ يُوَلِّي » . أخرجه مسلم(٣) .

فضل حسن معاشرة الأولاد وتربيتهم :

عن عائشة رضي الله عنها قالت: جَاءَتْنِي امْرَأَةٌ مَعَهَا ابْنَتَانِ تَسْأَلُنِي فَلَمْ تجِدْ عِنْدِي غَيْرَ تمْرَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَأَعْطَيْتُهَا فَقَسَمَتْهَا بَيْنَ ابْنَتَيْهَا ، ثُمَّ قَامَتْ فَخَرَجَتْ ، فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَحَدَّثْتُهُ فَقَال: « مَنْ يَلِي مِنْ هَذِهِ البَنَاتِ شَيئًا ، فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ » أخرجه مسلم (٤) .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٥٢٧)، ومسلم برقم:(١٣٩/ ٨٥).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٥٩٧١) واللفظ له، ومسلم برقم: (١/ ٢٥٤٨).

(٣) أخرجه مسلم برقم: (١١/ ٢٥٥٢).

(٤) أخرجه مسلم برقم: (١٤٧/ ٢٦٢٩) .

وعن أسامة بن زيد ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يأخذني فَيُقْعِدُني على فَخذه، ويُقعد الحسن على فخذه الآخر ثم يضمهما، ثم يقول: اللَّهُمَّ ارْحَمْهُمَا فَإنِّي أَرْحَمُهُمَا » . أخرجه البخاري .[1]

فضل من يعول يتيمًا :

عن سهل ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ: « أَنَا وَكَافِلُ اليَتِيمِ فِي الجَنَّةِ هَكَذَا وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالوُسْطَى وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا » . متفق عليه[2] .

فضل السعي على الأرملة والمسكين :

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: « السَّاعِي عَلَى الأَرْمَلَةِ وَالمِسْكِينِ كَالمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ الله، أَوِ القَائِمِ اللَّيْلَ الصَّائِمِ النَّهَار» .متفق عليه[3].

فضل تربية البنات :

عن أنس بن مالك ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ: « مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ حَتَّى تَبْلُغَا، جَاءَ يَومَ القِيَامَةِ أَنَا وَهُوَ وَضَمَّ أَصَابِعَهُ » .أخرجه مسلم[4] .

فضل الإحسان إلى الخلق :

قال الله تعالى : ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓاْ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [البقرة:١٩٥] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [النساء:٣٦] .

---

(١) أخرجه البخاري برقم: (٥٦٥٧).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٦٠٠٥)، واللفظ له، ومسلم برقم: (٤٢/ ٢٩٨٣).

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٦٠٠٦)، ومسلم برقم: (٤١/ ٢٩٨٢) واللفظ له.

(٤) أخرجه مسلم برقم: (١٤٩/ ٢٦٣١).

فضل صلة الجار :

عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال : « مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوْصِينِي بِالجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ» متفق عليه(١) .

وعن أبي شريح ﷺ أن النبي ﷺ قال : « وَالله لا يُؤْمِنُ ، وَالله لا يُؤْمِنُ ، وَالله لا يُؤْمِن ، قِيلَ وَمَنْ يَا رَسُولَ الله ؟ قَال : الَّذِي لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَه » . أخرجه البخاري(٢) .

وعن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ قال : « لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يحُبَّ لأَخِيهِ ، أَوْ قَال لجَارِهِ مَا يحُبُّ لِنَفْسِه » . متفق عليه(٣) .

فضل رحمة الناس :

قال الله تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران:١٥٩] .

وقال الله تعالى :﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٣] .

وعن جرير بن عبد الله ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يَرْحَمُ اللهُ مَنْ لا يَرْحَمُ النَّاسَ» متفق عليه(٤) .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٥٦٦٨)، ومسلم برقم: (١٤٠/ ٢٦٢٤)واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري برقم: (٥٦٧٠).

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (١٣)، ومسلم برقم: (٧٠/ ٤٤).

(٤) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٧٣٧٦)، واللفظ له، ومسلم برقم: (٦٦/ ٢٣١٩).

فضل بر الأقارب المشركين إذا لم يحصل منهم أذى للمسلمين :

قال الله تعالى : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾[الممتحنة:٨] .

وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت : « قَدِمَتْ عَليَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ قُلْتُ : إنَّ أُمِّي قَدِمَتْ وَهِيَ رَاغِبَةٌ ، أَفَأَصِلُ أُمِّي ؟ قَالَ : نَعْم ، صِلِي أُمَّك » . متفق عليه[1] .

فضل رحمة المؤمنين والعطف عليهم :

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾[التوبة:٧١] .

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ: « تَرَى المؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ ، وَتَوَادِّهِمْ ، وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الجَسَدِ إذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالحُمَّى » . متفق عليه[2] .

فضل حسن الخلق والعشرة مع النساء والخدم :

قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[التغابن:١٤ -١٦] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٩٧٩)، ومسلم برقم: (٥٠/ ١٠٠٣)، واللفظ له.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٦٠١١)، واللفظ له، ومسلم برقم: (٦٠/ ١٤٦٨).

عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ: « اسْتَوصُوا بِالنِّسَاءِ ، فَإِنَّ المرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلاهُ ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لمَ يَزَلْ أَعْوَجَ ، فَاسْتَوصُوا بِالنِّسَاء خيرًا ».متفق عليه[١] .

وعن أنس رضي الله عنه قال: خَدَمْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ فَمَا قَالَ لِي : أُفٍّ ، وَلا لِمَ صَنَعْتَ ؟ وَلا أَلا صَنَعْتَ. متفق عليه[٢] .

فضل حسن الولاية، وحسن المعاشرة :

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : «كلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ: الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالمرأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْؤُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ » . متفق عليه[٣] .

وعن معقل بن يسار ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ الله رَعِيَّةً ، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ إِلَّا حَرَّمَ الله عَلَيْهِ الجَنَّةَ » . متفق عليه[٤] .

فضل حسن معاشرة المسلم، وقضاء حاجته، وتفريج كربته، وستر زلته :

قال الله تعالى: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٥١٨٦)، واللفظ له، ومسلم برقم: (٦٦/ ٢٥٨٦).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٦٠٣٨)، واللفظ له، ومسلم برقم: (٥١/ ٢٣٠٩).

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٧١٣٨)، ومسلم برقم: (٢٠/ ١٨٢٩)، واللفظ له.

(٤)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٦٧٣٢)، ومسلم برقم: (٢١/ ١٤٢)، واللفظ له.

ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٤].

و عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ لا يَظْلِمُهُ وَلا يُسْلِمُهُ ، مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ الله فِي حَاجَتِهِ ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَومِ القِيَامَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ الله يَوْمَ القِيَامَةِ » . متفق عليه[1] .

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال : بينما نحن في سفر مع النبي ﷺ إذ جاء رجل على راحلة له ، قال : فجعل يصرف بصره يمينًا وشمالًا ، فقال رسول الله ﷺ: « مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لا ظَهْرَ لَهُ ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ قال : فذكر من أصناف المال ما ذكر ، حتى رأينا أنه لا حَقَّ لأحد منا في فضْل » . أخرجه مسلم[2] .

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٢٣١٠)، ومسلم برقم: (٥٨/ ٢٥٨٠)، واللفظ له.
(٢) أخرجه مسلم برقم: (١٨/ ١٧٢٨).

٦- فضائل الأخلاق :

فضل حسن الخلق :

قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [فصلت:٣٤-٣٥] .

وقال الله تعالى مثنيًا على رسوله ﷺ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم:٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [الأعراف:١٩٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران:١٥٩] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٤].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: لَمْ يَكُنْ ﷺ فَاحِشًا وَلَا مُتَفَحِّشًا ، وكان يقول : إنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنُكُمْ أَخْلاقًا ». متفق عليه[1] .

فضل العلم :

قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ [المجادلة: ١١] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٥٦٨٨)، واللفظ له، ومسلم برقم: (٦٨/ ٢٣٢١).

وقال الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾[آل عمران:٧٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ [الزمر:٩].

وعن معاوية ﷺ قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « مَنْ يُرِدِ الله بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ ، وَالله يُعْطِي ، وَلَنْ تَزَالَ هَذِهِ الأُمَّةُ قَائِمَةً عَلَى أَمْرِ الله لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ الله » . متفق عليه[1] .

فضل الصبر :

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾[الزمر:١٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾[العصر:١-٣].

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾[البقرة:١٥٥-١٥٧] .

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ وفيه أن ناسًا من الأنصار: سَأَلُوا رَسُولَ اللهَّ ﷺ فَأَعْطَاهُمْ ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ فَقَالَ مَا

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٣١١٦)، ومسلم برقم: (١٠٠/ ١٠٣٧)، واللفظ له.

يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ : وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ الله ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ » . متفق عليه[1] .

وعن أبي هريرة ﷺأن رسول الله ﷺ قال : « لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ« متفق عليه .[2]

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « إِنَّ الله قَالَ : إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيْبَتَيْهِ فَصَبَرَ عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الجَنَّةَ يُرِيدُ عَيْنَيْهِ » . أخرجه البخاري[3] .

وعَنْ أبي هريرة ﷺ قَال : قَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ: « لا يَزَالُ الْبَلاءُ بِالمُؤْمِنِ وَالمُؤْمِنَةِ فِي جَسَدِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ حَتَّى يَلْقَى اللهَّ وَمَا عَلَيْهِ مِنْ خَطِيئَةٍ ». أخرجه الترمذي[4] .

فضل الصدق :

قال الله تعالى : ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١٩ ﴾[المائدة:١١٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩ ﴾[التوبة:١١٩] .

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (١٤٠٠)، واللفظ له، ومسلم برقم: (١٢٤/ ١٠٥٣).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٥٧٦٣)، ومسلم برقم: (١٠٧/ ٢٦٠٩)، واللفظ له.

(٣) أخرجه البخاري برقم: (٥٦٥٣).

(٤) حسن/ أخرجه الترمذي برقم: (٢٣٩٩).

وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأحزاب:٣٥] .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى البِرِّ، وَإِنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ الله صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالكَذِبَ، فَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ، وَإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ الله كَذَّابًا». متفق عليه(١) .

فضل الاستغفار والتوبة :

قال الله تعالى: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾[نوح:١٠-١٢].

وقال الله تعالى: ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [هود:٥٢] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [النور:٣١] .

وعن أنس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ: « الله أَفْرَحُ بِتَوبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ سَقَطَ عَلَى بَعِيرِهِ وَقَدْ أَضَلَّهُ فِي أَرْضٍ فَلاة » . متفق عليه(٢) .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٦٠٩٤)، ومسلم برقم: (١٠٥/ ٢٦٠٧).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٦٣٠٩)، ومسلم برقم: (١/ ٢٦٧٥).

فضل التقوى :

قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾ الأنفال: ٢٩ [الأنفال:٢٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات: ١٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الحديد:٢٨] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾[آل عمران:١٣٣-١٣٤].

٦- الخزانة السادسة

٦- فضائلُ الأخلاق :

فضل اليقين والتوكُل :

قال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٧٣-١٧٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾ [الطلاق:٢-٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [الملك:١٢] .

وعنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ ﷺ عن النَّبِيِّ ﷺ قالَ : « سيِّدُ الاسْتِغْفار أَنْ يقُول الْعبْدُ : اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي ، لا إِلَه إِلاَّ أَنْتَ خَلَقْتَني وأَنَا عَبْدُكَ ، وأَنَا على عهْدِكَ ووعْدِكَ ما اسْتَطَعْتُ ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ ما صنَعْتُ ، أَبوءُ لَكَ بِنِعْمتِكَ عليَ ، وأَبُوءُ بذَنْبي فَاغْفِرْ لي ، فَإِنَّهُ لا يغْفِرُ الذُّنُوبِ إِلاَّ أَنْتَ . منْ قَالهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا ، فَماتَ مِنْ يوْمِهِ قَبْل أَنْ يُمْسِيَ ، فَهُو مِنْ أَهْلِ الجنَّةِ ، ومَنْ قَالهَا مِنَ اللَّيْلِ وهُو مُوقِنٌ بها فَمَاتَ قَبل أَنْ يُصْبِح ، فهُو مِنْ أَهْلِ الجنَّةِ » . أخرجه البخاري [١] .

---

(١) أخرجه البخاري برقم: (٥٩٤٧).

فضلُ المجاهدة في سبيل الله :

قال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾[العنكبوت: ٦٩] .

وقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾[المائدة:٥٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحجرات:١٥] .

حَدَّثَنَا مِسْعَرٌ عَنْ زِيَادٍ قَالَ سَمِعْتُ المُغِيرَةَ رضي الله عنهما يَقُولُ: إِنْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَيَقُومُ لِيُصَلِّيَ حَتَّى تَرِمُ قَدَمَاهُ أَوْ سَاقَاهُ فَيُقَالُ لَهُ فَيَقُولُ أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا » . مُتفق عليه[1] .

فضلُ خوف الله :

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٤﴾ ﴾[الأنفال: ٢ - ٤].

وقال الله تعالى عن الأنبياء: ﴿ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾[الأنبياء:٩٠] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (١١٣٠)، واللفظ له، ومسلم برقم: (٧٩/ ٢٨١٩).

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[السجدة:١٥-١٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾[الرحمن:٤٦] .

فضلُ الرجاء :

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾[الزمر:٥٣] .

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[السجدة:١٥-١٧] .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُم ». أخرجهُ مُسلم[1] .

فضلُ الرحمة :

قال الله تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾[آل عمران:١٥٩] .

---

(١) أخرجه مسلم: (١١/ ٢٧٤٩).

وقال الله تعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾[الفتح:٢٩] .

عن أَبي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : « قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَن لا يَرْحمْ لاَ يُرْحَمْ » . متفق عليه[١] .

فضلُ سعة رحمة الله عز وجل :

قال الله تعالى: ﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾[الأعراف:١٥٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ ﴾[غافر:٧] .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أنه قَالَ : « لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ وَهُوَ يَكْتُبُ عَلَى نَفْسِهِ وَهُوَ وَضْعٌ عِنْدَهُ عَلَى الْعَرْشِ إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي » . متفق عليه[٢] .

وعَنْ عَطَاءٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِنَّ للهَّ مِائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالهَوَامِّ فَبِهَا

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٥٦٥١)، ومسلم برقم: (٦٥/ ٢٣١٨)، واللفظ له.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٧٥٥٣)، ومسلم: (١٤/ ٢٧٥١)، واللفظ له.

يَتَعَاطَفُونَ وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ وَبِهَا تَعْطِفُ الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا وَأَخَّرَ اللهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . متفق عليه[1] .

فضلُ العفو والصفح والحُلم :

قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [النور:٢٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [الأعراف:١٩٩] .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الحجر:٨٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [التغابن:١٤] .

فضلُ الرفق :

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لا يُعْطِي عَلَى العُنْفِ ، وَمَا لا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ » . متفق عليه[2] .

وعن عائشة رضي الله عنهاعن النبي ﷺ قال : « إِنَّ الرِّفْقَ لا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ ، وَلا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ » . أخرجه مسلم[3] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٦٤٦٩)، ومسلم برقم: (١٨/ ٢٧٥٢)، واللفظ له.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٦٩٢٧)، ومسلم برقم: (٧٧/ ٢٥٩٣)، واللفظ له.

(٣) أخرجه مسلم برقم: (٧٨/ ٢٥٩٤).

فضلُ الحياء :

عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ: « الإيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً ، وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإيمَانِ » . متفق عليه(١) .

وعن ابن مسعود ﷺ قال : قال النبي ﷺ: « إنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلامِ النُّبُوَّةِ إذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ » . أخرجه البخاري(٢) .

فضلُ الصمت وحِفظ اللِسان إلا من الخير :

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١] .

عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ: « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَاليَومِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ » . متفق عليه(٣) .

وعن أبي موسى ﷺ قال : قالوا يا رسول الله : أَيُّ الإسْلامِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : « مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ » . متفق عليه(٤) .

فضلُ الاستقامة علي أوامر الله :

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [فصلت:٣٠-٣٢] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٩)، واللفظ له، ومسلم برقم: (٥٧/ ٣٥).

(٢) أخرجه البخاري برقم: (٥٧٦٩).

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٦٠١٨)، ومسلم برقم: (٧٤/ ٤٧)، واللفظ له.

(٤) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (١١)، ومسلم برقم: (٦٤/ ٤٠).

وعن سفيان بن عبد الله الثقفي ﷺ قال : قُلتُ يَا رَسُولَ الله : « قُلْ لِي فِي الإِسْلامِ قَولًا لا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ قَالَ : قُلْ آمَنْتُ بِالله فَاسْتَقِمْ » . أخرجه مسلم(١) .

فضلُ الورع :

عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إِنَّ الحَلالَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ الحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى يُوْشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلا وَإِنَّ حِمَى الله محَارِمُهُ، أَلا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلا وَهِيَ القَلْبُ » . متفق عليه(٢) .

فضلُ الإحسان :

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المرسلات:٤١-٤٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [البقرة:١١٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [البقرة:١٩٥] .

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٦٢/ ٣٨).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٢٠٥١)، ومسلم برقم: (١٠٧/ ١٥٩٩)، واللفظ له.

وقال الله تعالى : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ ﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٤].

فضلُ الحُبِ في الله :

عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: « ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإيمَانِ: أَنْ يَكُونَ الله وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلَّا لله، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ » . متفق عليه(١) .

وعن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال : « لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ » . متفق عليه(٢) .

وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ: « إِنَّ الله يَقُولُ يَومَ القِيَامَةِ : أَيْنَ المُتَحَابُّونَ بِجَلالِي ، اليَومَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي ، يَومَ لا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي » . أخرجه مسلم(٣) .

فضلُ البُكاء من خشية الله :

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨٣ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٤ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٨٥ ﴾ [المائدة:٨٣-٨٥] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٦٩٤١)، ومسلم برقم: (٦٧/ ٤٣)، واللفظ له.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (١٣)، ومسلم برقم: (٧١/ ٤٥).

(٣) أخرجه مسلم برقم: (٣٧/ ٢٥٦٦).

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: بلغ رسول الله ﷺ عن أصحابه شيء فخطب فقال: « عُرِضَتْ عَلَيَّ الجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَلَمْ أَرَ كَاليَوْمِ فِي الخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَلَو تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا. قَالَ: فَمَا أَتَى عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ يَومٌ أَشَدُّ مِنْهُ، قَالَ : غَطَّوا رُؤُوسَهُمْ وَلَهُمْ خَنِينٌ » . متفق عليه[1] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « عَيْنَانِ لا تمَسُّهُمَا النَّارُ ، عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ الله ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تحْرُسُ فِي سَبِيلِ الله » . أخرجه الترمذي بسندٍ صحيح[2] .

فضلُ طيب الكلام، وطلاقة الوجه :

قال الله تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾[آل عمران:١٥٩] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾[آل عمران:١٣٣-١٣٤].

وعن أبي ذر ﷺ قال : قال لي رسول الله ﷺ « لا تَحْقِرَنَّ مِنَ المَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَو أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ » . أخرجه مسلم[3] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٥٤٠)، ومسلم برقم: (١٣٤/ ٢٣٥٩).

(٢) صحيح/ أخرجه الترمذي برقم: (١٦٣٩).

(٣) أخرجه مسلم برقم: (١٤٤/ ٢٦٢٦).

فضلُ الزُهدُ في الدُنيا :

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [العنكبوت:٦٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾[الكهف: ٢٨]

وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ: « اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ محُمَّدٍ قُوتًا » . متفق عليه[١] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: مَا شَبِعَ آلُ محُمَّدٍ ﷺ مُنْذُ قَدِمَ المَدِينَةَ مِنْ طَعَامِ البُرِّ ثَلاثَ لَيَالٍ تِبَاعًا حَتَّى قُبِضَ » . متفق عليه[٢] .

فضلُ الإنفاق في وجوه الخير :

قال الله تعالى : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ﴾[البقرة:٢٦١-٢٦٢] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾[البقرة:١٩٥] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٦٤٦٠)، مسلم برقم: (١٨/ ١٠٥٥)، واللفظ له.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٦٦٨٧)، مسلم برقم: (٢٠/ ٢٩٧٠)، اللفظ له.

وعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: « مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ العِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلانِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا ، وَيَقُولُ الآخَرُ : اللَّهُمَّ أعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا » . متفق عليه(١) .

فضلُ الإكثار من أعمال البر :

قال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ﴾ [البقرة:٢٦١-٢٦٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾ [الحديد:٧] .

وقال الله تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة:١٧٧] .

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمُ اليَومَ صَائِمًا ؟. قَالَ أَبُو بَكْر ﷺ: أَنَا. قَالَ: فَمَنْ تَبِعَ مِنْكُمُ اليَومَ جَنَازَةً ؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ: أَنَا. قَالَ: فَمَن أَطْعَمَ مِنْكُمُ اليَومَ مِسْكِينًا ؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ:

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (١٤٤٢)، واللفظ له، ومسلم برقم: (٥٧/ ١٠١٠).

أَنَا. قَالَ: فَمَن عَادَ مِنْكُمُ اليَوْمَ مَرِيضًا ؟ . قَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ: أَنَا ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: مَا اجْتَمَعْنَ فِي امْرِئٍ إِلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ » . أخرجه مسلم[1] .

وعن عثمان بن عفان ﷺ أنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « مَنْ بَنَى مَسْجِدًا لله بَنَى الله لَهُ فِي الجَنَّةِ مِثْلَهُ » . متفق عليه[2] .

فضلُ التواضُع :

قال الله تعالى : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [القصص:٨٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ ﴾ [الفرقان:٦٣-٦٤] .

وعن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال : « مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ وَمَا زَادَ الله عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا ، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لله إِلَّا رَفَعَهُ الله » . أخرجه مسلم[3] .

فضلُ العدلِ والإحسان :

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل:٩٠].

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (١٢/ ١٠٢٨).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٤٥٠)، ومسلم برقم: (٤٣/ ٥٣٣).

(٣) أخرجه مسلم برقم: (٦٩/ ٢٥٨٨).

وقال الله تعالى : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾[البقرة:١١٢] .

وقال الله تعالى : ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾[الحجرات:٩] .

وقال الله تعالى :﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ ﴾ [الشعراء:٢١٥] .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ المُقْسِطِينَ عِنْدَ الله عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عز وجل وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا » . أخرجه مسلم[1] .

(١) أخرجه مسلم برقم: (١٨/ ١٨٢٧).

٧- الخزانة السابعة

٧- فضائل القرآن الكريم :

فضائل القرآن الكريم :

قال الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزمر:٢٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٠﴾ ﴾ [الإسراء:٩-١٠] .

وقال الله تعالى :﴿ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [النحل:٨٩] .

وقال الله تعالى :﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [الأنعام:١٥٥] .

وقال الله تعالى :﴿ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [آل عمران:١٣٨] .

فضل قارئ القرآن العامل به :

قال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [الأعراف:١٧٠] .

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ [فاطر:٢٩-٣٠].

وعن أبي موسى ﷺ عن النبي ﷺ قال : « المؤمِنُ الَّذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ وَيَعْمَلُ بِهِ كَالأُتْرُجَّةِ ، طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ وَالمُؤْمِنُ الَّذِي لا يَقْرَأُ القُرْآنَ وَيَعْمَلُ بِه كَالتَّمْرَةِ ، طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلا رِيحَ لهَا ، وَمَثَلُ المُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ كَالرَّيْحَانَةِ ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ وَمَثَلُ المُنَافِقِ الَّذِي لا يَقْرَأُ القُرْآنَ كَالحَنْظَلَةِ ، طَعْمُهَا مُرٌّ أَوْ خَبِيثٌ وَرِيحُهَا مُرٌّ » . متفق عليه[١] .

فضلُ تعلُّم القُرآن وتعليمِهِ :

قال الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [آل عمران:٧٩] .

وعن عثمان ﷺ عن النبي ﷺ قال : « خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وَعَلَّمَهُ » . أخرجه البخاري[٢] .

فضلُ الماهرُ بالقُرآن :

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ:« المَاهِرُ بِالقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الكِرَامِ البَرَرَةِ ، وَالَّذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ ، وَهُوَ عَلَيهِ شَاقٌّ ، لَهُ أَجْرَان » . متفق عليه[٣] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٥٠٥٩)واللفظ له ، ومسلم برقم: (٢٤٣/ ٧٩٧).

(٢) أخرجه البخاري برقم: (٥٠٢٧).

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٤٩٣٧)، و مسلم برقم: (٢٤٤/ ٧٩٨)واللفظ له.

فضلُ الاجتماع على القُرآن تلاوة وتدبراً، وتعليماً :

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ وفيه: « وَمَا اجْتَمَعَ قَومٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ الله، يَتْلُونَ كِتَابَ الله، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الملائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ الله فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُه، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ » . أخرجه مسلم(١) .

وجوب تعاهدِ القُرآن :

عن أبي موسى ﷺ عن النبي ﷺ قال : « تَعَاهَدُوا القُرْآنَ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ تَفَصِّياً مِنَ الإِبِلِ فِي عُقُلِهَا » . متفق عليه(٢) .

فضلُ سماع القُرآن :

قال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾[الزمر:١٧-١٨].

وقال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾[الأعراف:٢٠٤] .

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : قال لي النبي ﷺ : « اقْرَأْ عَلَيَّ ، قُلْتُ يَا رَسُولَ الله آقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيكَ أُنْزِلَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، فَقَرَأْتُ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّى أَتَيْتُ عَلَى هَذِهِ الآية : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾[النساء:٤١] .

قَالَ : حَسْبُكَ الآنَ ، فَالتَفَتُّ إِلَيهِ فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ » . متفق عليه(٣) .

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٣٨/ ٢٦٩٩).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٥٠٣٣) واللفظ له، ومسلم برقم: (٢٣١/ ٧٩١).

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٥٠٥٠)واللفظ له ، ومسلم برقم: (٢٤٧/ ٨٠٠).

فضلُ من يقوم بالقُرآن :

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « لا حَسَدَ إلَّا فِي اثْنَتَيْنِ : رَجُلٌ آتَاهُ الله القُرْآنَ ، فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ ، وَرَجُلٌ آتَاهُ الله مَالاً ، فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ » . متفق عليه[1] .

فضلُ تحسين الصوتِ بالقُرآن :

عن أبي هريرة ﷺ يبلغ به النبي ﷺ قال : « مَا أَذِنَ اللهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ يَتَغَنَّى بِالقُرْآنِ » . متفق عليه[2] .

فضلُ سورةِ الفاتِحةَ :

عن أبي سعيد بن المعلَّى ﷺ قلت يا رسول الله إنك قلت: أَلا أُعَلِّمُكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي القُرآنِ ، قَالَ: « الحَمْدُ لله رَبِّ العَالمِينَ هِيَ السَّبْعُ المثَاني ، وَالقُرآنُ العَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ » . أخرجه البخاري[3] .

فضلُ سورةِ الإخلاص :

عن أبي سعيد ﷺ أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾ يُرَدِّدُهَا فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللهَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ وَكَأَنَّ الرَّجُلَ يَتَقَالُّهَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ » . أخرجه البخاري[4] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٧٣١٦)، ومسلم برقم: (٢٦٦/ ٨١٥ واللفظ له .

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٥٠٢٣)، ومسلم برقم: (٢٣٢/ ٧٩٢)واللفظ له.

(٣) أخرجه البخاري برقم: (٥٠٠٦).

(٤) أخرجه البخاري برقم: (٦٦٤٣).

فضلُ المُعوذات :

عن عقبة بن عامر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « أَلَمْ تَرَ آيَاتٍ أُنْزِلَتِ اللَّيْلَةَ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ » . أخرجه مسلم(١) .

فضلُ سورةِ البقرة :

عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا تجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ » . أخرجه مسلم(٢) .

فضلُ الوصيةُ بالقُرآن :

عن طلحة ﷺ قال : سألت عبد الله بن أبي أوفى: آوْصَى النَبِيُّ ﷺ فَقَالَ : لا ، فَقُلْتُ كَيْفَ كُتِبَ عَلَى النَّاسِ الوَصِيَّةُ ، أُمِرُوا بِهَا وَلَمْ يُوْصِ ؟ قَالَ : أَوْصَى بِكِتَابِ الله . متفق عليه(٣) .

فضلُ قراءة القُرآنَ :

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾[فاطر:٢٩-٣٠] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾[الأعراف:٢٠٤] .

وعن أبي أمامه الباهلي ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اقْرَؤُوا القُرْآنَ ، فَإِنَّهُ يأتي يَوْمَ القِيَامَةِ شَفِيعاً لأَصْحَابِهِ ، اقْرَؤُوا الزَّهْرَاوَيْنِ : البَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَومَ القِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ ، أَوْ كَأَنَّهُمَا

---

(١) الحديث أخرجه مسلم برقم: (٢٦٤/ ٨١٤).

(٢) الحديث أخرجه مسلم برقم: (٢١٢/ ٧٨٠).

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٢٧٤٠) واللفظ له ، ومسلم برقم: (١٦/ ١٦٣٤).

غَيَايَتَانِ ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا ، اقْرَؤُوا سُورَةَ البَقَرَةِ ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ ، وَلا يَسْتَطِيعُهَا البَطَلَةُ » . أخرجه مسلم[1] .

وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ إِذَا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ ، أَنْ يَجِدَ فِيهِ ثَلاثَ خَلِفَاتٍ عِظَامٍ سِمَانٍ ؟ ، قُلْنَا نَعَمْ ، قَالَ : فَثَلاثُ آيَاتٍ يَقْرَأُ بِهِنَّ أَحَدُكُمْ فِي صَلاتِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلاثِ خَلِفَاتٍ عِظَامٍ سِمَانٍ » . أخرجه مسلم[2] .

وعَنْ عبدِ الله بنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما قالَ : قالَ رسُولُ الله ﷺ : « يُقَالُ لِصَاحِبِ القُرآنِ اقْرَأ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا » . أخرجه أبو داود والترمذي بسندٍ صحيح[3] .

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٢٥٢/ ٨٠٤).

(٢) أخرجه مسلم برقم: (٢٥٠/ ٨٠٢).

(٣) صحيح/ أخرجه الترمذي برقم: (٣١٤١)، وأبي داود برقم: (١٤٦٤).

٨- فضائل النبي ﷺ :

فضلُ نسب النبي ﷺ:

عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « إنَّ الله اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إسْمَاعِيلَ ، وَاصْطَفَى قُرَيْشاً مِنْ كِنَانَةَ ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ » . أخرجه مسلم(١) .

أسماءُ النبي ﷺ :

عن جبير بن مُطعم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إنَّ لِيْ أَسْمَاءً ، أَنَا مُحَمَّدٌ ، وَأَنَا أَحْمَدُ ، وَأَنَا المَاحِي الَّذِي يَمْحُو الله بِيَ الكُفْرَ ، وَأَنَا الحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمَيَّ ، وَأَنَا العَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ أَحَدٌ وفي لفظ : وَنَبِيُّ التَّوبَةِ ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ » . متفق عليه(٢) .

فضلُ النبي ﷺ علي الأنبياء :

قال الله تعالى : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾[الأحزاب:٤٠] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِستٍّ : أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ طَهُوْراً وَمَسْجِداً ، وَأُرْسِلْتُ إلَى الخَلْقِ كَافَّةً ، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ » . أخرجه مسلم(٣) .

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (١/ ٢٢٧٦).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٤٨٩٦)، ومسلم برقم: (١٢٥/ ٢٣٥٤)واللفظ له .

(٣) أخرجه مسلم برقم: (٥/ ٥٢٣).

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « مَثَلِي وَمَثَلُ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بُنْيَاناً فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ ، وَيَعْجَبُونَ لَهُ ، وَيَقُولُونَ : هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ ، قَالَ : فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ » . متفق عليه[1] .

فضلُ النبي ﷺ علي الناس :

قال الله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ ﴾[الجمعة:٢-٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾[التوبة:١٢٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الفتح:٢٨] .

فضلُ النبي ﷺ علي جميع الخلائق :

قال الله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾[الإسراء:٧٩] .

وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَومَ القِيَامَةِ ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ القَبْرُ ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ ، وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ » . أخرجه مسلم[2] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٣٥٣٥)، مسلم برقم: (٢٢/ ٢٢٨٦)واللفظ له.

(٢) أخرجه مسلم برقم: (٣/ ٢٢٧٨).

الإسراءُ والمِعراجُ بالنبي ﷺ :

قال الله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء:١] .

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال : « أُتِيتُ بِالبُرَاقِ وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضُ طَوِيلٌ فَوْقَ الحِمَارِ وَدُونَ البَغْلِ ، يَضَعُ حَافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرْفِهِ قال : فَرَكِبْتُهُ حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ المَقْدِسِ ، قال ، فَرَبَطْتُهُ بِالحَلْقَةِ الَّتِي يَرْبِطُ بِهِا الأَنْبِيَاءُ قال : ثُمَّ دَخَلْتُ المَسْجِدَ فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ، ثُمَّ خَرَجْتُ فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ ، فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ .

فَقَالَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : اخْتَرْتَ الفِطْرَةَ ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ : مَنْ أَنْتَ ؟ قال : جِبْرِيلُ ، قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قال : مُحَمَّدٌ . قِيلَ وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ؟ قال : قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ، فَفُتِحَ لَنَا ، فَإِذَا أَنَا بِآدَمَ ، فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ .

ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقِيلَ : مَنْ أَنْتَ ؟ قال : جِبْرِيلُ ، قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قال : مُحَمَّدٌ ، قِيلَ : وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ؟ قال : قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ، فَفُتِحَ لَنَا ، فَإِذَا أَنَا بِابْنَيِ الخَالَةِ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ وَيَحْيَى ابْنِ زَكَرِيَّا صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِمَا ، فَرَحَّبَا وَدَعَوَا لِي بِخَيْرٍ ثُمَّ عَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ، فَقِيلَ : مَنْ أَنْتَ ؟ قال : جِبْرِيلُ ، قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قال : مُحَمَّدٌ ﷺ قِيلَ : وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ؟ قال : قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ، فَفُتِحَ لَنَا ، فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ ﷺ إِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الحُسْنِ ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ .

ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قِيلَ : مَنْ هَذَا ؟ قال : جِبْرِيلُ ، قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قال : مُحَمَّدٌ ، قال : وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ؟ قال : قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسَ ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ ، قال الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ [مريم:٥٧] .

ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الخَامِسَةِ ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ، قِيلَ : مَنْ هَذَا ؟ قال : جِبْرِيلُ . قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قال : مُحَمَّدٌ . قِيلَ : وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ؟ قال : قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ، فَفُتِحَ لَنَا . فَإِذَا أَنَا بِهَارُونَ ﷺ فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قِيلَ : مَنْ هَذَا ؟ قال : جِبْرِيلُ ، قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قال : مُحَمَّدٌ ، قِيلَ : وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ؟ قال : قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى ﷺ فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ .

ثُمَّ عَرَجَ بنا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قال: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ. قال : مُحَمَّدٌ ﷺ قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قال: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ ﷺ مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى البَيْتِ المَعْمُورِ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لا يَعُودُونَ إِلَيْهِ ثُمَّ ذَهَبَ بِي إِلَى السِّدْرَةِ المُنْتَهَى، وَإِذَا وَرَقُهَا كَآذَانِ الفِيَلَةِ، وَإِذَا ثَمَرُهَا كَالقِلالِ، قال، فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ الله مَا غَشِيَ تَغَيَّرَتْ، فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ الله يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَا فَأَوْحَى الله إِلَيَّ مَا أَوْحَى، فَفَرَضَ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ.

فَنَزَلْتُ إِلَى مُوسَى ﷺ فَقَالَ : مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ ؟ قُلْتُ : خَمْسِينَ صَلاةً ، قال : ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ ، فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لا يُطِيقُونَ ذَلِكَ ، فَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ قال : فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي فَقُلْتُ : يَا رَبِّ ! خَفِّفْ عَلَى أُمَّتِي ، فَحَطَّ عَنِّي خَمْسًا فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقُلْتُ : حَطَّ عَنِّي خَمْسًا ، قال : إِنَّ أُمَّتَكَ لا يُطِيقُونَ ذَلِكَ فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ

التَّخْفِيفَ قال : فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَبَيْنَ مُوسَى ﷺ حَتَّى قال : يَا مُحَمَّدُ ! إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، لِكُلِّ صَلاةٍ عَشْرٌ فَذَلِكَ خَمْسُونَ صَلاةً ، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةً وَاحِدَةً قال : فَنَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ ، فَقَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ فَقُلْتُ : قَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ » . متفق عليه[1] .

فضلُ الصلاةِ علي النبي ﷺ :

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأحزاب:٥٦] .

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ صَلَّى عَلَيَّ وَاحِدَةً صَلَّى الله عَلَيهِ عَشْراً » . أخرجه مسلم[2] .

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : «إِنَّ لله مَلائِكَةً سَيّاحِينَ فِي الأَرْضِ يُبَلِّغُونِي مِنْ أُمَّتِي السَّلامَ» . أخرجه أحمد والنسائي بسندٍ صحيح[3] .

أكمل كيفية للصلاة علي النبي ﷺ :

« اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيْدٌ ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ » . متفق عليه[4] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٧٥١٧)، ومسلم برقم: (٢٥٩/ ١٦٢)واللفظ له .

(٢) أخرجه مسلم برقم: (٧٠/ ٤٠٨).

(٣) صحيح/ أخرجه النسائي برقم: (١٢٨٢)، وأحمد برقم: (٣٦٦٦).

(٤) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٣٣٧٠)، ومسلم برقم: (٦٦/ ٤٠٦) واللفظ له .

٨- الخزانة الثامنة

٩- فضائلُ أصحاب النبي ﷺ :

فضائلُ الصحابة :

قال الله تعالى : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [التوبة:١٠٠] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تَسُبُّوا أَصْحَابِي ، لا تَسُبُّوا أَصْحَابِي ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذهباً مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلا نَصِيفَهُ » . متفق عليه[١] .

فضائلُ آل البيت :

عن عائشة رضي الله عنها قَالَتْ: خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ غَدَاةً وَعَلَيْهِ مِرْطٌ مُرَحَّلٌ مِنْ شَعْرٍ أَسْوَدَ ، فَجَاءَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ فَأَدْخَلَهُ ، ثُمَّ جَاءَ الْحُسَيْنُ فَدَخَلَ مَعَهُ ، ثُمَّ جَاءَتْ فَاطِمَةُ فَأَدْخَلَهَا ، ثُمَّ جَاءَ عَلِيٌّ فَأَدْخَلَهُ ثُمَّ قَالَ : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأحزاب:٣٣] » أخرجه مسلم.[٢] .

وعن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى قَالَ: قَالَ لَقِيَنِي كَعْبُ بْنُ عُجْرَةَ فَقَالَ : أَلَا أُهْدِي لَكَ هَدِيَّةً إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ عَلَيْنَا فَقُلْنَا : يَا رَسُولَ الله قَدْ عَلِمْنَا كَيْفَ نُسَلِّمُ عَلَيْكَ فَكَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ ؟

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٣٦٧٣)، ومسلم برقم: (٢٢١/ ٢٥٤٠) واللفظ له .
(٢) أخرجه مسلم برقم: (٦١/ ٢٤٢٤).

قَالَ: فَقُولُوا « اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مجِيدٌ ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مجِيدٌ » . متفق عليه[1] .

وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ: أن رسول الله ﷺ خلف علياً في بعض مغازيه ، فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ : يَا رَسُولَ الله خَلَّفْتَنِي مَعَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى، إِلَّا أَنَّهُ لَا نُبُوَّةَ بَعْدِي».

وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ يَوْمَ خَيْبَرَ: « لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ رَجُلًا يحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ . قَالَ : فَتَطَاوَلْنَا لهَا ، فَقَالَ : ادْعُوا لِي عَلِيًّا ، فَأُتِيَ بِهِ أَرْمَدَ فَبَصَقَ فِي عَيْنِهِ وَدَفَعَ الرَّايَةَ إِلَيْهِ فَفَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ .

وَلمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ ﴾ [آل عمران:٦١] ، دَعَا رَسُولُ الله ﷺ عَلِيًّا وَفَاطِمَةَ وَحَسَنًا وَحُسَيْنًا فَقَالَ: « اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلِي» . متفق عليه[2] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: أَقْبَلَتْ فَاطِمَةُ تمْشِي كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مَشْيُ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : مَرْحَبًا بِابْنَتِي ، ثُمَّ أَجْلَسَهَا عَنْ يَمِينِهِ أَوْ عَنْ شِمَالِهِ ثُمَّ أَسَرَّ إِلَيْهَا حَدِيثًا فَبَكَتْ ، فَقُلْتُ لهَا : لِمَ تَبْكِينَ ؟ ثُمَّ أَسَرَّ إِلَيْهَا حَدِيثًا فَضَحِكَتْ ، فَقُلْتُ : مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ فَرَحًا أَقْرَبَ مِنْ حُزْنٍ فَسَأَلْتُهَا عَمَّا قَالَ ، فَقَالَتْ : مَا كُنْتُ لِأُفْشِيَ سِرَّ رَسُولِ الله ﷺ حَتَّى قُبِضَ النَّبِيُّ ﷺ فَسَأَلْتُهَا ، فَقَالَتْ : أَسَرَّ إِلَيَّ إِنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُنِي الْقُرْآنَ كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً وَإِنَّهُ عَارَضَنِي

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٣٣٧٠)، ومسلم برقم: (٦٦/ ٤٠٦)واللفظ له .

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٣٧٠٢)، ومسلم برقم: (٣٢/ ٢٤٠٤)واللفظ له.

الْعَامَ مَرَّتَيْنِ وَلَا أُرَاهُ إِلَّا حَضَرَ أَجَلِي، وَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِ بَيْتِي لَحَاقًا بِي فَبَكَيْتُ ، فَقَالَ : أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَوْ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ فَضَحِكْتُ لِذَلِكَ » . متفق عليه[1] .

فضائلُ الخُلفاءِ الراشدين :

عن أبي موسى ﷺ: أن النبي ﷺ دَخَلَ حَائطاً وَأَمَرَنِي بِحِفْظِ بَابِ الحَائِطِ ، فَجَاءَ رَجُلٌ يَسْتَأْذِنُ ، فَقَالَ : ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالجَنَّةِ . فَإِذَا أَبُو بَكْرٍ ، ثُمَّ جَاءَ آخَرُ يَسْتَأْذِنُ ، فَقَالَ : ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالجَنَّةِ . فَإِذَا عُمَرُ ، ثُمَّ جَاءَ آخَرُ يَسْتَأْذِنُ ، فَسَكَتَ هُنَيْهَةً ثُمَّ قَالَ : ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالجَنَّةِ ، عَلَى بَلْوَى سَتُصِيبُهُ . فَإِذَا عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ » . متفق عليه[2] .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ عَلَى حِرَاءٍ هُوَ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ فَتَحَرَّكَتِ الصَّخْرَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : اهْدَأْ فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدٌ » . أخرجه مسلم[3] .

فضائلُ المُهاجرين والأنصار :

قال الله تعالى : ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر: ٨-٩] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٣٦٢٣)واللفظ له ، ومسلم برقم: (٩٨/ ٢٤٥٠).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٣٦٩)واللفظ له ، ومسلم برقم: (٢٩/ ٢٤٠٣).

(٣) أخرجه مسلم برقم: (٥٠/ ٢٤١٧).

وقال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾[الأنفال:٧٤].

وقال الله تعالى : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾[التوبة:١٠٠] .

وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لَوْلا الهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَءاً مِنَ الأَنْصَارِ ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِياً وَسَلَكَتِ الأَنْصَارُ وَادِياً أَوْ شِعْباً لَسَلَكْتُ وَادِي الأَنْصَارِ أَوْ شِعْبَ الأَنْصَارِ » . متفق عليه[1] .

فضلُ الله علي الإنسان :

الله ﷻ خلق الإنسان وأكرمهُ بكرامات ، فخلقهُ الله ﷻ بيده ونفخ فيه من روحهِ ، وأسجد له ملائكتهِ، وعلمهُ أسماءَ كُل شيء ، وجعلهُ في الدُنيا خليفه ، ويوم القيامةِ جليسَه: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾ ﴾[التين:٤-٨] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةًۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[البقرة:٣٠] .

وقال الله تعالى :﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾[الإسراء:٧٠] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٤٣٣٠)، ومسلم برقم : (١٣٩/ ١٠٦١)واللفظ له .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ﴾[القمر:٥٤-٥٥] .

والله ﷻ أخرجَ الإنسان من بطن أُمِهِ جاهلًا ، وأخرجَ جميع الخلائق من بطون أُمُهاتِهِم عُلماء بعلمٍ كامل من أول يومٌ .

قال الله تعالى: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ ﴾[الأعلى: ١ -٣] .

والإنسان أشرف، ولكنهُ جاهل يتدرج في طلب العِلم .

فالإنسانُ يُولدُ جاهلاً ، ظلوماً ، كفوراً ، عجولاً ، ضعيفاً ، قنوطاً ، قتوراً ، جزوعاً ، كنوداً ، يئوساً ، هلوعاً ، فرحاً ، فخورا ، وكُل ذلكَ مذكوراً في كتاب الله ﷻ ثُم بفضل الله وبرحمتهِ ، الله يُكمل نُقصانهَ ، فيهديهِ ويُعلمهُ.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾[النحل:٧٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾[الحجرات:١٧] .

وقال عز وجل في الحديث القدسي: « يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ ». أخرجه مسلم [1] .

فعِلم الإنسان قليل ، وقدرتهُ محدودة ، كما قال سبحانه: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾[الإسراء: ٨٥] .

(١) أخرجه مسلم برقم: (٥٥/ ٢٥٧٧).

فالعلم كُلهُ من العليمِ سُبحانهَ ، كما أن الرزق كُلهُ من الرزاق سُبحانهُ .

قال الله تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥ ﴾ [العلق:٣-٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤ ﴾ [الرحمن:١-٤] .

فلابُد للإنسان أن يرجع إلي من خلقهُ، ليُعلمهُ بمقصد حياتهُ ، وماذا يُريد الله منهِ، وماذا يُعطيهِ ربهُ إذا أطاعهُ :﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ۝١١٣ ﴾[النساء:١١٣] .

فالإنسانُ جاهل، فلابُد لهُ ممن يعلمهَ وهو الله ﷻ ، وقد أمر الله رسوله ﷺ أن يستزيد من العلم :﴿ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ۝١١٤ ﴾[طه:١١٤] .

وأول علما يحتاجهُ الإنسان، علم التوحيد والإيمان: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ۝١٩ ﴾ [محمد: ١٩] .

والله جل جلاله لا أراهُ، ولا أسمعهُ، ولا أعرفهُ، فجعل الله الواسطة بين الإنسان وربهُ الأنبياء والرُسُل عليهم الصلاة والسلام يُعرفونهُ بربهِ، ويعلمونهُ ما يحُبهُ ويرضاه، وما يأمرُ به، وما ينهي عنهُ .

والإنسان بعلمهُ الدنيوي لا يعرف من خلقهَ، ولا لماذا خلقه، ولا الصراط المُستقيم الذي يسير عليه: ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٧٨ ﴾[النحل: ٧٨] .

ومن رحمة الخالق سبحانه أن جعل هذا الكون العظيم مظهراً يدل علي خالقهِ ، وعلي وحدانية الله:﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢ ﴾ [الطلاق:١٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١ ﴾[يونس:١٠١] .

فمن تأمل في الآيات الكونية، وتدبر الآيات القُرآنية ، عرِف أن لهذا الخلق خالقاً، وأن لهذه الصورِ مُصوراً وأن لهذا الكونِ مُكوناً.

قال الله تعالى: ﴿ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ٦ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٧ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ٨ ﴾ [ق:٦ -٨] .

وقد فطر اللهُ جميع الخلق علي وحدانيتهِ، وعلي حُب الخير : ﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٠ ﴾[الروم:٣٠] .

فمن رحمة الله أن جعل الواسطة بين الإنسان وربهِ الأنبياء والرُسُل، يُعرفونهُ بربهَ ويُعلمونهُ ما يحُبهُ ويرضاهُ ، وما يأمرُ به وما ينهي عنهَ .

ومن رحمة الخالق سبحانه أن اختار من خلقهِ رُسُلاً، وأرسلهُم إليهِم يعرفونهُم بربهم وبالطريق الموصّل إليه، ويُبشرونهُ بالثواب العظيم إذا أطاعوا ربهم، وينذرونهُم بالعِقاب الأليم إذا عصوه.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٣٦ ﴾ [النحل: ٣٦] .

واعلم أن من دخل جنةَ المعرفة بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله في الدُنيا، أدخلهُ الله جنة الآخرة يوم القيامة.

قال الله تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴿١٩﴾ ﴾[محمد: ١٩].

ومن بقي في سجن الجهل في الدُنيا سجنهُ الله في النارِ في الآخرة .

قال الله تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴿١٠٤﴾ ﴾[الأنعام:١٠٤] .

٩- الخزانة التاسعة

فقه الفضائل الكبرى :

القرآن العظيم أحسن كتب الله على الإطلاق، أنزله الله بأحسن اللغات، وأحسن الأحكام : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [يوسف:٢] .

وقال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزمر:٢٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ [الإسراء:٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [النحل:٨٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ ﴾ [المائدة:٤٨] .

ومحمد ﷺ سيد الأنبياء والرُسل، وسيد ولد آدم على الإطلاق كما قال النبي ﷺ : « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . أخرجه مسلم[١] .

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٣/ ٢٢٧٨).

وقال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩ ﴾ [الإسراء:٧٩] .

فالنبي ﷺ سيد الأنبياء والرُسل ، وسيد الأوليين والأخريين ، وسيد بني آدم على الإطلاق ، فهو خاتم الأنبياء ، وخاتم المرسلين ، وإمام المتقين ، ورسالته عامة للثقلين، أرسله الله رحمة للعالمين، وأُسري بيه إلى بيت المقدس، وعُرج به إلى السماء ، وناداه ربه بوصف النبوة و الرسالة ، وأُعطي جوامع الكلم .

وقد خصه الله دون الأنبياء بخمس :

قال النبي ﷺ: « أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي المَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّة »متفق عليه[1].

واللغة العربية أفضل اللغات على الإطلاق ، فهي التي نزل بها القرآن ، وهي لغة سيد الأنبياء والرُسل.

قال الله تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥ ﴾ [الشعراء : ١٩٣-١٩٥] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٣٣٥)واللفظ له، ومسلم برقم: (٣/ ٥٢١)، .

وهذه الأمة أفضل الأمم على الإطلاق .

قال الله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾[آل عمران:١١٠] .

وجبريل الذي نزل بالقرآن أفضل الملائكة على الإطلاق: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾[التكوير:١٩-٢١].

وليلة القدر أفضل الليالي على الإطلاق: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ الْمَلَٰٓئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾ ﴾[القدر:١-٥] .

ويوم الجمعة أفضل أيام الأسبوع على الإطلاق كما قال النبي ﷺ: « خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا » . أخرجه مسلم[1] .

ويوم عرفة أفضل أيام السنة على الإطلاق ، فهو كفارة سنتين سنة قبله، وسنة بعده .

وشهر رمضان أفضل الشهور على الإطلاق،﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ ﴾[البقرة:١٨٥] .

ومكة أفضل البلاد على الإطلاق:﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾[آل عمران:٩٦] .

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (١٧/ ٨٥٤).

والصلاة فيها تُضاعف بأفضل من مئة ألف صلاة فيما سواها .

وأحسن الذكر :

سبحان الله ، والحمد لله ، ولا اله إلا الله ، والله أكبر .

وأحسن الدعاء :﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ ﴾[البقرة:٢٠١] .

وغير ذلك من الفضائل الكبرى في دين الإسلام:﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾[الجاثية:٣٦-٣٧] .

وقد ختم الله ﷻ النبوة ببعثه نبيه محمد ﷺ إلى الناس كافة:﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾[الأحزاب:٤٠] .

وختم بكتابه الكتب السماوية، وختم بشريعته الشرائع السماوية، وختم بدينة الأديان السماوية، وختم بأمته الأمم.

قال الله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾[آل عمران:١١٠].

ـ قَالَ النبي ﷺ: « نَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ » . متفق عليه[1] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٣٤٨٦)، ومسلم برقم: (٢٠/ ٨٥٥)واللفظ له.

وفضل الله عز وجل أمته ﷺ علي غيرها من الأمم بأفضل الصفات ، وتوجها بأربعة تيجان ؛ لأن الله عز وجل جعلها كالأنبياء من بين الأمم .

التاج الأول: هي خير أمة أخرجت للناس: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾[آل عمران:١١٠] .

التاج الثاني: هي أمة وسط بين الناس، لا غلو ولا تقصير ، ووسط بين الله وخلقه في الدعوة إلي الله، والقيام بالدين كالأنبياء: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[البقرة:١٤٣] .

التاج الثالث: أنهم عدول يشهدون عند ربهم علي الأمم من قبلهم أن الرسل بلغوهم ما أمروا به :﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾[البقرة:١٤٣] .

التاج الرابع: أن الله عز وجل اجتبى هذه الأمة من بين الأمم ، كما اجتبى الأنبياء والرُسل من بين البشر : ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ۖ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾[الحج:٧٨] .

ومن يملك هذه الصفات العظيمة ، ويتحلى بهذا التكريم، أهل أن يقوم بالدعوة إلي الله كالأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ، وهذا كما هو واجب، فهو واقع نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من السابقين إلي ذلك .

قال الله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾[آل عمران: ١٠٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾[فصلت:٣٣].

وقال الله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾[آل عمران:١١٠] .

وهذه الأمة أكرمها الله ﷻ بكرامات عظيمة، فأعمارها قصيرة ، وذنوبها مغفورة ، وأعمالها مضاعفة ، وعيوبها مستورة ، وهي أول من يدخل الجنة. فأعمارها قصيرة ، كما قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَعْمَارُ أُمَّتِي مَا بَيْنَ السِّتِّينَ إِلَى السَّبْعِينَ ، وَأَقَلُّهُمْ مَنْ يَجُوزُ ذَلِكَ ».أخرجه الترمذي وابن ماجة [1] .

وذنوبهم مغفورة، كما قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾[الصف:١٠-١٢] .

وأعمالها مضاعفة، كما قال سبحانه : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾[الأنعام:١٦٠] .

---

(١) صحيح/ أخرجه ابن ماجة برقم: (٤٢٣٦)، والترمذي برقم: (٢٣٣١).

وعيوبها مستورة، كما قال سبحانه : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ ﴾[البقرة:٢٨٥].

وقال الله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ٢٩ ﴾[الفتح: ٢٩] .

وهم أول من يدخل الجنة إذ أنهم كانوا آخر الأمم كما قال ﷺ : « نَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ » . متفق عليه[1] .

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٣٤٨٦)، ومسلم برقم: (٢٠/ ٨٥٥)واللفظ له.

١٠- الخزانة العاشرة

فضائل العلماء:

للعلماء فضائل كثيرة جداً، فالعلماء في الأرض كالنجوم في السماء ، **وقد خلق الله النجوم في السماء لثلاث :**

- زينة للسماء .
- ورجوماً للشياطين .
- وعلامات يُهتدي بها.

قال الله تعالى:﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ ﴾[الملك:٥] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[النحل:١٦] .

فالعلماء في الأرض زينة لأهل الأرض، ورجوماً لأهل البدع، والضلالات، وعلامات يهتدي بها الناس إلي الحق ، وإلي الهدى .

وقد ذكر الله ﷻ الدرجات لأربعة أصناف من المؤمنين :

الأولي : للمؤمنين من أهل بدر، ومن كان مثلهم.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[الأنفال: ٢ - ٤].

الثانية : للمجاهدين في سبيل الله.

قال الله تعالى: ﴿ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [النساء:٩٥] .

الثالثة : للصالحين

قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ ﴾ [طه: ٧٥]

الرابعة : للعلماء.

قال الله تعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ [المجادلة:١١] .

مناقب العلماء:

وصف الله العلماء في القرآن بسبع مناقب :

إحداهما : الإيمان.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾ [آل عمران:٧] .

الثانية : التوحيد، والشهادة.

قال الله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران:١٨] .

الثالثة : البكاء.

قال الله تعالى: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الإسراء: ١٠٩].

الرابعة : الخشوع

قال الله تعالى: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ ﴾[الإسراء:١٠٦-١٠٩].

الخامسة : الخشية.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾[فاطر: ٢٨] .

السادسة : قوة البصيرة.

قال الله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ﴾[الرعد: ١٩] .

السابعة : قوة العبادة.

قال الله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ [الزمر:٩].

الثامنة : أنهم خيار المسلمين وأئمتهم

كما قال النبي ﷺ: « خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ » . أخرجه البخاري[1] .

(١) أخرجه البخاري برقم: (٥٠٢٧).

وقال النبي ﷺ: « مَن يُرِدِ اللهُ بهِ خيْراً يُفَقهْهُ في الدينِ » . متفق عليه [1] .

فضائل الرجال والنساء :

خلق الله الرجل والمرأة مختلفين في أصل الخِلقة ، وكمل أحدهما بالأخر وجعل كلاً منهما سكناً للأخر.

قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الروم:٢١] .

وجعل سبحانه الرجل والمرأة نواة لتكوين كل أسرة، وكل أمة، كما قال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [النساء:١]

والرجل والمرأة أمام شرع الله ووعده ووعيده على حدٍ سواء، كما قال سبحانه : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾ [التوبة: ٧١-٧٢] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٧٣١٢)، ومسلم برقم: (١٠٠/ ١٠٣٧) واللفظ له.

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّآئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾[الأحزاب:٣٥] .

وخص الله ﷻ الرجل بخصائص، وخص المرأة بخصائص .

فالرجل أكمل من المرأة، فالذكورة شرفُ وكمال، والأنوثة نقص خلق طبيعي .

فالمرأة يباح لها أنواع الزينة والحلي، لتكمل شخصيتها ، وذلك لجبر نقص الأنوثة والضعف، كما قال سبحانه : ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾[الزخرف:١٨] .

أما الرجل فهو كامل في نفسه، وقوته ، وخلقته، فناسب حاله أن يكون قائمًا على الضعيف الناقص خلقه، كما قال سبحانه: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾[النساء:٣٤] .

وهذا إكرامُ للمرأة وعناية بها أن يقوم عليها من يرعى شئونها، ويدبر أمورها، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِي عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ﴾[البقرة:٢٢٨] .

وجعل الله سبحانه ميراث الرجل مضاعفاً على ميراثها، لأنه الذي ينفق عليها ، وجعل الطلاق بيد الرجل، لأن آلة الزراعة معه، فلا يكره على البقاء والزراعة في حقلٍ لا يناسب الزراعة .

فالإسلام أكرم كلاً من الرجل والمرأة ، فالإسلام حين يلزم الرجل بأعباء ووجبات مالية لا تلزم بمثلها المرأة ، فإنما ذلك لحكمة، كالمهر، والسكن، والإنفاق على الزوجة، والأولاد والديات في العاقلة .

أما المرأة فليس عليها شيء من النفقة لا على نفسها، ولا على أولادها ، وبذلك أكرمها الإسلام حين طرح عنها تلك الأعباء ، وألقاها على الرجل ، ثم أعطاها غالباً نصف ما يأخذ الرجل، فمالها يزداد، ومال الرجل ينقص بالنفقة عليه، وعلى زوجته وأولاده .

فهذا هو العدل والإحسان بين الجنسين: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل:٩٧] .

وقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات:١٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ ﴾ [النساء:٣٤] .

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل:٩٠].

والله سبحانه هو الخلاق العليم الذي خلق جميع الخلائق، كما قال سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ [الزمر: ٦٢-٦٣].

خلق الله الذكور والإناث، وجعل لكل منهما خصائص ينفرد بها عن الأخر ، ويكمل أحدهما الأخر، ففضل الله الرجال على النساء في أصل الخلقة والطبيعة ، فالمرأة الأولى وهي حواء خلقت من ضلع الرجل الأول وهو آدم ﷺ، فهي جزء منه، لا تستغني عنه ، ولا يستغنى هو عنها ، فرجل بلا امرأة شقي، وامرأة بلا رجل شقيه، فإذا تم الزواج بينهما تمت النعمة، وحصلت المودة: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةٗۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ [الروم:٢١] .

والرجل أكمل وأقوى من المرأة ، والعقل يقتضى أن الناقص الضعيف يلزم أن يكون تحت الكامل في خلقته يجلب له ما ينفعه، ويدفع عنه ما يضره .

والمرأة متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة، لهذا جعل الله الرجل هو المسئول عن المرأة في جميع أحوالها أما، وزوجة، وبنتاً وأختاً.

وخص الرجل بالرسالة والنبوة والخلافة دونها ، وملكه الطلاق دونها ، وجعله الولي في النكاح دونها ، وجعل انتساب الأولاد إليه لا إليها ، وجعل شهادته في الأموال بشهادة امرأتين ، وقبل شهادته في الحدود والقصاص دونها ، وجعل له مثل حظ الأنثيين من الميراث، لأنه ينفق عليها ، وجعل ديتها نصف دية الرجل، لعظم المصيبة بفقد الرجل: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ ﴾ [النساء:٣٤].

وأمر سبحانه ببر الوالدين :

قال الله تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الإسراء:٢٣] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [النساء:٣٦] .

وخص الأم بمزيد من البر .

فعن أبي هريرة ﷺ أنه قال: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ : مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: « أُمُّكَ ، قَالَ : ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ : ثُمَّ أُمُّكَ ، قَالَ : ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ : ثُمَّ أُمُّكَ ، قَالَ : ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ : ثُمَّ أَبُوكَ » . متفق عليه[1] .

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٥٩٧١) واللفظ له ، ومسلم برقم: (١/ ٢٥٤٨).

موسوعة خزائن العلوم الإسلامية

١٨ - خزائن الفضـــــائل

القسم الثاني

ويشتمل على ما يلي :

١ - الخزانة الأولى

٢ - الخزانة الثانية

٣- الخزانة الثالثة

٤ - الخزانة الرابعة

٥ - الخزانة الخامسة

٦ - الخزانة السادسة

٧- الخزانة السابعة

٨- الخزانة الثامنة

٩ - الخزانة التاسعة

١٠ - الخزانة العاشرة

١٨ - خزائن الفضـائل

القسم الثاني

١ - الخزانة الأولى

فضائل قريش :

لما أخذ قصي بن كلاب سدانة الكعبة من قبيلة خزاعة ، جمع قبائل قريش بمكة فسمي مجُمعًا ، وكان لقصي بن كلاب أربعة أولاد :

عبد بن قصي .. وعبد الدار بن قصي .. وعبد العزى بن قصي .. وعبد مناف بن قصي .

فجعل قصي وظائف السقاية والرفادة والندوة واللواء وحجابه البيت لعبد الدار بن قصي ، وهو أُقل أولاده شرفًا ، وأكثرهم خمولاً ليرفعه ، والوظائف التي كانت لبنى عبد الدار :

السقاية : وهى جمع المال من قريش لسقى الحجاج في الموسم بالنبيذ والشراب الطيب .

والرفادة : مالٌ يجمع من قريش يكون رفداً لمن تعطل أو افتقر يعطى منه ما يوصله إلى أهله .

واللواء: حمل اللواء في الميدان عند التحام الحروب .

ودار الندوة : هي الدار التي كانت قريش لا يعقدون ولا يحلون أمراً إلا بها .

والحجابة : سدانة البيت والقيام بما يصلحه .

وأولاد عبد مناف بن قصي أربعة :

١ - هاشم بن عبد مناف .

٢ - والمطلب بن عبد مناف .

٣- ونوفل بن عبد مناف .

٤ - وعبد شمس بن عبد مناف .

وهاشم والمطلب وعبد شمس أشقاء ، ولما شب أبناء عبد مناف أرادوا نزع هذه الوظائف من بني عبد الدار، ووقع خلاف، ثم تحالفوا للقتال، ثم اصطلحوا على أن تكون السقاية والرفادة لبنى عبد مناف ، ويبقي لبنى عبد الدار اللواء والندوة وحجابه البيت .

وكانوا يفتخرون بذلك فقال الله لهم : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [التوبة: ١٧ - ٢٢] .

والله عليمٌ حكيم، وقادرٌ على كل شيء، ورءوفٌ بالعباد ، جعل من شر أمة خير أمة ، وجعل شر القرون خير القرون ، ببعثة نبيه محمد ﷺ، وقد رد الله أصحاب الفيل وهم نصارى عن هدم الكعبة مع أن قريشاً كانوا مشركين بالله ﷻ، حفظاً لبيته الذي بناهُ خليلة إبراهيم ﷺ، ولأنه سيولد في قريش سيد الأنبياء والرسل محمد ﷺ الذي أرسله الله رحمةً للعالمين

قال الله تعالي : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾[الفيل:١-٥] .

ولما بعث الله محمدًا ﷺ ودعا قومه إلى الإسلام ، كانوا نواة خير أمة أُخرجت للناس .

قال الله تعالي : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾[الجمعة:٢] .

فصاروا بفضل دعوة النبي ﷺ خير أمة، كما قال سبحانه : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾[آل عمران:١١٠] .

فالله بقدرته أرسل نبيًا أمياً إلى أمة أمية، جاهلة، ظالمة، مشركة ، فنقلهم ﷺ بإذن الله من شر أمة إلى خير أمة ، ومن شر القرون إلى خير القرون ، وحولهم الله ﷻ ببعثة هذا النبي الكريم من الشرك إلى التوحيد، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن الجهل إلى العلم ، ومن الظلم إلى العدل ، ومن الفُرقة

إلى الوحدة: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران:١٦٤] .

وقال الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٣-١٠٤] .

فلله الحمد والمنة على أن أكرمنا بهذا الدين العظيم ، وأرسل إلينا هذا الرسول الكريم ، وأنزل علينا هذا الكتاب العظيم : ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [الجاثية:٣٦-٣٧] .

فقه المثل الأعلى :

المثل الأعلى في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ قسمان :

الأول : المثل الأعلى الذي لا يماثل ، وهو الله ﷻ وحده لا شريك له : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص:١-٤] .

وقال الله تعالي : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم:٢٧] .

وقال الله تعالي : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى:١١] .

الثاني : المثل الأعلى، وهو ثلاثة أنواع :

الأول : المثل الأعلى في الشرع، الذي جعله الله جارياً على أحسن الوجوه ، وأكملها ، وأبدعها ، وأتمها ، **ويدور حُسنه على ثلاثة أصول** :

جلب المصالح .. ودرأ المفاسد .. والجري على مكارم الأخلاق .

فالأول يسمى الحاجيات

والثاني يسمى الضروريات

والثالث يسمى التحسينات

قال الله تعالي : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ ﴿٣﴾ ﴾ [المائدة:٣] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [النحل:٨٩] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الحجر:٨٧].

الثاني : المثل الأعلى في أعمال وأخلاق العاملين بذلك الشرع الأعلى، كما قال الله تعالي : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم:٤] .

وقال الله تعالي : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ

فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾[الفتح:٢٩] .

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[الأنفال: ٢ - ٤].

الثالث : المثل الأعلى في ثواب وجزاء العاملين يوم القيامة، كما قال سبحانه: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴾ [الرعد:٣٥] .

وقال الله تعالي : ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ ﴾[محمد:١٥] .

فهذه أمثله المثل الأعلى في نظام الإسلام، وأخلاق العاملين به، وثواب ذلك العمل: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾[آل عمران:٨٥] .

وقال الله ﷻ: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾[المائدة:٤٩-٥٠] .

أما الكفار فلهم مثل السوء في النظام ، والخُلق ، والجزاء ، فليس لهم إلا مثل السوء في نظامهم، وأخلاقهم، وجزاء أعمالهم يوم القيامة، كما قال

سبحانه : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥ ﴾ [الجمعة:٥] .

وقال الله تعالي : ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٦٠ ﴾[النحل:٦٠] .

وقال الله تعالي : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ١٠ ﴾[الروم: ١٠] .

وقال الله تعالي : ﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ١٧٧ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٧٨ ﴾ [الأعراف:١٧٧-١٧٨] .

٢- الخزانة الثانية

فضائل هذه الأمة :

هذه الأمة أفضل الأمم ، وخيرها على الإطلاق كما قال سبحانه : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾[آل عمران:١١٠] .

فهذه الأمة أفضل من بني إسرائيل، فقد ابتلى الله أصحاب النبي ﷺ بخوف، وابتلاهم بطمع ، وابتلى بني إسرائيل بخوف، وابتلاهم بطمع .

والابتلاء الذي يظهر به الفضل وعدمه إنما يكون بخوفٍ أو طمع : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾[العنكبوت:٢-٣] .

فابتلى الله ﷻ الصحابة في بدر بخوفٍ من عدوهم، فصبروا وثبتوا ونُصروا.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾[آل عمران: ١٢٣] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾[الأنفال:٢٦] .

وقال الله تعالى: ﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾[البقرة:٢٨٥].

وابتلى الله سبحانه بني إسرائيل بخوفٍ من الجبارين، فجبنوا وخافوا وعوقبوا بالتيه، كما قال سبحانه : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[المائدة:٢٠-٢٢] .

ولما قالوا ذلك عاقبهم الله بالتيه أربعين سنة، كما قال سبحانه : ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۗ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾[المائدة:٢٤-٢٦] .

وابتلى الله ﷻ الصحابة بالصيد وهم محُرمون في الحديبية ، فأطاعوا ولم يمسه أحد منهم، كما قال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ ﴾[المائدة:٩٤] .

وابتلى الله ﷻ بني إسرائيل بوفور السمك يوم السبت، فاعتدوا على ذلك الصيد فمُسخوا قردة، كما قال سبحانه :﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ ﴾[البقرة:٦٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾[الأعراف: ١٦٦] .

وجعل الله ﷻ المقتصد من بني إسرائيل أعلاهم رتبه، كما قال سبحانه: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [المائدة:٦٥-٦٦] .

وجعل سبحانه في هذه الأمة درجة أعلى، وهى السابق بالخيرات، كما قال سبحانه : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ [فاطر:٣٢-٣٥] .

والصحابة رضي الله عنهم صدقوا الرسل، وصدقوا رسول الله ﷺ : ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الزمر:٣٣].

وقال الله ﷻ : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ [البقرة:٢٨٥].

وبنو إسرائيل عادوا الرسل، وكذبوهم، وقتلوهم، كما قال سبحانه : ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ

بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ [المائدة:٧٠-٧٤] .

فضائل الصحابة رضي الله عنهم :

أصحاب النبي ﷺ هم أفضل الخلق بعد الأنبياء والرسل ، فهم أبر هذه الأمة قلوبًا ، وأعمقها علمًا ، وأقلها تكلفًا ، قومٌ اختارهم الله لصحبه نبيه، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، فإنهم على الهدي المستقيم أولئك أصحاب محمد ﷺ: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح:٢٩] .

وهم خير الناس بعد الأنبياء، كما قال النبي ﷺ : « خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ » . متفق عليه[1] .

فحب الصحابة سُنة، والدعاء لهم قربة، والاقتداء بهم وسيلة، والأخذ بآثارهم فضيلة، فهم الذين هاجروا في سبيل الله، وهم الذين نَصروا في سبيل الله ، فرضي الله عنهم ورضوا عنه: ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٢٦٥٢)، ومسلم برقم: (٢١٢/ ٢٥٣٣)واللفظ له.

يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح:١٨] .

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [البينة:٧- ٨] .

وخير الأمة بعد نبيها ﷺ هم الخلفاء الراشدون الأربعة :

أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم على رضي الله عنهم أجمعين .

فهؤلاء الأربعة خير الناس، وهم خلفاء راشدون مهديون .

ثم خير الناس بعد هؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ، نحبهم جميعًا، ونذكر محاسنهم ، ونكف عن مساوئهم ، ونقول فيما شجر بينهم هم مجتهدون، فمن أصاب فله أجران ، ومن أخطأ فله أجرٌ واحد ، ونترضى عنهم جميعًا ، كما رضي الله عنهم، كما قال سبحانه : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة:١٠٠] .

والخلفاء الراشدون رضى الله عنهم أئمة مهديون أوصانا النبى ﷺ بأن نتبع سُنَّةَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ بَعْدِي تمسكوا بها وعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ ». أخرجه أبو داود [1] .

وأبو بكر رضي الله عنه أفضل هذه الأمة بعد نبيها، وهو الصديق الذي صدق الرسول ﷺ بكل ما جاء به: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزمر:٣٣].

---

(١) أخرجه أبو داود برقم: (٤٦٠٧).

وسماه الله ﷺ صاحبه، كما قال سبحانه : ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ﴾[التوبة:٤٠] .

وأفضل هذه الأمة بعد أبى بكر ﷺ عمر بن الخطاب ﷺ ، الذي كان محدثاً ملهمًا، والمحدث الذي يأخذ عن قلبه، الذي قد يصيب ويخطئ .

والصديق أفضل من عمر ﷺ، لأن الصديق كان يتلقى عن رسول اللهﷺ لا عن قلبه، وعمر كان يتلقى عن الرسول ﷺ، وجُعل الحق على لسانه، ولكن الصديق أفضل منه وأعلم، فهو أول من آمن بالنبيﷺ من الرجال، وهو الذي صاحبه في الغار، وفي الهجر، وهو الذي أنفق جميع ماله في سبيل الله.

فأبو بكر وعمر رضي الله عنهما كمل زهدهما في الرياسة والأموال ، وعثمان ﷺ كمل زهده في الرئاسة، وتأول في الأموال، وعلى ﷺ كمل زهده في الأموال، وتأول في الرئاسة ، وكلهم من السابقين الأولين في الإسلام، وكلهم من المهاجرين ، وكلهم من الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، كما قال سبحانه : ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾[التوبة:١٠٠] .

وقال النبي ﷺ : « اقْتَدُوا بِالَّذِينَ مِنْ بَعْدِي أَبِي بَكْرٍ ، وَعُمَرَ ».أخرجه أحمد والترمذي[1] .

(١)**صحيح**، أخرجه الترمذي برقم (٣٦٦٢)، وأحمد برقم(٢٣٢٩٣) .

٣-الخزانة الثالثة

أفضل الخلق:

أصح المخلوقات مِزاجًا هم بنو آدم الذين خلق الله أباهم آدم بيده، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وعلمه أسماء كل شيء، وجعله وذريته في الدنيا هم خلفاء الأرض، وجعل من آمن به جليسه يوم القيامة: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ﴾[القمر:٥٤-٥٥] .

فما أعظم تكريم الله لأدم وذريته: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾[الإسراء: ٧٠]

فأصح المخلوقات مِزاجًا هم بنو آدم ، وأصح بني آدم مِزاجًا هم المؤمنون ، وأصح المؤمنين مِزاجًا هم الأنبياء والرُسل عليهم الصلاة والسلام، فهم أعرف الخلق بالله ، وهم أحسنهم عبادة له، ودعوة إليه .

وأصح الأنبياء مِزاجًا هم أولو العزم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد عليهم أفضل الصلاة والسلام .

وأصح أولي العزم مِزاجًا هم الخليلان : إبراهيم ﷺ ومحمد ﷺ .

وأفضلهما محمد ﷺ الذي كان أحسن الناس خَلقًا وخُلقا ، وكان خُلقه القرآن ، يتأدب بآدابه ، ويعمل بأحكامه ، ويحُل حلاله ، ويحُرم حرامه : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾[القلم:٤] .

فأفضل الخلق الأنبياء والرُسل، وأفضل الأمم أمة محمد ﷺ، وأفضل الناس بعد الأنبياء والرُسل المهاجرون والأنصار، والمهاجرون أفضل من الأنصار؛

لأن المهاجرين جمعوا بين الهجرة في سبيل الله، والنصرة في سبيل الله، تركوا ديارهم، وأموالهم، وأهلهم، وهاجروا إلى الله ورسوله، ونصروا رسوله ، وجاهدوا معه .

والأنصار آووا ونصروا، فآووا النبي ﷺ في المدينة، ونصروه، ومنعوه: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾[الحشر: ٨-١٠] .

وقال الله تعالي : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾[الأنفال:٧٤].

وقال الله تعالي : ﴿ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ ﴾ [الأنفال:٧٢] .

فأفضل الخلق بعد الأنبياء ولرُسل هم أصحاب محمدٍ ﷺ ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾[التوبة:١٠٠] .

وأفضلهم الخلفاء الأربعة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، فلما صعد النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان على جبل أحد ارتج بهم فرحًا فقال الرسول ﷺ: « اثْبُتْ أُحُدُ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ ». أخرجه البخاري[1] .

وجميع نساء النبي الرسول ﷺ أمهات المؤمنين وهن : ﴿ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥ ﴾ [التحريم:٥] .

وأفضل نساء الرسول ﷺ خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، وعائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فهن أفضل نساء النبي ﷺ، وأحب النساء إليه .

فخديجة أول امرأة تزوجها الرسول ﷺ، ولم يتزوج عليها أحداً حتى ماتت ، آمنت به، وصدقته ، وبذلت أموالها في سبيل الله، وولدت له بناته الأربع : زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، وأولاده القاسم، وعبد الله ، وكانت امرأة عاقلة ذكية حكيمة ، لها مآثر طيبة معروفة .

وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها كانت امرأة ذكية ، ولم يتزوج رسول الله ﷺ بكرًا غيرها ، ولكل واحدة منهما مزية تختص بها ، ولا تشاركها فيها الأخرى .

فخديجة رضي الله عنها لها في أول الرسالة من مناصرة النبي ﷺ ، ومعاضدته ، وبذل مالها في سبيل الله ما ليس لعائشة رضي الله عنها .

وعائشة رضي الله عنها لها في آخر الرسالة ، وبعد موت النبي ﷺ، من نشر العلم والشريعة ما ليس لخديجة ، فلكلٍ منهما مزية تختص بها .

أما الفضيلة فكفاهما فخرًا أنهما من أمهات المؤمنين، وأحب نساء النبي ﷺ إليه.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: (٣٦٧٥).

أفضل أماكن العبادة : أفضل أماكن العبادة ثلاثة :

الأول : العرش العظيم، فوق السماء السابعة .

الثاني : البيت المعمور، في السماء السابعة .

الثالث : الكعبة بيت الله الحرام، في الأرض .

فأعظم ما يُعبد الله ﷻ فيه هو العرش العظيم الذي تطوف به الملائكة، كما قال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾ ﴾ [غافر:٧] .

وفوق السماء السابعة البيت المعمور، يطوف به كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه آخر ما عليهم: ﴿ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ﴿٥﴾ ﴾ [الطور:٤ -٥] .

والثالث بيت الله الحرام الذي يُعبد الله ﷻ فيه في الأرض من الإنس والجن والملائكة: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [آل عمران: ٩٦] .

والدنيا بالنسبة إلى الآخرة كالفرع بالنسبة إلى الأصل ، وكالظل بالنسبة للجسم ، وكل ما في الآخرة فلابد له في الدنيا من مثال .

فعالم الروحانيات، عالم الأنوار، والأضواء، والبهجة، والسرور، والروحانيات مختلفة في الكمال والنقصان ، ولابد أن يكون واحدًا منها هو أشرفها، وأعلاها، وأكملها، ويكون ما سواه في طاعته ، وهو جبريل ﷺ الرسول الملكي في العالم العلوي كما قال الله عنه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ ﴾ [التكوير: ١٩ – ٢١]

وكذلك في الأرض لابد من شخص واحد هو أشرف أشخاص هذا العالم، وأكملها، وأعلاها ، ويكون كل ما سواه في الأرض في طاعته، وهو محمد ﷺ، كما قال سبحانه : ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾[الأعراف:١٥٨] .

وقال الله ﷻ : ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴿٢١﴾ ﴾[الأحزاب:٢١] .

ولابد أن يكون بين هذين المُطاعين ملاقاة بين الرسول الملكي، والرسول البشري، لتحصل السعادة للخلق في الدنيا والآخرة، كما قال سبحانه: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ﴿١٩٥﴾ ﴾[الشعراء: ١٩٣-١٩٥] .

ولابد لهذا الرسول البشري أن يبلغ ما أُرسل به إلى أمته، كما قال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأحزاب:٤٥ -٤٨] .

أفضل المكان والزمان:

ومن أعظم مخلوقات الله السماوات والأرض، والمكان والزمان: ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾[آل عمران:١٩٠] .

وهذه الأمة خير الأمم، وآخر الأمم، فهي خير الأمم في كل فضيلة ، وكتابها هو آخر الكتب ، وهو أحسن الكتب، ورسولها ﷺ آخر الرُسل وسيد الأنبياء والرُسل .

والله سبحانه خلق المكان والزمان ، فجعل المكان ظرفًا للأشياء ، وجعل الزمان ظرفًا للأعمال .

الله تعالى جعل البركة في الثلث الأخير من الأزمان ، فأفضل كل ليلة هو جوف الليل الآخر، وذلك لأن الله ينزل فيه إلى السماء الدنيا ويقول : « هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ » . متفقٌ عليه[1] .

وأفضل أيام الأسبوع آخره يوم الجمعة ، وأفضل يوم الجمعة آخر ساعة بعد العصر ، لأن هذه الساعة يُستجاب فيها الدعاء .

وأفضل الأشهر رمضان ، وأفضل رمضان العشر الأواخر منه وهي الثلث الأخير من الشهر الذي تُرجى فيها ليلة القدر .

وأفضل أشهر السنة الثلث الأخير، فالسنة اثنا عشر شهراً أفضلها الثلث الأخير الأربعة منها، رمضان ، وشوال ، وذو القعدة ، وذو الحجة .

ففي رمضان ليلة القدر ، وفي شهر ذي الحجة يوم عرفة : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [التوبة:٣٦] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٦٣٢١) واللفظ له ، ومسلم برقم: (١٦٨/ ٧٥٨).

٤ - الخزانة الرابعة

أفضل الخلق:

الله ﷻ هو المُنعم بكل نعمة على جميع بني آدم، كما قال سبحانه : ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم:٣٤] .

وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء:٧٠] .

وخص الله ﷻ الأنبياء والرُسل بأحسن العلوم والمعارف ، وأحسن الأقوال والأعمال ، وأحسن الصفات والأخلاق، كما قال سبحانه : ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾ [النساء:١١٣] .

وقال الله ﷻ عن الأنبياء: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنبياء:٩٠] .

فالأنبياء والرُسل هم قدوة الناس، فورث عنهم العارفون بعض المعارف ، والأحوال، المتعلقة بالقلوب: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [الملك:١٢] .

وورث عنهم الفقهاء التقرب إلى الله بمعرفة الأحكام المتعلقة بالجوارح والأبدان وتعليمها : ﴿ كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [آل عمران:٧٩] .

وورث عنهم العُبَّاد التقرب إلى الله بالأقوال والأعمال .

وورث عنهم الزُهاد الترك والإقلال .

وخص الله الأنبياء بالمعجزات والكرامات ، وشاركهم بعض الأولياء في بعض الكرامات .

ومن تعلق بالله أشغل قلبه وقالبه بما يحبه الله ويرضاه كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الأنفال: ٢ – ٤].

ومن تعلق قلبه بغير الله فقد أعرض عن الله بقدر ما اشتغل به ، وأشغل الشيطان قلبه وقالبه بما يبغضه الله ويكرهه: ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾ [الكهف:٥٠] .

وقال الله ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [سبأ:٢٠] .

ومن أراد معرفة مراتب الأولياء فلينظر إلى ما يظهر عليهم من آثار المعارف ، والأحوال، ومعرفة ما يغلب عليهم من الأقوال والأعمال، فإن للأحوال آثارًا تظهر على الجوارح والأبدان كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا

وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾[السجدة:١٥-١٧] .

فمن غلبت عليه آثار الخوف من البكاء والوحل عند ذكر الوعد والوعيد فهو من الخائفين من الله، كما قال سبحانه : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾[الزمر:٢٣] .

ومن غلب عليه السرور والاستبشار عند ذكر الوعد فهو من الراجين لله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾[الأنبياء:٩٠] .

ومن غلب عليه عند ذكرهما فهو من الخائفين الراجين .

ومن غلبت عليه آثار البشاشة والهشاشة عند ذكر الجمال فهو من المُحبين لله.

ومن غلب عليه الانقباض والذل عند ذكر العظمة والجلال فهو من الهائبين المعظمين لله ، ومن غلب عليه الرضا والصبر عند نزول النوازل، وحلول المصائب، فهو من المتوكلين على الله

قال الله تعالي : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾[التغابن:١٣] .

ومن غلبت عليه كل هذه الأحوال فهو الأفضل .

ومن غلبت عليه محبة التذلل لله فهو أفضل ممن غلبت عليه محبة الإنعام ، وغلبة الخوف خير من غلبة الرجاء: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ ﴾[الإسراء: ١٠٩] .

وقال الله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [المؤمنون:١-٢] .

وقد يبكي أحدهم، لما يراه من عظمة ربه ، ويضحك، لما يراه من سعة رحمته، وطمعًا في القرب منه ، وقد يبكي خوفًا من طرده وإبعاده .

فسبحان من أنعم عليهم، وأحسن إليهم: ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ ﴾[الزمر:١٧-١٨].

وجنة المعرفة في الدنيا أفضل من جنة الدار الآخرة ؛ لأن جنة الآخرة ثمرة جنة المعرفة ، وجنة المعرفة بالله متعلقة بالرب ، وجنة الآخرة متعلقة بشهوات العبد : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾[محمد: ١٩] .

ومن لم يدخل جنة المعرفة في الدنيا، لم يدخل جنة الآخرة يوم القيامة: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾[الرحمن: ٤٦] .

ورؤية الله، ورضوانه، والقرب منه، وسماع كلامه وسلامه، أعظم ما في الجنة الآخرة: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾[التوبة:٧٢] .

وأسعد الناس في الدنيا والآخرة من آمن بالله، وفعل الواجبات ، واجتنب المحرمات ، وقام بالمستحبات ، وعزف عن المكروهات: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾[فصلت:٣٠-٣٢] .

والشرع ميزان تُوزن فيه الرجال والنساء ، والأقوال والأعمال ، والمعارف والأحوال فمن رجح في ميزان الشرع فهو الرابح، ومن خف في ميزان الشرع فهو الخائب الخاسر: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾[العصر:١-٣].

ومن رجح في ميزان الشرع كان من أولياء الرحمن، ومن خف في ميزان الشرع كان من أولياء الشيطان، فأولئك أهل الخسران .

وتتفاوت خفتهم في الميزان، فأخسها مراتب الكفار، وأدناها مراتب العصاة : ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْاْ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٦-٨] .

والعاقل إذا عرف الطريق المستقيم سلكه، وإذا عرف الطريق المعوج أعرض عنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾[آل عمران:٥١] .

وقد يتفضل الله بنعيم الجنة على غير عمل مكتسب كما تفضل على الحور العين ، وكما يُنشئ الله للجنة أقوامًا ، ويسكنهم في فضولها من غير عمل سابق ، وكما يتفضل الله في الدنيا على بعض عباده بكمال العقول، وحُسن الصور، ومكارم الأخلاق، وقوة الحواس، وكمال القوى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾ [آل عمران:٧٣- ٧٤] .

وقال الله ﷻ: ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾ [البقرة:٢٦٩] .

وقد يُعذب الله أقوامًا في الدنيا والآخرة من غير جُرم سابق، وله الحكمة البالغة، والحجة السابغة، وذلك كقبح الصور، وسخافة العقول ، وضعف القوى، ولزوم الأمراض، والآلام ، والهموم ، والغموم كما يُنشئ في النار أقوامًا فيعذبهم بها من غير كفر متقدم، ولا عصيان سابق ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته وهدايته، ومن يستحق رحمته، ومن يليق به عذابه، وهو الحكيم الخبير: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنعام:١٠٢- ١٠٣] .

أقسام الفضائل :

أكثر الناس خاسرون ، وأقلهم الرابحون، فمن أراد أن يعرف خسرانه وربحه فليعرض نفسه على القرآن والسنة ، فإن وافقهما فهو الرابح ، وإن خالفهما

فهو الخاسر : ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾[العصر:١-٣].

فمن ربح في ميزان الشرع، فهو من أولياء الله، ومراتب الرُجحان درجات، فأعلاها مراتب الأنبياء والرسل، وهم درجات، ثم مراتب المؤمنين، وهم درجات: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ۝٤﴾[الأنفال:٢- ٤].

ومن خف في ميزان الشرع، فأولئك أهل الخُسران ، ومراتب الخسران درجات، أخسها مراتب الكفار ، والمشركين والمنافقين ، ثم مراتب أهل الكبائر ، ثم مراتب أهل الصغائر : ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ۝١٣٢﴾[الأنعام:١٣٢] .

وقال الله ﷻ: ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝١٦٢ هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ۝١٦٣﴾[آل عمران: ١٦٢-١٦٣] .

وقال الله ﷻ : ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ۝٧ وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ۝٩ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةُۢ ۝١١﴾[القارعة/ ٦-١١] .

والفضائل ضربان :

أحدهما : فضائل الجمادات كفضل الذهب على الفضة ، وفضل الفضة على الحديد ، وفضل النور على الظلمات ، وفضل الحسن على القبيح .

الثاني : فضائل الخيرات ، وهي أقسام :

أحدها : حسن الصورة ..

والثاني: قوى الأجسام .

والثالث : قوى الصفات الداعية إلى الخير، والوازعة عن الشر، كالإيمان والتقوى ، والحياء والحِلم ، والشجاعة والأناة، والكرم والسخاء ، وغير ذلك من الصفات: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّآئِمِينَ وَٱلصَّآئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾[الأحزاب:٣٥] .

والرابع : العقول .. **والخامس** : سلامة الحواس .

والسادس : العلوم المكتسبة، وأعلاها العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، وخزائنه ، ودينه وشرعه ، ووعده ووعيده ، والعلم بملائكته وكتبه ورُسله ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره ، ثم القيام بعبادة الله، بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾[محمد: ١٩] .

وقال الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾[الحج:٧٧] .

والفضل محصور في أوصاف الكمال ، والكمال يكون بحسب المعارف ، والأحوال ، والطاعات ، والكرامات: ﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾[الزمر:٩].

أقسام الناس:

الناس اثنان :

أعمى .. ومُبصر.

فالمبصر هو المؤمن، والأعمى هو الكافر: ﴿ أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩﴾ ﴾[الرعد:١٩] .

وقال سبحانه: ﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾[الزمر:٩]

ومن أعظم صفات المؤمنين :

قال الله تعالي : ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّآئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾[التوبة:١١٢] .

وقال الله ﷻ: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا

رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾[الأنفال: ٢ - ٤].

وقد أحسن الله إلى أجساد الأنبياء، والأولياء، والمؤمنين في الجنة بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾[السجدة:١٥- ١٧].

وأحسن سبحانه إلى أرواحهم بالمعارف الكاملة، والأحوال النافعة، والكرامات الخاصة، من النظر إلى وجه الله الكريم، والقرب منه، ورضاه عنهم، وسلامه عليهم: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾[غافر:٤٠].

وقال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾[القمر:٥٤-٥٥].

وقال الله ﷻ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾[التوبة:٧٢].

وقال الله تعالي: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾[القيامة:٢٢-٢٣].

وقال الله تعالي : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفجر:٢٧-٢٨] .

وللسكن والساكن أحوال :

أحدها : أن يكون الساكن أفضل من المسكن، كفضل الروح على البدن ، وإذا كان الشرف للساكن، فلا مبالاة بخساسة المسكن .

الثاني : أن يكون المسكن أشرف من الساكن كبطن الأم المؤمنة التي تلد كافراً، فإن الأم هنا أشرف من ولدها الكافر .

الثالث : أن يتساويان في الشرف كالأم المؤمنة تلد مؤمنًا ، والثاني الأم المؤمنة تلد كافرًا ، والأول كالأم الكافرة تلد مؤمنًا: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [آل عمران:٧٣] .

٥- الخزانة الخامسة

أفضل المطالب :

المؤمنون في مطالبهم ثلاثة أقسام :

الأول : من طلب لذات المعارف الإلهية، وأحسن الأحوال والأفعال في الدنيا ، وطلب لذة النظر إلى وجه الله، والقرب منه في الآخرة ، فهذا أفضل الطالبين، لأن مطلوبه أفضل من كل مطلوب: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾[فاطر: ٢٨] .

وقال الله ﷻ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ [الملك:١٢] .

وقال الله ﷻ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾[الأنفال: ٢ - ٤].

الثاني: من طلب نعيم الجنان، وأفراحها، ولذاتها، ومسراتها، فهذا في الدرجة الثانية؛ لأن مطلوبه حظ الجسد فقط : ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾[البقرة:٢٥] .

الثالث : من طلب أفراح هذه الدار الدنيا، ولذاتها ، وطلب لذات الآخرة.

فهذا في الدرجة الثالثة، وهذه في أدنى الدرجات: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾[الأعراف: ٣٢] .

وأعظم ما يتقرب به المؤمنون إلى ربهم التذلل لعزة الربوبية ، والتصاغر لكبريائه جل جلاله ، والخضوع لعظمته ، والتبري من الحول والقوة إلا به : ﴿ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ ﴾[الذاريات: ٥٠-٥١] .

وقال الله ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾[الحج:٧٧] .

والدنيا دار الإيمان ، والابتلاء والعمل ، والآخرة دار الثواب والعقاب ، ودار السعادة والشقاوة: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ ﴾[هود:١١٢] .

ولو شاء الله لما جعل في الطاعات شيئاً من المكاره والمشقات، كما فعل بالملائكة ، ولما جعل في المعاصي شيئاً من الراحات واللذات ، ولو فعل ذلك لبطل التكليف ، ولما قعد أحد عن طاعة الله ، ولا أقدم أحد على معصيته ، ولكن رحمة الله أن سبق القضاء بشدة الابتلاء كما قال سبحانه : ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾[العنكبوت:٢-٣] .

وقد جبل الله خلقه على الميل إلى الأفراح واللذات، والنفور من المكروهات والمؤلمات، وحف الجنة بالمكاره، وحف النار بالشهوات، لحكمة الابتلاء كما قال النبي ﷺ: « حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ ».أخرجه مسلم[1] .

فوعد سبحانه من عصى هواه، وأطاع مولاه، بالجنة والرضوان، ترغيبًا في الطاعات، ليتحملوا مكارهها، ومشاقها، ثم يفوزوا بالجنة ورضوان ربهم كما قال سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾[التوبة:٧٢] .

وتوعد من عصى مولاه، واتبع هواه بالنار، وسخط الرحمن، زجرًا عن المعاصي والمخالفات؛ ليجتنبوا ملاذها ورفاهيتها كما قال سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾[التوبة: ٦٨] .

ومدح سبحانه الطائعين، ترغيبًا لهم في الدخول في حمده ومدحه ، وذم العاصين، تنفيرًا لهم من الدخول في لومه ولعنته: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾[الفتح:١٧] .

وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾[النساء: ١٤].

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (١/ ٢٨٢٢).

والأمور كلها بيد الله وحده ، وكل ما سواه ليس بيده شيء : ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾[الملك: ١] .

وقال الله ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٥٤﴾[الأعراف:٥٤] .

فضل البصائر والأبصار :

الله ﷻ خلق الإنسان في أحسن تقويم، وزوده بآلات العلم والمعرفة كما قال سبحانه : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨﴾[النحل:٧٨] .

والبصائر كالأبصار، فالأبصار نرى بها الأشياء ، والبصائر نعقل بها الأشياء ، والبصائر كالأبصار، فمن حرص أن يرى ببصره ما وارته الجبال عنه فلن يستطيع، لقيام الساتر بينه وبينه ، وكذلك من حرص أن يرى ببصيرته ما غيبه الله عنه فلن يستطيع؛ لأن الله أعطى لخلقه من علمه ما شاء، ومنعهم ما شاء، كمعرفة العقل، والروح، ورؤية الهواء والأصوات، ليعرف العبد الخالق من المخلوق ، والرب من العبد ، والقادر من العاجز، وأنه لم يؤت من العلم إلا قليلا : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٥﴾[الإسراء:٨٥] .

وقال الله ﷻ : ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ۝١٠٤﴾[الأنعام:١٠٤] .

وقال الله ﷻ : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج:٤٦]

وما من طاعة لله خالصة إلا أحدثت نورًا في القلب ، وكلما كثرت الطاعات زادت الأنوار : ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحديد:٢١] .

وقال الله ﷻ : ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النور:٣٥] .

وما من معصية لله إلا أحدثت ظلمة في القلب ، وكلما كثرت المعاصي تراكمت الظلمات : ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾ [البقرة:٢٥٧] .

ولو أن الرب سبحانه عرَّف عباده نفسه وأوصافه من غير نظر ولا استدلال، لهاموا في جلاله ، وتحيروا في جماله ؛ لكنه سبحانه كشف الحجاب بينه وبين السعداء، فرأوا ببصائرهم عظمة ذاته، وأسمائه، وصفاته ، وأفعاله وأسدل الحجاب بينه وبين الأشقياء ، فلا يستطيع أحد منهم كشف حجاب سدله: ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النور:٤٠] .

وقال الله ﷻ عن الكفار: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ﴾ [المطففين:١٥ -١٦] .

فكما حجبوا أنفسهم عن معرفة الحق ، ولم يعملوا به ، كذلك حُجبوا عن رؤية الله يوم القيامة .

وقد رغب الله في القرآن بالطاعات، ومدحها، ومدح فاعليها، ووعدهم عليها بالرضوان، وأنواع المثوبات، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ٧٠ ﴾[النساء: ٦٩ -٧٠] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٣ ﴾[النساء: ١٣] .

وحذر الله في القرآن من المعاصي، وذمها، وذم فاعليها، وتوعدهم بالسخط ، وأنواع العقوبات : ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٤ ﴾[النساء: ١٤].

فقه الأسماء والصفات:

ذكر الله في القرآن الكريم أسماءه وصفاته وأفعاله ؛ ليُرغِب عباده في طاعته ، ويحذرهم من معصيته : ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١ ﴾[يونس:١٠١] .

وقال الله ﷻ: ﴿ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ٦ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٧ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ٨ ﴾ [ق:٦ -٨] .

فالله ذكر في القران أسماءه وصفاته، ليُرغب العباد في طاعته ، ويحذرهم من معصيته، مثل أن يذكر الله للعباد سعة رحمته ليرجوه، ويعملوا بطاعته.

قال الله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ ﴾[غافر:٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾[الأعراف:١٥٦] .

ويذكر ﷻ شدة نقمته، ليخافوه، ويحذروا معصيته : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾[الحجر:٤٩-٥٠] .

ويذكر نظره إليهم، ليستحوا من اطلاعه عليهم، فلا يعصوه .

ويذكر سمعه لهم، ليحفظوا ألسنتهم من مخالفته: ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾[الإسراء:١] .

ويذكر جل جلاله تفرده بالعطاء ، والمنع، والنفع والضر، ليتوكلوا عليه : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[التغابن:١٣] .

وقال الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾[الأنعام:١٠٢] .

ويذكر لهم إنعامه عليهم، وإحسانه إليهم، ليحبوه ويطيعوه ، ولا يعصوه : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾[الروم:٤٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ ﴾[غافر:٦٨] .

ويذكر سبحانه أوصاف جلاله وكماله، ليعظموه ويهابوه، ويذكر بصره ليستحيوا من مراقبته، ويجمع سبحانه في القرآن بين أسماء جلاله وجماله، وبين ذكر رحمته وعقوبته، ويبين ذكر الجنة والنار، ليكون عباده بين الخوف والرجاء، كما قال سبحانه: ﴿ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾[الحجر:٤٩-٥٠] .

وقال الله تعالى: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩٨﴾ ﴾ [المائدة:٩٨] .

وقال الله تعالى:﴿ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ﴿١٣﴾ ﴾[التكوير:١٢ - ١٣] .

فيجمع الله بين أوصاف الجلال والجمال، ليُقبل الناس على الطاعات ، ويفوزوا بأنواع السعادات، ويحذروا من المعاصي والسيئات: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾[الحشر: ٢٢ -٢٤] .

٦- الخزانة السادسة

فضائل هذه الأمة :

خص الله هذه الأمة دون غيرها بصفات كريمة هي :

الأولى : أنهم خير أمة أُخرجت للناس ، كما قال سبحانه : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾[آل عمران:١١٠] .

الثانية : قوة العبادة، كما قال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ ﴾[الفرقان: ٦٤] .

وقال الله تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[السجدة:١٦-١٧] .

وقال الله تعالى: ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ الَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الذاريات:١٧-١٨] .

الثالثة : قوة الدعوة إلى الله، كما قال سبحانه : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ ﴾[الفرقان:٦٣-٦٤] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ

وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [التوبة:٧١].

الرابعة : أنهم قدوة للناس في العبادة، كما قال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الفرقان:٧٤].

الخامسة : أنهم قدوة للناس في العلم ، والتعليم ، كما قال سبحانه : ﴿كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [آل عمران:٧٩] .

السادسة : أن أعمارهم قصيرة ، وأعمالهم مضاعفة ، وعيوبهم مستورة ، وذنوبهم مغفورة: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [الأنعام:١٦٠] .

السابعة : أن الله أعطى هذه الأمة وظيفة الأنبياء والرسل وهي الدعوة والعبادة : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف:١٠٨] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٤] .

الثامنة : أن الله اجتبى هذه الأمة ، كما اجتبى الأنبياء، كما قال سبحانه: ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ ﴾ [الحج:٧٨] .

التاسعة : أن الله ﷻ تكفل لهم بغفران ذنوبهم إذا تابوا مهما كانت ، كما قال سبحانه : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ [الزمر:٩].

وقال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾[النساء:١١٠] .

وقد مدح الله ﷻ جهد الدعوة في الأمم السابقة انفراديًا ؛ لأن الجهد كان انفراديًا.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ ﴾[مريم: ٤١] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ ﴾[مريم:٥٤] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ ﴾ [مريم:٥١] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ ﴾[مريم:٥٦] .

ولما ختم الله النبوة ببعثة محمد ﷺ مدح محمدًا ﷺ مع أمته .

قال الله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾[آل عمران:١١٠] .

وقال الله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾[الفتح:٢٩] .

فمدح الله ﷻ هذه الأمة بأسرها مع نبيها ﷺ ، وكما مدحهم بالمشي في الدعوة مدحهم بقوة العبادة ، وحُسن الأخلاق.

قال الله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ٦٤ ﴾ [الفرقان:٦٣-٦٤] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٢ ﴾ [الرعد:٢٢] .

وقد توج الله هذه الأمة بأربعة تيجان ؛ لأنها أفضل الأمم وآخر الأمم ، فلا أمة بعدها إلى يوم القيامة ، وهذه التيجان:

تاج : ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران:١١٠] .

وتاج : ﴿ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ ﴾ [الحج:٧٨] .

وتاج : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا ﴾ [البقرة:١٤٣] .

وتاج : ﴿ لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة:١٤٣] .

ولقيام هذه الأمة بجهد نبيها ، وحملها أمانة الدعوة إلى الله .

ميزها الله ﷻ بأربعة أشياء :

الأول : أن الله قرن بين إيمان الأمة ، وإيمان نبيها .

قال الله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ ﴾ [البقرة:٢٨٥].

الثاني : أن الله ﷻ قرن بين جُهد النبي ﷺ، وجُهد أمته.

قال الله تعالى: ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ ﴾ [التوبة:٨٨-٨٩] .

فقرن بينهم في الجهد ، وقرن بينهم بالجزاء ، وهو الفلاح .

الثالث : أن الله قرن بين صفاته ﷺ وصفات أمته.

قال الله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ﴾ [الفتح:٢٩] .

فالجُهد المشترك يثمر الصفات الحسنة المشتركة .

الرابع : أن الله قرن حرمة هذه الأمة بحرمة نبيها ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأحزاب:٥٨] .

وقد خفف الله عن هذه الأمة في جميع الأحكام فأباح لهم الفطر في السفر ، والفطر من الصيام عند المرض ، والتيمم عند فقد الماء، والجمع بين الصلاتين عند الحاجة، وأكل الميتة عند الاضطرار، لتتفرغ الأمة لجهد الدعوة إلى الله .

ووضع عنهم الآصار والأغلال التي كانت على سبقهم؛ ليتفرغوا للدعوة إلى الله .

قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف:١٥٧] .

وفي الأمم السابقة ما طلب أحد من الأنبياء النصرة من قومه ، إلا موسى طلب من ربه أن ينصره بأخيه هارون ، وعيسى ﷺ طلب من الحواريين فقط نصرته، حين علم أنه سيرفع إلى السماء، فخاف أن يضيع الدين .

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الصف:١٤] .

أما هذه الأمة فنبيها طلب منهم النصرة جميعًا من أول يوم .

قال النبي ﷺ: « من يؤويني من ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة ».أخرجه أحمد وابن حبان[1] .

وطلب الله من جميع الأمة نصرته .

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ ﴾ [الصف: ١٤] .

(١) **صحيح**، أخرجه أحمد برقم(١٤٦٥٣)، وابن حبان برقم(٦٢٧٤).

فنصرة الأنبياء السابقين فقط، إما بالأنبياء كهارون، أو العلماء، أو الحكماء كالحواريين، أما نصرة محمد ﷺ، فهي فرض عين على كل الأمة.

قال الله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [آل عمران:١٣٢] .

وقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ ﴾ [الصف:١٤] .

فالكافر إذا قال: لا إله إلا الله ، مؤهل للدعوة إلى الله مباشرة بعد إسلامه ، فيجب عليه أن يبلغ هذا الدين ، وكل أذن في العالم يجب أن تسمع ما لها عند الله من الكرامة ، وماذا عليها من الوجبات ، وماذا عليها من العقاب لو كفرت .

قال الله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [إبراهيم:٥٢] .

وقال الله تعالى :﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء:١٠٧] .

وقال الله تعالى :﴿ وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [الأعراف:١٥٩] .

هؤلاء أنبياء من بني إسرائيل، أما أمة محمد ﷺ فكلهم يهدون بالحق.

قال الله تعالى: ﴿ وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴿١٨١﴾ ﴾ [الأعراف: ١٨١] .

وقال الله تعالى :﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [آل عمران:١١٠] .

فضائل إبراهيم ﷺ :

لما قام إبراهيم ﷺ بإظهار حُجة الله في التوحيد ونصرها، ودافع عنها، ونشرها، أكرمه الله، وأنعم عليه، وأحسن إليه، جزاءً على جُهده العظيم في الدعوة إلى التوحيد ، والذب عنه .

من تلك النعم، ووجوه الإكرام والإحسان:

أولاً: أن الله ﷻ جعله أمة .

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةًۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾[النحل:١٢٠-١٢٢] .

ثم أمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يتبع ملة إبراهيم خاصة، فقال سبحانه : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾[النحل: ١٢٣] .

ثانياً: ومن وجوه الإكرام والإحسان التي أكرم الله بها خليله إبراهيم ﷺ:

أن الله أعطاه حسن الحُجة على قومه ، وهداه إليها ، وأوقف عقله على حقيقتها ، وذلك من أشرف النعم ، وقد آتاه الله الحجة على ملك زمانه .

قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾[البقرة:٢٥٨] .

وأتاه الله ﷻ حُجة على أهله وقومه، كما قال سبحانه : ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ﴿٥٠﴾ ﴾[مريم:٤١ -٥٠] .

ثالثاً : أن الله ﷻ خصه ببناء بيته العتيق في مكة.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾[البقرة:١٢٧ -١٢٨] .

رابعاً: أن الله خص إبراهيم ﷺ بالرفعة والدرجات العالية في الدنيا والآخرة بالعلم والنبوة، والحكمة والشرف، والثواب العظيم في الجنة، كما قال سبحانه : ﴿ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾ ﴾[الأنعام:٨٣] .

خامساً : أن الله جعل إبراهيم ﷺ عزيزًا في الدنيا ؛ لأنه جعل أشرف الناس، وهم الأنبياء والرُسل من نسله إلى يوم القيامة جزاءً على قيامه بنشر التوحيد، والذب عنه ، والصبر على كل ذلك، كما قال سبحانه : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنعام:٨٤-٩٠] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الحديد:٢٦] .

سادساً : أن الله جعل إبراهيم في أشرف الأنساب ؛ لأن الأنبياء من بعده كلهم من ذريته، وأخرجه من أصلاب آباء طاهرين مثل نوح، فاكتمل شرفه من جهة الآباء ، ومن جهة الأولاد .

سابعاً : أن الله خص كل طائفة من طوائف الأنبياء من ذريته بنوع من الإكرام والفضل .

فالمُلك والسلطان والقدرة أعطى الله سليمان وداود منهما نصيبًا عظيمًا .

والبلاء الشديد خص الله به أيوب حتى قال الله عنه: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾[ص:٤٤] .

ومنهم من جمع بين المُلك والسلطان مع البلاء الشديد وهو يوسف ﷺ فإنه نال البلاء الشديد في أول الأمر، ثم وصل إلى المُلك في أخر الأمر، كما قال: ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يوسف:١٠١] .

ومنهم من خصه بقوة المعجزات ، والمهابة العظيمة ، والتقريب والتكريم العظيم ، وذلك في حق موسى وهارون : ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾[النساء:١٦٤] .

وقال الله ﷻ : ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾[الأعراف:١٤٤] .

ومنهم خصه الله بالزهد الشديد، والإعراض عن الدنيا ، وترك مخالطة الخلق ، وذلك في حق زكريا ويحيي وعيسى وإلياس : ﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾[الأنعام:٨٥] .

ولهذا السبب وصفهم الله بأنهم من الصالحين .

ثامناً: الأنبياء الذين لم يبق لهم بين الخلق أتباع وأشياع، وهم إسماعيل ، واليسع ، ويونس ، ولوط ، فهذه هي مراتب الأنبياء من ذريته ، وذكرهم الله على الترتيب كما سبق .

٧- الخزانة السابعة

فقه الملك:

أعظم المُلك، مُلك النبوة والرسالة، والنبوة أعظم مراتب المُلك؛ لأن الأنبياء والعلماء لهم أمر عظيم على بواطن الخلق، والجبابرة لهم أمرٌ على ظواهر الخلق، كما قال سبحانه عن أهل الكتاب: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾ النساء: [النساء:٥٤ -٥٥] .

والمُلك أنواع :

١- مُلك النبوة .

٢- ومُلك العلم .

٣- ومُلك العقل .

٤- ومُلك الصحة .

٥- ومُلك الأخلاق الحسنة .

٦- ومُلك المال .

٧- ومُلك القدرة .

٨- ومُلك البلاد .

وجميع أنواع المُلك بيد الملك وحده لا شريك له : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾[آل عمران:٢٦] .

وقال الله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾[الملك: ١] .

والله سبحانه يصطفي من خلقه من يشاء لما يشاء .

الله يصطفي من الملائكة رسلاً، ومن الناس، كما قال سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ ﴾[الحج: ٧٥] .

فرُسل الناس : لإبلاغ الوحي إلى أممهم، كما قال سبحانه ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [الأحزاب:٣٩] .

وقال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [المائدة:٦٧] .

ورسل الملائكة:

إما لإبلاغ الوحي إلى الرسل كما قال سبحانه عن جبريل ﷺ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾[التكوير: ١٩ – ٢١] وقال سبحانه: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾[الشعراء:١٩٣- ١٩٥] .

وإما أن يرسلهم الله بأمور غير الوحي، كما قال سبحانه : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأنعام:٦١ -٦٢] .

وقال سبحانه في رسل بني آدم إلى أممهم: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ ﴾ [البقرة:٢٥٣] .

وقال عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحديد:٢٦ -٢٧] .

وقال سبحانه في رُسل الملائكة والبشر : ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الحج:٧٥] .

وقد فضل الله بني إسرائيل على أهل زمانهم ؛ لأنهم كانوا هم المؤمنون الصالحون كما قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾[الأنبياء:١٠٥] .

لكن بني إسرائيل اليوم لا يستحقون هذه الأرض المقدسة فلسطين ؛ لأنهم ليسوا من عباد الله الصالحين كما كانوا في عهد موسى ، فهم أفضل العالمين حينما كانوا عباد الله الصالحين ، أما حين ضُربت عليهم الذلة ، والمسكنة ، واللعنة، والصغار، فهم ليسوا أفضل العالمين بل هم أذل عباد الله، كما قال سبحانه: ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾[آل عمران:١١٢] .

وقال الله ﷻ عنهم :﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾[المائدة:١٣] .

وأفضل العالمين هم هذه الأمة، كما قال سبحانه : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾[آل عمران:١١٠] .

فقه الاصطفاء :

إذا اصطفى الله ﷻ زمانًا، أو مكانًا، أو إنسانًا، فإنما يريد سبحانه أن يشيع ذلك الاصطفاء في كل زمان، وفي كل مكان ، ولكل إنسان .

فالزمان الذي اصطفاه الله: كرمضان، والأشهر الحرم، ويوم عرفة، وأوقات الصلوات الخمس ، وليلة القدر ، ويوم الجمعة ، ونحو ذلك .

والمكان الذي اصطفاه الله: كالمسجد الحرام، والمسجد النبوي، والمسجد الأقصى، ومساجد العالم ، ومناسك الحج .

أما الإنسان فاصطفى الله من بني آدم المؤمنين ، واصطفى من المؤمنين الأنبياء والرسل ، واصطفى من الأنبياء والرسل أولي العزم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عَلَيْهِم الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

واصطفى من أولي العزم الخليلين، واصطفى من الخليليين محمدًا ﷺ سيد الأنبياء والرسل، الذي كان خلقه القرآن، وقال عنه ربه : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾[القلم:٤] .

وشرع ذلك الاصطفاء؛ لتشييع العبودية لله، في كل زمان، وفي كل مكان، وفي حياة كل إنسان، كما قال سبحانه: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾[الأنعام:١٦٢-١٦٣] .

وقال سبحانه مبينًا عظمته ، وأن جميع خلقه قد اصطفاهم لعبادته ، كما قال سبحانه: ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾[الإسراء:٤٣-٤٤] .

وقال سبحانه: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾[الذاريات:٥٦] .

والله ﷻ يخلق ما يشاء ويختار ، ويصطفي من كل نوع أعلاه وأفضله ، وخلق سبحانه الجنات ، واصطفى منها جنة عدن التي غرسها بيده ، فهي سيدة الجنان : ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ ﴾[ص:٤٩-٥٠] .

وخلق سبحانه الملائكة، واصطفى منهم جبريل ﷺ الذي قال عنه ربه: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾[التكوير: ١٩ – ٢١] .

وخلق البشر ، واصطفى منهم سيد الأولين والآخرين ، وسيد الخلق يوم القيامة ، وسيد ولد آدم محمد ﷺ ، الذي قال عنه ربه مثنيًا عليه : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾[القلم:٤] .

وخلق السموات السبع، واصطفى منها العليا، وجعل فيها بيته المعمور، الذي يطوف به كل يوم سبعون ألفًا من الملائكة لا يعودون إليه آخر ما عليهم.

وخلق الأرض واصطفى منها العليا ، وخلق البلاد واصطفى منها مكة التي جعل فيها بيته العتيق ، متعبد الإنس ، والجن ، والملائكة: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾[آل عمران:٩٦] .

وخلق سبحانه الأشهر، وجعلها اثني عشر شهرًا، واختار منها الأربعة الحرم، وهي ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب، ثلاثة سرد، وواحد فرد.

وخلق الأيام، واصطفى منها يوم الجمعة، واصطفى من يوم الجمعة آخر ساعة ، التي يُستجاب فيها الدعاء، وخلق الليالي، واختار منها ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، وخلق الليل، واصطفى منه وسطه، وخلق الأوقات، واصطفى منها أوقات الصلوات الخمس : ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [القصص:٦٨] .

فسبحان الخلاق العليم ، الذي خلق جميع المخلوقات في العالم العلوي ، والعالم السفلي، واختار منها من كل نوع سيد: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾[الكهف:٥١] .

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾[الحجر:٨٦] .

وقال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾[الأنعام:١٠٢-١٠٣] .

وخلق سبحانه الأمم ، واختار منها هذه الأمة .

فهذه الأمة خير أمة أخرجت للناس في الإيمان ، في اليقين ، في الصدق ، في العبادة ، في الدعوة ، في التضحية ، في الجُهد لإعلاء كلمة الله ، في الأمر بالمعروف ، في النهي عن المنكر ، في الأخلاق ، في التقوى ، في الإحسان ، في امتثال الأوامر ، وفي اجتناب النواهي كما قالسبحانه : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ

وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾[آل عمران:١١٠]

وبسبب جُهدها العظيم أكرمها الله ﷻ بأن جعل عيوبها مستورة ، وذنوبها مغفورة ، وأجورها مضاعفة ، لما تقوم به من عمل الأنبياء .

أخرجها الله للناس؛ لتخرج بالناس من الظلمات إلى النور، فهي خير من اليهود والنصارى، الذين نقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، ووقعوا في زلات كثيرة: ﴿ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾[المائدة: ١٣] .

كما ذم الله اليهود، وأهل الكتاب في آيات كثيرة لما نقضوا العهد، وخالفوا أمر الله، وقتلوا الأنبياء وكذبوهم، واستبدلهم بهذه الأمة، وجعلها خير أمة أخرجت للناس .

٨- الخزانة الثامنة

صفة الاصطفاء :

الله ﷻ عليم خبير، خلق خلقه كما يشاء، بقدرات وصفات مختلفة، ثم اصطفى منهم الأنبياء والرسل والمؤمنين .

قال الله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [القصص:٦٨] .

والاصطفاء له جانبان :

الجانب الأول : الجانب الكسبي، فالله ﷻ علم من بين خلقه من هو أكثرهم معرفة، وأكثرهم استقامةً، وجهاداً، وتضحية ، وإيثاراً، وأحسنهم خلقًا، وأكثرهم قُربًا، فاصطفاهم، وجعلهم رسلاً وانبياء.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [آل عمران:٣٣] .

الجانب الثاني: الجانب الوهبي، كأن نختار واحداً من الناس مثلاً، ونكلفه بمهمة، ونعطيه مالاً، وصلاحيات كبيرة ، فهذا اصطفاء وهبي، كما اصطفى الله هذه الأمة على غيرها من الأمم، وإذا ألغينا الاصطفاء الكسبي أبطلنا معنى الاصطفاء ، وإذا ألغينا الاصطفاء الوهبي أبطلنا ميزات الاصطفاء ، ومن اصطفاه الله ﷻ لدينه، فعليه أن يعمل به، ويدعو إليه، ويشكر ربه على هذه النعمة .

قال الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾[الأعراف:١٤٤] .

وكل من دعا إلى الله فقد سمح الله له بأن يدعو إليه، كما قال سبحانه : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾[الأحزاب:٤٥-٤٦] .

فإن كانت دعوة هذا المسلم صادقة، وفقه الله وأعانه، وصرف قلوب الناس إليه، وهذا نوع من الاصطفاء.

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾ [الحج:٧٥-٧٦] .

وإن كانت دعوته كاذبة، وعلى هواه، صرف الله قلوب الناس عنه ، وأظهر سريرته على فلتات لسانه، وصفحات جبينه، كما قال سبحانه : ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾ [محمد:٣٠] .

فليحمد الله من اصطفاه ربه، وأجرى على يديه الخير ، وأنطق لسانه بالحق وصرف قلوب الخلق إليه، وحفظه من أعدائه.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [المائدة:٦٧] .

ومن اصطفاه الله لدينه قد علم الله منه الصدق والإخلاص، والحب والطاعة ، فليحمد الله على هذه النعمة .

قال الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾[النمل:٥٩] .

ومن اصطفاه الله، واختاره لدينه، فليحمد الله على هذه النعمة العظيمة.

قال الله تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾[الحجرات:١٧] .

ومن اصطفاه الله فهو في سلام مع نفسه ، وسلام مع ربه ، وسلام مع غيره ، وسلام في الدنيا ، وسلام في الآخرة .

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[الأنفال: ٢ - ٤].

وقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ ﴾[البقرة:٢٠٨] .

وقد اصطفى الله ﷻ هذه الأمة، فجعلها خير أمة أُخرجت للناس، كما قال سبحانه : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾[آل عمران:١١٠] .

فالله ﷻ اصطفى هذه الأمة، وأكرمهم بالكتاب العظيم : ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾[الأنبياء:١٠] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الحجر:٨٧].

وأكرمهم بأن بعث منهم الرسول الكريم : ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾[التوبة:١٢٨] .

وقال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾[الجمعة:٢] .

وكلفهم بوظيفة الأنبياء والرسل، وهي الدعوة والعبادة وتعليم شرع الله .

قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾[فاطر:٣٢-٣٥] .

فقه الاصطفاء :

الاصطفاء قسمان :

الأول : اصطفاء كسبي .

وهو ما يعلمه الرب من عبده أنه ستكون عنده صفات يستحق بها الاصطفاء من الأعمال والأخلاق .

والثاني : اصطفاء وهبي .

وهو إكرامٌ من الله ﷻ لمن اصطفاه بأن يستعمله في عمل يحبه ويرضاه، كما اصطفى الأنبياء والرسل، واصطفى هذه الأمة .

فإذا اصطفى الله محمداً ﷺ من البشر، فذلك لما يعلمه سبحانه من حُسن خلقه، وحُسن عمله، وقوة يقينه، وقوة صبره ، فهذا اصطفاء كسبي .

وإذا أكرمه الله بكرامات، وخصه بالوسيلة، والشفاعة، وغفران ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فهذا اصطفاء وهبي وهبه الله إياه، لحُسن عمله، وجميل خلقه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾[القلم:٤] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴿٧٩﴾ ﴾[الإسراء:٧٩] .

وجميع الأنبياء مصطفون فهم قمم الجبال، وقمم الكمال ، ونخبة البشرية ، وأعلام الهدى .

قال الله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾[الأنعام:٨٩ - ٩٠] .

وقال الله ﷻ عن الأنبياء: ﴿ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾[الأنبياء:٩٠] .

وقال الله ﷻ : ﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٥ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ٤٦ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ٤٧ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ٤٨ هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ٤٩ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ٥٠ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ٥١ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ ٥٢ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ٥٣ إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ٥٤ ﴾[ص: ٤٥-٥٤] .

وملوك البشر بعد الأنبياء والرسل، وخيار البشر، هم أصحاب النبي ﷺ الذين رباهم على الإيمان والتقوى ومن سار على نهجهم .

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٠٠ ﴾[التوبة:١٠٠] .

أولئك أصحاب محمد ﷺ، أبر هذه الأمة قلوبًا ، وأعمقهم علمًا ، وأقلها تكلفًا ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه، وإقامة دينه ، فأعرفوا لهم فضلهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم .

قال الله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ ﴾[البقرة:٢٨٥].

ومن اصطفاه الله ﷻ فلا بد أن يمر بمراحل ثلاث :

مرحلة التربية .

ثم مرحلة الابتلاء .

ثم مرحلة الإكرام .

وهذه سُنة الله في خلقه يؤدب ويربي، ثم يبتلي، ثم يكرم.

قال الله تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الرحمن:٤٦] .

جنة في الدنيا، وهي جنة المعرفة بالله، وعبادة الرب ﷻ ، وجنة في الآخرة وهي دخول جنة الآخرة، ورؤية الرب ﷻ .

وبحسب صدق الإنسان وإخلاصه وطاعته يصطفيه الله لدينه.

قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [السجدة:٢٤] .

وبحسب قوة الإيمان تكون قوة الابتلاء ، فأشد الناس بلاءاً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرجل على حسب دينه .

قال الله تعالى: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [العنكبوت:٢-٣] .

وبحسب قوة الصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين .

قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [السجدة:٢٤] .

ومن سُبل الاصطفاء الترفع عن متاع الدنيا، والاشتغال بالمقصد العظيم وهو الدعوة إلى الله ، كما قال سبحانه : ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ

ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [يس:٢٠-٣٠] .

ومن سُبل الاصطفاء طلب العلم خالصًا لله، فالله يصطفيه ويجعله مُعلماً لشرعه، وداعياً إليه .

قال الله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران:١٨] .

وقال الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [آل عمران:٧٩] .

وقال الله تعالى: ﴿ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١١﴾ ﴾ [المجادلة:١١] .

٩- الخزانة التاسعة

فقه الاصطفاء والاختيار :

الله ﷻ هو الملك الحق الذي له الأسماء الحسنى، والصفات العلى، والأفعال الحميدة والمثل الأعلى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾[طه: ٨] .

له الخلق كله، وله الملك كله، وبيده الأمر كله .

هو الملك الحق الذي شهدت له بالربوبية جميع مخلوقاته، وأقرت له بالإلهية جميع مصنوعاته ، لا شريك له في ربوبيته، وألوهيته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله.

قال الله تعالى: ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ﴿٣﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴿٤﴾ ﴾[الإخلاص:١-٤] .

ولا شبيه له سبحانه في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله .

قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾[طه:٨] .

وقال الله تعالى: ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى:١١] .

هو الإله والرب ، هو الواحد الأحد ، مالك الملك قاهر كل شيء بقدرته ، ومنعم على كل أحد بأنواع رحمته.

قال الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾[يونس:٣] .

لا فوز للعباد إلا بطاعته ، ولا نجاة لهم إلا بالإيمان به ، ولا عزة لهم إلا بالتذلل لعظمته، ولا غنى لهم إلا بالافتقار إلى رحمته.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ [فاطر: ١٥] .

ولا هدى لهم إلا بالاستهداء بنوره ، ولا سعادة لهم إلا بحسن عبادته ، ولا فلاح لهم إلا بإخلاص العمل له .

قال الله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف: ١١٠] .

وهو الملك الغني، العزيز الكريم، يُطاع فيشكر ، ويُعصى فيغفر ، ويُدعى فيجيب ، ويُستهدى فيهدي ، ويُسأل فيعطي : ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[فاطر:٣٤] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾[البقرة:١٨٦] .

والله جل جلاله هو وحده المتفرد بالخلق، والاصطفاء، والاختيار كيف يشاء .

قال الله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾[القصص:٦٨] .

لا شريك له يخلق كخلقه ، ولا شريك له يختار كاختياره ، ويدبر كتدبيره ، هذا الخلق والاختيار والتدبير من أعظم آيات ربوبيته، وأكبر شواهد وحدانيته، وأعظم الأدلة على كمال أسمائه وصفاته وأفعاله.

قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٖ فَٱعْبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ وَكِيلٞ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام:١٠٢-١٠٣].

هو العليم القدير، خلق لنا سبحانه السماوات سبعاً، فأظهر لنا منهن واحدة، وهي سماء الدنيا، وأخفى ستاً ، واختار من السماوات السبع العليا، وفضلها على سائر السماوات، واختصها بالقرب من كرسيه الكريم، وعرشه العظيم وأسكنها من شاء من خلقه من الملائكة، وجعلها مستقر المقربين من ملائكته ، وجعل فيها بيته المعمور الذي تطوف به ملائكته .

وخلق سبحانه أنواع الجنات، واختار منها جنة عدن التي غرسها بيده ، وجنة الفردوس، التي سقفها عرش الرحمن، واختارها مسكناً لخيرته من خلقه .

وخلق سبحانه الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، واختار منهم جبريل وميكائيل وإسرافيل، وخصهم من بين الملائكة بصفات وأعمال عظيمة .

فجبريل ﷺ موكل بالوحي الذي به حياة القلوب والأرواح ، وميكائيل موكل بالقطر الذي به حياة الأرض والحيوان ، وإسرافيل موكل بالنفخ في الصور الذي إذا نفخ فيه أحيا الله به الأموات.

قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨] .

واختار سبحانه الأنبياء والرسل من بين البشر ، واختار الرسل من الأنبياء الذين عددهم مئة وأربعة وعشرون ألف نبي، والرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رسولًا .

واختار من الرسل أولي العزم ، واختار من أولي العزم الخليلين إبراهيم ومحمد عليهم الصلاة والسلام ، واختار من بين الخليلين سيد الأنبياء والرسل محمداً ﷺ .

واختار سبحانه هذه الأمة من بين الأمم، وفضلهم على سائر الأمم في توحيدهم، وإيمانهم، وفي أعمالهم، وأخلاقهم، وفي عظيم ثوابهم، وحُسن جزائهم ، إن أصابهم ما يحبون حمدوا وشكروا ، وإن أصابهم ما يكرهون صبروا واحتسبوا :﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾[آل عمران:١١٠] .

واختار سبحانه من الأراضين السبع هذه الأرض واختار منها مكة، وجعل فيها أول بيت وضع للناس في الأرض، وجعله حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾[آل عمران:٩٦-٩٧] .

وقال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾[القصص:٥٧] .

وجعل بيته الحرام قبلة للناس إلى يوم القيامة: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا

كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ [البقرة:١٤٤] .

وخلق سبحانه الأزمنة والأوقات، واختار منها من الأيام يوم عرفة ، ويوم النحر ، ويوم عاشوراء ، ويوم الجمعة ، واختار من الشهور شهر رمضان، والأشهر الحرم .

واختار من الليالي والأيام الليالي العشر الأواخر من رمضان، وأيام عشر ذي الحجة، وأيام عشر ذي الحجة فيها يوم عرفة، ويوم النحر ، والليالي العشر الأواخر من رمضان فيها ليلة القدر .

فيوم الجمعة أفضل أيام الأسبوع ، ويوم عرفة ويوم النحر أفضل أيام العام ، وليلة الجمعة أفضل ليالي الأسبوع ، وليلة القدر أفضل ليالي العام .

فالله سبحانه طيب وأسماؤه أطيب الأسماء ولا يقبل من الأقوال ولا الأعمال إلا ما كان طيباً ، وثوابه أطيب الثواب، ومن طاب عمله طاب ثوابه، ومن خبث عمله فجزاءه جهنم دار الخبيثين .

ولما كان الشرك خبيث الذات، خبيث الصفات لم تطهر النار خبثه ، والمؤمن الطيب طيب الذات، طيب الصفات، فكانت النار حراماً علي: أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ [السجدة:١٨-٢٠] .

وقال الله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾[التوبة:١٠٩] .

وقال الله تعالى: ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنْ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾[آل عمران: ١٦٢-١٦٣] .

فقه علو الهمة :

خلق الله الإنسان في أحسن تقويم، وأمره بعبادته، وتكفل برزقه، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨] .

وخلق الله الناس مختلفين في خَلقِهم وخُلُقِهم ، مختلفين في طاقاتهم البدنية والفكرية ، مختلفين في قدراتهم العلمية والعملية : ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾الإنسان: [الإنسان:٢-٣] .

وقال الله ﷻ : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾[النحل:٧٨] .

فمن استعمل هذه الطاقات العظيمة في معالي الأمور كان عظيماً، والأنبياء والرسل أعظم من استعمل هذه الطاقات، ثم أتباعهم من المؤمنين ، فهم في علو هممهم كالشمس في الإنارة ، وكالغيث في المنافع ، وكالأرض في

الإنبات ، وكالجبال في علو الهمة والثبات: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾[الأنعام: ٩٠] .

وقال الله ﷻ عن الأنبياء: ﴿ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾[الأنبياء:٩٠] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾[الزمر:١٧-١٨].

ومن الناس من لم يستخدم هذه الطاقات، فهو أشد الناس حسرة وخسارة في الدنيا والآخرة .

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾[الأعراف:١٧٩-١٨٠] .

ومنهم من يستخدم هذه الطاقات في الشر والإفساد وهم المجرمون الطغاة، المفسدون في الأرض كما قال سبحانه عن فرعون:﴿ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾[القصص:٤] .

والناس اثنان :

عالي الهمة .. وسافل الهمة .

فعالي الهمة: هو المؤمن الذي عرف ربه، وآمن به، واتقاه، وامتثل أوامره، واجتنب نواهيه، في حياته ، فأعلى همة هي همّ الاستقامة على أوامر الله، وهمّ هداية البشرية إلى الله ﷻ، وإلى دين الله : ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ ﴾ [هود:١١٢] .

وقال الله ﷻ : ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الفرقان:٥٢] .

وقال الله ﷻ : ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ ﴾ [التوبة:٨٨-٨٩] .

أما سافل الهمة: فهو الذي يهتم بنفسه فقط، فيستعمل ما أعطاه الله في شهوات نفسه وإفساد غيره : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان:٤٤] .

وقال الله ﷻ : ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ ﴾ [آل عمران:١٩٦-١٩٧] .

والنبي ﷺ بذل ما يستطيع من جهد، فهدى الله بسببه خلقاً كثيراً إلى الإسلام ، منهم الآن أكثر من مليار ونصف من المسلمين ، وكم هدى الله على يد الدعاة من الناس ، وكم علّم العلماء من أحكام الله : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [النساء: ٧٠] .

وقال الله ﷻ: ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ

عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾ [آل عمران: ٧٣- ٧٤] .

وقال الله ﷻ : ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾ [البقرة:٢٦٩] .

ومن الناس من همته كبيرة في الشر كما يفعل الطغاة بالبشر، في استعباد الناس وإذلالهم .

فعالي الهمة يعدد دائماً نعم الله عليه، ويؤدي الحقوق الواجبة عليه، وينظر في أوائل الناس، وخيار الناس، فينافسهم في الخيرات ويسابقهم فيما يرضي الله : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [المؤمنون: ٦١] .

هممهم دائماً إصلاح أنفسهم، وإصلاح غيرهم، فبذلوا ما يملكون من أموالهم وطاقاتهم في كل سبيل يرضي الله ورسوله: ﴿ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المطففين:٢٦] .

وقال الله ﷻ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحجرات:١٥] .

والله سبحانه أكرم بني آدم بكل فضيلة ونعمة: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٠]

وهداهم سبحانه إلى سبل رضاه، ونوع لهم الطاعات والعبادات، ودعاهم إلى المسارعة والمنافسة في الخيرات ، فليستجيبوا لربهم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾[الأنفال:٢٤] .

وقال الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [البقرة: ٢١ - ٢٢] .

وقال الله ﷻ: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٤].

فالإنسان النبيل ذو الهمة العالية، هو الذي يعيش لربه ولدينه ولأمته : ﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾[الأنعام:١٦٢-١٦٣] .

وقال الله ﷻ : ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾[آل عمران: ١٠٤] .

وقال الله ﷻ: ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴿٣﴾ ﴾[العصر:١-٣].

أما الإنسان التافه: فهو الذي يعيش لنفسه كالبهائم، بل هو أضل من البهائم، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا

ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ ﴾ [محمد:١٢] .

وقال الله تعالى: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان:٤٤] .

وقال الله ﷻ : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [التوبة:٥٥] .

وعلو الهمة من الإيمان، علو الهمة في البذل والعطاء، علو الهمة في البذل والترك، والتضحية، من أجل إسعاد البشرية في الدنيا والآخرة: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٤] .

وقال الله ﷻ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنعام:٨٢].

وقال الله ﷻ : ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [إبراهيم:٥٢] .

وقال الله ﷻ : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [التين:٤-٨] .

١٠ – الخزانة العاشرة

ميادين علو الهمة :

عالي الهمة هو الذي حمل نفسه على معرفة ربه بأسمائه وصفاته وأفعاله، ومعرفة عظمة ملكه وسلطانه، ومعرفة دينه وشرعه، ومعرفة ثوابه وعقابه، وعمل بموجب ذلك.

قال الله تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾[محمد: ١٩] .

عالي الهمة هو الذي استقام على أوامر ربه، لأنه عبده، يمتثل أمره، ويجتنب نهيه .

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[الأنفال: ٢ – ٤].

عالي الهمة هو الذي بين يدي ربه عابداً، وداعياً، ومُعلماً ومصلحاً، ومُنفقاً في سبيل الله.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ ﴾[الحج:٧٧-٧٨] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾[العنكبوت: ٦٩] .

عالي الهمة إن كان داعياً كم في صحيفته ممن يعبد الله إلى يوم القيامة : ﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [فصلت:٣٣].

وقال الله ﷻ : ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾[آل عمران: ١٠٤] .

وقال النبي ﷺ : « مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنْ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا » . أخرجه مسلم(١) .

عالي الهمة إن كان مُعلماً لشرع الله، كم أحيا الله من السنن بسببه في العالم؟، وكم ترك من بعده من الثروة العلمية التي يستنير بها الناس من بعده إلى يوم القيامة ؟ .

قال الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾[آل عمران:٧٩] .

وقال الله تعالى: ﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ [الزمر:٩].

(١) أخرجه مسلم برقم: (١٦/ ٢٦٧٤).

فالناس اثنان :

مبصر .. وأعمى .

فالمبصر: هو العالم الذي آمن بالله، واستقام على شرعه، واقتدى برسوله في عبادته، ودعوته، وأخلاقه: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الرعد: ١٩] .

عالي الهمة إن كان غنياً فأنفق في سبيل الله ابتغاء مرضاة الله، كم في صحيفته من الأجور المستمرة، بسبب إنفاقه على الفقراء، والمساكين، والمحتاجين، والمرضى، وبسبب ما بناه من المساجد، ودور العلم، وإيواء الفقراء واليتامى.

قال الله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ [البقرة:٢٦١] .

وقال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ﴾ البقرة: [البقرة:٢٧٤] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٤].

عالي الهمة إن كان حاكماً يحكم بما أنزل الله في أمته، كم له من أجور العدل والأمن وقضاء حوائج الناس ؟ .

قال الله تعالى: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾[ص:٢٦] .

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل:٩٠].

وقال الله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾[الفتح:٢٩] .

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحجرات: ١٥] .

والهمة فعلة من الهمّ، والهمّ أنواع، وأعلى الهمّ ما كان في إرضاء الله ﷻ، وما يصلح أمور دين العبد ودنياه، وكلما عظم الهدف، عظمت الهمة .

فمن علم أن وظيفته نشر الهداية في العالم، وجه جميع طاقاته لتحقيق ذلك.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾[القصص:٧٧] .

وقال الله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾[آل عمران:١١٠] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾[آل عمران: ١٠٤] .

كل همةٍ تعلقت بالدين سواء كانت عبادة لله، أو دعوة إليه، أو تعليماً لشرعه، أو إحسان إلى خلقه ، فهي نعمةٌ عليّة، وكل نعمة تعلقت بالدنيا فقط، فهي همةٌ دنية .

قال الله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾[آل عمران:١٤-١٧] .

وكل ما أعانك من الدنيا على الدين، فهو من الدين.

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾[الأعراف: ٣٢] .

فنأخذ من الدنيا بقدر الحاجة، ونعطي للدين بقدر الطاقة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [البقرة:١٢٨] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَاۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾[القصص:٧٧] .

وصاحب الهمة العالية له في كل وادٍ راية .

في العبادات في الصف الأول ، في الدعوة إلى الله في الصف الأول ، في حُسن الخلق في الصف الأول ، في تعليم شرع الله في الصف الأول ، في الإنفاق في سبيل الله في الصف الأول ، في الإحسان إلى الخلق في الصف الأول، يأكل ويشرب، ويسكن ويلبس، في حدود السُنة، بدون إسراف ولا مخيلة.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[الأنفال: ٢ – ٤].

وقال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾[الأنعام:١٦٢-١٦٣] .

بالهمة العالية يبذل المسلم كل ما يملك من أجل إرضاء الله، ويصوم قلبه عن كل ما يسخط الله، وعن الرغبة في الدنيا الفانية.

وقال الله تعالى: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾[القصص: ٨٣] .

صاحب الهمة العالية ينظر إلى الدنيا ببصره ، وينظر إلى الآخرة ببصيرته ، ويقدم العليا وهي الآخرة، على الدنيا وهي التي نحن فيها .

وصاحب الهمة الدنية ينظر إلى الدنيا ببصره وبصيرته، فيصرف أوقاته في شهواته، ولا يرى ما سوى ذلك.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾[الأعراف:١٧٩] .

وكلما زاد علم العبد زاد إيمانه: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾[محمد: ١٩] .

وكلما زاد إيمانه علت همته في طلب ما يحبه الله ويرضاه ، من العبادة، والدعوة إلى الله، وتعليم شرع الله، والإحسان إلى خلق الله.

قال الله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ ﴾ [الزمر:٩].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾[فاطر: ٢٨] .

وقال الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾[آل عمران:١٣٣-١٣٤].

والبيئة الإيمانية، والجو الذاكر، من أعظم رواتب الهمم العالية ، فهي تجمعك بالدعاة إلى الله ، والعلماء الربانين ، والعباد الصالحين ، والذاكرين الله كثيرًا والذاكرات.

قال الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾[الكهف: ٢٨] .

وقال الله تعالى :﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾[السجدة:١٥-١٧] .

وقد خلق الله المَلك مركبًا من عقل بلا شهوة، وهو في الطاعة أبدًا ، وخلق الحيوان بشهوة بلا عقل، فهو في الشهوات أبدًا، وخلق الإنسان مركبًا من عقلٍ وشهوة، وخلق النبات بلا عقل ولا شهوة.

قال الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾[القصص:٦٨] .

وفي الدنيا أنبياء، وأقوياء، وعادلون، وظالمون، وأبرار، وفجار، وأنبياء، وطغاة ، فالأنبياء خيار الناس ، أعطوا ولم يأخذوا ، أعطوا أموالهم وأوقاتهم، وأنفسهم في سبيل إعلاء كلمة الله ونشر دينه، ولم يأخذوا.

والأقوياء أخذوا ، ولم يعطوا، وغصبوا الناس أموالهم، واغتصبوا ديارهم، والأنبياء ملكوا القلوب ، والأقوياء ملكوا الرقاب .

والأنبياء عاشوا لإسعاد الناس ، والطغاة عاش الناس لهم ، والأنبياء يُمدحون في غيبتهم، والأقوياء يُذمون في غيبتهم، ويُمدحون في حضرتهم .

قال الله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ ﴾ [السجدة:١٨] .

وقال الله تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦] .

وقال الله تعالى :﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٢-١٦٣] .

وقال الله تعالى :﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ ﴾ [التوبة:٨٨-٨٩] .

إنسان بلا إيمان ، إنسان بلا تقوى ، إنسان بلا رسالة ، إنسان بلا هدف ، بلا هم ينفعه في دينه ودنياه وأخراه ، هذا الإنسان تافهٌ حقير ، ليس له همٌ إلا

بطنه وفرجه : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان:٤٤] .

وقد مسخ الله من انتكست فطرته إلى قردةٍ وخنازير ، فالقرد همه بطنه ، والخنزير همه فرجه ، فالذي يحمل هم هداية البشرية ودعوتهم إلى ما يسعدهم في الدنيا والآخرة أسعد الناس .

والغارق في النعيم وملذات الدنيا، بعيدًا عن ربه وعن دينه، أشقى الناس.

قال الله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾ [مريم:٥٩] .

وقال الله تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [طه:١٢٣-١٢٦] .

والعطاء في الدنيا مؤقت ، ومن عرف الدنيا لم يفرح لرخاء ، ولم يحزن لشقاء ، لأن الكل مؤقت، والفرح المحمود بالدين ، والاستقامة على أوامر الله : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يونس:٥٨] .

فاحذر أن يأسرك الشيطان، ثم يجعلك من جنوده، فأنت لله، إنا لله وإنا إليه راجعون .

الجماد للنبات ، والنبات للحيوان ، والحيوان للإنسان ، والإنسان لله .

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [مريم:٤٠] .

وقال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾[الأنعام:١٦٢-١٦٣] .

والدنيا كلها صغيرة أمام طاعة الله عند أصحاب الهمم العالية : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾[فصلت:٣٠-٣٢] .

وقال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾[الحج:٧٧] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾[آل عمران:١٣٣-١٣٤].

فاللهم فقهنا في الدين، واجعلنا هداة مهتدين، يا رب العالمين .

فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة

الجزء الثالث ٥

١٢- خزائن التفكر والتدبر: ٧

القسم الأول: ويشتمل على: ٧

١. الخزانة الأولى..... ٨

٢. الخزانة الثانية..... ١٦

٣. الخزانة الثالثة..... ٢٤

٤. الخزانة الرابعة..... ٢٨

٥. الخزانة الخامسة..... ٣٦

٦. الخزانة السادسة..... ٤٣

٧. الخزانة السابعة..... ٥١

٧. الخزانة الثامنة ٦١

٧. الخزانة التاسعة..... ٧٤

١٠. الخزانة العاشرة ٨٤

القسم الثاني: ويشتمل على: ٩١

١ .الخزانة الأولى..... ٩٢

٢ .الخزانة الثانية..... ٩٨

٣.الخزانة الثالثة..... ١٠٤

٤ .الخزانة الرابعة..... ١١١

٥ .الخزانة الخامسة..... ١٢١

٦ .الخزانة السادسة..... ١٢٩

٧.الخزانة السابعة..... ١٣٥

٧.الخزانة الثامنة ١٤٤

٧.الخزانة التاسعة..... ١٥٣

١٠ . الخزانة العاشرة ١٦٦

١٣ – خزائن التقوى: وتشتمل على:..... ١٧٥

١ .الخزانة الأولى..... ١٧٦

٢ .الخزانة الثانية..... ١٨٥

٣.الخزانة الثالثة..... ١٩٧

٤ .الخزانة الرابعة..... ٢٠٧

٥.الخزانة الخامسة..... ٢١٧
١٤- خزائن النعم: وتشتمل على:..... ٢٢٩
القسم الأول: ويشتمل على: ٢٢٩
١.الخزانة الأولى..... ٢٣٠
٢.الخزانة الثانية..... ٢٤٢
٣.الخزانة الثالثة..... ٢٥١
٤.الخزانة الرابعة..... ٢٦٢
٥.الخزانة الخامسة..... ٢٧٣
٦.الخزانة السادسة..... ٢٨٢
٧.الخزانة السابعة..... ٢٩١
٧.الخزانة الثامنة ٣٠٢
٧.الخزانة التاسعة..... ٣١٣
١٠. الخزانة العاشرة ٣٢٤
القسم الثاني: ويشتمل على: ٣٣٥
١.الخزانة الأولى..... ٣٣٦
٢.الخزانة الثانية..... ٣٤٢

٣.الخزانة الثالثة..... ٣٤٩
٤.الخزانة الرابعة..... ٣٥٥
٥.الخزانة الخامسة..... ٣٦٢
٦.الخزانة السادسة..... ٣٦٨
٧.الخزانة السابعة..... ٣٧٤
٧.الخزانة الثامنة ٣٨١
٧.الخزانة التاسعة..... ٣٨٩
١٠. الخزانة العاشرة ٤٠٠
١٥- خزائن الحمد والشكر: وتشتمل على:..... ٤١١
١.الخزانة الأولى..... ٤١٢
٢.الخزانة الثانية..... ٤٢٢
٣.الخزانة الثالثة..... ٤٢٩
٤.الخزانة الرابعة..... ٤٤٠
٥.الخزانة الخامسة..... ٤٤٦
٦.الخزانة السادسة..... ٤٥٧
٧.الخزانة السابعة..... ٤٦٥

٧.الخزانة الثامنة ٤٧٧
٧.الخزانة التاسعة..... ٤٨٤
١٠. الخزانة العاشرة ٤٩٥
١٦- خزائن الابتلاء: ٥٠٥
القسم الأول: ويشتمل على: ٥٠٥
١.الخزانة الأولى..... ٥٠٦
٢.الخزانة الثانية..... ٥١٣
٣.الخزانة الثالثة..... ٥١٨
٤.الخزانة الرابعة..... ٥٢٦
٥.الخزانة الخامسة..... ٥٣٦
٦.الخزانة السادسة..... ٥٤٣
٧.الخزانة السابعة..... ٥٥٠
٧.الخزانة الثامنة ٥٥٦
٧.الخزانة التاسعة..... ٥٦٦
١٠. الخزانة العاشرة ٥٧٤
القسم الثاني: ويشتمل على: ٥٨٣

١.الخزانة الأولى..... ٥٨٤
٢.الخزانة الثانية..... ٥٩٢
٣.الخزانة الثالثة..... ٥٩٧
٤.الخزانة الرابعة..... ٦٠٥
٥.الخزانة الخامسة..... ٦١٢
٦.الخزانة السادسة..... ٦١٩
٧.الخزانة السابعة..... ٦٢٧
٧.الخزانة الثامنة ٦٣٥
٧.الخزانة التاسعة..... ٦٤٤
١٠. الخزانة العاشرة ٦٥٧
١٧- خزائن الصبر: وتشتمل على:..... ٥٦٩
١.الخزانة الأولى..... ٦٧٠
٢.الخزانة الثانية..... ٦٧٧
٣.الخزانة الثالثة..... ٦٨٢
٤.الخزانة الرابعة..... ٦٩١
٥.الخزانة الخامسة..... ٦٩٩

٦.الخزانة السادسة..... ٧٠٧
١٨- خزائن الفضائل: وتشتمل على:..... ٧١٧
القسم الأول: ويشتمل على: ٧١٨
١.الخزانة الأولى..... ٧١٩
٢.الخزانة الثانية..... ٧٢٦
٣.الخزانة الثالثة..... ٧٣٧
٤.الخزانة الرابعة..... ٧٤٦
٥.الخزانة الخامسة..... ٧٥٤
٦.الخزانة السادسة..... ٧٦٦
٧.الخزانة السابعة..... ٧٧٩
٧.الخزانة الثامنة ٧٩٠
٧.الخزانة التاسعة..... ٧٩٨
١٠. الخزانة العاشرة ٨٠٥
القسم الثاني: ويشتمل على: ٨١٣
١.الخزانة الأولى..... ٨١٤
٢.الخزانة الثانية..... ٨٢١

٣.الخزانة الثالثة..... ٨٢٧
٤.الخزانة الرابعة..... ٨٣٣
٥.الخزانة الخامسة..... ٨٤٤
٦.الخزانة السادسة..... ٨٥٢
٧.الخزانة السابعة..... ٨٦٣
٧.الخزانة الثامنة ٨٧١
٧.الخزانة التاسعة..... ٨٧٩
١٠. الخزانة العاشرة ٨٩٠
فهرس الموضوعات ٩٠١